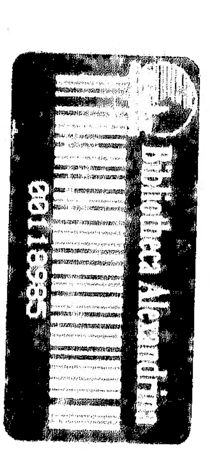
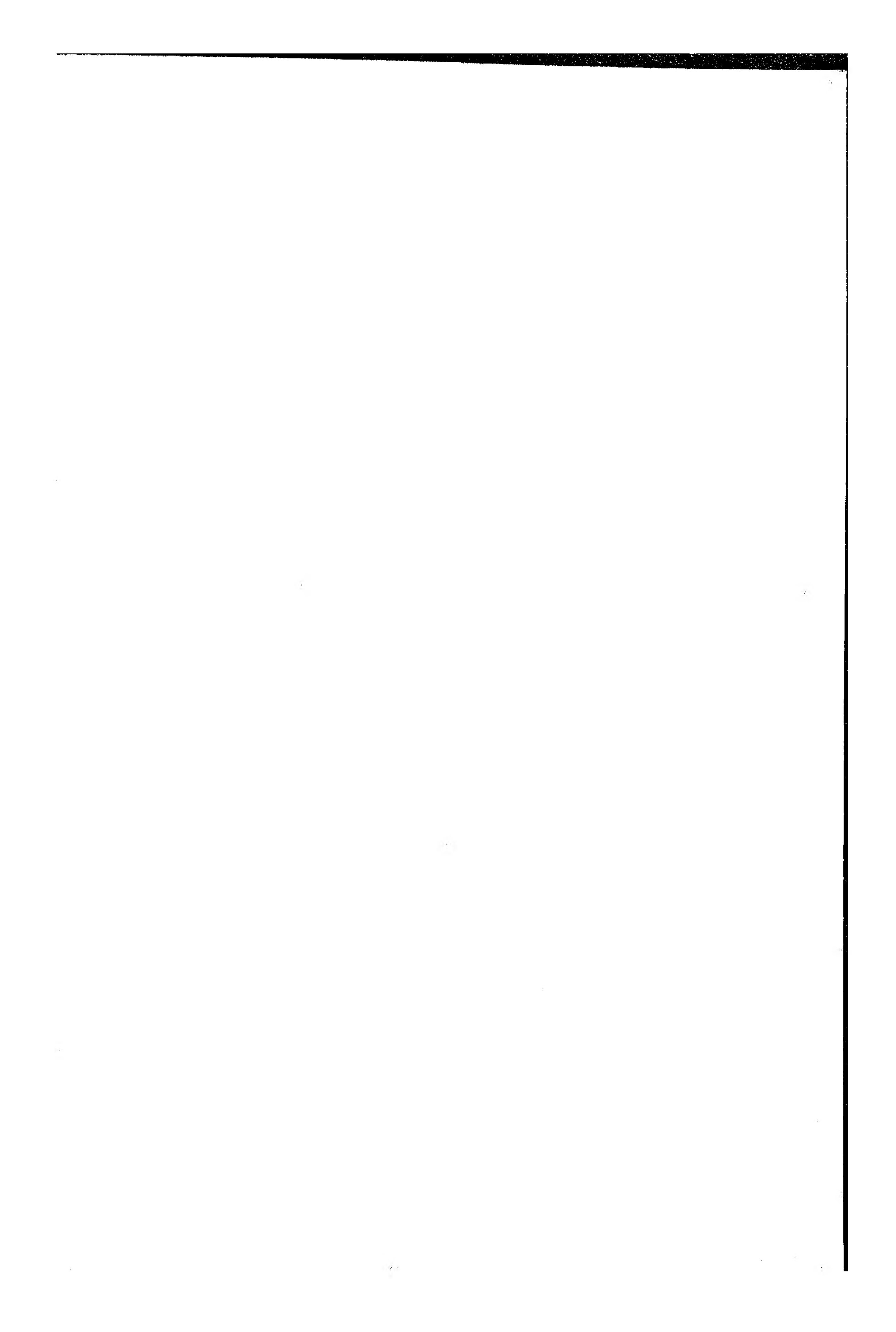




الدكتور جاك تاجر
دكتور فى الآداب من جامعة باريس

أقباط ومسلمون

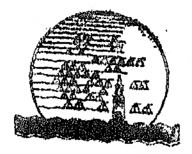
منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م

القاهرة
كراسات التاريخ المصري
١٩٥١



الدكتور جاك تاجر

دكتور فى الآداب من جامعة باريس



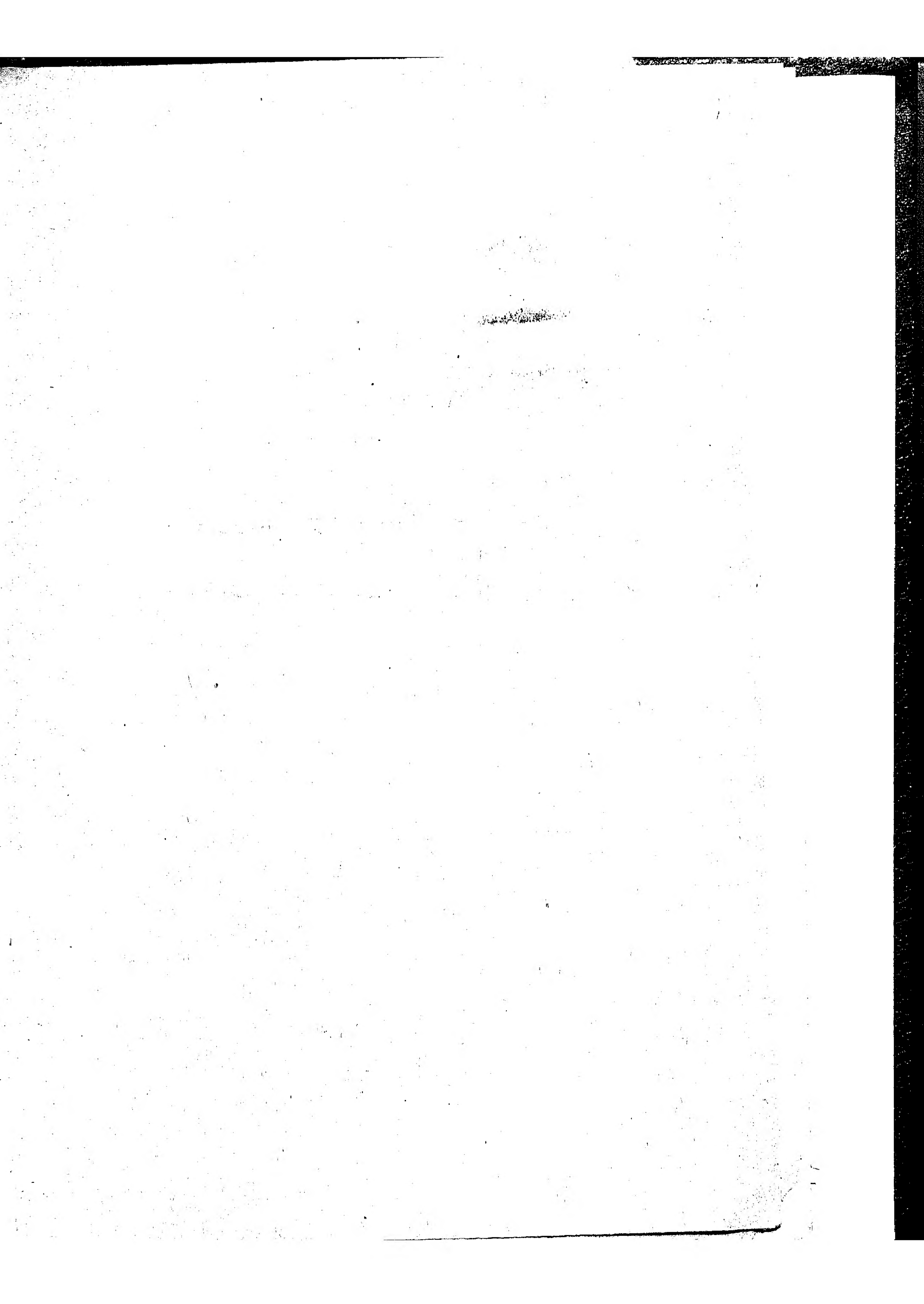
أقباط ومسلمون

منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢ م

القاهرة

كراسات التاريخ المصري

١٩٥١



فهرست

صفحة

صفحة

لست مسلماً ولا قبطياً . وقد تعرضت لموضوع العلاقات بين الأقباط والمسلمين بدافع المؤرخ الذى يسرد الحوادث على حقيقتها لا بشعور القاضى الذى يحكم بين طرفين . ومن البديهى أن يثير هذا البحث بعض التعليقات غير أنى أرحب بكل من يحيطنى بوجهة نظره أو يتحفنى برأيه .

المؤلف

المقدمة

عاشت المسيحية فى مصر فى جو ساده الاضطراب والقلق ، ولا غرابة حينئذ إذا رأينا الكتاب والمؤرخين قد عكفوا مبكرين على سرد تاريخها .

ولم نعتمد فى دراستنا على المؤلفات التى وضعت حديثاً لتناولها بوجه عام الناحيتين الروحية والدينية من تاريخ الكنيسة المصرية وإهمالها الناحيتين السياسية والاجتماعية من ذلك التاريخ . فهى إذن قد اقتصرت على معلومات عابرة عن العلاقات بين الأقباط والمسلمين .

وإذا استثنينا كتاب الأب « رينودو » Renaudot ، لاحظنا أن بقية المؤلفات قد أغفلت ذكر المصادر التى استقت منها الأخبار والحوادث فأصبحت قاصرة عن توجيهنا فى أبحاثنا ، فضلا عن أن كثيراً من النظريات والحجج التى أريد التدليل بها أصبحت باطلة بعد أن اكتشفت حديثاً أوراق البردى [1].

والواقع أن المسألة القبطية لم تدرس دراسة وافية إلا فى « دائرة المعارف الإسلامية »[2] رغم اكتفاء المسيو « جاستون فييت » بطرحها على بساط البحث

---

(١) نذكر بين المؤلفات الحديثة ذات الطابع العام : « تاريخ البطاركة » للأب رينودو (باللغة اللاتينية) ، و « تاريخ كنيسة الإسكندرية » للأب فانسليب (Vansleb) (باللغة اللاتينية) ، و « تاريخ كنيسة الإسكندرية » للأب جورج ماكير (Macaire) (باللغة الفرنسية) ، و « تاريخ بطريركية الإسكندرية » للمؤلف نيل (Neale) (باللغة الإنجليزية) ، و « مصر المسيحية » للأب « فاولر » (Fowler) (باللغة الإنجليزية) ، و « تاريخ كنيسة مصر » لباتشر (Butcher) (باللغة الإنجليزية) ، و « تاريخ بطاركة الإسكندرية » لجان ماسبيرو (Maspero) (باللغة الفرنسية) .

(٢) طبعة ليدن باللغة الفرنسية .

فى أسلوب مقتضب ، وعدم تناوله العصر الحديث ابتداء من الحملة الفرنسية ، لضيق المقام الذى أفرد له ، إلا أنه دعّم بحثه القيم بقائمة غنية بالمصادر القديمة والحديثة اتخذناها أساساً لبحثنا .

أما الكتب العربية ، ونذكر منها على سبيل المثال « تاريخ الأمة القبطية » ليوسف منقريوس ، وغيرها من الدراسات الثانوية المتشابهة لها ، فقد كتبت بأسلوب أقرب إلى الجدل منه إلى الروح العلمية .

وخلاصة القول ، إن شعب مصر لم يعرف تاريخ العلاقات بين المسلمين والأقباط إلا عن طريق الأقاصيص والحوادث التى شوهتها الأحقاد القديمة ، ونقلها أو بالغ فيها أناس لم يعتمدوا على النطق السليم فى تفكيرهم . وسنحاول اليوم بقدر الاستطاعة أن نبين بوضوح الحقيقة ، مهما كانت مريرة ، وفى الوقت نفسه نكشف عن الأسباب الأصلية لأهم الحوادث .

فهذه الدراسة لا تهدف كما يتصور بعض الناس ، إلى إذكاء نار عداوات قديمة ، لما حوته من خصومات أو أحداث أليمة ، ذلك لأن الأهواء الدينية فى الشرق لم تفقد من حدتها بين المسلمين والأقباط فى الطبقتين الوسطى والسفلى ، وإن كانت فاترة فى الظاهر . فإن القلق المكبوت ما زال جاثماً رغم التصريحات الرسمية وحسن استعداد رؤساء الأمة وقاداتها فى التعاون الصادق لإزالة ما فى النفوس من ضغائن ليتحد العنصرين ، إذ أن الاتحاد أول الأسس المتينة لاستقلال البلاد .

وفى هذا الوقت الذى تفكر فيه الجامعة العربية فى توسيع رقعة نشاطها وضم جميع الشعوب الإسلامية تحت رايتها على اختلاف أجناسهم ، وفى هذا الوقت الذى يحبذ فيه نخبة من المسلمين بعث الإمبراطورية العربية القديمة من مرقدها ، فإننا لا نشك إطلاقاً فى ترحيب عدد كبير من أقطاب السياسة بكل ما يساعدهم على فهم الأوضاع الصحيحة وتوجيه تفكيرهم فى سبيل المحافظة على الوئام بين الأغلبية المسلمة والأقلية المسيحية . وإذا تعذر علينا اقتراح حلول لهذه المسألة ، فلنحاول على الأقل دراسة بعض وجوهها .

ج . ت .

١

حالة المسيحية فى مصر قبيل الفتح الإسلامى

ظهرت المسيحية فى مصر قبل الفتح الإسلامى بستمائة عام . ولا نريد إعادة تأريخ ظهورها فى شتى مراحلها ، فمثل هذه الدراسة خارجة عن حيز موضوعنا . كما أننا لن نناقش النتائج التى خرج بها بعض المستشرقين أمثال « لوفيفر » Lefebvre و « شميدت » Schmidt و « شولتز » Schultze [١] وقد اتفقوا على أن المسيحية ظلت غريبة على أهل مصر الأصليين كما ادعوا أن نجاح العرب يرجع بصفة عامة إلى أن الإسلام اجتذب أقباط مصر الذين تعبوا من تزمت كنائسهم وتضييقها عليهم [٢] . ويكفينا القول بأن المسيحية المصرية قبيل الفتح الإسلامى إنما كانت ، بالنسبة للشعب المصرى ، أداة للتحرر السياسى والتخلص من نير الحكم البيزنطى .

ظل الشعب القبطى ، بعد انتشار المسيحية على يد الرومان والبيزنطيين ، يعبد بحرارة آلهته الفرعونية ويكرم آثار ماضيه التليد . وكان يرفض أن يقدم أى قربان للآلهة اليونانية والرومانية ، كما أنه لم يقبل المسيحية إلا بتحفظ شديد لأنها جاءته من الخارج . وكان الشعب يريد بذلك إقناع نفسه أنه لم يخضع لاحتلال الغزاة ما دام يقاوم شعائرهم وعقائدهم .

ترك مسيحيو مصر ديانة أجدادهم مكرهين لأن ديانة الفراعنة ومعابد

---

(١) G. Lefebvre, *Recueil des inscriptions grecques-chrétiennes d'Égypte,* p. XXIV; C. Schmidt, *Zeitschrift,* t XXXII, p. 52; Schultze, *Geschichte des Ucrgangs des Griechench-Romanischen Heidentums,* p. 234.

(٢) انظر أيضاً كتاب الشيخ محمد عبده : « رسالة التوحيد » .

الفراعنة وآلهة الفراعنة كانت تذكرهم بمجد مصر فى مختلف عهودها . فلا غرابة لو ظلت معتقداتهم القديمة راسخة فى نفوسهم ، رابضة فى قلوبهم بعد اعتناقهم المسيحية . ونستطيع أن نضرب مثلا لهذا التشبث بقراءة « السيناكسار » أي تاريخ القديسين . يقول السيناكسار : « فى معبد قيصرون الذى شيدته الملكة كليوباطرة ، كان يوجد صنم كبير من النحاس اسمه « عطارد » ، وكان يحتفل سنوياً بعيده وتقدم له الذبائح . وقد ظلت هذه التقاليد معمولا بها إلى أيام حكومة الأب اسكندر أى لمدة تزيد عن ثلاثمائة عام . فلما نصب اسكندر بطريركاً ، قرر تحطيم هذا الصنم بيد أن شعب الإسكندرية ثار قائلا : « لقد اعتدنا إحياء هذا الصنم ، ولقد تربع على هذا الكرسى اثنا عشر بطريركاً ولم يجرؤ أحد منهم أن يصرفنا عن هذه العادة » (١) .

ولما زالت عبادة الأصنام وكفت السلطة الحاكمة عن حمايتها ، لم يستطع المصريون تلافى المسيحية ، فحاولوا ، حسب تعبير جان ماسبيرو Jean Maspero الموفق « مصادرتها لمصلحتهم » وقرروا أن كل ما كان جميلا وعظيما فى المسيحية إنما هو مصرى . ومن ذلك الحين مال الأكليروس والشعب إلى القبض على زمام الحكم ثم إلى الانفصال عن حكم بيزنطيا . وقد تجلى هذا الميل بوضوح بعد مجمع نيقيا Nicée الدينى حيث بزغ نجم كنيسة الإسكندرية ولمع .

شعر بطاركة الإسكندرية بعد مجمع نيقيا بعطف العالم المسيحى عليهم وتقديره لعلمهم ونبوغهم ، فرئيس الكاثوليك (أى بابا روما) أصبح يحيطهم بالإجلال والاعتبار بينما أضحى إمبراطور بيزنطيا يغمرهم بالعطايا والهدايا ، هذا لأنهم فندوا ادعاءات الانفصاليين وحافظوا على وحدة المسيحية وعلى حسن العلاقات بين الإمبراطوريتين الرومانيتين . شعر البطاركة بهذا كله واغتنموا كل فرصة سنحت لهم للتخلص من وصاية الإمبراطور عليهم كما

---

(١) Patrologie Orientale ؛ و Amélineau, *Géographie de l'Égypte copte* ص ٤٣ و ٤٤

تعاونوا على فرض وجهة نظرهم فيما يتعلق بالمسائل الدينية حتى ولو كانت مخالفة لرأى رئيسهم المباشر أى البابا .

أما الشعب القبطى ، الذى كان يتحسر على عظمة الفراعنة البائدة ، فقد كان يتحمل الاحتلال الرومانى والاحتلال البيزنطى بعناء ومشقة . وكانت الضرائب الفادحة التى تفرضها عليه السلطة القائمة تزيد من يأسه . وأراد أن يظهر رغبته فى الحرية السياسية أو بالأحرى أن يثور ضد المحتل الغشوم المتعسف . ولكن أنّى له هذا؟ إن الوسيلة الوحيدة التى سنحت له ، وهى الانشقاق الدينى ، قد لجأ إليها بعد أن ظهر بطريرك الإسكندرية فى المحيط الدينى والميدان السياسى . إن البطريرك كان الشخص الوحيد الذى لم تفرضه السلطات المدنية على الشعب المصرى ، بل كان الشعب هو الذى ينتخبه ، فأصبح البطريرك من جراء ذلك ممثل الشعب المصرى الحقيقى ، يعبر عن طموحه وأمانيه أمام الرأى العام ، وأصبح الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يصمد ضد سلطان الإمبراطور ومن يمثلونه .

ويجمل بنا أن نذكر القارئ بأن المسائل الدينية كانت فى ذلك العصر موضع المناقشة الوحيد ، وبالتالى كانت الساحة الوحيدة التى يمكن أن يحتدم فيها القتال . ومن ثم أعلن الشعب القبطى ، تحت قيادة رؤسائه الدينيين ، عصيانه على مبدأ الكنيسة الموحدة . فالانشقاق القبطى هو دينى من حيث الحجة فقط . وبالرغم من أن الاعتبارات الدينية فقدت كثيراً من أهميتها فى أيامنا الحاضرة ، فيجدر بنا أن ننوه عن حوادث الانشقاق الدينى لأنها ستوضح لنا ما غمض من أسباب مأساة « كالسيدونيا » Chalcédoine .

كان البطريرك « ديوسقور » Dioscore ، الذى لا يذكر اسمه إلا مقروناً بمجمع كالسيدونيا ، يصرح راضياً : « إن البلاد لى أكثر ما هى للأباطرة ؛ وإنى أطالب بالسيادة على مصر » . ولم تفتر عزيمته فى انتظار الفرصة طويلا ليخرج بهذا التصريح من حيز الكلام إلى حيز العمل . ولقد سنحت

له هذه الفرصة فى خُراقة بطريرك القسطنطينية غير المقصودة .

وفعــلا ، عند ما أعلن الراهب « أوتيشيس » Euthychès مذهبه الخاص بطبيعتى المسيح الالهية والبشرية (وهو المذهب الذى ينتمى إليه الأقباط الأرثوذكس حالياً) ـ وكانت هذه المسألة الشائكة تثير النقاش والجدل فى العالم المسيحى – بادر الأكليروس المصرى إلى تفنيد مزاعمه . ولم يكن هناك ما ينذر بأحــداث جسيمة ، ولكن شاء القدر أن يعلن « فلافيان » Flavien بطريرك القسطنطينية بصفة رسمية قرار حرمان صاحب المذهب الجديد ، مما جعل ديوسقور يستنكر على زميله حقه فى إدانة أحد أعضاء الكنيسة علناً ، لأن فى هذا العمل إعلاء لمقام بطريرك القسطنطينية على بطريرك الإسكندرية . ولما كان فلافيان قد أدان علناً الراهب أوتيشيس ، انضم ديوسقور رسمياً إلى رأى الراهب .

وضع بطريرك الإسكندرية أكليروس مصر فى مركز حرج ، بمنطوق حكمه المتأخر المفاجئ ، ذلك لأن الأساقفة المصريين أدانوا أوتيشيس دون أن يبدى البطريرك – وهو صاحب الرأى الأخير – أية معارضة . فكيف يستطيعون بعد ذلك أن ينقضوا حكمهم دون أن يعرّضوا أنفسهم للسخرية . وبينما كان الأساقفة حائرين مترددين أمام هذا الموقف الشاذ ، إذ يأمرهم ديوسقور أن يتضافروا معه ويؤيدونه فى موقفه ؛ ولم يكن فى استطاعة الأساقفة إلا الإذعان لأمر رئيسهم . ولما ناقشهم مجمع كالسيدونيا ، صاحوا جميعاً قائلين : « ألم يقرر مجمع نيقيا أن تتبع مصر كلها بطريرك الإسكندرية وألا يتصرف الأساقفة فى أى موضوع دون الرجوع إليه ؟ » ولما أمرهم المجمع بأن يدينوا لرئيسهم ، أجابوا بتململ : « إذا فعلنا ذلك لن نستطيع أن نقيم فى البلاد لأن سكانها سيقتلوننا . وإذا أردتم أن تحرمونا من أبروشياتنا ، فاحرمونا ؛ إنا فيها لزاهدون وكل ما نريده هو ألا نموت . »

أما الشعب المصرى ، فلم يتردد لحظة واحدة فى مناصرة بطريركه لاعتقاده

بأن جرأة رئيسه الديني قد حققت أمانيه الغاليه المنشودة . فلما حكم مجمع كالسيدونيا على ديوسقور وأمر بنفيه، رفض الشعب ، متضامناً مع الرهبان، الاعتراف بسلطة البطريرك الذى أمر إمبراطور القسطنطينية بتنصيبه . وهكذا ظهر الانشقاق ، واصبحت الشقة بعيدة الغور بعد أن حاز مذهب الطبيعة الواحدة — أى مذهب الراهب أوتيشيس — أغلب الأصوات . فقد بلغ عدد المنشقين فى مصر فى القرن السابع الميلادى ستة ملايين شخص يقابلهم مائتى ألف فقط ممن يدينون بالطاعة للبطريرك الكاثوليكى، أى لسلطة إمبراطور القسطنطينية .

أما المنشقون ، فكانوا بطبيعة الحال سكان البلاد الأصليين ، بينما كان أنصار الفريق الآخر من البيزنطيين وأهل الإسكندرية المصطبغين بالصبغة اليونانية أو الموظفين الأقباط الذين قضت عليهم مصلحتهم « بأن يتناولوا القربان المقدس من أيدى حاكمهم الملحد » .

ومن العبث أن نحاول إيضاح مذهب الطبيعة الواحدة لأن المصريين من جانبهم لم يهتموا بصاحب المذهب أو بتعاليمه وكان هدفهم الأساسى يرمى إلى الانفصال عن بيزنطيا . وقد اعتبروا الانشقاق الدينى أول مرحلة من مراحل الارتقاء إلى التحرر .

وكانت بيزنطيا فى الباطن تعرف جيداً الغرض الذى كان يهدف إليه ديوسقور ، كما لم تخفى عليها الأسباب التى كان الشعب يتبعه من أجلها بحماس . لذلك حاول الامبراطور أن يقنع البطريرك المصرى بالعدول عن موقفه المتطرف والعودة إلى الوئام ، إذ كان يحز فى نفسه أن تصاب وحدة الامبراطورية بتصدع بسبب نزاع لا يرتكز إلى حجج قوية .

استعان الامبراطور بالقوة لابقاء الانفصاليين تحت سلطة البطريرك الكاثوليكى . ولكنه حاول فى هذه الأثناء جاهداً حل الخلاف بطريقة ترضى الطرفين المتنازعين . اقترح الامبراطور « زينون » (Zénon) حلا معروفاً باسم

« هينوتيك » Hénotique ، ثم أشار الإمبراطور « هراقل » إلى حل آخر معروفاً باسم « اكتيز » Ecthèse . ولكن رغم اعتراف الأكليروس اعترافاً ضمنياً بالحل الأول ، ورغم إنكار البابا للحل الأخير ، لأنه يخالف العقيدة الكاثوليكية مخالفة شديدة ، رفض الشعب المصرى الحلين لأنه لم يعد يقبل إعادة العلاقات بينه وبين الإمبراطور بعد أن بذل جهوداً كبيرة لفصمهما ، كما لم يعد الأكليروس المصرى يسير بمفرده فى ركب ديوسقور ، بل كانت الأمة المصرية بأسرها تتبعه .

اضطرب السلام الداخلى فى مصر بعد مجمع كالسيدونيا ، وأقبلت البلاد على عهد جديد من الاضطهاد ، أسماه الأقباط « الرعب الكاثوليكى » ، واعتبر الشعب المصرى ورهبانه البطريرك « قيرس » Cyrus الذى عينه الإمبراطور هراقل قبل الفتح الإسلامى ، عدواً للمسيح ، لأنه أراد أن يرغم الشعب على قبول حل « الاكتيز » الذى اقترحه عاهل القسطنطينية .

غير أن الأقباط لم يقوموا ، بعد مجمع كالسيدونيا ، بأية محاولة ليقطعوا مرحلة جديدة فى سبيل استقلالهم ولم يواصلوا الكفاح لبلوغ غرضهم هذا . كان الدين يحتل مكانة عظيمة فى كيانهم الوطنى ، وكانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنهم لو حصلوا على استقلالهم الدينى لنالوا زبدة خصائص حريتهم السياسية ، فلم يحاولوا توسيع شقة الخلاف التى حفروها . يضاف إلى ذلك أنهم لم يكونوا أهلا للحكم لعدم ممارستهم إياه قبل ذلك . ثم إذا كان الأقباط قد ملوا مضايقات أسيادهم البيزنطيين ، فإن سنوات عبوديتهم الطويلة جعلتهم يتشككون فى قدرتهم على التحرر فى يوم ما من الوصاية الأجنبية . فكانوا لا يبغون فى قرارة أنفسهم إلا تغييراً فى السيادة عليهم يرجون منه توطيد السلام الدينى ولا سيما تخفيف عبء الضرائب التى تجبى منهم . وقد أظهروا دائماً استعدادهم لمناصرة أعداء السلطة القائمة ، لو أظهر هؤلاء الأعداء استعدادهم لتنفيذ رغباتهم .

ففى سنة ٦٠٩ ، عند ما غزا مصر « نيكيتاس » Nicétas نائب

هراقل الذى ثار ضد «فوكاس» Phocas ، تطوع عدد كبير من المصريين لمساعدته ، دون أن يعرفوا على وجه الدقة أية منفعة قد يجنوها من الحاكم الجديد . ولم يقوموا بهذا العمل إلا بدافع كراهيتهم للسلطة القائمة .

وأراد نيكيتاس ، بعد النصر الذى أحرزه ، أن يتبع سياسة حكيمة نحو الشعب . فلم يتدخل فى النزاع الدينى من جهة ، كما قرر من جهة أخرى تأجيل دفع الضرائب ثلاث سنوات . فعم الشعب فرح عظيم واجمع المؤرخون على أن السلام شمل البلاد بأسرها .

وفى سنة ٦١٩ ، غزا الفرس البلاد المصرية وارتكبوا فيها فظائع تشمئز منها النفوس ، الا أنهم لم يعيروا المسائل الدينية التفاتاً ، فلم يقلق الشعب القبطى من وجودهم ولم يتذمر من عهدهم بل أسف لخروجهم بعد أن حكموا البلاد عشر سنوات . ومما يستحق التنويه فى هذا المقام أن الشعب لم يساعد الفرس ضد البيزنطيين كما أنه لم يبد أية مقاومة عند ما عاد هؤلاء إلى الحكم مرة أخرى .

وخلاصة القول إن الشعب المصرى لم يطمع من الناحية الوطنية إلا بشبه استقلال أساسه حرية العقيدة الدينية وخفض الضرائب ، وهى السياسة التى سار عليها عمرو بن العاص عند ما دخل مصر فاتحاً .

نعم إن عمراً قد ساعده تصرف هراقل الذى أراد ، قبيل الفتح الإسلامى بسنوات قليلة ، أن يعيد الأقباط إلى حظيرة الكنيسة البيزنطية الكاثوليكية ، مما أغضب الشعب وجعله يعطف على الغزاة ويميل إلى مساعدتهم مع بقائه مخلصاً للمسيحية إلى حد يلهم انكسار البيزنطيين بأنه عقاب المسيحيين الملحدين وتأكيد لمذهب الطبيعة الواحدة الذى يرضى عنه الله . وقد كتب الأسقف اليعقوبى حنا النقيوسى : «لنمجد سيدنا يسوع المسيح ولنسبح اسمه القدوس فى كل وقت ، لأنه حمانا نحن المسيحيين حتى هذه الساعة من ضلال الوثنيين

المرتدين ومن انهزام الملحدين الخونة »[١] . ويبادر المؤرخ نفسه ، زيادة فى الإيضاح إلى القول بأن المسيحيين المارقين أصحاب مذهب مجمع كالسيدونيا ، هم الذين أسرعوا إلى اعتناق الإسلام ، لا أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة[٢] .

ولا نغالى إذا قلنا إن توطيد السيادة العربية مكان السيادة البيزنطية فى مصر ، أدخل على نفوس مسيحى الشرق بارقة من الأمل . ولقد كتب ميخائيل السورى ، بطريرك اليعقوبيين فى أنطاكية ، يقول : « إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدى اليونانيين . وإذا تكبدنا بعض الخسائر لأن الكنائس التى انتزعت منا وأعطيت لأنصار مجمع كالسيدونيا بقيت لهم (بعد دخول العرب) ، إلا أننا قد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ومن غضبهم وحفيظتهم علينا ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا[٣] .

وفعلا ، بعثت الكنيسة اليعقوبية من جديد وقويت تحت حكم عمرو ابن العاص ، واعتقد سكان البلاد الأصليون ، فترة من الزمن ، بأن نصر المسلمين سيعيد للمسيحية ، أو بالأحرى — إن أردنا الدقة فى التعبير — لمذهب الطبيعة الواحدة سطوته الماضية .

---

(١) تاريخ الأسقف حنا النقيوسى . نشر النص الأثيوبى وترجمه إلى الفرنسية المستشرق زوتنبرج (Zotenberg) ص ٥٨٦ .

(٢) ص ٥٨٥ .

(٣) تاريخ ميخائيل السورى ، نشره لأول مرة وترجمه ج . ب . شابو (Chabot) ج ٣ ص ٤١٧ .

٢

الفتح العربي

استعداد العرب نحو الأقباط ، وطابع غزوتهم ، وموقف الأقباط منهم

استن المشرع المسلم لأهل الذمة عدداً من القوانين استلهمها من تعاليم القرآن والحديث ، غير أن الفقهاء لم يستطيعوا دائماً فرض وجهة نظرهم على الحكام وكان هؤلاء يحيدون عنها كلما اضطرتهم ظروفهم ومصالحهم إلى ذلك .

ولكن وجود الفروق بين المبدأ والحقيقة ، وتردد الإدارة إزاء أهل الذمة أثناء الفتوحات ، كان له بعض الأثر بلا شك فى العلاقات بين الشعب المقهور وسيده الجديد ، أى بين الأقباط والمسلمين .

ولتوضيح العلاقات بين هذين العنصرين اللذين ينتميان إلى شعب واحد ، لا يكفينا الرجوع إلى أصول الفتح الإسلامى ، بل يجب أن نضع أنفسنا فى جو الأحداث ذاتها . ذلك لأننا لا نستطيع أن نفهم موقف العرب أو رد فعل الأقباط إن كنا نجهل ما ظهر من نيات الطرفين وما بطن ، ثم لا نستطيع التمييز بين التدابير التى اتخذها العرب نحو الأقباط وبين التدابير ذات الطابع العام .

إن الفترة الأولى من الفتح الإسلامى كثيرة الغموض والإبهام . لذا يجمل بنا أن نلقى بعض الضوء عليها ، موضحين النقط التى تبدو لأول وهلة غريبة عن الموضوع ولكن لها أثراً بيناً فى مجرى العلاقات بين المسلمين والأقباط .

ا — استعداد العرب نحو الأقباط .

النبي يعطف على الأقباط .

يبدو أن فتح العرب لمصر كان مقرراً قبل وفاة النبي . وعلى كل ، فكانت مصر تحتل مكاناً مرموقاً فى خطط توسع الإسلام العسكرى . ألم يشاطر المقوقس ، حاكم مصر ، ملك الفرس والنجاشي وعاهل بيزنطيا ، شرف استقبال الرسول الذى أوفده النبي ليدعوه إلى الإسلام ؟ وعلى الرغم من أن النبي لم يزر مصر قط ، فإنه كان يكن للأقباط عطفاً ملحوظاً . وفى الحديث : « استوصوا بالقبط خيراً ، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم »(١) . إن جميع المؤرخين والكتاب المسلمين يتنافسون فى ذكر هذه الأحاديث المطبوعة بطابع العطف البليغ ، ومنها وصيته عند وفاته : « الله ، الله ، فى قبط مصر ، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً فى سبيل الله » . ومن حديث له أيضاً : « قبط مصر فإنهم أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم » . ولما سئل : « كيف يكونون أعواناً على دينا يا رسول الله » ، قال : « يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة » . وقال النبي أيضا : « لو بقى إبراهيم ، ما تركت قبطياً إلا وضعت عنه الجزية »(٢) .

ولا نخفى أن كلاماً يقوله النبي بهذه الدقة عن شعب لا يعرفه ويفكر فى غزوه ، لمدعاة إلى الدهشة والاستغراب . غير أننا نستطيع الجزم بأن صاحب الدعوة الإسلامية كان يضمر كل خير لسكان مصر الأصليين . ونتساءل الآن : هل كان لمارية القبطية تأثير حسن على شعور النبي ؟ هل أحيط النبي علماً بعداء الأقباط لحكامهم البيزنطيين ؟ وهل استنتج من

---

(١) ابن عبد الحكم ، كتاب فتوح مصر ، نشره C.C Torrey بليدن ، ص ٣ .

(٢) إبراهيم هو ابن النبى من مارية القبطية .

هذه العداوة ميل الأقباط إلى التعاون مع الفاتح المسلم ؟ لو صدقنا هذا التأويل لاستطعنا أن نفسر مغزى الرسالة التى أرسلها النبى إلى المقوقس ، مع كون المقوقس مرءوساً لعاهل بيزنطيا .

وعلى كل ، كانت مصر من الوجهة الجغرافية بعيدة عن جزيرة العرب . فكان لزاماً على العرب ، وهم لا يملكون أسطولا بحرياً لاجتياز البحر الأحمر ، أن يقطعوا على أقدامهم أراضى سوريا ولبنان لغزو مصر . ثم لما انتصر النبى على قريش ودخل مكة ظافراً ، اهتم أولا بتوحيد جزيرة العرب وإدارتها ، ولم يفكر جدياً فى بسط سلطانه على أراض جديدة . وقد صرف من بعده خليفته أبو بكر معظم سنى حكمه فى تدعيم وحدة القبائل العربية وتطهير أوكار المقاومة بين القبائل الثائرة . ولم يشعر العرب فعلا بقدرتهم على إظهار نشاطهم الحربى خارج الجزيرة إلا فى خلافة عمر بن الخطاب .

العرب لا يجدون مبرراً سياسياً لفتح مصر .

تساءل كثير من الكتاب عن الأسباب التى دعت العرب إلى فتح مصر وحاول بعضهم أن يجد حلا لهذه المسألة ، غير أنه من الصعب الوصول إلى مبرر سياسى لهذه الفتوحات ، لا سيما وأن المؤرخين المسلمين وفروا على أنفسهم مشقة البحث فى هذا المضمار .

والواقع أن الفرس والروم كانوا ينشدون الراحة لأن الحروب التى وقعت بينهم أنهكتهم . ثم لم يوجسوا خيفة من القبائل التى كانت تسكن الفيافى العربية المترامية الأطراف . وإذا اقتفينا آثار المؤرخين العرب الذين اهتموا بالرسالتين التى قد أرسلهما النبى إلى عاهلى إمبراطورية الفرس وإمبراطورية بيزنطيا ، وجدناهم متفقين على أن عاهل بيزنطيا لم يبال قط بالرد على الدعوة التى وجهت إليه ، كما أن ملك الفرس مزق علانية الرسالة ، معلناً احتقاره للجنس العربى .

نقول هذا كله لنقيم البرهان على أن الفتوحات العربية لم ترتكز على أغراض

دفاعية . وما أسهل الكشف عن أسباب الفتوحات : لقد وحد الإسلام القبائل العربية التى اعتادت شن الاغارات على بعضها كما اعتادت السلب والنهب لسوء أحوالها الاقتصادية . فلما حلت بينها روح الأخاء التى نشرها الإسلام محل العداء المألوف ، بحث سكان الجزيرة بطبيعة الحال عن أرض أقل جدباً ليرتزقوا منها . فلم يتردد المسلمون — وقد حفزتهم قوة إيمانهم واقتناعهم بأن الشعوب التى لا تعتنق الإسلام تضمر لهم العداء — أقول ، لم يتردد المسلمون إلى الخروج عبر حدود بلادهم لينتزعوا من المشركين والوثنيين بقاعهم الغنية .

قيل إن الحاجة تبرر كل عمل عدائى . ويحدثنا التاريخ بأنه قبل ظهور الإسلام بعهد بعيد ، قام العرب بأعمال عدائية بحثاً عن القوت ؛ فغزوا مصر فى عهد الفراعنة واستقروا فترة من الزمن فى « آشور » كما توصلوا إلى دخول الحبشة . ولم يتفق حدوث هذه الغزوات مع ظهور ديانة أو رسالة جديدة . ويقول الدكتور سليمان حزّين ، العالم الجغرافى ، أنه توجد علاقة بين هذه الغزوات المتكررة والأحوال الجوية ، ودافع بدوره عن نظرية التغييرات الجوية . ويقول أيضاً إنه يوجد ما يثبت أن مناخ بلاد العرب الشمالية والجنوبية فى الفترة الواقعة بين القرن الثانى عشر قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد ، كان أشد رطوبة مما هو عليه اليوم وأن الأمطار بدأت تخف ابتداء من القرن الثالث ، ثم تناقصت تدريجاً إلى بداية القرن السادس حيث وصل الجفاف إلى الذروة . ولكنه يبادر بالإضافة قائلا إنه من المبالغ فيه تعليل توسع العرب إلى جفاف مناخ الجزيرة ، ومع كل ، فلا بد أن يكون هذا الجفاف قد أثر فى هذا التوسع (١) .

أسباب الفتح الإسلامى لم تكن دينية فحسب .

يميل بعض المفكرين إلى تصوير الغزاة العرب الأولين بمظهر المبشرين

(١) *Arabia and the Far East* ، ص ١١ و ١٢ .

المسلمين الذين دفعهم إيمانهم إلى فتح العالم بأسره .

ولا شك أن للحماس الديني عامله الكبير بين معتنق الدين الجديد ، ولكنا لا نستطيع الجزم بأن الرغبة في التبشير كانت السبب الرئيسي لهذه الفتوحات . ويقول لنا ابن خلدون إنه عند ما بويع عمر بن الخطاب بالخلافة على المسلمين ، وقف يخطب في الجمع حاثاً المؤمنين الصادقين على فتح العراق قائلا : « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين القراء المهاجرون عن موعد ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها[1] .

تغيرت سياسة قواد العرب تغييراً شاملا بعد اتصالهم بالعالم الخارجي . فقد رأينا النبي يهنيء نفسه علانية لما انتصر الإمبراطور المسيحي هراقل على الفرس الوثنيين دون أن يبالي بما قد تجره هذه الانتصارات من نتائج سيئة على الدين الإسلامي . وقد رأيناه أيضاً في موقعة بدر في السنة الثانية للهجرة ينازل ألف قريشي وهو على رأس ثلاثمائة محارب فقط . ولكن مسؤولية الحكم جعلت خلفاءه يحسبون لكل قدم حسابه ، وكانت الاعتبارات السياسية قد حلت محل الاعتبارات العاطفية .

إن اتساع رقعة الإمبراطورية العربية شرقاً وغرباً قللت فعلا من شأن العامل الديني ، فاضطر الخليفة عمر بن الخطاب أن ينتهج سياسة حكيمة تتنافى مع الحماس والجرأة التي اتصف بها أول من اعتنق الدين الجديد . هذا ما فهمناه على كل حال مما كتبه المؤرخون المسلمون . فقد وصفوا لنا فتح مصر كأنه عمل حربي قرره الزعماء العرب بعد تردد طويل . وهم أيضاً يؤكدون أن موافقة عمر لم تعط بسهولة بل انتزعت منه انتزاعاً . وقد اعترض أحد الكتاب المعاصرين على حقيقة هذه التفاصيل محتجاً بأنها مخالفة لطباع الخليفة المشهورة . فهو يقول : « لا يعقل أن عمر الذى أخضع بلاد الفرس والروم ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، مصر ، طبعة بولاق ، ١٢٨٤ ج ١ ص ١٢٢ .

وفرّ من جيوشه أعظم ملوك الأرض ، يأذن للجند بالمسير إلى الغزو والجهاد ، ثم يتراجع ويوقف السير وهو يعلم ما يترتب على ذلك من الوهن فى عزيمة الجند وطمع العدو»[١] .

ولكن عمر ، الذى اشتهر بحكمته وتبصره ، لم يستطع أن يخوض عن طيب خاطر غمار حرب حامية الوطيس . هل كان العرب يعرفون شيئاً عن مصر؟ كانوا يجهلون غالباً كل ما يتعلق بتلك البلاد . ولما كانوا لا يملكون الخرائط الجغرافية ، فقد سلكوا طريق الغزوات الذى اتخذه غيرهم والذى تعرف عليه عمرو بن العاص أثناء رحلاته إلى مصر . ألم يقل لنا المؤرخون إن القوات العربية كانت تجهل تماماً منطقة الفيوم وأن الذى كشف لهم عن طريقها هو دليل اتبعوه على غير هدى؟ ألم يذهب حنا النقيوسى إلى حد الإثبات بأن المسلمين لم يكونوا يعرفون مدينة مصر ؟[٢] .

ونعتقد أنه لولا إلحاح عمرو ، لتأخر فتح مصر وقتاً طويلا ، لأن عمراً كان فى الواقع أول من حرض العرب على فتحها ودخولها ظافرين منتصرين . كان عمرو بن العاص ، فى عصر الجاهلية ، يقوم بالتجارة مع مصر[٣] . وقد أضفت الأسطورة جمالا على الحقيقة فادعت أن إحدى المقابلات التى حدثت له صدفة فى فلسطين جعلته يستأنف سيره إلى الإسكندرية حيث شاهد فيها حفلة قام المدعوون أثناءها بلعبة تقليدية تتلخص فى إلقاء كرة على الحاضرين ، فمن تقع عليه يعتبر حاكم مصر القادم . ولقد سقطت الكرة على عمرو الذى حضر متفرجاً ، فأثار هذا الحادث عجب اللاعبين ، وكانوا صفوة شعب الإسكندرية .

درس عمرو دون شك أحوال البلاد أثناء أسفاره المتكررة ، ولعله لاحظ

---

(١) محمود عكوش ، مصر فى عهد الإسلام ، فتح مصر والإسكندرية ، ص ٢٦ و ٢٧ .

(٢) تاريخ ، ص ٥٥٧ .

(٣) الكندى ، كتاب الولاة والقضاة ، طبعة ليدن ، نشره R. Guest ، ص ٧ .

روح الكراهية التى كان يضمرها الأهالى لحكامهم البيزنطيين ولمس الفوضى المتفشية فى الإدارة وضعف القوات المناط بها الدفاع عن البلاد . وبهره خصب التربة وكثرة الخيرات التى كان يراها ، فراح يصف ، فى الوقت المناسب ، للخليفة عمر هذه البلاد بقوله : « إن فتحها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وهى أكثر الأرض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب »[١] .

ولما خضعت أرض فلسطين للحكم العربى ، خلا عمرو بعمر فاستأذنه فى المضى إلى مصر قائلا : « إنى عالم بها وبطرقها ، وهى أقل شئ منعة وأكثر أموالا . فكره أمير المؤمنين الإقدام على من فيها من جموع الروم وجعل عمرو يهوّن أمرها »[٢] . هذا ما قاله الكندى حرفياً ، وتستنتج من ذلك أن عمراً رفض بادئ ذى بدء طلب عمرو . « ولم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر ، فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عكّ . ويقال بل ثلاثة آلاف وخمسمائة »[٣] .

وينقل لنا أيضاً ابن الحكم كلام عمر هذا : « سر وأنا مستجير الله فى مسيرك »[٤] . ويضيف إلى ذلك أن عمراً لم يتوان لحظة واحدة فى الرضوخ للأمر ، فلما خيم الليل قام بجيشه إلى مصر دون أن يشعر به أحد . ويقول لنا ابن عبد الحكم أيضاً[٥] أن عثمان بن عفان دخل بعد ذلك عند عمر فأخبره عمر بزحف عمرو نحو مصر . ويقال أن عثمان عقب على هذا الخبر قائلا : « يا أمير المؤمنين ، إن عمراً لمجرّؤ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة ، فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا » . فندم عمر بن الخطاب على كتابه إلى عمرو إشفاقاً مما قال عثمان ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٦ .
(٢) الكندى ، ص ٧
(٣) الكندى ص ٩
(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٥٦
(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٥٧ و ٥٨

فكتب إليه : « إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر ، فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت ، فامض لوجهك »[١] .

وذكر السواد الأعظم من مؤرخي العرب كيف تسلم عمرو الرسالة التي تلقاها من عمر ، وقالوا إن عمراً لم يفضها إلا بعد أن وطأ بقدميه أرض مصر خوفاً من أن تكون الرسالة متضمنة إلغاء الأمر بالزحف .

إن كانت هذه الوقائع صحيحة ، فهي تدل على أن العرب عند ما احتكوا بالعالم الخارجي أخذوا يعملون على التوفيق بين مبادئهم الدينية وغاياتهم العسكرية والاقتصادية . وأن حروب الجهاد لم تعد سبباً للفتح ، بل أصبحت نتيجة له . وسوف نرى ، عند التحدث عن الإدارة العربية ، أن الحكام كانوا يهدفون إلى النفع المادي بجانب حض الشعوب المغلوبة على اعتناق الإسلام .

التفوق العنصري عند العرب .

وهناك نقطة ثالثة يجدر بنا توضيحها لنفهم مغزى الحوادث التي أعقبت فتح مصر . وهذه النقطة هي شعور العرب بتفوقهم العنصري بالنسبة للشعوب المغلوبة . كان عرب الجزيرة شديدي التعصب لأصلهم وكانوا يمنعون الأجانب من الانتساب إلى قبائلهم . ويقول المستشرق « بولياك » Poliak في دراسة له ، دعمها بالحجج القوية وبأسانيد أبو يوسف الفقيه : « إن الإقامة في شبه جزيرة العرب والتفوه باللغة العربية لم يكونا كافيين لاعتبار القاطنين فيها عرباً إذا كانوا من المهاجرين ، حتى لو كانت هجرتهم ترجع إلى عدة قرون ، كما أن العربي الأصيل ، من ناحيته ، لم يفقد جنسيته بعد إقامته في بلد أجنبي ، حتى لو طالت إقامته عدة قرون »[٢] . ويقول المستشرق بعد ذلك :

---

(١) يمكننا اعتبار تصريحات عثمان ، كما رواها ابن عبد الحكم ، صحيحة والدليل إلى ذلك أن عثمان أقال عمراً من منصبه بعد توليه الخلافة وعين مكانه عبد الله بن سعد .

(٢) *L'arabisation de l'Orient sémitique* : في مجلة « أرض الإسلام » الفرنسية سنة ١٩٣٨ ، الكراسة رقم ١ .

« إن كلمة « عربي » لم يكن يراد بها المعنى الوطنى كما هو منصوص عليها الآن . ذلك لأن العرب كانوا يجهلون ما هو التجنس وما هو فقدان الجنسية . وكان المسلم الذى عاش قبل الثورة العباسية[١] ، يعتبر العرب قبيلة اجتماعية متوارثة تضمن لأعضائها بعض الامتيازات بقدر ما تقيدهم به من واجبات . ولم يكن الأصل سبباً لوحدتها ، بل كان الموطن الواحد (أى جزيرة العرب) سبب هذه الثورة .

وبقى عرب شبه الجزيرة متمسكين بهذا المبدأ حتى قبض العباسيون على زمام الحكم . ويلاحظ الكاتب الأب « جانو » Janot أن معتنقى الإسلام من الموالى ، و المسيحيين ، و اليهود ، و السامريين الذين لم ينحدروا من أصل عربي ، كانوا لا يدخلون المجتمع العربي الإسلامى دخولا كاياً بمجرد إسلامهم ، بل كان عليهم أن يلتمسوا انتسابهم من إحدى القبائل العربية ، وكانوا يدفعون غالياً ثمن الانتساب . ومع ذلك لم يكونوا يعتبرون إلا مسلمين من الدرجة الثانية»[٢].

ونستنتج من ذلك أن الشعوب المغلوبة التى اعتنقت الإسلام فى السنوات الأولى من الدعوة الإسلامية ، لم يستقبلهم العرب بعاطفة الفرح والأخوة ، ولكنهم وضعوهم فى مركز أدبي وضيع بالنسبة إليهم . وتأخذنا الدهشة أيضاً

---

(١) كان الخلفاء العباسيون يعملون جاهدين بوجه عام على تسهيل إدخال الموالى العرب الذين أسلموا ضمن أفراد القبائل العربية العريقة . أما كتب الفقه التى وضعت فى عصرهم فهى لا تفرق بين مركز الموالى والعرب إذ أن الموالى الذين كانوا يجيدون اللغة العربية وآدابها كانوا يضمنون مستقبلهم . بينما أن تناثر العرب فى الأرياف ساعدها على تعريبها بسرعة . (بولياك) .

(٢) *Les chrétiens devant l'Islam :* فى مجلة « أرض الإسلام » الفرنسية ، سنة ١٩٤٥ ، الكراسة الثالثة :

ونذكر فى هذا الصدد الحادث الذى أثاره بعض أقباط مصر الذين ادعوا أنهم ينتمون إلى إحدى الأسر العربية الكبيرة فى شبه الجزيرة العربية ، وقد اشتروا بلا شك هذا الانتساب . ولكن ادعاءهم هذا أثار الرأى العام . فرفعوا أمرهم إلى القاضى العمرى الذى صدق على نسبهم . ولكن الرأى العام رفع الأمر إلى قاضى بغداد « البكرى » الذى رد المدعين خائبين (الكندى ص٣٩٩ و ٤١٣ إلى ٤١٥)

لو قارنا بين وضاعة مركز المسلمين غير المنتسبين إلى أصل عربى وبين المعاملة الممتازة التى كان يخص بها المسلمون القبائل العربية الأصلية التى ظلت مسيحية بعد ظهور الإسلام . وكانت هذه المعاملة استمراراً منطقياً لحالة واقعية ترجع إلى عصر الجاهلية . ويلاحظ الأب « لامنس » فى هذا الصدد : « أن التجار السوريين فى المدينة كانوا يعملون علانية فى سبيل الدعاية لمعتقداتهم . . . وكان يرى محمد وهو يتردد بحرية على الأوساط المسيحية . . . ولم يسمع أبداً أن نقابة التجار القريشيين أوجست خيفة من وجود الرهبان بينهم ومن دعايتهم الدينية أثناء إقامة الأسواق بالقرب من مدينتهم . وظل العدد القليل من القرشيين المسيحيين يتمتعون بالمركز الذى يؤهله لهم مولدهم وبراعتهم . والدليل على ذلك أن قبيلة بنى أسد — التى أظهرت بوجه خاص عطفها على المسيحية — قد ظلت مساكنها بجوار الكعبة بينما انتقل الأجانب (أى العرب غير الأصليين) إلى الأحياء المتطرفة من المدينة أو فى الضواحى »[١] .

ولما سيطر النبى على شبه جزيرة العرب ، أراد أن يضم إليه القبائل المسيحية ، فأثار عفواً مشكلة المسيحيين العرب ؛ لم يستطع أحد أن يطعن فى جنسيتهم العربية بينما صممت تلك القبائل على أن تحتفظ بمنزلتها وعزتها ، ورفضت كلية أن يعاملها المسلمون معاملة العرب من الدرجة الثانية .

وكان النبى أول من كتب إلى مسيحى نجران يدعوهم إلى إبرام ميثاق معه ، وكان ذلك فى السنة العاشرة من الهجرة . فأرسلت قبيلة نجران وفداً ليفاوض النبى للحصول على أحسن الشروط ولإفهامه أن القبيلة لن تتنازل عن عقيدتها مهما كان الثمن .

وقد ذهب الوفد إلى مكة ، وبمجرد وصوله دخل المسجد حيث كان النبى ، وأخذ الأعضاء يصلون على الطريقة المسيحية . . . متجهين عكس

---

(١) *Les chrétiens à la Mecque à la veille de l'Hégire* فى مجلة المجمع العلمى الفرنسى للدراسات الشرقية ، ج ١٦

القبلة . فاغتاظ المسلمون لهذا المسلك ولكن محمداً أمرهم بأن يتركوهم وشأنهم . وعند ما انتهوا من الصلاة توجهوا إلى النبى ، ولكنه أدار لهم ظهره ورفض أن يجيبهم محتجاً بأنهم وارفون فى حلل غالية الثمن .

وفى اليوم الثانى ، قابلوا النبى الذى دعاهم إلى اعتناق الإسلام . ولما احتد النقاش ، صرفهم بعد أن عيل صبره . غير أن الوفد عرض عليه إبرام معاهدة على أساس منح صاحب الدعوة الإسلامية بعض الفوائد المادية .

ولم يجرؤ أحد أن يفرض الجزية على هؤلاء العرب ، ولكن قبيلة نجران وافقت على بعض الشروط التى فرضت فيما بعد على الشعوب المغلوبة . ومع ذلك حرص المسلمون أشد الحرص ، عند تحرير الميثاق ، على عدم جرح عواطف مواطنيهم المسيحيين ، فلم يعطوا لهذا الاتفاق قوة التنفيذ . ولدينا بعض الأمثلة :

١ — كان للنبى أن يتصرف فى أملاك وعبيد القبيلة ، ولكنه فى الواقع ترك لها حق استثمارها مقابل دفع ضريبة سنوية قدرها ألف حلة .

٢ — وكان على أهل نجران المسيحيين أن يستضيفوا مبعوثى النبى (لا يذكر الجند بوجه التحقيق) وذلك لمدة ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ولا تحبس رسل فوق شهر .

٣ — وإذا نشبت الحرب فى اليمن ، كان عليهم أن يقرضوا ثلاثين جملا وثلاثين حصاناً .

٤ — وكان عليهم أيضاً أن يكفوا عن مزاولة الربا .

٥ — ولا يستطيع أحد أن يكره رجال القبيلة على ترك دينهم وذلك مهما كانت الظروف[1] .

وكذلك لم يفكر أحد فى فرض الجزية على مسيحى قبيلة بنى تغلب ،

---

(١) ذكر أبو يوسف النص الكامل لهذا الميثاق فى كتاب الخراج ، ص ٤٠ من طبعة بولاق ١٣٠٢

وطلبوا منهم فقط أن يدفعوا ضعف ما كان يدفعه المسلمون من الزكاة ، على أن تشمل الضريبة نساءهم . ويستنتج من ذلك أن ما فرضه المسلمون على هؤلاء العرب على أنه زكاة ، كانوا يفرضونه على مسيحيي البلاد المغلوبة على أنه جزية (١).

وإذا تركنا جانباً تلك الشروط ، نقول إن المسيحيين العرب نعموا مدة طويلة بامتيازات أنكرها العرب على الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام. ومثال ذلك أن انخرط المسيحيون العرب في سلك الجيش وقاتلوا ضمن الفرق التي غزت بلاد الفرس وزحفت على مصر ، في حين أن الأقباط الذين اعتنقوا الإسلام لم يقبلوا في الحال في صفوف الجيش العربي . وعند ما قبلوا فيما بعد ، ادخلوا في فرق المشاة ، وهذا يعني أنه ، في حالة انتصار الجيش ، لم يكن لهم الحق إلا في نصف نصيب الفرسان في الغنائم (٢). وأخيراً نقول إن إسلام العرب الوثنيين كان فرضاً واجباً يعاقب مخالفه بالموت ، إن كان ذكراً بالغاً ، وبالعبودية ، إن كان صبياً أو امرأة . أما العرب المسيحيون ، فكان في استطاعتهم البقاء على دينهم ، غير أن السلطات كانت تبذل جهدها في سبيل إسلامهم (٣) .

ولا ننكر أن استمرار وجود العناصر المسيحية بين الجماعات الإسلامية في شبه جزيرة العرب أصبح غير مرغوب فيه . ويقال إن النبي ، قبل وفاته ، عبر عن رغبته في ألا يكون في بلاد العرب دينان . وقد قلق مسيحيو نجران لهذا النبأ ، فأرسلوا في الحال وفداً إلى أبي بكر ، ولكن الخليفة أكد لهم أن الاتفاق الذي أبرموه مع النبي لم يزل قائماً .

أما عمر بن الخطاب ، فقد اتبع سياسة أخرى نحو العرب المسيحيين

---

(١) أبو يوسف ، ص ٦٨ .

(٢) ذكره كايتاني Annali dell' Islam في حوادث سنة ١٠ هجرية .

(٣) أبو يوسف .

وبدأ يناصبهم العداء بحجة أنهم يزاولون الربا[١] . وهاجم بعد ذلك بنى تغلب وأراد أن يفرض عليهم الجزية ، فما كان منهم إلا أن غادروا بلاد العرب ولجأوا إلى العراق . وفى هذا الأثناء قصد الخليفة شخص يدعى النعمان بن زُرْعة ابن النعمان ، وعاب عليه سياسته إزاء المسحيين قائلا : « أنشدك الله فى بنى تغلب ، فإنهم قوم من العرب نائفون من الجزية وهم قوم شديدة نكايتهم ، فلا يغن عدوّك عليك بهم »[٢] . ولما سمع عمر هذا الكلام ، أرسل فى طلبهم واشترط عليهم ألا « يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم وعلى أن عليهم الصدقة مضعفة » .

ولا نعلم إذا كان أفراد القبيلة رضوا بهذا الشرط ، والواقع أنهم لم يبالوا به ، مما دعا على بن أبى طالب أن يصرح التصريح التالى : « لأن تفرغت لبنى تغلب ليكونن لى فيهم رأى ، لأقتلن مقاتلتهم ولأسبينّ ذريتهم فقد نقضوا العهد وبرئت منهم الذمة حين نصروا أولادهم »[٣] .

وهكذا فإن العرب المسلمين مع أسفهم لبقاء بعض مواطنيهم على دياناتهم المسيحية ، لم يحاولوا قط أن يمسوهم بأدنى سوء . غير أن هذا الموقف المتناقض أخذ يتلاشى شيئاً فشيئاً . ولما أخذت انتصارات المسلمين تتوالى وتزداد أهمية ، اعتبر العرب الغزاة إخلاص بعض إخوانهم للعقيدة المسيحية بمثابة تحد لهم . لقد هدد على بن أبى طالب ووعد أكثر من مرة ، ولكنه لم يستطع أن يضع تهديداته ووعيده موضع التنفيذ ، إلا أن الأمويين حققوا ما عجز علىّ عن تنفيذه . ومن الغريب أن معاوية فكر جدياً فى أن يمنع أقباط مصر من اعتناق الدين الإسلامى بدعوى أن انتقالهم دفعة واحدة إلى الدين الحنيف قد

---

(١) أبو يوسف ، ص ٤١ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، نشره De Goeje ، ص ١٨١ .

(٣) البلاذرى ، ص ١٨٣ — يظهر أن المسألة الدينية لم تكن إلا حجة ، ذلك لأن بنى تغلب كانوا أصدقاء لعلى ثم أصبحوا من أشياع الأمويين .

يكبد خزانة الدولة خسائر جسيمة لأنه سيخفض إيراد الجزية . ولكن بعد بضعة سنوات — أى فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك — « أراد محمد ، قائد الطائيين[١] ، بعد أن عاث فى بلاد ما بين النهرين فساداً وأشبع أهلها تقتيلا ، أراد هذا القائد أن يعتنق العرب المسيحيون الديانة الإسلامية. فأمر بإحضار رئيس التغلبيين واسمه « معاذ » وطلب إليه أن يرتد عن دينه . فأبى معاذ بالرغم من تملق القائد له ، فأمر القائد بإلقائه فى حفرة مليئة بالوحل، ثم قتله ومنع دفنه »[٢] .

إلا أننا لم نجد أبداً هذا اللون العنيف من الدعاية الدينية عند العرب وقتئذ . أما موقفهم الشاذ أزاء العرب المسيحيين ، فيرجع إلى الشعور بالتفوق الجنسى الذى كان سائداً عند العرب . والفقرة التالية التى اقتبسناها من تاريخ ميخائيل السورى تثبت هذا القول ، ونصها : « قال الوليد للراهب « سمع الله التغلبى : « أن عبادتك للصليب ، مع كونك رئيساً لقبيلة عربية ، تجعلهم يخجلون منك »[٣] .

ب — هل كان انتصار العرب رائعاً ؟

نريد ، قبل أن نحدد موقف الأقباط من الفتح الإسلامى ، أن نجرد الأعمال الحربية التى قام بها عمرو من المبالغات التى أسندت إليها .

صور لنا المؤرخون والمستشرقون فتح العرب لمصر على أنه عملية حربية سهلة فى بلاد منيعة ، تدافع عنها فرق عديدة ، مدربة أحسن تدريب على القتال . ولكن أليس من المبالغ إن يقال أن هذا الفتح « تحقق بسرعة فائقة » أو أنه « معجزة من المعجزات »[٤] ؟ قد نحاول عبثاً أن نجد عند المؤرخين العرب هذا الحماس المتدفق عند ما يصفون الانتصارات الإسلامية فى مصر .

(١) يذكر المؤرخون السريان العرب بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة طي

(٢) تاريخ ميخائيل السورى ، ج ٢ ص ٤٨٠ و ٤٨١ .

(٣) تاريخ ميخائيل السورى ، ج ٢ ص ٤٨٠ و ٤٨١ .

(٤) G. Wiet, *L'Égypte Arabe*, dans *Précis de l'Histoire d'Égypte*, II, p. 113; *Histoire de la Nation Égyptienne*, IV, p. 11; *Les Mosquées du Caire*, p. 8.

ولما دونوا هذه الأحداث ، لم يحاولوا أن يقللوا من الصعاب التى حاقت بهم ولا بالخسائر الباهظة[1] ولم يدعوا أبداً أن مقاومة الأعداء لهم كانت غير ذات بال ، أو أن زحف جيوشهم كان خاطفاً ، أو أن السكان كانوا يبادرون إلى عقد الاتفاقات مع الفاتح . نعم إنهم كانوا يميلون حقاً إلى المبالغة فى ذكر قوة أعدائهم العددية ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك بحسن نية لأنهم كانوا يجهلون حالة الإمبراطورية البيزنطية على حقيقتها . أما المؤرخون البيزنطيون ، فقد ظلوا متكتمين النكبة التى أحاقت بجيوشهم . إلا أننا نستطيع اليوم أن نوضح حالة الفريقين على وجه التقريب .

مقارنة بين الإسكندر المقدونى وعمرو بن العاص .

وادى النيل فريسة سهلة ومغرية لكل من يريد غزوها . وقد انتهزت الدول المجاورة مراراً فرصة ضعف السلطة المركزية لاجتياح هذا الوادى . فغزاه الهيكسوس ، ثم الليبيون فالأحباش والأشوريين والفرس .

غير أن غزوة الإسكندر كانت بدون شك أكثر هذه الغزوات نجاحاً . وخلاصة الرواية أن الإسكندر وصل إلى الفرما بعد أن فتح مدينتى صور وغزة وتقدم منها إلى مدينة منف (أى العاصمة) ، دون أن يقذف بسهم واحد ، وطرد الفرس . ففرح لذلك الأهلون الذين كانوا يرزحون تحت نير هؤلاء الطغاة وأظهروا حماستهم للغازى الجديد . وتوجه الإسكندر بعد ذلك نحو الشمال وأسس مدينة الإسكندرية ، ثم سار على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى بلغ مرفأ مرسى مطروح ، وتوغل نهائياً فى واحة سيوه قبل أن يعود إلى منف . وقد استطاع الإسكندر ، فى أقل من سنة ، أن يفتح مصر وينظمها .

ويشبه الفتح العربى الفتح المقدونى إلى حد كبير . كان عمرو بن العاص

---

(١) كان الذين جرت سهامهم فى الحصن من المسلمين اثنى عشر ألفاً وثلاثمائة بعد ما أصيب منهم فى الحصار بالقتل والموت (الكندى ، ص ٩) .

يعلم ، كما كان يعلم بذلك الإسكندر ، أن الشعب يرغب فى حكام جدد . وكان يعلم أيضاً أن البلاد خالية من وسائل الدفاع المتينة ، وأن فى استطاعته أن يقتحمها بسهولة . لذلك رضى أن يقوم بفتحها ومعه ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ جندى ، وضعهم الخليفة عمر تحت تصرفه . غير أنه يبدو أن عمراً لم يكن مستعداً لخوض غمار حرب تحصينات ، وعلى الرغم من النجدات التى أرسلها الخليفة إليه مرتين من بلاد العرب ، لم يقض على المقاومة إلا بعد قتال دام ثلاث سنوات . وفوق ذلك ، يظهر أن الغزو العربى لم يكن نزهة عسكرية كما يتصوره البعض ، ولم تكن الروح المعنوية بين المقاتلين عالية . ويقول لنا ابن كثير فيما يقول : « إن عمرو بن العاص ، لما التقى بالمقوقس ، جعل كثير من المسلمين يفر من الزحف ، فجعل عمرو يزمرهم ويحثهم على الثبات . فقال له رجل من أهل اليمن : « إنا لم نخلق من حجارة ولا حديد . » فقال له عمرو : « اسكت ، فإنما أنت كلب » . فقال له الرجل : « فأنت إذاً أمير الكلاب »[١] .

وإذا درسنا أهمية القوات التى أرسلت إلى مصر ، رأينا أن عمراً كان على حق فى شكواه من بطء سير العمليات الحربية فى الجبهة المصرية[٢] .

الجيش العربى .

إن البيانات التى تحصلنا عليها فيما يختص بعدد الفرق العربية التى قامت بفتح مصر تعوزها الدقة ، ولكن لم يعترض عليها مؤرخ إلى الآن .

كانت الفرق العربية مكونة أول الأمر من أربعة آلاف محارب ، وضعهم الخليفة تحت إمرة عمرو بن العاص . ولكن مالبث أن ظهر عدم كفايتها للقيام بالمهمة التى أسندت إليها . ففى أثناء حصار قلعة بابليون ، طلب عمرو

(١) البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة جـ ٧ ص ٩٩ .

(٢) كتب عمر لعمرو أثناء حصار الإسكندرية يقول : « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين » (ابن عبد الحكم ، ص ٧٩) .

ابن العاص إلى الخليفة المدد مرتين ، وقد أرسل له عمر ثمانية آلاف مقاتل على دفعتين بقيادة الزبير بن العوام ، فبلغ عدد المقاتلين الذين تحت قيادته اثنى عشر ألف مقاتل وتقول بعض المصادر التى اعتمد عليها الكندى أن عدد القوات بلغ ١٥,٥٠٠ جندى[١] .

وما من أحد يستطيع أن يشك فى قيمة هؤلاء المحاربين وشجاعتهم ، إذ كانت هذه الصفات من أهم الأسباب التى أضعفت الروح المعنوية للقوات البيزنطية . كانوا فرساناً جسورين يجيدون استخدام السلاح ، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يبلون أحسن البلاء إلا فى ساحات القتال المنبسطة أمامهم . فإذا اعترضتهم الأسوار المحصنة ، وقفوا أمامها لمدد طويلة أو قصيرة حسب الظروف . فقد اضطروا مثلا إلى القتال أمام الفرما شهراً تقريباً ، وصمد حصن بابليون أمامهم سبعة أشهر وظلت الإسكندرية تقاوم أربعة عشر شهراً .

أما قواد الحملة ، ولا سيما عمرو والزبير ، فلم يتخذوا من الحرب صناعة ، إلا أنهم تدربوا على أساليب القتال فى سوريا ولم تنقصهم سعة الحيلة .

الجيش البيزنطى .

لم نكن نعرف الشىء الكثير عن نظام الجيش البيزنطى قبل أن يقدم لنا چان ماسبيرو كتابه عن « النظام العسكرى لمصر البيزنطية »[٢] . وبالفعل ، فإن المستشرق « ألفرد بتلر »[٣] كان يؤكد — قبل ظهور كتاب چان ماسبيرو بعشر سنوات — فى مؤلفه الذى يضم معلومات كثيرة عن هذا الجيش ، أن فى العصر الذى غزا فيه العرب مصر « لم يكن يوجد قبطى واحد فى ساحة القتال ، وأنه من الخطأ أن يدعى أن الأقباط كان فى استطاعتهم فى ذلك الوقت أن يجتمعوا أو يقاتلوا أو يفاوضوا العرب . »

(١) الكندى ، ص ٩ .

(٢) Jean Maspero, *L'organisation militaire de l'Égypte byzantine*. — Publications de la Bibliothèque des Hautes-Etudes, 201e fasc., Paris 1912.

(٣) A.J. Butler, *The Arab conquest of Egypt and the thirty years of the Roman dominion*. Oxford, 1902, p. 252.

وقد استطاع چان ماسبيرو أن يقدم لنا ، بفضل دراسته لأوراق البردى ، معلومات فى غاية الأهمية والدقة . فإن مؤلفه هو المرجع الصحيح فيما يختص بحالة الجيش البيزنطى .

أعاد الإمبراطور « جوستنيان » Justinien تنظيم الجيش البيزنطى بمصر على أساس إلغاء القيادة الموحدة ، خوفاً من أن يقوم قائد جيش الاحتلال بإعلان الثورة على الحكومة المركزية ، وكذلك حطم وحدة البلاد الإدارية التى حافظ عليها الرومان طوال أيام حكمهم ، وأنشأ ، بدلا من ابروشية Diocèse مصر ، خمس « دوقيات » Duchés يحكمها خمسة محافظين أو « دوقات » Ducs يعينهم الإمبراطور رأساً ويكونون مسئولين أمامه مباشرة . وكان هؤلاء المحافظون فى البداية من الأجانب ، ثم ما لبث أن حل مكانهم الوطنيون . وكان المحافظون يجمعون بين السلطتين المدنية والعسكرية .

ويتبين من ذلك جلياً المهمة التى وكلت إلى هذا الجيش الذى كان يرأسه المدنيون . نعم إنه كان مكلفاً بالدفاع عن أراضى مصر ، إلا أنه قصر فى ذلك أيما تقصير عند ما دخل الفرس مصر عام ٦١٩ ، أى قبل الفتح الإسلامى بزمن قليل . وسبب ذلك أن الجيش كان مرهقاً بأعمال بوليسية ، كالضرب على أيدى اللصوص والمحافظة على الأمن ومساعدة محصلى الضرائب والتدخل لصالح الإمبراطورية فى الخلافات المذهبية . فلم يوجد جيش بمعنى الكلمة يتفرغ للقتال ، وأن ما كان يطلق عليه خطأ هذا الاسم لم يكن إلا قوة بوليسية ليس لها قيادة موحدة ، ولا قائد عسكرى ، بل كانت موزعة على خمسة رؤساء مدنيين يتمتعون بسلطات مماثلة .

ويقول ماسبيرو إن هذا الجيش كان يتألف من ٢٣ ألف رجل ، وأن هذا العدد كان كافياً أو قل — أكثر من الكافى — لصد الاثنى عشر ألف أو الخمسة عشر ألف مقاتل الذين وضعوا تحت إمرة عمرو ، ولا سيما أنه كان يحتمى وراء تحصينات . ولكن بينما كان العرب كلهم تحت قيادة مركزة

وكانوا يهجمون على العدو بقوات كبيرة ، لم يفكر البيزنطيون قط فى وضع خطة للدفاع مبنية على التعاون . وهكذا ، بينما كان العرب يشددون الخناق على حصن بابليون ، لم يأت محافظ واحد لنجدة المحاصرين ، فقد كان كل واحد منهم ينتظر بدوره هجمات العدو ، مما جعل العرب يتفوقون دائماً على البيزنطيين من حيث العدد .

ويجمل چان ماسبيرو أسباب الانتصارين الفارسى والعربى بقوله : « إن كانت مصر قد انهارت أمام غزوات القرن السابع ، فلا يرجع ذلك إلى افتقار الجيش إلى الرجال . ثم إن التحصينات التى أقيمت فى الأماكن المعرضة للغزو على حدود البلاد كانت فى حالة تسمح لها بالصمود .

« كان جيش مصر مجزءاً وكانت القيادة موزعة على عدة قواد ، كل واحد منهم يقاتل لمصلحته . ومن المؤكد أيضاً أن محافظ ليبيا لم يساهم فى القتال إلا عند ما هاجمه العرب رأساً بعد احتلال وادى النيل بأسره .

« ثم اشتهر البيزنطيون بعدم مبالاتهم بالصالح العام وعداواتهم الشخصية وعدم تعاونهم . ولم يكن هناك ضباط صناعتهم الحرب .

« ولم يكن فى الجيش المصرى إلا عدد قليل جداً من الجنود الأعجميين المرتزقة ، وكان معظمه مؤلف من سكان مصر (أى من الأقباط) الذين فقدوا صفاتهم الحربية منذ قرون مضت .

« ويستنتج مما ذكره المؤرخ حنا النقيوسى أن الجيش البيزنطى كان عبارة عن رؤساء يعوذهم الفن العسكرى والخبرة الحربية ، يفقد معظمهم أعصابهم أمام الخطر ويعجزون عن اتباع خطة منسقة ، حيث كان كل واحد منهم يقاتل لحسابه الخاص غير متبع لنظام ، كما أن الجنود كانوا غير مدربين وغير مخلصين لرؤسائهم .

« والسبب الرئيسى لانكسار البيزنطيين فى وادى النيل ، هو هبوط مستوى

الجيش ، هذا الجيش الذى قام تحت ضغط الظروف بمهمة الدفاع عن مصر »[١] .

انحطاط روح البيزنطيين المعنوية .

وهناك عامل آخر لم يذكره ماسبيرو ، بل تركنا نستنبطه من سياق الكلام ، ألا وهو انحطاط روح البيزنطيين المعنوية بعد انتصارات العرب على الفرس. فإذا سلمنا بما ورد فى تاريخ ميخائيل السورى ، لاحظنا أن هراقل بدلا من أن يعسكر فى الأراضى المعرضة للخطر لينظم الدفاع عنها ويرفع روح جنوده المعنوية ، يئس من النصر قبل أن يلتقى بالعدو على ساحة القتال . « ولما رأى امتداد التخريب والدمار ، رحل حزيناً عن أنطاكيا قاصداً القسطنطينية . ويروى أن كلمة وداعه كانت : « ابقى بسلام يا سوريا » . ثم كتب إلى ما بين النهرين ومصر وأرمنيا وإلى جميع الرومان الموجودين فيها يحذرهم من أن يشتبكوا فى معارك مع العرب وأن الذى يستطيع أن يحتفظ بوظيفته فايبقى هناك »[٢] .

هل فهم البطريرك قيرس ، محافظ الإسكندرية ، من هذه الرسالة أن الأمر متروك لتقديره الشخصى فانتهز الفرصة ليتفاوض مع عمرو ؟ هل عدل القائد العربى ، فى وقت من الأوقات ، عن غزو مصر مقابل جزية قدرها مائتا ألف دينار يسددها المصريون سنوياً ؟ لا يجوز على كل حال أن نهمل هذا الافتراض . فقد وردت فى تاريخ محبوب[٣] تفاصيل كثيرة عن هذه المسألة . ويقول المؤلف ــ ونحن نسوق ما جاء فيه دون أن نتمكن من التحقق من صحته ــ أنه عند ما أبرم الاتفاق ، حكم قيرس البلاد بحزم مدة ثلاث سنوات لم تطأ فيها قدم عربى أرض مصر خلالها . غير أن عدداً من

---

(١) النظام العسكرى لمصر البيزنطية ، ص ١١٦ — ١٣٢

(٢) تاريخ ميخائيل السورى ، ج ٢ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

(٣) كتاب الأعوان ، ترجمه ونشره Vasiliev فى P.O. ج ٨ ص ٤٧٤ .

أهالى مصر ذهب يشكو إلى الإمبراطور هراقل هذا البطريرك قائلا إنه يأخذ مال المصريين ليعطيه للعرب . فأقال هراقل البطريرك وأقام القائد « مانويل » محله . ولما طالب العرب مانويل بالجزية ، قال لهم : « لست بالأسقف قيرس الذى كان يعطيكم الذهب ليأمن من شركم ، فهو راهب كرس حياته لخدمة الله ، أما أنا فإنى رجل نزال وحرب وشجاعة . » ونستطيع تفسير إقالة قيرس بأن الإمبراطور قد عاوده حزمه مؤقتاً ورغب فى استئناف القتال .

وفعلا ، شعر الفرس والبيزنطيين بهبوط روحهم المعنوية عند ما سمعوا بانتصارات العرب الأولى . ويقص علينا ميخائيل السورى قصة تفسر لنا حالة تلك الشعوب عند ما خاضوا غمار الحرب ، فيقول : « كان أحد الأبطال ، وهو يرتدى درعه وحاملا أسلحة كثيرة ، يفر أمام عربى يلاحقه . وكان هذا العربى خالياً من السلاح ما عدا حربة كان يمسكها بيده ، ومرتدياً ملابسه الخفيفة . وما أن وصل الفارسى إلى قرية ، حتى وجد رجلا فى حقل فطلب إليه أن يدله على مكان يختبئ فيه حتى لا يراه مطارده . فأخفاه الرجل معتقداً أن عدد الذين كانوا يتبعونه كبير . وبعد فترة ، وصل رجل ليس عليه ما يدل على أنه جندى ، وكان يركب حصانه بطريقة تدل على أنه لم يتدرب على ركوب الخيل[1] . ودهش الفلاح ، وازداد عجبه عند ما رأى بساطة مظهر الرجل . وقال فى نفسه : « كيف يفر مرتجفاً ، هذا الرجل ذو الجسم الضخم والمنظر المخيف والذى يرتدى درعاً ويحمل أسلحة مختلفة ، أمام رجل نحيف ؟ » وقد اغتاظ الفلاح من هذا المنظر وأخذ يضحك من الفارسى ويسخر من فراره واختبائه من العربى ، وقد أجابه الفارسى : « لا تلومنى على مسلكى ولكن انتظر واصغ بعينيك لتصدق . » ثم أخذ سهماً وصوبه بقوسه إلى مجرفة حديدية فاخترقها وقال : « لقد صوبت نحو الحربى الذى رأيته مثل هذه الضربة عدة مرات ، ولكنه كان يبعد عنه السهام بيديه كما لو كان يطرد الذباب عنه .

---

(١) يقصد الطريقة البدوية .

ومن هنا تأكدت أن الله هو الذى منحهم النصر وما كان منى بعد ذلك إلا أن أدرت ظهرى ولذت بالفرار»[١] .

جـ - موقف الأقباط .

مرشدو العرب من اليهود :

رأى الإمبراطور هراقل فى منامه ، عند ما أخذ نجمه فى الأفول ، أن شعباً مختوناً سيثور عليه ويهزمه ثم يحكم العالم كله . واعتقد هراقل أن هذا الشعب ما هو إلا الشعب اليهودى ، فأمر فى الحال بتعميد جميع اليهود والسامريين الذين كانوا يقطنون فى مختلف ولايات الإمبراطورية[٢] .

ولم يكن اليهود فى ذلك الوقت يفكرون فى القيام بثورة ، ولم تكن عندهم الوسائل التى تسمح لهم بالقيام ضد الإمبراطورية البيزنطية . ولكن عند ما تغلغل العرب فى أراضى العدو ، تذكر اليهود أعمال العنف والاضطهاد التى تحملوها فى عهد البيزنطيين ، وعرضوا فى الحال على العرب الغزاة خدماتهم وأعطوهم المعلومات التى تفيدهم ، وبذلوا لهم المساعدة فى سوريا ومصر .

هل يصح أن نعتمد على هذه الأحداث ونقول إن الأقباط ، مثل اليهود ، أرادوا أن ينتقموا ممن اضطهدوهم فى تلك الظروف الحرجة ؟ لا نجرؤ على ذلك لأن الأقباط فوجئوا بتقدم العرب غير المنتظر ، فبقوا حيارى زمناً طويلا وتركوا الحوادث تقرر مصيرهم . ولما أرادوا أن يتخذوا موقفاً إيجابياً ، كان السيف قد سبق العزل ، لأن قرارهم جاء متأخراً .

ولو تواطأ العرب مع كبار الأقباط أن يخوضوا المعركة ، لاستطاعوا دون شك أن يعتمدوا على تعاون الشعب لهم . ولكن الشعب كان يجهل نيات العرب ،

(١) تاريخ ميخائيل السورى ، جـ ٢ ص ٤٢٢ .

(٢) ساويرس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الإسكندرية ، نشره Seybold ، بيروت ، ص ١٠٧ .

فخاف أن يظهر عداءه لبيزنطية أثناء المعركة ، قبل أن تصبح بيزنطيا على هاوية الانكسار .

كان الأقباط يريدون تغيير حكامهم .

اضطهد هراقل اليعقوبيين ليفرض عليهم الحل الذى اقترحه باسم « الاكتيز » ، ويعيدهم إلى الكنيسة البيزنطية ، فزاده كره الأقباط لبيزنطيا . ولكن هذا الاضطهاد لم يكن السبب الوحيد الذى دعى الشعب إلى الرغبة فى تغيير حكومته . لقد كان فى استطاعة هراقل أن يحد من الأثر السيئ الذى أحدثته سياسته الدينية فى روح هذا الشعب لو أنه خفض قيمة الضرائب . وكان القائد « نكيتاس » قد اختبر هذا الحل بعد انتصاره على « فوكاس » ، فأرجأ دفع الضرائب لمدة ثلاث سنوات . واعترف حنا النقيوسى « بأن المصريين أظهروا له ولاء عظيما »(١) .

والمعلوم أن المصرى كره دفع الضرائب منذ العصور القديمة ، فكان يظهر طاعته للحكام الذين كانوا يضربون صفحاً ، لسبب من الأسباب ، عن تحصيل الضرائب المستحقة عليه ، بينما كان لا يكتم عداوته للسلطة التى تفرض عليه تلك الضرائب .

وكتب « اميان مرسيلان » Ammien Marcellin ، المؤرخ الرومانى الذى عاش فى القرن الرابع . يقول : « كان المصريون فى العصور القديمة يعتبرون أنفسهم سذجاً فيما لو سددوا ما عليهم دون أن يضطروا إلى ذلك بالقوة ، أو على الأقل بالوعيد »(٢) . ويضيف « جاستون فييت » إلى ما تقدم « أنه فيما يختص بتلك المسألة المالية الحقيرة ، اقتصر الكتاب على ذكر ما ورد فى كتاب اميان مرسيلان أو خطاب من هادريان Hadrien . ولم يحاول

(١) تاريخ ، ص ٥٥٠ .

(٢) ذكره المسيو فييت فى دائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان « القبط » ؛ دينون Denon فى رحلته فى مصر العليا والسفلى ؛ وماسبيرو ورويار الخ . . .

أحد أن يلفت النظر إلى قوانين البطريرك بطرس الشهيد التى كانت تفرض بعض الواجبات على المرتدين الذين كانوا يرغبون فى العودة إلى حظيرة الكنيسة ، ولكن قانوناً من هذه القوانين كان غريباً فى حد ذاته إذ كان يرفع العقاب عن المسيحيين الذين كانوا يدفعون ضرائبهم عن طيب نفس متزهين أنفسهم باحتقارهم للمال »[١] .

وذكرت « جرمين رويار Germaine Rouillard » أن الشعب ، فى القرن الرابع ، كان يفتخر بالضرب الذى يناله من الجباة[٢] ، وأن إرادة الامبراطور تحطمت أمام مقاومة دافع الضرائب المصرى . وكانت المقاومة تزداد كلما ازدادت الضرائب المفروضة على الشعب تحت الحكم البيزنطى . وكان طبيعياً أن يصغى الشعب راضياً إلى وعود المنتصر بتخفيض الضرائب أو إلغائها جميعاً ، وأن الذين تعرضوا للموت والعذاب لتشبثهم بنظريتهم الخاصة بالطبيعة الواحدة ، أنكروا إيمانهم بالديانة المسيحية عند ما طولبوا بدفع الضرائب إلى الغزاة المسلمين »[٣] .

هل استقبل الأقباط المسلمين كمحررين ؟

لما توغل العرب فى الأراضى المصرية ، كان الأقباط يجهلون كل شىء عن نواياهم ، فلا يعلمون إذا كان العرب سيرغمونهم على اعتناق الإسلام ، أو سيصادرون أملاكهم ، أو سيحتفظون بنظام الضرائب البيزنطى . وظلت هذه المسائل محل استفهام الأقباط ، فلم يدركوا أغراض العرب إلا أثناء حصار حصن بابليون ، أى عند ما أثيرت مسألة الهدنة بين المتحاربين ، وأدرك الأقباط حينئذ أن الحاكم العربى أكثر تسامحاً من الحاكم الفارسى أو الحاكم البيزنطى ، إذ خيرهم بين حلول ثلاثة : إما اعتناق الديانة الإسلامية والامتناع عن دفع

(١) ذكره فى دائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان « القبط »

(٢) (الطبعة الثانية) *L'administration civile de l'Égypte byzantine*, p. 184

(٣) Mgr. Duchesne, *Histoire de l'Église au VIe siècle*, p. 425.

الضرائب ، وأما قبول الحماية الإسلامية مع دفع دينارين عن كل رجل يصلح للقتال ، وإما استئناف القتال وقبول ما يترتب عليه من نتائج .

زد على ذلك أن العرب لم يحاولوا قط أن يطمئنوا الشعب المصرى على نواياهم ، إذ كانوا يجهلون اللغتين اليونانية والقبطية ، كما لم يحيطوا أعمالهم الحربية بأية دعاية . ومع أنهم قاتلوا — على عكس الفرس — بشيء من الرفق ولم يقوموا بأعمال تخريبية منظمة أو باهراق دماء الشعب ، إلا أنهم تمادوا مضطرين فى بعض الأحيان فى اقتراف أعمال مشينة وحركات قمع دامية مما لم يساعدهم على كسب ثقة الشعب وعطفه عليهم .

وقد اهتم الأسقف حنا النقيوسى — وهو المصدر الوحيد المعاصر للحملة — بالشكوى من هذا التمادى أكثر من ذكر الأعمال التى تشرف الفاتح ، فيطلعنا فى تاريخه على سيئات الفتح . ولم نستطع مع الأسف أن نتحقق من صحة أقواله ، لأن المؤرخين العرب لم يتحصلوا ، عند ما كتبوا مؤلفاتهم ، على جميع تفاصيل المعارك . ويقول مثلا حنا النقيوسى « أن عمراً أمر بإلقاء القبض على القضاة الرومان وتكبيل أيديهم وأقدامهم بسلاسل حديدية وأوتاد خشبية ، وأغتصب الأموال وضاعف الضرائب المفروضة على الفلاحين ، وكان يضطرهم أن يحضروا علف الخيل كما أنه اقترف كثيراً من أعمال العنف » (١) .

وقد يكون حماس المسلمين الدينى سبباً فى إرتكاب بعض الأعمال العنيفة . فيقول حنا النقيوسى أيضاً : « أنه عند ما يدخل المسلمون المدن ، ومعهم المصريون الذين ارتدوا عن المسيحية ، كانوا يستولون على أملاك المسيحيين الفارين ويسمون خدام المسيح أعداء الله . »

وعلى كل ، لم يستطع الأقباط أن يستقبلوا العرب كمحررين ، ذلك لأن الغزاة كانوا يدينون بديانة أخرى . حقاً ، لقد حرر العرب اليعقوبيين من نير البيزنطيين ، ولكن لم يكن هؤلاء اليعقوبيون يرتاحون إلى حكام

---

(١) تاريخ ، ص ٥٦٠ — وسنذكر فيما بعد أوراق البردى التى تتعلق بالفتح .

آخرين عقيدتهم تخالف العقيدة المسيحية .

وأننا لو درسنا سلوك الأقباط فى مختلف أدوار المعركة ، لاستطعنا أن نلقى ضوءاً على موقفهم ، ولكن يجدر بنا ، قبل ذلك ، أن نذكر شيئاً عن شخصية المقوقس الغامضة .

صعوبة تحقيق شخصية المقوقس .

إن الشخص الذى يطلق عليه مؤرخو العرب اسم المقوقس ، لم يزل غامضاً . هل كان قبطياً ؟ هل كان من أصل يونانى ؟ هل المقوقس الذى سلّم القاهرة ، هو نفسه الذى أبرم اتفاقية الإسكندرية ؟ لم يصل المستشرقون ، بعد بحث وتنقيب خلال قرن أو أكثر ، إلى جواب دقيق على هذه الأسئلة . نعم ، إننا اليوم أقرب إلى الحقيقة من أمثال « شامبليون — فيجاك » Figeac - Champollion[1] ، وهو شقيق شامبليون ، الذى صور لنا قيرس على أنه قس قلق ومفسد ، خلف البطريرك جورج عام ٦٣٠ ، بينما حكم مصر أحد الأقباط ، كريم الأصل ومن أغنى أغنياء البلاد ، اسمه المقوقس . غير أن المستندات التى تحصلنا عليها حتى الآن ، لا تسمح لنا بعد بتفسير هذا اللغز التاريخى تفسيراً تاماً .

استعمل المؤرخون كلمة « مقوقس » باعتبارها اسم شخص معين ، على أننا متأكدون تقريباً من أصل هذه الكلمة : إن البطريرك قيرس ، الذى عينه الإمبراطور هراقل محافظاً على دوقية الإسكندرية ، كان قبل تعيينه اسقفاً لمدينة « فاز » ، وهى من مدن القوقاس . فلقب فى مصر بلقب « قوقيوس » (القوقاسى) كما يشهد على ذلك أحد المستندات القبطية النادرة التى كشف عنها وأشار عليها « إميلينو » Amélineau : « . . . أما القوقيوس ، هذا الأسقف المزعوم ، فقد ترك الحقد يوعز فى صدره إلى أن

(١) *L'Egypte ancienne*, Coll. " L'Univ. Pittoresque", p. 480 (a)

وصل إلى مدينة الفيوم[١] . . . ولما أدرك الأب صموئيل أنه سيفارق الحياة ، قال له (أى للقوقيوس) : « أنت أيضاً أيها الكلسيدونى المخادع . . . .[٢]

وإنه من المرجح أن العرب حرفوا هذا الاسم . والمسألة فى ذاتها ليست خطيرة . ولكن الخطر كل الخطر هو ذلك اللبس الذى وقعوا فيه عند ما كانوا يتحدثون عن محافظى مصر المختلفين . ويبدو أنهم أهملوا هذه الحقيقة ألا وهى أن كل محافظ (دوق) كان مسئولا أمام بيزنطيا مباشرة وعليه أن يرفع تقاريره إلى رئيس الإدارة الشرقية فقط . حقاً ، ان قيرس ، بطريرك ودوق الإسكندرية ، كان يتمتع بمركز ممتاز بالنسبة إلى سائر الدوقات ، لأنه كان مكلفاً بجباية الضرائب إلى جانب وظيفته . وبعد ، إنه لم يكن يستطيع الخروج على النظام المتبع أو أن يفرض سياسته الشخصية على زملائه أو أن يبرم اتفاقات مع الفاتح ، ثم يوقعها بالنيابة عنهم .

ونميل إلى الاعتقاد — دون أن نجزم قطعياً — بأن المقوقس الذى فاوض فى تسليم بابليون هو شخص آخر غير البطريرك قيرس الذى أبرم صلح الإسكندرية ، بل أنه حاكم قبطى . وأمسك المؤرخون العرب عن التثبت من شخصية هذا الحاكم ، على أن المؤرخ الكاثوليكى ابن بطريق يشير إلى المقوقس على أنه « يعقوبى مبغضاً للروم ، إلا أنه لم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالة اليعقوبية لئلا يقتلوه » . ويتهمه ابن بطريق ، إلى جانب ذلك ، بأنه « قد اقتطع أموال « مصر » من وقت حصار كسرى للقسطنطينية[٣] ، فكان يخاف أن يقع فى يد هراقل الملك فيقتله »[٤] .

ماذا كان يقصد المؤرخ من كلمة « مصر » ؟ هل كان يعنى بها

---

(١) كانت الفيوم تابعة لدوقية الإسكندرية .

(٢) *Fragments Coptes pour servir à l'histoire de la conquête de l'Égypte par les Arabes*, Journal asiatique, nov. — déc. 1888.

(٣) أى عام ٦١٩ ميلادى .

(٤) ابن بطريق ، كتاب التاريخ ، نشره الأب شيخو ، ص ٢٢ .

البلاد كلها ؟ لا أظن هذا . إن الذين كتبوا التاريخ باللغة العربية ، كانوا يستعملون هذه الكلمة فى البداية للإشارة إلى المدينة نفسها . وجاء بعد ذلك المقريزى ، فأراد أن يدقق فى المعنى ، ففرق بين « أرض مصر » (أى القطر كله) و « فسطاط مصر » (أى المدينة) .

والذى يحملنا أيضاً على الاعتقاد بأن حاكم بابليون أيام الحملة كان قبطياً ، هو الفرق الواضح بين اتفاقيتى القاهرة والإسكندرية . فبينما تعنى اتفاقية الإسكندرية صراحة بمصير اليونانيين ، لم تهتم اتفاقية بابليون إلا بمصير الأهلين . وأبى إبن عبد الحكم أن يترك شكاً فى هذا الموضوع ، فأضاف ، بعد أن ذكر الاتفاقية الموقع عليها فى بابليون ، ما يأتى : « هذا كله على القبط خاصة » . ومن جهة أخرى ، أراد المقوقس أن يخطر عمرا قبل دخول الاتفاقية فى دور التنفيذ : فقال له ، « إنما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى ، وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم ولم يأت من قبلهم نقض ، وأما الروم ، فأنا منهم برىء »[1] . ويحدثنا ابن بطريق عن المقوقس بأنه « احتال على الروم » وقال لعمرو سراً : «أما الروم ، فإنى برىء منهم ، وليس دينى دينهم ولا مقالتى مقالتهم ، إنما كنت أخاف منهم القتل ؛ فلذلك كنت أستر دينى ومقالتى من مقالتهم وأكتم ذلك »[2] .

ريبة الأقباط وحيرتهم .

إذا عجزنا إلى الآن من التأكد من شخصية الحاكم الذى قام بدور المفاوضات أثناء حصار بابليون ، وبالتالى إذا تعذر علينا وجود علاقة بين موقفه وشعور مواطنيه بالنسبة للغزاة العرب ، ففى مقدورنا أن نؤكد أن موقف

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢ .
(٢) ابن بطريق ، ص ٢٤ .

الأقباط خلال الغزو كان سلبياً . وقد لخص الأب « جانو » موقفهم فى قوله : « إنهم لم يقوموا بأى مجهود لوقف الكارثة ، ولكنهم احتموا خلف أسوار المدن التى لم يجرؤ العرب بعد على اقتحامها ، وانتظروا هجومهم عليها» [١].

وكتب أحد الأدباء المصريين المعاصرين ، بعد دراسة طويلة لعصر الخلفاء الراشدين مستنداً إلىالنصوص العربية ، يقول : « لا شك أن القبط لم يعاونوا الروم فى قتال العرب إلا بالقدر الذى يضطرهم إليه خضوعهم كارهين لسلطان قيصر وعماله . ولكن لا شك كذلك فى أنهم لم يعاونوا العرب ، إلا أن تكون معاونات فردية . أما فيما وراء ذلك ، فقد وقف شعب مصر من الفريقين المتحاربين موقف المتفرج شديد التطلع »[٢] .

ولما كان الشعب قد أفسدته العبودية ، فكان يتحمل تبدل سادته بشىء من عدم المبالاة على الرغم من الشعور الوطنى الذى بدأ يظهر عنده .

ولنعد الآن إلى صلب الموضوع .

بينما كانت جيوش عمرو تشق لنفسها طريقاً إلى الفرما ، الواقعة على حدود مصر الشرقية ، بعد أن بذلت جهوداً كبدتها خسائر فى الأرواح ، ظل الشعب ساكناً . أما البطريرك بنيامين ، فكان يعيش مختبئاً . وقد ادعى بعض المؤرخين أنه حينما علم هذا البطريرك بدخول العرب ، وجه رسالة إلى جميع الأساقفة يطلب إليهم فيها أن يناصروا الغزاة[٣] . ولكن الأحداث التى وقعت بعد ذلك تكذب هذا الزعم الذى أهمله المؤرخون اللاحقون .

وقد قام العرب بحصار حصن بابليون مدة طويلة ، مما أرغم البيزنطيين على الدفاع دون الهجوم لقلة عددهم وضعف خططهم العسكرية . ولم تصل إلى البيزنطيين النجدة بينما كانت قوات عربية تصل باستمرار لتعزز مواقع

---

(١) فى المقال المذكور أعلاه *Les chrétiens devant l'Islam :*
(٢) محمد حسين هيكل باشا ، الفاروق عمر ، ج ٢ ، ص ٩٤ و ٩٥ .
(٣) نسب ابن الحكم هذا التصريح إلى أحد وجهاء مصر ، ص ٥٨ .

المحاصرين . ومع ذلك ، لم نعثر على نص واحد يشير إلى أن الأقباط قدموا أية مساعدة إلى جيش عمرو أثناء هذا الحصار الطويل .

ثم ظهر المقوقس ، فخاطب الحامية قائلا : « إن العرب قد جاءهم نجدة وليس لنا بهم طاقة ، ولا نأمن منهم أن يفتحوا القصر (حصن بابليون) فيقتلونا[١] . ولكن نسدّ أبواب الحصن ونصيّر عليها مقاتلة ونخرج من القصر إلى الجزيرة فنقيم بها ونتحصن بالبحر . فخرجوا (كذا) الروم ومعهم المقوقس وجماعة من أكابر القبط من باب القصر القبلى ودونهم جماعة يقاتلون العرب . فركبوا المراكب ولحقوا بالجزيرة وقطعوا الجسر وكان ذلك فى وقت جرى النيل . » ولعل هذا العرض كان خدعة من المقوقس ليخرج الروم من الحصن .

غير أن ابن عبد الحكم لم يتهم المقوقس بالخيانة بل روى أن الزبير ورجاله وصلوا إلى باب الحصن واقتحموه . « فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه ، سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه ، على أن يفرض العرب على القبط دينارين دينارين على كل رجل منهم »[٢] . وهكذا فكر المقوقس فى هذه الآونة الحرجة أن يؤمن مستقبل مواطنيه الأقباط على حساب العناصر البيزنطية .

ومهما كان من الأمر ، فإن المفاوضات استغرقت وقتاً طويلا . ويقول ابن عبد الحكم وابن بطريق فى هذا الصدد أن قائد الحصن حاول الحصول على صلح بأحسن شروط ممكنة ، فخاطب العرب قائلا : « إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا دائماً ، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح . وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فابعثوا إلينا رجلا منكم نسمع من كلامكم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون

(١) ابن بطريق ، ص ٢٢
(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٣

ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم ... »[١] .

ولكن العرب لم ينخدعوا بهذا الكلام ، فأرسل إليهم عمرو من يقول لهم : « ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، أما ان دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم ، فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وأما ان جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . »

ثم جاء عبادة ، أحد المتفاوضين ، فأضاف إلى العرض الثانى ما يلى : « إن أبيتم إلا الجزية ، فأدّوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن ، وأنتم فى كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم . وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا »[٢] .

ويقول لنا المؤرخون المسلمون ان الأقباط تلقوا هذه العروض بفتور ، إن لم يكن بالامتعاض ، بالرغم من أنهم كانوا يشعرون بأنهم خسروا المعركة . ويقول ابن عبد الحكم إن الذين كانوا فى حاشية المقوقس أجابوه : « أو يرضى أحد بهذا الذل ؟ أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم ، فهذا ما لا يكون أبداً ، أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين غيره لا نعرفه ، وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداً ، فالموت أيسر من ذلك ، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً ، كان أهون علينا »[٣] .

وقد حاول المقوقس أن يعقلهم قائلا : « إذاً أخبركم ، أما دخولكم فى غير دينكم ، فلا آمركم به ، وأما قتالهم ، فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » . قالوا : « أفنكون لهم عبيداً أبداً ؟

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٥

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٩

قال : « نعم تكونوا عبيداً مسلطين فى بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا فى البلاد ، مستعبدين أبداً ، أنتم وأهلوكم وذراريكم » . ولكنهم قالوا : « الموت أهون علينا »[١] .

وأخيراً انتهى الأمر بقبول حماية العرب ، وقد سارع عمرو إلى عقد الهدنة ، فلامه على ذلك الزبير إذ كان يريد اقتحام الحصن واستعباد السكان بعد توزيع أملاكهم على المجاهدين .

وبعد أن قبل الأقباط الحماية ، أى بعد أن شعروا بانكسارهم ، عرض بعضهم خدماتهم على العرب . وتشير كتب التاريخ إلى ذلك بكل وضوح . فيقول ابن الحكم : « خرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج وخرج معه جماعة من رؤساء الأقباط ، وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعواناً على ما زادوا من قتال الروم[٢] . ويؤكد حنا النقيوسى هذا القول . فبعد أن وصف احتلال بابليون والفيوم ومهاجمة الإسكندرية ، كتب يقول : « وهنا بدأوا يبذلون المساعدة للمسلمين »[٣] .

ويتضح من ذلك أن الذين قاموا بتقديم المساعدة هم الأقباط الذين أخضعهم المسلمون ، أى الأقباط الذين لمسوا بأنفسهم تسامح حكامهم الجدد . أما الأقباط الباقون ، فلا يزالون على عدائهم لهم . ويلاحظ حنا النقيوسى أنه حدث أثناء زحف العرب نحو الجزء الشمالى من الدلتا « ذعر فى جميع بلاد مصر إذ كان الأهلون يفرون إلى الإسكندرية تاركين ممتلكاتهم ومواشيهم[٤]

وقد صمدت الإسكندرية مدة أربعة عشر شهراً ؛ وكان فى وسعها أن تقف فى وجه العرب أكثر من ذلك وتهزمهم لو وصلتها نجدات كاملة ولو لم

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٩

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٧٣

(٣) حنا النقيوسى ، ص ٥٥٩

(٤) حنا النقيوسى ، ص ٥٦٠

يتضجر سكانها من القتال . « ولم يكن قيرس البطريرك الكالسيدونى الرجل الوحيد الذى يرغب فى السلام بل إن السكان والحكام و « دومنسيوس » صاحب الحظوة لدى الإمبراطورة « مارتين » اجتمعوا وتشاوروا مع البطريرك قيرس لتوقيع وثيقة الصلح مع المسلمين »[١] .

وعند ما دخل عمرو المدينة « استقبله الأهلون بالاحترام على الرغم مما أصابهم » .

وبديهى أن العرب أيضاً قد تعبوا من الحرب بدليل أن عمراً أوقف رحى القتال مدة أحد عشر شهراً لكى تتمكن حامية المدينة من الجلاء عنها بأسلحتها وعتادها[٢] .

وإذا أردنا أن نلخص رأينا فى هذه المسألة أحسن تلخيص ، فلنذكر النص الذى يصف به المستشرق « دى جوييه » De Goje موقف المواطنين السوريين من الغزاة العرب . فهو يقول : « كانوا يشاهدون كمتفرجين اجتياح القوات العربية لأراضيهم ، وقد تتبعوا بشىء من الفضول الأحداث التى فرضت عليهم واحداً من الخصمين المتقاتلين . وعلى أى حال ، فقد أظهروا شيئاً من العطف نحو العرب خاصة عند ما تأكدوا من أن العرب لا يهدفون إلى السلب والنهب وأنهم يعاملون باللين والرفق جميع الذين يخضعون إليهم بمحض إرادتهم »[٣] .

---

(١) حنا النقيوسى ، ص ٥٧٣

(٢) حنا النقيوسى ، ص ٥٨٣

(٣) *Mémoire sur la conquête de la Syrie*, p. 30

٣

الشريعة الإسلامية وأهل الذمة

كان العرب يجهلون فن الحكم ، فشغلتهم إدارة الأراضى المحتلة جدياً . أضف إلى ذلك أن القرآن بتعليماته الدقيقة فيما يجب إتباعه حيال أهل الذمة لم يسهل المهنة الملقاة على عاتق الحكام الذين اضطروا إلى تجاهل بعض تعليمات القرآن والحديث أو تفسيرها حسب أهوائهم .

وهكذا تعرضت هذه المبادئ ، منذ بداية الفتح ، لبعض التعليقات الخطيرة ، فازدادت الفوارق بين المبدأ الذى كان يشتد أحياناً على أهل الذمة ويذلهم ، وبين تطبيقه .

ويجدر بنا أن نستعرض بإيجاز الشريعة الإسلامية ولا سيما فيما يتعلق بتشغيلهم فى الإدارة الإسلامية وبزيهم الخارجى حتى نجيد فهم الأحداث التى حاقت بمصر الإسلامية .

أهل الذمة فى القرآن .

تحدث القرآن أكثر من مرة عن أهل الذمة بأسلوب واضح وتارة بأسلوب يحتاج إلى بعض التعليقات . وهذه بعض آياته :

سورة آل عمران آية ٢٨ : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .

سورة المائدة آية ٥١ : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين .

سورة التوبة آية ٨ : كيف وإن يظهروا عليكم ولا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .

شروط عمر .

خضع أهل الذمة أيضاً إلى « شروط عمر ». إننا نجهل كيف سنّ هذا التشريع بالتدقيق . وكان المؤرخون أمثال ابن عبدالحكم والكندى والبلاذرى لا يعلمون بها . ولا شك أن بعض نصوصها وردت فى كتب التاريخ والقانون ، ولا سيما النصوص الخاصة بالزى الخارجى . أما القلقشندى ، فهو الذى أعطاها صبغتها الرسمية عند ما ذكرها فى كتاب « صبح الأعشى » . ومع كل ، لا نستطيع إغفالها لأن بعض ولاة مصر والعالم الإسلامى رجعوا إليها فى ظروف مختلفة .

ولم تصطبغ هذه الشروط بالصبغة المعروفة للأوامر الإدارية . فقد وضعت على شكل خطاب حرره أهل سوريا ورفعوه إلى الخليفة عمر ليصدق عليه . وهذا هو نص الخطاب كما ورد فى كتاب « صبح الأعشى » :

« هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا .

« إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا تحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها قلّيّة (بيت عبادة) ولا صومعة راهب ، ولا نجدد ما خرب منها ، ديراً ولا كنيسة ، ولا تخفى ما كان منها فى خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ، ولا نأوى فى منازلنا ولا كنائسنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقر المسلمين ونقوم لهم فى مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم فى شىء من لباسهم ، فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم

ولا نتكنى بكنيتهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمور ، وأن نجزّ مقادم رؤوسنا ، وأن نلزم ديننا حيث ما كنا ، وأن نشد زنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ولا كتبنا فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب بنواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً[1] . ولا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا ولا فى شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم فى شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما يجرى عليه سهام المسلمين ولا نطلع عليهم فى منازلهم » .

« قال عبد الرحمن بن غُنم : فلما أتيت عمر بالكتاب زاد عليه : ولا نضرب أحداً من المسلمين . شرطنا ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان . فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق »[2] .

وقام القلقشندى بعد ذلك بتلخيص الشروط المفروضة على أهل الذمة ، وهى كالآتى : الجزية ، والضيافة ، والانقياد لأحكامنا ، وأن لا يركبوا الحمير بأن يجعل الراكب رجليه من جانب واحد ، وأن ينزلوا المسلمين صدر

---

(١) كتب الأب اليسوعى « سيكار » Sicard فى مجموعة الرسائل المعروفة باسم Lettres Edifiantes فى صفحة ٢٢٥ عن استعمال الأجراس فى القرن السابع عشر فى الأديرة قائلا : « هناك جرس ارتفاعه قدمان وقطره قدمان ، معلق إلى برج الدير ، يدعونا إلى الترنيم وإلى جميع صلوات الجماعة . إن دقات الأجراس هذه موسيقى غريبة فى هذاالصحراء وخاصة بين الأتراك » . متى استعمل الأجراس فى مصر ؟ لا يمكننا الإجابة على هذا السؤال وسأل الأستاذ حبيب زيات فى دراسة نشرت فى مجلة المشرق سنة ١٩٣٨ نفس السؤال دون أن يجيب عليه . وقد ذكر الأب فانسليب الدومينيكانى Nouvelle Relation ص ٢٩٣ إلى ٣١٣ الذى يقول إنه رأى فى كنيسة القديسين بطرس وبولس فى الصحراء جرساً صغيراً يستعمل لدعوة الرهبان إلى الصلاة وإلى أشغال أخرى . ولما كان استعمال الأجراس فى لبنان — وهو بلد مسيحى — نادراً جداً إلى بداية القرن التاسع عشر ، يستنتج الأستاذ زيات من ذلك أن استعمال الأجراس دخل مصر متأخراً .

(٢) كتاب « صبح الأعشى » طبع دار الكتب المصرية

المجلس وصدر الطريق ، والتمييز عن المسلمين فى اللباس ، وأنهم لا يرفعون ما يبنونه على جيرانهم من المسلمين ، وأنهم لا يحدثون كنيسة ولا بيعة فيما أحدثه المسلمين من البلاد .

عدم إباحة أهل الذمة الانخراط فى خدمة المسلمين.

أهملت شروط عمر نقطة فى غاية الأهمية وهى هل يستطيع المسلمون استخدام المسيحيين فى أعمالهم ؟ لا شك أن الخليفة لما رأى أن القرآن أجاب على هذه المسألة بالنفى ، أهمل ذكرها من جديد وتمسك بتعاليم القرآن طوال مدة خلافته . ويقدم لنا أحد المتفقهين فى الشريعة ، وهو محمد بن على ابن عبد الواحد بن يحيى المعروف بابن النقاش[1] أمثال عديدة :

« قال أبو موسى الأشعرى للخليفة : « استخدمت رجلا نصرانياً » . فأجابه الخليفة : « ماذا فعلت أيها الرجل ؟ إن الله سيعاقبك ، ألم تدرك معنى قول الله تعالى هذا : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين (سورة المائدة ، الآية ٥١) » . فقلت : « يا أمير المؤمنين ، استخدمته للكتابة فقط وتركت جانباً عقيدته . » فأجابه عمر : « ليس هذا عذراً ولن أشرف أبداً الذين احتقرهم الله ، ولن أرفع أبداً الذين وضعهم الله فى حالة دنيئة ، ولن أقترب من الذين أبعدهم الله منه » .

وكتب إلى الخليفة أحد قواده ليستعلم بخصوص إدخال الكفار فى الوظائف العامة فقال : « إن الأموال تدفقت على الخزينة بكثرة ولا يستطيع غيرهم

---

(١) كان ابن النقاش فقيهاً من الدرجة الأولى وخطيباً لمسجد ابن طولون . وكان يعطى دروساً فى هذا الجامع وفى بعض مساجد القاهرة . وحسده على مركزه الحاسدون وتوفى فى سوريا سنة ٧٦٣ (١٣٦٢) . وقد اعتمدنا على رأيه لسببين : أولا لأنه كان يقيم بمصر ويتحدث فى كتبه الفقهية عن الأقباط بوجه خاص ، ثم إنه عاش بمصر فى زمن كانت البلاد تتمتع بالاستقلال وكان المسلمون يسيطرون على حالة البلاد سيطرة تامة .

أن يقوم بالأعمال الحسابية . قل لى حينئذ ما يستحسن عمله . » فأجابه عمر : «لا تشركوا الكفار فى أعمالكم ، لا تعطوهم ما حرمه الله عليهم ، ولا تضعوا ثروتكم فى أيديهم ، ولاتنسوا هذه المبادئ التى يجب أن يسير عليها كل رجل . »

« وكتب أيضاً الخليفة إلى أحد قواده : « إن الذى يستخدم كاتباً نصرانياً يجب ألا يشاطره فى حياته أو يكن له عطفه أو يجلسه بجانبه أو يستشيره ، لأن النبي والخليفة أمرا بألا يستخدم الذميين فى الوظائف . »

وتلقى الخليفة رسالة من معاوية بن أبى سفيان يقول فيها : « يا أمير المؤمنين ، إنى أستخدم فى ولايتى نصرانياً لا أستطيع بدونه أن أجمع الخراج ، ولكن أردت قبل أن يقوم بهذا العمل أن أنتظر أوامركم . » فأجاب الخليفة : « ادعو الله أن يقينى هذا الشر ! قرأت الرسالة التى وجهتها إلىّ بخصوص النصرانى . واعلم أن هذا النصرانى قد توفى والسلام ! »

أما رأى الفقيه ابن النقاش ، فليس أقل صراحة من رأى عمر نفسه بالرغم من أنه صدر بعد سبعة قرون . فقد سئل الفقيه : « ما هو رأى علماء الإسلام ، وهم قادة الشعوب ، فيما يختص باستخدام الذميين وبالاستعانة بهم بصفة كتاب لدى الأمراء لإدارة البلاد أو لجباية الخراج ؟ أهو عمل شرعى أم محرم ؟ . » فأجاب ابن النقاش : « اعلم أن الشرع لا يسمح باستخدام الذميين وهذا رأى جميع المسلمين . أما العلماء ، فقد أفتوا بعدم استخدام الذميين ، فحرموه بتاتاً أو أعربوا على الأقل عن عدم رضائهم . وقد علمنا الله تعالى أن أهل الكتاب (النصارى واليهود) يعتقدون أنهم لا يخطئون إذا خذلوا المسلمين أو إذا استولوا على أملاكهم . وفعلا قال الله تعالى : « قد بين أهل الكتاب من تودع عندهم قنطاراً (أى ألف دينار) ثم يردوه إليك ، وقد تجد بينهم من لا يردوا إليك ديناراً واحداً إلا إذا اضطروا إلى ذلك لأنهم يقولون : « لا عهد بيننا وبين أنصار النبى »[1] . ويمكن تطبيق هذا الكلام

(١) لم يذكر ابن النقاش نصوص القرآن ، ولكنه فسر معنى الآية ٧٥ من سورة آل عمران .

على أقباط مصر الذين يعتقدون أنهم غير مرتبطين بعهد مع المسلمين ويظنون أنهم إذا سلبوا أملاكهم ورجالهم ، فقد يستردوا جزءاً يسيراً من الأملاك والرجال الذين فقدوهم في الأزمنة الماضية .

« فإن قيل ان الآيات التي ذكرتها تتعلق فقط بشعور الصداقة نحو النصارى بينما أن المسألة تتعلق باستخدامهم في الوظائف العامة ، أقول : « لا يستخدم الإنسان إلا من يثق به لأنه قد يحب فيه الصفات التي تدفعه إلى الأمانة . فإذا استخدمت رجلا أميناً ، فأظهرت له صداقتك ، وهي عنوان الثقة بينك وبينه ، تكون بذلك قد توليته . وعلى أي حال ، فإن الله تعالى حلّ المشكلة الخاصة بالذميين حلا قاطعاً إذ قال : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » (سورة المائدة الآية ٥١) .

وحاول ابن النقاش أن يواسي الذين قد يضطروا إلى الاستغناء عن مستخدميهم النصارى تنفيذاً لما جاء في القرآن وأمر السلطان ، فيقول لهم : « إن النصارى يجهلون مبادئ الحساب بل يجهلون مبادئه الأولية لأنهم يضعون ثلاث وحدات في وحدة ، ووحدة في ثلاث وحدات » (ويلمح ابن النقاش هنا إلى مبادئ النصارى الدينية)[1] .

إن تفسير القرآن مهمة صعبة ودقيقة . فقد علق بعض فقهاء الإسلام على الآيات القرآنية بوجوب إبعاد أهل الذمة من المناصب الرسمية مع أن القرآن لم يذكر ذلك بصريح العبارة . ولكن ألم يكن الفقهاء مستشاري الحكومات الإسلامية ؟

القيود الخارجية المفروضة على أهل الذمة .

توسع أشهر الفقهاء في تفسير بعض شروط عمر . فتحدث قاضي بغداد

---

(١) لم نعثر على المخطوط العربي لابن النقاش واعتمدنا مضطرين على ترجمة Belin الفرنسية وترجمناها بدورنا إلى العربية .

أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ، الذى عاصر الخليفة هارون الرشيد ، فى « كتاب الخراج »[١] عن القيود المفروضة على أزياء أهل الذمة ، تلك القيود التى سنعود إلى ذكرها أثناء حديثنا . قال أبو يوسف إلى الخليفة : « ينبغى أن تختم رقابهم فى وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ، ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف أن سألوا كسرها ، وأن يتقدم فى أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا فى مركبه ولا فى هيئته ، ويؤخذوا بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده فى وسطه كل واحد منهم ، وبأن تكون قلانسهم مضربة وأن يتخذوا على سروجهم فى موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية ، ولا يحذوا على حذو المسلمين ، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ويمنعوا من أن يحدثوا بناء بيعة أو كنيسة فى المدينة إلا ما كانوا صولحوا عليه وصاروا ذمة وهى بيعة لهم أو كنيسة . فما كان كذلك تركت لهم ولم تهدم وكذلك بيوت النيران ، ويتركون يسكنون فى أمصار المسلمين وأمصارهم وأسواقهم يبيعون ويشتدون ولا يبيعون خمراً ولا خنزيراً ، ولا يظهرون الصلبان فى الأمصار ولتكن قلانسهم مضربة[٢] . فمر عمالك أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى ، هكذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزى ، وقال حتى يعرف زيهم من زى المسلمين . »

وقال أبو يوسف أيضاً : « حدثنى عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه : أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامل له ، أما بعد ، فلا تدعن صليباً ظاهراً إلا كسر ومحق ، ولا يركبن يهودى ولا نصرانى على سرج وليركب

---

(١) طبع بولاق سنة ١٣٠٢ ، ص ٧٢ و ٧٣ .

(٢) يبدو أن مسألة الملابس هذه قد أخذت دوراً هاماً عند العرب . ويقص علينا الكندى قصة قلنسوة كادت تنتهى بمأساة . فقد لاحظ القاضى ابن أبى الليث أن القضاة التابعين له كانوا يبالغون فى تطويل قلنسوتهم ، فأمرهم بتقصيرها وأقسم أن يقطع رأس كل من يخالف هذا الأمر (كتاب الولاة والقضاة ص ٤٦٠) .

على إكاف ، ولا يركبن امرأة من نسائهم على رحالة وليكن ركوبها على إكاف ، وتقدم فى ذلك تقدماً بليغاً وامنع من قبلك فلا يلبس نصرانى قباء ولا ثوب خز ولا عصب . وقد ذكر لى أن كثيراً ممن قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ، ولعمرى لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك إن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة ، وأنهم حين يراجعون ذلك ليعلمون ما أنت ، فانظر كل شىء نهيت عنه ، فاحسم عنه من فعله والسلام » .

وإن هذه الفقرة لتدل بوضوح على أن هذه القيود قد خرقت أحياناً بُعيد ظهورها . وترجع أسباب هذه المخالفات أكثر ما ترجع إلى اعتبارات مالية وسياسية . وسنتحقق من ذلك بوضوح عند ما نتكلم عن عهد الولاة .

٤

أحوال الأقباط الحقيقية تحت حكم الولاة

١ ـ طابع الاحتلال العربى

حسن معاملة الفاتحين .

كيف عامل العرب المصريين لما احتلوا بلادهم ؟ جهل مؤرخو العرب تفاصيل هذا الموضوع ولكن حنا النقيوسى لم يتردد فى إبراز صورة كئيبة لهذا الاحتلال لم يغفل فيها حوادث القتل والسلب والنهب والتخريب إلخ . . .

لا بد أن تصحب الحملات الحربية أعمال العنف ، خاصة إن كان أصحابها مدفوعين بحرارة الإيمان . ولكن بينما يؤكد أسقف نيقيا سوء استغلال العرب لانتصاراتهم ، إذا العثور حديثاً على بعض أوراق البردى التى يرجع عهدها إلى الفتح الإسلامى يثبت لنا مسلك العرب المشرف حيال أهل الذمة .

ولدينا وثيقتان تنطقان بهذا ، اكتشفهما البروفسور « جروهمان »(١) ، يرجع تاريخهما إلى سنة ٢٢ هجرية (٦٤٢ م) ، وتقول الوثيقة الأولى : «باسم الله! أنا الأمير عبد الله أكتب إليكما أنتما ، خريستوفوروس وتيودوراكس ، باجارك (Pagarques) هيرا كليوبولس . قد أخذت منكما خمساً وستين نعجة لأطعم الجند الذين معى ، أعيد ما قلته : خمساً وستين نعجة لا أكثر وليعلم الجميع ما فعلت ، كتبت الإقرار هذا وحرره الشماس يوحنا ، مسجل العقود ، فى اليوم الثلاثين من شهر برمودا من التوقيت الأول . »

وقد تحرر هذا النص باللغة اليونانية وألحق به نص آخر باللغة العربية

---

(١) Adolf Grohmann, *Aperçu de papyrologie arabe,* نشرته جمعية فؤاد الأول لأوراق البردى فى Etudes de Papyrologie الجزء الأول .

يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما أخذه عبد الله بن جابر وزملاؤه المحاربون من النعاج للذبح فى هيرا كليوبولس . لقد أخذنا من أحد وكلاء تيودوراكس ، النجل الثانى لآباء قيرس ، ومن نائب خريستوفورس ، أكبر أنجال آبا قيرس ، خمسين نعجة للذبح وخمس عشرة نعجة أخرى . وقد أعطاها لإطعام رجال مراكبه وفرسانه وقوات مشاته المصفحة . ، تحرر فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٢هـ وكتبه ابن حديد . » وجاء فى ظهر الورقة ما يلى : « شهادة بتسليم النعاج للمحاربين ولغيرهم ممن قدموا البلاد وهذا خصما عن جزية التوقيت الأول »[١] .

وبينما نشاهد اليوم حروباً يتسابق فيها الطرفان إلى اقتراف الأعمال الوحشية ، ينبغى أن نذكر أن قبائل العرب كانت تحترم الملكية الفردية وذلك أثناء قيام الحرب وفى زمن اشتهرت فيها الأمم بالعنف والقسوة .

وهذا نص الوثيقة الأخرى : « باسم الله! أنا الأمير عبد الله أكتب إليكم يا أمناء تجار مدينة « بسوفتس » وأرجو أن تبيعوا إلى عمر بن أصلع لفرقة القوطة علفاً بثلاث دراهم ذهبية ، كل واحد منها « بعرورين » وإلى كل جندى غذاء من ثلاثة أصناف »[٢] .

واختتم جروهمان هذا كله بقوله : « إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب منتصر . »

افتقار العرب إلى سياسة ثابتة .

ومما يؤسف له حقاً أن يؤدى الجشع الذى أوجدته ثروة مصر وريبة الخلفاء فى سياستهم نحو الولاة إلى عواقب وخيمة . فالإحصاءات تدل على أن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين منذ سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) إلى سنة ٢٥٢ هـ

(١) Papyrus Rénier ، ذكره جروهمان ... Aperçu ص ٤١ و ٤٢ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ — ٤٦ .

(٨٦٦ م) ، أى من ولاية عمرو بن العاص إلى ولاية ابن طولون ، نصبوا فى بحر مائتين وخمس وعشرين سنة مائة وأحد عشر والياً . ولو أن بعض الولاة قد عينوا مرتين أو ثلاث مرات ، إلا أن المدة القصيرة التى كانوا يحكمون خلالها لم تسنح لهم الفرصة لاتباع سياسة إنشائية أو على الأقل للتفكير فى وضع خطة معينة .

ويقدم لنا الأستاذ جاستون فييت[1] إحصاء شيقاً يبدأ به بعد وفاة عمرو ابن العاص ، أى من سنة ٤٣ هـ (٦٦٤ م) ، وهذا الإحصاء يقول : « حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً ، اثنان منهم وليا الحكم مرتين وواحد منهم ثلاث مرات . وقد حكم أحدهم البلاد باسم ابن الزبير ، ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان خمسة من هؤلاء من أسرة الخلفاء ؛ وقد توفى ستة منهم وهم ولاة ؛ ونقل الخليفة أو اقال أحد عشر منهم ؛ واستقال أحدهم وطرد الجند آخر ، لأنه خفض رواتبهم ؛ أما الوالى الأخير ، فالمرجح أن العباسيين قتلوه ، ومكث أحدهم على كرسى الولاية ستة عشر يوماً[2] بينما تربع آخر عشرون سنة ، وهى أطول مدة قضاها والى مصر[3] . وإذا انتقلنا إلى الخلافة العباسية ، ألفيناهم عينوا أربعة وستين والياً ، تسعة منهم تولوا الحكم مرتين وواحد ثلاث مرات . وفى عهد المأمون ولت قوات الجيش التى ظلت مخلصة لذكرى الخليفة الأمين خمسة منهم . وكان اثنا عشر والياً من أسرة الخليفة . وقد توفى عشرة وهم فى الحكم ونقل أو أقيل خمسين منهم ، وقتل اثنان ، وطرد الجنود الثائرون واحداً واستقال أحدهم لينضم إلى الثوار . ومما يلفت النظر أن عدد التنقلات قد ازداد فى عصر العباسيين بالنسبة إلى ما كان عليه أيام حكم الأمويين . ويرجع السبب إلى أن السلطة المركزية كانت بعيدة جداً ، أى فى بغداد ، وكان الخليفة لا يريد أن يترك للولاة متسعاً

(١) *Les Mosquées du Caire* ، ص ١٩ .

(٢) حسن بن عتاهية .

(٣) عبد العزيز بن مروان بن الخليفة مروان وشقيق الخليفة عبد الملك بن مروان . ولولا وفاته لتربع على كرسى ولاية مصر مدة أطول . وكان شقيقه قد عينه خليفة له .

من الوقت يستطيعون خلاله استمالة قلوب الشعب إليهم . وكان الخوف من نفوذ الولاة قد طبع فى قلوب الخلفاء شيئاً من القلق المستديم . ويغلب على الظن أن هذا الخوف هو الذى أدّي إلى قتل البرامكة ، تلك المأساة التى ساءت إلى ذكرى الخليفة هارون الرشيد . »

ونضيف إلى ما تقدم أن أربعة وعشرين والياً حكموا مصر أثناء خلافة هارون الرشيد وحده أى فى ثلاث وعشرين سنة .

ويواصل الأستاذ جاستون فييت بحثه قائلا : « إن عدم الاستقرار الذى لازم تعيين الولاة لم يكن فى صالح البلاد على الإطلاق ، إذ كيف يطلب من موظف جاء من الخارج ويثق من عدم بقائه فى الولاية ، أن يعير البلاد اهتمامه أو أن ينظم مواردها أو أن يسهر على دولاب إدارتها ؟ »

وهناك طابع آخر لازم الحكم العربى أثناء الفتوحات ، فى مصر وفى جميع البلدان التى احتلها العرب ، ألا وهو افتقار الحكم إلى خطة مرسومة يسير عليها . فإن القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تصدر حسب الظروف وتبعاً لمقتضيات الحال . ويرجع السبب إلى أنه لم يكن فى نية العرب أن يقيموا فى تلك البلاد ولا أن يديروها ، بل كانوا يهدفون إلى غرض واحد هو المحافظة على سلامة مؤخرة جيوشهم حتى يقوموا بفتوحات جديدة ويحصلوا على المال الكافى لمتابعة أعمالهم العسكرية الجديدة .

وعلى كل حال ، لم يحاول الجنود العرب الاختلاط بالشعوب المهزومة لأن رؤساءهم كانوا يمنعونهم من هذا الاختلاط منعاً باتاً . وينقل لنا ابن عبد الحكم ما قاله الخليفة عمر فى جيش الاحتلال العربى بمصر : « إنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف »[1]. ومعنى هذا أن الجنود يجب أن يحافظوا على صفاتهم الحربية ولا يفكروا فى أن يستقروا فى البلاد .

---

(١) ص ٩١ . وكان يقصد عمر موقع العاصمة الجديدة .

وفعلا ، إذا استثنينا الأوامر الخاصة بضمان تحصيل الضرائب وإرسال المال والقمح إلى شبه جزيرة العرب ، لم نعثر على أى تدبير لزيادة ثروة البلاد الاقتصادية . « وقد أعيد حفر قناة « تراجان » Trajan ليس لمصلحة التجارة بقدر ما أعيد حفرها حتى يستطيع الغازى أن يرسل قمح مصر إلى البلاد العربية القاحلة عن طريق سهل وفى مدة قصيرة . ولكن ما لبث أن أهملت هذه القناة فاجتاحتها الرمال مرة أخرى فى أوائل القرن الثامن وردمها حكام مصر بين سنتى ١٤٤ و ١٤٥ هـ (٧٦١ — ٧٦٢م) كى يمنعوا إرسال الأقوات إلى المدينة عند ما أصبحت مصدراً للثورات »(١) .

وقد أهملت الاصلاحات العامة إهمالا تاماً . ولكن لما كان من اللازم الاستفادة من مياه النيل الغنية بالطمى الخصب ، لا سيما أثناء الفيضان ، فقد كان الحكام يسخرون السكان لتطهير القناوات وإعادة بناء الطرق والجسور مقابل إعفائهم من قسط من الضرائب يتناسب مع المهمة التى قاموا بها(٢) .

ولا نجد أى أثر لنشر التعليم حتى بعد إنشاء المستعمرات العربية فى الدلتا بوقت طويل . ومن جهة أخرى ، أنشأ العرب نظاماً للضرائب ولكنهم لم يفكروا فى تنظيم إدارة للحسابات فى المدينة المنورة .

ثم ، بينما كان بناء الكنائس محظوراً فى المدن التى أنشأها العرب ، سمح عبد العزيز بن مروان ببناء كنيسة فى حلوان . ويعلل هذا التساهل بوجود بعض النصارى الملكيين فى خدمة الوالى(٣) . ولم تختلف سياسة الخليفة المأمون عند إقامته بمصر . واستخدم النصارى الذين التمسوا منه تشييد كنيسة بالقرب من قبة الهواء ، فسمح لهم بذلك(٤) .

---

(١) W. Heyd, *L'histoire du Commerce au Moyen - Age* والجزء الأول ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى ، طبع بولاق ، جزء أول ، ص ٧٤

(٣) ابن بطريق ، ص ٤١ .

(٤) ابن بطريق ، ص ٥٨ .

ويروى الأسقف ساويرس بن المقفع أنه لما هبط مستوى النيل سنة ١٣٦ هـ (٧٥٢ م) ، قام المسلمون يتضرعون في صلاتهم إلى الله أن يزيد في مياه النهر حتى تفيض ، ثم تبعهم اليهود ، ولكن بدون جدوى . ولم تحدث المعجزة إلا عند ما بدأ النصارى في الصلاة . فقرر باعون ، نائب الوالى ، أن يكافئهم ، فخفض الجزية وأمنهم على حياتهم وأملاكهم في القطر المصرى كله[1] .

ويجمل بنا أن نقيم الدليل ، بضرب مثل أخير ، على سياسة الحكام العرب الارتجالية وعلى اتخاذهم القرارات المتناقضة . ففى عام ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أمر الوالى على بن سليمان بهدم الكنائس المحدثة بمصر وبذل له خمسون ألف دينار مقابل تركها قائمة فامتنع[2] بينما صرح موسى بن عيسى ، الذى خلفه سنة ١٧١ هـ (٧٨٧ م) ، بإعادة تشييد الكنائس لاعتبارات مادية بحتة . ولم يقدم على هذا إلا بعد أن سأل الفقهاء رأيهم في هذه المشكلة ، فأفتوا بأن الكنائس هى « من عمارة البلاد »[3] . ويجب ألا يكون الوالى أكثر تطرفاً ممن سبقوه بدليل أن « عامة الكنائس التى بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين »[4] . وينبغى أن نلاحظ أنه حدث قبل ذلك ببضع سنوات ، أى في عام ١١٧ هـ (٧٣٥ م) ، أن قتل الغوغاء الوليد بن رفاعة لأنه صرح للنصارى ببناء كنيسة مار مينا[5] . وربما لم تكن حاجة العرب إلى المال شديدة في ذلك الوقت[6] .

ويتضح من ذلك كله ، أن تقلب السلطة وعدم اهتمام العرب بالشعوب

(١) تاريخ البطاركة ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٢) الكندى ، ص ١٣١ .
(٣) الكندى ، ص ١٣٢ .
(٤) الكندى ، ص ١٣٢
(٥) الكندى ، ص ٧٧ — ٧٨ .
(٦) يقول الأستاذ فييت في دائرة المعارف الإسلامية « قبط » ان النظرية القانونية للكنائس الجديدة تعود إلى القرن الثانى للهجرة فقط (القرن الثامن الميلادى) .

التى أخضعوها ، وتخبط سياسة الولاة وتضاربها ، خلقت جواً لا يساعد على حسن التفاهم .

ب ـ طموح عمرو بن العاص ونتائجه .

قالت المسز ديفونشاير : « لا يوجد وال واحد من الثمانية والتسعين الذين عينوا على مصر [1] يستحق أن يخلد اسمه [2] . إن هذا الحكم الشديد على ولاة مصر يظهر لنا قوة شخصية عمرو بن العاص . ولما كان عمرو فاتح مصر وأول من حكمها ، فقد أنشأ لها نظاماً خاصاً نستطيع معرفته بسهولة من مختلف أعماله وتصرفاته . لقد عرف عمرو كيف يحل المشاكل الخطيرة دون أن يعتمد على نصوص واضحة لعدم وجودها وقتذاك . ولما كانت سياسته ترمى إلى كسب مودة النصارى ، فقد صبغ نظم البلاد بصبغة التسامح التى خولت للأقباط التمتع ببعض الامتيازات الجوهرية .

كان عمرو يسعى إلى حكم مصر حكما مطلقاً .

من الطبيعى أن تستقبل الشعوب المغلوبة قائد الجيش المنتصر بشعور يشوبه الخوف والاحترام . ويعترف حنا النقيوسى « أن مركز عمرو كان يزداد قوة يوماً بعد يوم » [3] . وبالفعل ، فقد ارتفعت سمعة عمرو إلى حد أنه عند ما أعادت الجيوش البيزنطية الكرة على الإسكندرية ، استنجد عثمان به على الرغم من كرهه له ورميه بالطمع والمغامرة .

لبى عمرو طلب الخليفة دون تردد . ألم يكن يعتبر مصر ملكاً له ،

---

(١) بعد عمرو بن العاص .

(٢) *L'Égypte musulmane et les fondateurs de ses monuments.* ص ٢٢

(٣) ص ٥٨٤ .

سلبه الخليفة منه عند ما أقاله من الولاية ؟ ولا شك أن العودة إليها قد تمكنه من حكم البلاد لحسابه الخاص وإغفال سلطة الخليفة .

ولم يكن طموح عمرو جديداً ، فقد ظهر لأول مرة يوم استسلام حصن بابليون . وإلا كيف نفسر عطفه على الجيوش المغلوبة ؟ لماذا رغب فى أن يصالح أعداءه صلحاً شريفاً بالرغم من معارضة الزبير وعدد وفير من جيشه وبالرغم من مقدرة الجيش العربى على اقتحام الحصن واستغلال انتصاراته الحربية استغلالا تاماً ؟ ثم إذا انتقلنا إلى الإسكندرية ، وجدنا أيضاً نفس هذا الاستعداد للتسامح على الرغم من صمود المدينة أربعة عشر شهراً ، مما اضطر الزبير ومن معه أن يرفعوا احتجاجهم مرة أخرى إذ كانوا يريدون تطبيق مبادئ الشريعة الخاصة بالشعوب المهزومة .

وكان الزبير على حق [1] فيما ذهب إليه وخاصة فيما يتعلق بالبلاد التى قاومت المسلمين بالقوة . وكان يستطيع أن يستشهد بسابقة خطيرة ألا وهى مقاومة يهود خيبر . فلما هزمهم النبى ، وزع أراضيهم على أفراد جيشه المنتصر واستعبد أفراد القبيلة .

الا إن عمراً أراد بدهائه أن يحتفظ بوحدة مصر . فكان يعرف أن البلاد غنية بمواردها ويرى أن المصلحة تقضى بمنع توزيعها على المحاربين كغنيمة حربية ، وبمعاملة سكانها ورؤسائهم الدينيين معاملة طيبة ، وباحترام شعورهم الدينى وعدم استنزاف ثروة البلاد وجباية الضرائب حتى لا تسوء حالة مصر الاقتصادية . وقصارى القول ، كان يريد كسب صداقة الشعب ومحبته لا إذلاله وامتهان كرامته .

إذن ، كان لعمرو سياستان : الأولى عامة ، استلهمها من تعليمات الخليفة ، والأخرى شخصية تستحق منا اهتماماً خاصاً لأنها وفّرت على الأقباط عدة التزامات .

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢١٤ .

عمرو يطلب تحكيم عمر لمنع توزيع الأراضى .

لم يتوان عمرو فى طلب تحكيم عمر بخصوص توزيع الأراضى لأن المشكلة نفسها طرأت بعد فتح سوريا والعراق . « سأل بلال وأصحابه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام وقالوا : أقسم الأرض بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العساكر » فأبى عمر ذلك عليهم وتلا عليهم هذه الأحكام وقال : « قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفىء ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شىء ولئن بقيت ليبلغن الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفىء ودمه فى وجهه »(١) .

« إن عمر رضى الله عنه كتب إلى سعد حين افتتح العراق : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فانظر ماأجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال ، فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك من أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر ، لم يكن لمن بعدهم شىء . »

وقال عمر فى مناسبة أخرى : « كيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ما هذا برأى . » فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه : « فما الرأى ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم . » فقال عمر : « ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك والله لا يفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . فإذا أقسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام

(١) ابو يوسف ، ص ٣٦ — ٤٣ .

والعراق ؟ » فأكثروا على عمر ، رضى الله تعالى عنه ، وقالوا : « أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ »

ولكن عمر لم يقتنع بهذه الحجج وذهب به الأمر إلى أن يحكم عشرة من علية القوم فى هذا الخلاف طبقاً للعوائد العربية التى يستنكرها القرآن ، مصدر التشريع . وقد قال هؤلاء الحكام جميعاً : « إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم . »

فلما سمع عمرو بن العاص إلى شكاوى الزبير ورجاله ، لجأ إلى حكم الخليفة عمر فكتب إليه عمر : « أقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة »[1] . وصولح الزبير على شىء أرضى به وعمل على تنفيذ أوامر الخليفة .

ويمكن الجزم بأن المسألة كانت على جانب عظيم من الأهمية لأن هذا « الشىء » الذى أعطاه عمرو للزبير يدل بوضوح على أن عمرو كان يشعر بضرورة التخلص من معارضة الزبير حتى لا يثير مرة أخرى مسألة المدن المحتلة بقوة السلاح .

هل فتحت مصر بصلح أم عنوة ؟

أثارت هذه المسألة مناقشات حادة بعد فتح العرب لمصر إذ أكد بعض الفقهاء أن البلاد فتحت بصلح ، والبعض الآخر أن البلاد فتحت عنوة ، بينما انضم فريق ثالث إلى الرأى الأول ولكن بشىء من التحفظ .

إلا أنه يجدر بنا أن نذكر الوقائع قبل أن نورد وجهات النظر المختلفة .

ويطلق الكتاب اليوم على فتح مصر والبلاد المجاورة لها اسم « الجهاد » أى الحرب التى قام بها المسلمون ضد الكفار الذين رفضوا الدعوة إلى الإسلام .

(١) خطط المقريزى ، الجزء الأول ، ص ٢٩٥ .

أضف إلى ذلك أن السواد الأكبر من المؤرخين المسلمين لم يشكوا فى صحة الرسالة التى بعث بها النبى إلى حاكم مصر . وإذا سلمنا بأن المصريين لم يلبوا هذه الدعوة ولم يرفضوها رفضاً باتاً كما يدعى بعض الكتاب ، فإن بطء العمليات الحربية ووجود العنصر القبطى فى الجيوش البيزنطية تدل على مقاومة الأهلين للفتح العربى .

وقد أراد البعض أن يبرر تسامح عمرو بأن حاميتى بابليون والإسكندرية طلبتا وقف القتال . ولكنهما فى كلتى الحالتين لم يقوما بهذا العمل إلا بعد أن شعرتا بإفلات زمام الأمر من بين أيديهما . ثم إن نصوص القرآن صريحة فى هذه الحالة : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » (سورة محمد ، آية ٣٥) .

ومع ذلك فقد حاول بعض الفقهاء فيما بعد أن يبرروا موقف القواد العرب المخالف لهذه النصوص . وقد كتب أحدهم فى هذا الصدد ، وهو حسين ابن أحمد بن محمد القدورى ، ويمكن اعتباره من علماء مذهب أبى حنيفة : « أن رأى الإمام أن يصالح أهل الحرب أو فريقاً منهم ، وكان فى ذلك مصلحة للمسلمين ، فلا بأس ، فإن صالحهم مدة ثم رأى أن نقض الصلح أنفع . نبذ إليهم وقاتلهم ، وأن بدأوا بخيانة ، قاتلهم ولم ينبذ إليهم إذا كان ذلك باتفاقهم . إذا فتح الإمام بلدة عنوة ، فهو بالخيار إن شاء قسمها بين المسلمين وإن شاء أقر أهلها ووضع الجزية عليهم وهو فى الأسارى بالخيار ، إن شاء قتلهم وإن شاء استرقهم وإن شاء تركهم أحراراً ذمة للمسلمين »[١] .

أما الذين يؤكدون أن مصر فتحت عنوة ، فهم يستندون إلى تصريحات ووقائع دقيقة . وينقل لنا ابن عبد الحكم تصريحات بعض الشهود إذ قالوا : « كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن

(١) ذكره « دى ساسى » فى :
Trois mémoires sur la nature et les révolutions du droit de propriété territoriale en Égypte. Publ. I.F.A.O., Bibliothèque des Arabisants, p. 149.

عاهده ، فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد »[١] . وينقل إلينا أيضاً ابن الحكم الحادثين التاليين : « خرج أبو سلمة بن عبد الرحمن يريد الإسكندرية فى سفينة ، فاحتاج إلى رجل يقذف به ، فسخر رجلا من القبط ، فكلّم فى ذلك فقال : إنما هم بمنزلة العبيد إن احتجنا إليهم . » أما الحادث الآخر ، فهو « أن رجلا أسلم فى عهد عمر بن الخطاب ، فقال : « ضعوا الجزية عن أرضى . » فقال عمر : « لا إن أرضك فتحت عنوة . » ويستشهدون أيضاً بعمرو نفسه . فقد أتى يوماً إلى المسجد وقال علناً : « لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابُلس ، فإن لهم عهداً يوفى لهم به ؛ إن شئت قتلت ، وإن شئت خمست ، وإن شئت بعت »[٢] .

وقد رأى نهائياً بعض الفقهاء أنه من الأوفق أن يصرحوا أن مصر فتحت صلحاً فيما عدا قرى « سلتيس » و « مازيل » و « بلهيت » وأيضاً مدينة الإسكندرية التى قاومت الفتح[٣] .

ويتضح من ذلك أن المسألة لم تحل إلى الآن . والذين يدعون أن مصر فتحت صلحاً رجحوا رأيهم لأسباب حربية وسياسية واقتصادية ولجأوا إلى الفقهاء لإثبات صحة نظريتهم .

تسامح عمرو فى إدارته .

لم نعد فى حاجة إلى الإثبات بعد الآن أن العرب ساروا فى سياستهم حسب مقتضيات الحال . ولدينا مثل آخر : أراد العرب أن يؤمنوا حدود مصر الجنوبية أثناء حملتهم على ليبيا ، فبادروا إلى إبرام معاهدة مع أهل النوبة المسيحيين ، وأطلق المؤرخون العرب على هذه المعاهدة اسم « البقط » ، غير

(١) ص ٨٩ .
(٢) بلاذرى ص ٢١٧ .
(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣ .

أن القواد لم يروا ما يمنعهم من نقض هذه المعاهدة بحجة أنه « ليس بين أهل مصر والأساود عهد إنما كانت هدنة أمان بعضنا من بعض نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ويعطونا رقيقاً . » ولما غزا عقبة بن نافع أهل طرابلس وهزمهم ، سألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبى عليهم وقال : « إنه ليس لمشرك عهد عندنا ، إن الله عز وجل يقول فى كتابه : « كيف يكون للمشركين عهد»[١]

أما فى مصر ، فقد نفذ عمرو بن العاص أوامر الخليفة عمر لأنها كانت تتفق ومطامعه الشخصية ، فكان تسامحه على مصر أثناء ولايته مثار دهشة المصريين وإعجابهم .

كان متسامحاً من حيث الدين أولا . ويقول حنا النقيوسى فى هذا الصدد : « لم يستولى عمرو على ممتلكات الكنيسة ولم يرتكب أعمال السرقة والنهب ولكنه كان يؤمنها ولايته »[٢] .

وقد أدرك عمرو منزلة البطريرك اليعقوبى بينيامين فى نفوس الشعب ، فسارع باستقطار أخباره من أفواه الناس ليعرف المكان الذى لجأ إليه البطريرك هرباً من اضطهاد قيرس . وقال عمرو فى هذا الصدد : « له العهد والأمان والسلامة من الله ، فليحضر آمناً مطمئناً ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته »[٣] . « ولما سمع القديس بنيامين هذا ، عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشر سنة ، منها عشرة سنين لهرقل الرومى الكافر وثلاثة سنين قبل أن يفتحوا المسلمين (كذا فى النص) الإسكندرية لابساً اكليل الصبر والجهاد الذى كان الشعب الأرثوذكسى من الاضطهاد من المخالفين . فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينة وأعلن بمجيئه ، أمر الأمير (عمرو) بإحضاره بكرامة وإعزاز ومحبة ، فلما رآه أكرمه وقال لأصحابه وخواصه : « إن جميع الكور التى

---

(١) الكندى ، ص ٣٢ .

(٢) ص ٥٨٤ .

(٣) ساويرس بن المقفع ، ص ١٠٩ .

ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل الله يشبه هذا . » وكان بنيامين هذا حسن المنظر جداً ، جيد الكلام بسكون ورقاد . ثم التفت عمرو إليه وقال له : « جميع بيعتك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم ، وإذا أنت صليت علىّ حتى أمضى إلى المغرب والخمس مدن[1] وأملكها مثل مصر وأعود اليك سالماً بسرعة ، فعلت لك كل ماتطلبه منى . » فدعا له القديس بنيامين وأورد له كلاماً حسنا أعجبه هو والحاضرين عنده ، فيه وعظ وربح كثير لمن يسمعه ، وأوحى إليه بأشياء وانصرف من عنده مكرماً مبجلا . »

وبديهى أن يقابل عمرو من الحفاوة الرائعة التى استقبل بها الشعب رئيسه الدينى . فبادر إلى استشارة البطريرك فى أحسن طريقة يتمكن بها من إدارة البلاد وسؤاله عن أنسب موعد لجباية الضرائب ، كما أنه طلب إليه أن يبارك حملته على طرابلس ، ذلك لأن عمراً كان يقصد من مساهمة البطريرك فى نجاح هذه الحملة بأن يجعله مسئولا عن الأمن فى البلاد وعن إخلاص السكان للعرب . وكافأه فعلا على هذه الخدمات ، إذ ترك اليعاقبة يستولون على معظم كنائس الملكيين وأديرتهم .

ثم إن اهتمام عمرو باليعاقبة جعلهم يبنون الآمال الكبار على المستقبل ، مما حدا بالأسقف المؤرخ ساويرس بن المقفع أن يصف شعورهم هذا بقوله : « كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حلّ رباطهم وأطلقوا على ألبان أمهاتهم . »

وكان ساويرس على حق فى وصفه ، ذلك لأن الأقباط لم يعاملوا بهذه المعاملة اللينة منذ أمد بعيد . أضف إلى ذلك أن العرب أثناء ولاية عمرو لم يحاولوا أن يضغطوا على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم .

ولما درس عمرو حالة البلاد قرر أنه من المستحيل عليه أن يجبى الضرائب دون معاونة النصارى . فكتب إلى الخليفة يقول له لما كان المسلمون لا يعرفون

---

(١) ليبيا .

البلاد معرفة تامة فإنهم يستطيعون حصر المبالغ التى يمكن جمعها من الضرائب وأنه استخدم لهذا الغرض نصرانياً قديراً ونزيها على أن يحل غيره محله عند ما يعرف حالة البلاد جيداً .

وفكر عمرو أيضاً فى إيجاد أداة قد تكفل حسن سير العدالة وصرح بمساهمة الوطنيين النصارى فيها . فقسم البلاد إلى عدد من الدوائر وعين فى كل دائرة منها قاضياً قبطياً كلفه بفض الخلافات المدنية والدينية لغير المسلمين . أما إذا كان الخلاف بين قبطى ومسلم ، رفع الأمر إلى مجلس مكوّن من قضاة الطرفين . وكانت المسائل الجنائية من اختصاص القضاة المسلمين وحدهم .

الخلاف بين عمر وعمرو على جباية الضرائب .

لما استشار عمرو الأقباط فى مسألة الضرائب ، نصحوا له ألا يقوم بجبايتها حسب التقويم القمرى ، ولكن حسب التقويم المصرى الذى وضعه الفراعنة منذ أمد بعيد وفق الفصول والمواسم . وقد وافق عمرو على هذا الرأى ، ولكن عمراً أنكر على عامله هذا التصرف لحاجته الملحة إلى المال وأمره بأسلوب قاطع أن يستعجل جباية الضرائب ويرسلها إلى المدينة .

ولم يجل بخاطر إنسان أن يخالف عمرو أوامر الخليفة ، ولكن ذلك الذى حدث بالفعل . وتبادل التابع والمتبوع فى هذا الشأن عدة خطابات امتازت باللهجة الشديدة . ثم كان عمر لا يفهم لماذا تهبط قيمة الضرائب المفروضة على مصر سنة بعد سنة . ولكن هذا ما حدث بالفعل بعد أن شلت حركة التجارة من جراء الحروب وبعد أن قلّ عدد دافعى الجزية لازدياد عدد النصارى الذين اعتنقوا الإسلام . أما أهل الذمة أنفسهم ، فلم يجدوا غضاضة فى الإفلات من الجباة كلما سنحت لهم الفرصة . وسنتحدث عن ذلك عند الكلام عن المالية .

لما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج من قبل عمرو بن العاص ، كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص ، سلام الله عليك فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى برّ وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب ، ولقد أكثرت فى مكاتبتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير نزر ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك ، فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بها ، لا توافق الذى فى نفسى ، لست قابلا منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ، ولست أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك ، فلئن كنت مجرباً كافئاً صحيحاً ، إن البراءة لنافعة ، وإن كنت مضيعاً نطعاً ، إن الأمر لعلى غير ما تحدث به نفسك ، وقد تركت أن ابتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفيق فترفع إلىّ ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك ، عمال السوء ، وما توالس عليه وتلفف اتخذوك كهفاً ، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك فيه ، فلا تجزع أبا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه ، فإن النهز يخرج الدر والحق أبلج ودعنى وما عنه تلجلج فإنه قد برح الخفاء ، والسلام . »

فكتب إليه عمرو بن العاص : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من عمرو بن العاص ، سلام الله عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبلى وإعجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منها مذ كان الإسلام ، ولعمرى للخراج يومئذ أوفر

وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام ، وذكرت أن النهز يخرج الدر فحبلتها حلباً قطع درها ، وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرضت وتربت وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر ، فجئت لعمرى بالمفظعات المقذعات ، ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ، وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده ، فكنا نحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شيناً فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم ، فأمضى عملك ، فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنيئة والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخاً ، والله يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى ولها إنزاها وإكراماً ، وما عملت من عمل أرى عليه فيه متعلقاً ، ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت يغفر الله لك ولنا ، وسكت عن أشياء كنت بها عالماً وكان اللسان بها منى ذلولا ، ولكن الله عظّم من حقك ما لا يجهل . »

ولما أراد عمرو أن يرد مرة أخرى على عمر ، لم يستطع الخليفة أن يكتم غضبه واتهمه صراحة بأنه لا بد أن اختلس مبالغ كبيرة من المال[١] ، ولم يلبث أن بعث إليه محمداً بن مسلمة الانصارى ليتسلم منه نصف المستحق له[٢] .

وليس بمستغرب أن يغترف عمرو المال ، وهو العربى البدوى الذى وجد نفسه بين عشية وضحاها أمام ثروة كبيرة . ثم أن المؤرخين العرب لم يفندوا هذه التهمة التى وجهت إليه بل نقل إلينا بعضهم ان الخليفة استجوب أحد أقباط مصر عن خراجها قبل الإسلام ، فقال القبطى : « يا أمير المؤمنين ،

---

(١) ذكر ابن عبد الحكم هذه المراسلات فى صفحة ١٥٨ — ١٦٠ .
(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٤٦ .

كان لا يؤخذ منها شيء إلا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر إلى العمارة إنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد »[١] .

وإذا تركنا هذه التهمة جانباً ، ألفينا عمراً يريد المحافظة على ثروة البلاد والحيلولة بين الشعب وطمع الحكام . ويجمل بنا أن نورد الرد المفعم الذى أجاب به عمرو على الخليفة عثمان . فقد حدد عمرو الضرائب باثنى عشر مليوناً من الدينارات ، بينما رفعها عبد الله بن سعد إلى أربعة عشر مليوناً . فقال عثمان لعمرو : « يا أبا عبد الله ، درت اللقحة بأكثر من درها الأول . » قال عمرو : « أضررتم بولدها »[٢] .

وإلى جانب إهماله مسألة الجزية ، فإن عمراً لم يهتم بتعليمات عُمر الخاصة بمظهر الذميين على الرغم من إلحاح بعض الأشخاص لوضع هذه التعليمات موضع التنفيذ . نعم أن عمراً أصدر أوامر تقضى بعدم إظهار الصلبان « ولكن بطل العمل بهذا الأمر ، وقد عاد النصارى إلى عمل الصلبان فى أفراحهم ومآتمهم . أما فى حمص ودمشق ، فلم يصرح لهم أبداً بذلك منذ أن نصت شروط عمر على هذا الحرمان »[٣] . وأخيراً ، صرح عمرو للأقباط بالإقامة فى مدينة الفسطاط .

لقد أوجد هذا التسامح سوابق خطيرة بالنسبة للعرب ، غير أن الأقباط استفادوا كثيراً منه . ويرجع الفضل ، دون شك ، إلى موقف عمرو الذى كان يبغى من وراء ذلك أن يصبح حاكم مصر المطلق . وأخيراً أراد أن يجعل

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٤٦ — ويقول المؤرخ الإنجليزى « لين بول » ، دون أن يذكر المصدر الذى استقى منه هذا الخبر ، ان عمرو لما توفى ترك سبعين كيساً من الدنانير (ما يوازى عشرة أطنان من الذهب تقريباً) ورفضوا أولاده أن يرثوا هذا المبلغ لعفتهم . (The Story of Cairo) أما اليعقوبى فيذكر فقط أن عمرا ترك بعد وفاته ثروة ضخمة (طبع سنة ١٣٥٨ ، الجزء الثانى ، ص ١٩٨) .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٦١ .

(٣) ميخائيل السورى ، الجزء الثانى ، ص ٤٣٢ .

الإسكندرية حاضرته بحجة أن المساكن التى تركها اليونانيون تصلح لإيواء جيش الاحتلال ، ولما رفض عمر أن يصرح له بالإقامة حيث كان يريد ، صدع عمرو للأمر وعاد إلى الفسطاط .

ولما تولى على بن أبى طالب الخلافة وانقسم العالم الإسلامى إلى معسكرين متخاصمين ، حكم عمرو مصر باسم معاوية ، إلا أنه اشترط عليه ، إزاء هذه الخدمة العظيمة ، أن يتعهد له بتركه والياً على مصر طول حياته . ومن الواضح أن عمراً كان يتحين الفرص ليعلن استقلاله وينادى بنفسه أول خليفة على مصر بعد أن يفصلها تماماً عن بقية الإمبراطورية العربية .

ج – الولاة يتبعون سياسة أساسها المنفعة .

لم يحاول خلفاء عمرو أن ينهضوا بالبلاد . فقد اقتصر عملهم على المحافظة على الأمن وارسال الجزية للخلفاء الأمويين ثم إلى الخلفاء العباسيين . ولما كانت مدة ولايتهم على وجه العموم قصيرة ، فقد أرادوا أن يحققوا بعض المكاسب الشخصية .

وكيف يتبعوا سياسة أخرى ولم يترك لهم الخلفاء الوقت الكافى لوضع برنامج إيجابى ! وإذا قاموا بأى عمل لمصلحة البلاد ، كانوا يثيرون شكوك السلطة المركزية وقلقها . وما حركة التنقلات التى كانت تشملهم إلا الدليل البين على عدم اهتمام الخليفة بما قد يقوم عملاؤه به من مجهود فى مصلحة هذه الولاية .

المال أساس العلاقات بين المنتصر والمهزوم .

وصف عبد الله بن صالح مصر بجملة فى غاية الإبداع . قال : « من

أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا ، فلينظر إلى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها » [١].

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن صيحة الإعجاب هذه قد رددها كل أعرابى وطئت قدماه وادى النيل . وكان من الطبيعى أيضاً أن يعمل رجل الصحراء ، الذى خرج منتصرا من حرب شنها على إمبراطوريتين ، على الاستفادة من انتصاراته . وأصدق دليل على ذلك هو إلحاح الجيوش المنتصرة فى سبيل توزيع الأراضى الواسعة أمثال العراق وسوريا ومصر .

ولما حاقت المجاعة بالمدينة المنورة ، طلب عمر أن يستعجل إرسال القمح اللازم للسكان وصاح بهذه المناسبة : « أخربْ الله مصر فى عمران المدينة وصلاحها »[٢] . وقال هذا الخليفة أيضاً عند ما تكلم عن المهزومين : « يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء ، فإذا هلكنا وهلكوا ، أكل أبناؤنا أبناءهم ما بقوا» [٣].

وهذه التصريحات تفضح جلياً عن نيات الفاتح .

الضرائب الأولى التى فرضت على الأقباط .

لما اجتمع مندوبو الفريقين حول قلعة بابليون ليحددوا شروط التسليم ، كان أكثر اهتمام العرب منصباً على قيمة الجزية التى ستفرض على المغلوب .

ولما كان العرب فى حالة لا تسمح لهم بابتكار أى نظام للضرائب ، فقد نقلوا النظم المتبعة عند البيزنطيين ، إلا أن الأهليين استفادوا من خفض محسوس فى الضرائب . ثم إن نظام الضرائب أعيد إلى أبسط قواعده فى بادئ الأمر . ويقول المستشرق « فان برشيم » Van Berchem : « أن دافعى الضرائب كانوا يدفعون ضريبتين رئيسيتين : الجزية ، وهى ضريبة مرتفعة

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥ .

(٢) الطبرى ، طبع ليدن ، الجزء الأول ، ص ٢٥٧٧ — وقد نوه البلاذرى إلى هذا الحادث فى صفحة ٢١٦ من تاريخه دون أن يعلق عليه .

(٣) أبو يوسف .

جداً تدفع نقداً ، و« الضريبة » ، وهى حصيلة عينية تجبى من الحنطة .
وكان يقابل هذا الدخل فى ميزانية الدولة مصروفان متميزان : فكانت تدفع رواتب الجند من الجزية وكان ما يجمع من الحنطة يوزع على الجند وأسرهم » .
ونقدم على سبيل المثل رقمين يوضحان العلاقة بين هاتين الضريبتين : « شهر صفر سنة ٩١ ﻫ (٧٠٩ م) ، من قرة بن شريك إلى أهالى شبرا بسيرو فى مديرية إيشكو ، أن الحصة التى يجب أن تدفعوها نقداً لتسدوا جزية عام ٨٨ هى ١٠٤ دينار وثلثى الدينار بينما حددت ضريبة الغذاء بأحد عشر اردباً وثلث من القمح »[١] . ومن الطبيعى أن الضرائب العينية لم تقتصر فقط على القمح والدقيق بل تعدتها إلى الخضروات والقمصان وغيرها من الأشياء[٢] .

إلا أن هذا المبدأ الخاص بطريقة توزيع وجباية الضرائب لم يستمر مع الأسف إلا فترة قصيرة جداً مما سبب التباين فيما نقله المؤرخون العرب ، هذا التباين الذى يرجع جزئياً إلى تعارض التدابير التى فرضتها الإدارة . فالنصوص العربية تفرق بين الجزية والخراج مع أن هاتين الكلمتين تنطبقان على نوع واحد من الضرائب . ومن حسن الحظ أن نصوص المؤرخين العرب المبهمة قد عوضها اكتشاف ورق البردى الذى يرجع تاريخه إلى القرون الأولى للهجرة .

ومن ناحية أخرى ، بينما يدعى هؤلاء المؤرخون أن ضريبة قدرها ديناران فرضت على أهل الذمة جميعاً فيما خلا الشيوخ والنساء والأطفال والمتسولين والمشوهين ، اتضح لنا أن هذا الرقم ما هو إلا متوسط ما يؤديه كل دافع ضريبة ليس إلا .

وكانت الجزية والضريبة حصيلتين تؤديهما الجماعة كلها وتحددهما السلطة المركزية لكل قرية ، ثم توزع على دافعى الضرائب على أن تحصلها من كل فرد حسب ثروته . وأن قوائم الضرائب المكتوبة باللغة اليونانية والتى

---

(١) جـ ٣ ص٤٧ رقم ١٦٠–١٦٣. Grohman, *Egyptian Papyri in the Egyptian Library*.

(٢) جزء أول ، ص ٦١ Grohman, *Aperçu*.

يرجع تاريخها إلى القرن الأول للهجرة تدل على أنه كانت تحصل مبالغ أقل من دينارين . « وكان مبلغ الدينار الواحد ، وهو الحد الأدنى الذى أشار إليه الفقه للشخص الواحد ، قد هبط إلى أقل من ذلك فى غالب الأحيان فى القرون التالية ، كما يتبين ذلك من الإيصالات التى صدرت وقتئذ »[١] . وعلى العموم ، فإنه فى الوقت الذى فرضت فيه هذه الضريبة ، كان يحصل اثنا عشر درهماً من الطبقة الوسطى وأربعة وعشرون درهماً أو ديناران من الطبقة العليا وأربعة دنانير من ذوى الثراء .

أما ضريبة العقار المعروفة بالخراج ، فلم ينص عليها أى اتفاق بين الطرفين . وكان كل ما يهم العرب هو جباية ضريبة توازى دينارين عن كل ذمى وكانت تدفع نقداً أو عيناً . ويلاحظ أنه فيما عدا الإسكندرية وبابليون وبعض المدن الأخرى « كان لا بد من تحويل الجزية إلى ضريبة عقارية . ثم إن قيمة الضريبة التى حددت بعد تعداد السكان كان يجب أن توزع على القرى حسب الأراضى المغمورة بالمياه لا حسب السكان الذين يدفعون الضريبة »[٢] .

تدهور الحالة الاقتصادية والضرائب التى نتجت عنها .

لم تمض سنوات معدودات على انتشار الإسلام ، حتى شعر العرب بأن الضرائب التى أمر بها القرآن لا تكفى حاجات إمبراطوريتهم العظيمة . فقد تفاقمت الحالة المالية فى مصر لعدة أسباب ذكر بعضها المؤرخ « هايد » Heyd ، إذ قال : « لا ينكر أحد أن النشاط التجارى فى بداية الإسلام تعرض لعدة صعوبات طارئة إذ أن الجهاد استنفد قوى المسلمين كلها وتوقفت من جراء ذلك حركة نقل البضائع كما توقفت حركة التجارة الخارجية »[٣] .

---

(١) *Le Commerce du Levant au Moyen Age*, I, p. 26 .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مقال الجزية .

(٣) Sacy, *Droit de propriété territoriale*, p. 172

فقد أدت هذه الحالة الخطيرة إلى نتائج وخيمة فى ميناء الإسكندرية مثلا حيث شلت الحركة ويأس سكانها الذين كانوا يعيشون من التجارة مع الخارج. زد على ذلك عدم اهتمام السلطات برفاهية مصر وازدهارها. فكانت تكلف الشعب بالسهر على سلامة السدود والترع بدلا من أن توليها عنايتها ، فأهملت إهمالا خطيراً ولم يستفد الشعب إلا قليلا من فيضان النيل. ولم يتردد المقريزى فى تعليقه على هذا الأمر بالتصريح بأن سبب نقص الخراج كان ناتجاً عن تزايد الخراب والتلف عاماً بعد عام.

ولما ساء المحصول الزراعى ، رفض دافعوا الضرائب أن يسددوا المفروض عليهم كله ، وحاولوا بطبيعة الحال أن يتحايلوا على الخزينة. وقد نعم المصريون من هذه الناحية بمزية لم يكونوا يتوقعونها ، فبينما كان الحكام البيزنطيون يلجأون عادة إلى الضرب لحمل الشعب على دفع الضرائب ، أعلن الإسلام بأنه إذا كان شخص فى حالة لا تسمح له بدفع الجزية ، فلا يجوز للحاكم أن يكرهه على ذلك بالعقاب البدنى ، أى باستعمال العصى ، أو بتعريضه لأشعة الشمس الملتهبة ، أو رش جسمه بالزيت المغلى ، وإنما الوسيلة الوحيدة المصرح بها هى السجن لعدم دفع الديون.

وقال أبو يوسف صراحة فى هذا الصدد : « ولا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيدائهم الجزية ولا يقاموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شىء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية »[1].

وكان الأقباط يفضلون الحبس على دفع الضرائب كما كان بعضهم

---

(١) كتاب الخراج ، ص ٧٠ — لم تلبث فى الواقع هذه العقوبات أن طبقت. وتنص ورقة من أوراق البردى التى يرجع عهدها إلى القرن الثالث الهجرى نصاً صريحاً على إمهال دافعى الضرائب ثلاثة أيام كى يسددوا ما عليهم وإلا ضربوا عشر عصيان يومياً ... (أوراق البردى العربية الجزء الثالث ص ١٠٤ رقم ١٧٠.

يلتجىء إلى الأديرة حيث كانت الرهبنة تعفيهم من الجزية مدى الحياة . ويقول المؤرخ « رينودو » : « إن عدد الرهبان ازداد إلى درجة جعلتهم يقيمون كل يوم صوامع جديدة »(١) . وقد اكتفى بعضهم بتغيير محال إقامتهم بعد أن انتهت السلطات من تعداد السكان وأقاموا فى نواح أخرى لم تدرج أسماؤهم فى قوائم الضرائب . هذا عدا الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام هرباً من دفع الجزية وكان عددهم يزداد سنة بعد أخرى .

صرح مؤرخو العربّ أن مجموع الضرائب الذى بلغ فى الماضى عشرين مليون دينار ، هبط فى عهد عمر بن الخطاب إلى اثنى عشر مليوناً ، ثم ارتفع إلى أربعة عشر مليوناً إبان ولاية عبد الله بن سعد(٢) . وما لبث أن هبط بسرعة بعد ذلك . ففى خلافتى الأمويين والعباسيين ، لم تصل قيمة الضرائب المجموعة على الثلاثة ملايين(٣) .

وبينما كان الدخل ينقص أخذت المصروفات تزداد . فكانت الرغبة فى القيام بفتوحات جديدة وضرورة تأمين سلامة الإمبراطورية تقتضيان الاحتفاظ بجيوش وفيرة وكاملة العتاد ، كما اقتضت المحافظة على الأمن الداخلى إنشاء قوة بوليسية منذ الساعة الأولى .

وكانت المسائل المالية شغل الخلفاء الشاغل . فقد حاولوا أول الأمر أن يضغطوا الميزانية ، ولما كان الجيش يستنفد الجزء الأكبر من الدخل ، حاولوا تخفيض أجور الجند ، إلا أنهم باءوا بالفشل الذريع أربع مرات متتالية فى القرن الأول للهجرة ، ولم يكن أمامهم بعد ذلك سوى البحث عن حلول أخرى لا تعرضهم للخطر ، فلجأوا إلى زيادة الضرائب على المدنيين .

---

(١) ص ١٨٢ .

(٢) يعترف المؤرخون بصفة عامة بصحة هذه الأرقام .

(٣) خطط ، الجزء الأول ، ص ٩٨ — ٩٩ .

الإجراءات فى سبيل زيادة الدخل :

احتفظ الأقباط بذكريات حسنة عن حكم عمرو بن العاص لهم ، رغم أنه لم يتردد فى اتخاذ إجراءات مخالفة للقانون فى سبيل مضاعفة الإيراد . ويقول ابن عبدالحكم فى ذلك : « إن عمرو بن العاص لما فتح مصر قال لقبط مصر إن من كتمنى كنزاً عنده فقدرت عليه قتلته . » وأن نبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس « ذكر لعمرو أن عنده كنزاً ، فأرسل إليه ، فسأله ، فأنكر وجحد ، فحبسه فى السجن وعمرو يسأل عنه : « هل تسمعونه يسأل عن أحد ؟ » فقالوا : « إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور » ، فأرسل عمرو إلى بطرس ، فنزع خاتمه من يده ثم كتب إلى ذلك الراهب أن ابعث إلى بما عندك وختمه بخاتمه ، فجاء رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص ، ففتحها عمرو ، فوجد فيها صحيفة مكتوبة فيها « مالكم تحت الفسقية الكبيرة » ، فأرسل عمرو إلى الفسقية ، فحبس عنها الماء ثم قلع البلاط الذى تحتها ، فوجد فيها اثنين وخمسين اردباً ذهباً مضروبة ، فضرب عمرو رأسه عند باب المسجد . فذكر ابن رقية أن القبط أخرجوا كنوزهم شفقاً أن يبقى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس . »

ونعلم من جهة أخرى أن بعض الأقباط القاطنين فى الإسكندرية أو فى الأراضى المجاورة لها ساعدوا البيزنطيين الذين نزلوا بمراكبهم إلى الساحل عام ٢٣ أو ٢٥ من الهجرة . ولم يستغرب المؤرخون العرب إطلاقاً لهذه المساعدة ويعللونها بالحادث الآتى : « كان سبب نقض الإسكندرية هذا أن صاحب إخنا قدم على عمرو بن العاص فقال : « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فيصبير لها . » فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة : « لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك ، إنما أنتم خزانة لنا ، إن كثر علينا كثرنا

---

(١) ص ٨٧ .

عليكم ، وأن خففف عنا خففنا عنكم . » فغضب صاحب اخنا فخرج إلى الروم » (١).

لم يفه الخلفاء بتصريحات حاسمة كالتى فاه بها عمرو ولكنهم حرصوا على أن تكون للقوانين تفسيرات مطاطة تطاوع حاجتهم إلى المال . نعم لم يريدوا أن يتخطوا حدود القوانين ، ولكنهم ذهلوا لنقص دخلهم بهذه السرعة . ولما كانوا غير مستعدين فى أى وقت من الأوقات لوقف سيل فتوحاتهم أو الحد من ترف معيشتهم ، فقد أرغموا على إتخاذ اجراءات مالية انتهت باثارة موجة من السخط بين أفراد الشعب النصارى والمسلمين على السواء .

وإليك بعض الأمثلة . كان يوجد فى مصر فى العصر البيزنطى ، أى قبل أن يفرض المسلمون الجزية على البلاد ، مساحات كبيرة من الأراضى الصالحة للزراعة قدهجرها أصحابها من الأقباط الذين رفضوا أن يسددوا الضرائب المفروضة عليها . ولما جاء العرب ، ترك السكان أراض أخرى صالحة للزراعة للسبب نفسه ، فأصبحت السلطة لا تجنى أية فائدة منها .

وقد عرض الوالى الوليد بن رفاعة فى سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧ م) على الخليفة هشام بن عبد الملك هذه الحالة المحزنة التى آلت إليها بعض الأراضى فى مصر والتمس منه أن يصرح بهجرة بعض القبائل العربية إلى مصر لتسد الفراغ الذى يشكو منه . وقد صرح الوالى أن استقرار العرب فى هذه الأراضى لن يلغى خراجها (وهو ضريبة الخمس) ليفرض مكانه العشورية (وهى ضريبة العشر) . وعلى كل ، فان هذه الهجرة قد تؤدى إلى ازدهار البلاد إذ أن الأراضى المذكورة لم تسدد الخراج ولا العشورية .

وصرح هشام بن عبد الملك ، عملا بمشورة الوليد بن رفاعة ، لثلاثة آلاف فرد من قبيلة قيس بالنزوح إلى مصر والإقامة فيها ، وقد اشترط

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

عليهم شرطاً واحداً ، وهو ألا يقيموا فى الفسطاط وأن يستقروا فى الحوف الشرقى . وسرعان ما اغتنى من أقام منهم فى مدينة بلبيس لقيامهم بنقل البضائع الصادرة إلى بلاد العرب . وسرعان ما أخبروا سائر أفراد قبيلتهم بثرواتهم ، فخف إلى مصر خمسمائة آخرون ، فقدمت أفواج أخرى طلباً للثراء ونزلت فى الأراضى التى هجرها سكان البلاد الأصليون .

على أنه يجدر بنا أن نذكر أن هؤلاء العرب لم يحضروا إلى مصر لأغراض اقتصادية بحتة ، إذ أن الوالى الوليد بن رفاعة لم يقدم اقتراحه إلى الخليفة إلا بعد ثورة الأهالى الأولى فى الحوف الشرقى ، وأن أول فوج من المهاجرين قطن فى مدينة بلبيس ، أى فى المكان الذى نشبت فيه الثورة .

وقد تمكن هؤلاء العرب من التوغل تدريجاً فى البلاد كلها وأصبحنا نراهم فى الوجه البحرى والوجه القبلى ومصر الوسطى وقد تزوجوا من نساء قبطيات اعتنقن الإسلام ، فلم يعد أحد يستطيع أن يفرق بينهم وبين سكان البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام . وقد حصل السواد الأكبر منهم على أراض مما أدى إلى ظهور مشكلة البحث من نوع الضريبة التى يجب أن يؤديها هؤلاء الملاك الجدد . وتدخل المشرع لمصلحة السلطة ، فأفتى بأن تستمر الأراضى الخاضعة للخراج فى تأدية هذه الضريبة عنها حتى لو نقلت ملكيتها إلى مالك مسلم . وحجة المشرع أن أراضى البلاد المحتلة ملك المسلمين جميعهم وأنه ليس بالإمكان تضحية المصلحة العامة فى سبيل المصلحة الخاصة .

يتضح من هذه الفتوى أن السلطة استغلت لمصلحتها هذا الخطأ فى ذلك العصر ، إذ أنها تجاهلت عدم وجود أى فارق بين الجزية التى كانت تجبى نقداً وبين الخراج الذى كان يجمع عينا وهاتين الضريبتين كانتا مفروضتان ، على أى حال ، على أهل الذمة دون سواهم .

(١) الكندى ، ص ٧٦ — ٧٧ .

وإن اضطرت السلطات إلى إعفاء سكان المدن الذين يعتنقون الإسلام ، فإنها استمرت فى جباية الخراج من الملاك الزراعيين جميعاً على الرغم من أن الخراج ليس هو إلا جزية مفروضة على الأراضى الزراعية واشتراك أهل القرية فى دفعها . ولما رأى سكان الأقاليم أن ليس أمامهم أية فائدة مادية من دخولهم فى الإسلام ، تلكأوا فى اعتناق الدين الجديد بخلاف الحال مع سكان المدن . ويقول المستشرق «دى ساسى» : « لعل ذلك أحد الأسباب التى دعت إلى بقاء المسيحية فى الأقاليم مدة أطول منها فى الأقاليم »(١) .

وعند ما اتضح أن هذا الإجراء لا يكفى لسد عجز الميزانية ، فكرت السلطات فى زيادة نسبة الجزية . ويقول لنا المقريزى : « كتب معاوية بن أبى سفيان إلى وردان ، وكان قد تولى خراج مصر ، أن زد على كل رجل من القبط قيراطاً ، فكتب إليه وردان كيف نزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم شىء ، فعزله معاوية »(٢) .

وحاول أبو يوسف بعد ذلك أن يبرر رفع الجزية والخراج ، فقال : « إن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رأى أن الأرض فى ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها ، ولم يقل حين وضع عليها ما وضع من الخراج أن هذا الخراج لازم لأهل الخراج وحتم عليهم ، ولا يجوز لى ولمن بعدى من الخلفاء أن ينقص منه ، ولا يزيد فيه »(٣) .

وقد فكرت السلطة أن تحمل الأحياء على دفع الجزية عن الأموات . ويقص ابن الحكم علينا : « كتب حيان إلى عمر بن عبد العزيز يسأله أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم ، فسأل عمر عراك بن مالك ، فقال عراك : « ما سمعت لهم بعهد ولا عقد وإنما أخذوا عنوة بمنزلة العبيد . » فكتب

(١) *Droit de propriété territoriale*, p. 185.

(٢) خطط ، الجزء الأول ، ص ٧٩ .

(٣) أبو يوسف ، ص ٤٨ — ويقول البلاذرى إن الضريبة المفروضة على مدينة الإسكندرية والتى كانت ثمانية عشر ألف دينار ، بلغت فى عصر هشام بن عبد الملك الثلاثين ألفاً .

عمر إلى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم »[١] . ويدل هذا الإجراء — حسب ما يقوله المقريزى — على « أن عمر كان يرى أن أرض مصر فتحت عنوة وأن الجزية إنما هى على القرى ، فمن مات من أهل القرى ، كانت تلك الجزية ثابتة عليهم وأن من مات منهم لا يضع عنهم من الجزية شيئاً »[٢] .

إلا أن عمر بن عبد العزيز رفض أن يعمل بمشورة ولاته الذين نصحوه ، أمام زيادة عدد الذين يعتنقون الإسلام فيمتنعون عن دفع الجزية ، بأن يأمر بجباية الجزية من هذه الطبقة من المسلمين . فأجاب الخليفة : « إن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه[٣] .

ثم إن جميع الطبقات التى كانت قد أعفيت من دفع الجزية منذ الفتح فقدت مع مرور الزمن هذا الامتياز الممنوح لها . وقد فقد الرهبان على الأخص جميع الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ، مما أدى إلى ازدياد عدد معتنقى الإسلام ونقص عدد الرهبان ، فهجرت الأديرة شيئاً فشيئاً وأصبحت خراباً[٤] .

وقد كان عبد العزيز بن مروان أول من فرض على الرهبان جزية قدرها دينار فى عام ٦٥ هـ (٦٨٥ م) . وبرر هذا الإجراء بأنه ليس من العدل أن تدفع الطبقات الفقيرة الضرائب ويعفى عنها الرهبان والمطارنة والبطاركة الذين يملكون ثروات عظيمة . ولما صار عبد الله بن عبد الملك واليا على

---

(١) ص ٨٩ .

(٢) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٧٧ .

(٣) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٧٨ .

(٤) ويبدو ان هذا القرار اتخذ بعد أن ساء الرهبان استغلال امتيازاتهم . وهناك حادث وقع سنة ١٢٧٤ م (٦٧٢ هـ) يوضح هذه المسألة ، فقد طلب الرهبان فى ذلك العام إعفاءهم من أداء الجزية ، فأجابتهم السلطات مشترطة عليهم عدم إخفاء الأشخاص الذين يتهربون من دفع الضرائب فى أديرتهم والا يرسموا أى راهب قبل أن يستأذنوا الديوان . (تاريخ البطاركة اليعقوبيين وحبيب زيات : « خراج الأديرة وجزية الرهبان » فى مجلة المشرق سنة ١٩٣٨) .

مصر فى سنة ٨٦ هـ (٦٨٦ م) ، اعتقد الأقباط أن السلطة ألغت الأمر الآنف الذكر ، ولكن الوالى خيب آمالهم ، فحمل عليه المؤرخون النصارى وأظهروا كراهيتهم له .

ومع ذلك ، كانت إيرادات الدولة فى نقصان مخيف بالرغم من زيادة الضرائب . فقرر عبيد الله بن الأحدث ، بعد مضى ثمانين سنة على الفتح العربى ، أن يقوم بمسح الأراضى مسحاً دقيقاً بما فى ذلك الأراضى البور . وقد نفذ قراره هذا فى عام ١٠٦ أو ١٠٧ هـ (٧٢٤ أو ٧٢٥ م) وجلب إلى الخزينة أربعة ملايين دينار على الرغم من هبوط سعر الحنطة .

واتضح بعد ذلك أن المساحين لم يكونوا على جانب كبير من الدقة فى عملهم ، إذ وضعوا نصب أعينهم تخليص الدولة من المأزق المالى الحرج الذى وقعت فيه على حساب الشعب . ونستخلص ذلك من قراءة إحدى أوراق البردى المعروفة اليوم باسم أوراق « رينييه » . أن أحد المساحين قدر عقار بمائتى فدان ، غير أن صاحبات العقار عارض فى هذا الرقم وقلن إنهن مسحن الأرض كلها بما يقتضيه ضميرهن ، فبلغت مساحتها ١٣٩ فدانا من الأراضى الزراعية . وبعد فحص الأوراق والمستندات المتعلقة بهذه الأرض فحصاً دقيقاً ، وصلت السلطة إلى تقدير مساحتها بـ ١٤٨ فداناً فقط . وعلق الأستاذ « جروهمان » على هذا الحادث قائلا : « إذا وردت مثل هذه الأخطاء فى الحجج الخاصة بالأبعديات الكبيرة ، فما بالك بالقضايا التى كان يتعرض لها صغار الفلاحين الذين يفتقرون إلى وسائل الدفاع الناجحة »[١] .

وفى سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) ، أى فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، قام الليث بن الفضل الوالى على مصر بمسح أراضى الحوف الشرقى . وقد استعمل المساحون قياس أقصر من القصبة ، مما أثار شكوى السكان . ولكن الكندى

---

(١) *Aperçu*, I, p. 80

يقول أن الوالى رفض إن يستمع إلى شكواهم[١] .

ثم لجأ الوالى إلى إجراء كان البيزنطيون قد فرضوه ، منذ أواخر القرن الثالث الميلادى ، وهو نظام العمل الإجبارى للمصلحة العامة (Liturgie) وهذا دليل آخر لحيرة السلطة ازاء الحالة المالية . ويقول « جروهمان » ، اعتماداً على أوراق البردى : « كانت السلطة تطبق مبدأ تكليف الشعب القيام بالأعمال العامة لصيانة الأسطول البحرى خاصة . فكان الجزء الأكبر من هذا الأسطول يعتمد على موارد مصر وكان أيضاً يسلح فى الديار المصرية . ولم يكن تسخير الأيدى العاملة المصرية موقوفاً على صيانة الأسطول وتموينه فحسب ، بل كان يتعداه إلى أصحاب الحرف والصناع الذين قاموا أيضاً ببناء قصر للخليفة ببابليون وبأعمال أخرى خارج القطر[٢] ، كما كان الجند والموظفون المرسلون من قبل الولايات يتسلمون أجورهم من خزينة بلادهم الأصلية »[٣] .

وفى سنة ٢٥٦ ه (٨٦٩ م) ، وصل مصر قائم جديد على شئون بيت المال ، الا وهو أحمد بن المدبر . وقد انتقده المؤرخون المسيحيون والمسلمون لصرامته مر الانتقاد . ولكن السياسة التى سار عليها ابن المدبر ، كان لا بد منها فى تلك الظروف . ويقول ساويرس بن المقفع فى شأنه : « كان رجل شديد ، صعب فى أفعاله ، مخوف عند كل أحد ، لا يغلب ، ففعل أفعالا لم يفعلها أحد قبله وكان قد أقام بفلسطين مدة كبيرة وأذاق أهل تلك البلاد صعوبة وبلايا . فلما سمع أبونا البطرق بوصوله مصر ، حزن . وعند وصوله إلى مصر ، وضع يده على المسلمين والنصارى واليهود وأضعف عليهم الخراج ، فقوم لكل دينار دينار وقوم للدينار ثلاثة حتى ملأ الحبوس فى كل الأماكن . وأنفذ إلى الديارات فى كل موضع وأحصى

---

(١) ص ١٤٠ .

(٢) جروهمان : Aperçu ، الجزء الأول ص ٦٧ — من الصعب أن نحدد المدة التى طبق خلالها هذا النظام و إلى أى حد طبق أثناء القرن الثانى للهجرة .

(٣) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٣١٤ — ٣١٥ .

الرهبان التى فيها وطالبهم بالجزية والخراج . . . . »[١] .

وخصص احمد بن المدبر ديواناً للمراعى بعد أن كانت معفاة الى تاريخه من الضرائب ، ومنع أيضاً حرية التجارة بها وفرض عليها ضريبة اسماها «المراعى». وهذه الضريبة التى ذكرت مراراً فى القوائم المدونة على أوراق البردى كانت تفرض على الأرجح على رؤوس الأغنام ، كما فرضت فوق ذلك ضريبة على المروج أشارت إليها أوراق البردى دون أن تحدد طبيعتها ؛ أما ضريبة الصيد ، فهى ترجع أيضاً إلى عهد ابن المدبر .

وقد ذكرت هذه الضرائب كلها باسم « الضرائب الهلالية » لأنها كانت تجبى على حساب الشهر القمرى ، بعكس الخراج الذى كان يجبى على حساب السنة الشمسية . يضاف إلى هذه الضرائب ضريبة أخرى معروفة باسم « الصدقة » وقد أصبحت فى هذا العهد حسنة قانونية إجبارية على شكل ضريبة يدفعها المسلمون غير المسيحيين على السواء ، كما ورد ذلك فى أوراق البردى .

وقد تطورت الرسوم المفروضة على بعض الخضروات المزروعة وأصبحت ضريبة قائمة بذاتها . وفرضت السلطات بعد ذلك ضريبة على أشجار النخيل والكروم . وإلى جانب ذلك ، قام السكان بدفع الجزء الأكبر من المصاريف الخاصة بتحسين الأراضى الزراعية . وكان الصناع هم أيضاً يساهمون فى هذا العمل . وعلى كل حال ، فان الضرائب شملت الصناعات على اختلاف أنواعها ، غير أننا لم نعرف إلى أى حد رفعها ابن المدبر ، وكل ما وصل إلى علمنا ، أنه أعاد نظام الاحتكار وقرر رسوماً على الإيصالات ولوازم المكاتب (ثمن الصحف) وغيرها[٢] .

ويعتبر ابن المدبر آخر من حكم فى مصر لحساب حكومة بغداد . فقد تولى من بعده ابن طولون ، الذى بادر إلى إلغاء الرسوم والضرائب الجديدة

---

(١) تاريخ البطاركة ، الجزء الأول ، ص ٢٤٢ .

(٢) Grohmann, *Aperçu*, I, p. 74.

التى فرضها ابن المدبر ، وكان لها أسوأ أثر فى البلاد .

تلك هى الإجراءات الثابتة التى اتخذها الولاة بالاتفاق مع الخلفاء لزيادة دخل بيت المال . نضيف إليها المظالم التى وقع الأقباط تحت طائلتها ، وفى بعض الأحيان المسلمون . وذلك إثباتاً لشهوة الولاة الذين حكموا مصر لمدد قصيرة فأرادوا ألا يغادروها دون أن يغتنوا ، مهما كان الثمن . ويقول المستشرق « مارسيل » فى هذا الصدد : « ولما كان الوالى على يقين من أنه سيقال من منصبه ليحل وال آخر محله ، فقد كان يعتنى بما يجلب الفائدة إليه دون البلاد ، وكان همه الوحيد أن يثرى إبان ولايته القصيرة المدى وبأية وسيلة ، حتى يعوض الخسارة التى تنتج عن إقالته . لذلك كان كل وال يزيد الضرائب التى يفرضها سلفه »[١] .

أجشع أم تعصب ؟

نعتقد شخصيا أن العامل الدينى لم يكن إلا وسيلة تذرع بها الولاة لينالوا الثروة . ولا شك أن العقيدة الدينية ، أو بعض الأسباب الأخرى ، حملت بعض الولاة على سلوك مسلك آخر، ولكن لا يجوز أن نستند إلى سياسة الولاة وإجراءاتهم فى مصر ، لنقرر إذا كانوا يعملون بدافع التسامح أو بدافع التعصب.

وعند ما نتكلم عن الحالات الشاذة ، نقصد خاصة عبد العزيز بن مروان الذى ولى شئون مصر عشرين سنة متتالية . وعلى الرغم من أن المؤرخين النصارى لم يغتفروا له الضريبة التى فرضها على الرهبان ، فانه كان حاكماً عادلا طيباً . ويقول أحد الأساقفة الأقباط إن عبد العزيز كان يدعو إليه من وقت إلى آخر يوحنا رئيس الأساقفة لما بينهما من أواصر المودة والمحبة . وكان الوالى يبالغ فى تكريم البطريرك إسحق ويحميه من الوشاة الحاقدين[٢] . ويعزى هذا التسامح إلى أن الذى قام بتربية عبد العزيز هو أحد النصارى اسمه

(١) *L'Egypte Arabe*, p. 43-4.

(٢) *Vie d'Isaac, patriarche d'Alexandrie*, P.O., XI, p. 377-85.

« أنستاس » أو بار جومى » ، ويقول ميخائيل السورى عنه « إنه ذكى وكثير الاطلاع »(١) . وأكبر الظن أن هذه النشأة كان لها أثرها فى عطفه على الأقباط .

وبالعكس يصور الرواة النصارى أخاه عبد الله فى أبشع الصور ، إذ لم يكتف هذا الوالى باقرار ضريبة الدينار على رجال الدين ، بل سجن أيضاً البطريرك اليعقوبى ليرغمه على إعطائه جزء من ثروته . ويحدثنا عنه ساويرس قائلا : « لما وصل عبد الله بن عبد الملك إلى كورة مصر ، فعل أيضاً أفعال سوء ، وكان جميع الأراخنة خائفين لفعله الذى حسنه له الشيطان ... وفى تلك الأيام ، خرج الطوبانى الإكسندروسى وسار إلى مصر ليسلم عليه كالعادة من البطاركة والولاة . فلما نظر إليه قال : « من هو هذا ؟ » قالوا له : « هذا أب وبطرك جميع النصارى . » فأخذه وسلمه لواحد من حجابه وقال له : « افعل به ما تريد من الهوان إلى أن يقوم بثلاثة آلاف دينار . » فأخذه وأقام عنده ثلاثة أيام . فلما نظر ذلك جرجه الشماس النمراوى ، أنه ما يفرج عن البطرك إلا بعد أن يأخذ المال ، تقدم إليه وقال له : « يا سيدنا ، تطلب نفس البطرك أو مال ؟ » فقال له : « أريد المال . » فقال له الشماس جرجه : « ضمنى إياه مدة شهرين أنحدر به إلى بحرى أطلب له من الأراخنة والنصارى وأقوم لك عنه بثلاثة ألف دينار . » فسلمه إليه ، فطاف به المدن والقرى على المؤمنين بالمسيح حتى حصل المال وجمعه (٢) .

ويتهم ساويرس الوالى عبد الله بأنه حصل من أهل الذمة ثلثى دينار زيادة عما كانوا يدفعونه من قبل ويصفه الأسقف بأنه « كان محباً للمال جداً . » ويتهمه الكندى بأنه شجع الرشوة وملأ جيوبه بمال الجزية »(٣) .

ولم يكن قرة بن شريك ، الذى خلف عبد الله فى ولاية مصر ، أقل حباً

---

(١) الجزء الثانى ، ص ٤٧٥ .

(٢) ص ١١٤ .

(٣) ص ٥٩ .

للمال من سلفه . ويقص علينا ساويرس أنه لما ذهب البطريرك البائس إلى قرة ليهنئه بالولاية ، كما جرى العرف ، « قبض عليه قره وقال له : « الذى قبضه منك عبد الله بن عبد الملك تحتاج تقوم لى بمثله . » ويحكى المؤرخ عن قره أيضاً أنه اقتحم كنيسة الفسطاط مع نفر من الفساق المقربين إليه وبعض المهرجين ، ومكثوا أمام الهيكل أثناء أداء الصلاة .

انها سنة استنها أحد الولاة الجشعين ، فأصبح من المتعذر بعد ذلك أن يحال بين الولاة اللاحقين وبين نهجهم على منوال هذا السلف . وقد أرسل الخليفة سليمان بن عبد الملك إلى مصر أسامة بن زيد ليقوم على بيت المال . ويبدو أن هذا الرجل كان أكثر جشعاً ممن سبقه . ويقول المؤرخون المسلمون والنصارى أنه قام بمصادرة الأملاك بغير حق كما أسرف فى القتل بصورة وحشية . ولقد جمع الرهبان وأخبرهم بوجوب الابقاء على الرسم الذى فرضه عبد العزيز عليهم ، كما أجبرهم على أن يطلبوا من رجال الضرائب خاتما من حديد تنقش عليه أسماؤهم وموعد دفع الضرائب ، على أن يضعوا هذا الخاتم فى إحدى أصابعهم حتى إذا ما قبض على راهب وكانت يده عاطلة منه قطعت فى الحال .

ويظهر أن أمر أسامة هذا دخل فى دور التنفيذ . أما الرهبان الذين لجأوا إلى الأديرة واعتقدوا أنهم تمكنوا بهذه الطريقة الهرب من دفع الضريبة دون أن ينالهم أى عقاب ، فقد قام رجال الشرطة بالبحث عنهم والقبض عليهم ، ثم حكم عليهم بقطع رؤوسهم أو جلدهم حتى الموت . وإلى جانب ذلك ، أصدر أسامة أمراً يحتم على السكان الذين يسافرون بطريق النيل شمالا أو جنوباً أن يحملوا جواز سفر مدموغ .

وقد كان لهذه الاجراءات أسوأ وقع فى النفوس ، إلا أن وفاة الخليفة حال فى الوقت المناسب دون قيام ثورة فى البلاد . لهذا ، لم يتوان عمر بن عبد العزيز بعد توليته الخلافة فى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ م) فى عزل أسامة وتعيين أيوب

ابن شُرحبيل مكانه بعد أن كلفه بتهدئة الخواطر وباستعمال اللين مع السكان . ثم أمره الخليفة بالقاء القبض على أسامة ووضع حلقة من الحديد حول عنقه وتكبيل يديه وقدميه باوتار خشبية . وسيق أسامة ، وهو على هذه الحال ، إلى مكان إعدامه ، ولكنه مات أثناء الطريق .

وقام عُمر بن عبد العزيز بعمل آخر على جانب عظيم من الأهمية اكسبه عطف الأهالى وحبهم ، إذ أنه أمر بالغاء الجزية على الرهبان والأساقفة(١) . ولم يلبث أن أعيدت الضريبة مرة أخرى فى عصر يزيد وعاد الأقباط إلى سيرتهم الأولى من الشكوى من جور الولاة .

وفى خلافة هشام ، أعيد تعيين حنظلة بن صفوان على مصر (١١٩ هـ — ٧٣٦ م) . وكان قد تولى هذا المنصب من قبل فى عهد الخليفة يزيد . ولم يتبع حنظلة الخطط الحكيمة التى رسمها له الخليفة هشام بل رفع الضرائب ولم يقتصر على فرض رسوم على الآدميين بل تعداه إلى الحيوانات بعد أن أجرى إحصاء عاما لها ، وفرض أيضاً ضريبة الدمغة على الإيصالات .

وكانت للخليفة هشام سياسة حكيمة تخالف سياسة عامله السيئة ، فقد كان يحاول كسب عطف الأقباط الذين لم يفقدوا بعد نفوذهم فى البلاد بدلا من إثارة غضبهم بفرض ضرائب جديدة . ولما ظلوا بدون بطريرك مده من الزمن ، أمر الخليفة بتنصيب رئيس دينى عليهم . وأمر أيضاً بتسليم كل شخص سدد ضرائبه براءة رسمية باسمه حتى « لا يظلم أحد ولا يكون فى مملكته ظالم . » ذكر الأسقف ساويرس كل هذا ، ثم أردف قائلا : « كان هشام رجلا خائفاً من الله على طريق الإسلام وكان محب لسائر الناس . »

ويتضح من سرد هذه الحوادث أن ظلم الولاة للشعب كان فى معظم الأحيان ناتجاً عن أمور شخصية بحتة . ولم يلبث الولاة أن وجدوا من يقلدهم فى تصرفاتهم ، فلقد حذا حذوهم الموظفون الذين يعملون تحت إمرتهم . ويقول

---

(١) ساويرس ، ص ١٥٢ .

لنا ميخائيل السورى : « لما غادر المأمون مصر ، تعددت المصائب على المصريين . وكان الفرس يدخلون القرى ويكبلون الذين يقاومونهم ، كل عشرة أو عشرين معا ، ويرسلونهم إلى الفسطاط دون أن يتأكدوا إذا كانوا مذنبيين أم لا . وقد زهقت أرواح الكثيرين دون أن يقترفوا أى ذنب . وطلب بعض المقبوض عليهم ، وهم فى طريقهم إلى الهلاك ، أن يقبل جلادهم منهم رشوة فى مقابل إطلاق سراحهم . وحينما صرفوا له المبلغ ، قال لهم الرجل : « انتظروا ريثما نقابل أناساً آخرين فى الطريق فاكبلهم بالسلاسل مكانكم . » ولم يلبثوا أن صادفوا ثلاثة رجال : كاهناً وعربيين كان أحدهما أمام مسجد فأطلق سراح الذين أعطوه الرشوة والقى القبض على هؤلاء مكانهم » (١) .

وكان استهتار الولاة بمصلحة مصر واضحاً لدرجة أنه عند ما اشتدت الدسائس والمؤامرات فى بلاط بغداد فى القرن الثالث الهجرى ، كان من النادر أن يترك شخص ذو نفوذ بلاط الخليفة ويعيش بعيداً عنه ، وإذا اختير والياً على قطر من الأقطار ، عين وكيلا عنه يدير شئون الحكم باسمه ويخصه بجزء من الدخل مقابل هذا التعيين .

وكان جمع المال هو الهدف الأول للولاة ، ولذلك عانت البلاد أزمة اقتصادية شديدة قبل ظهور الدولة الطولونية إذ قل المحصول بسبب استنزاف الحكومة لمواردها جزافاً .

على أن معاملة الأمويين للشعوب المغلوبة كانت بصفة عامة أحسن من معاملة العباسيين لهم . فكثيراً ما استعمل هؤلاء القوة والعنف لابتزاز الأموال . وأكبر الظن أن حاجتهم الملحة إلى المال حالت دون اتباعهم سياسة اللين . وعلى كل ، فان تاريخ البطاركة اليعاقبة ما هو إلا سلسلة طويلة من الشكاوى ، ابتدأت من عهد البطريرك الثانى والخمسين بعد القديس مرقص . وقد بلغ اليأس بأحد الأساقفة ، واسمه قزمان ، إلى حد جعله يتنازل

(١) الجزء الثالث ، ص ٧٧ و ٧٨ .

عن سلطته لعلية القوم من طائفته ، فجعلهم مسئولين عن تأدية المبالغ المستحقة للحكومة ثم انسحب إلى مدينة « دمرو » .

د — ثورة الأقباط .

أدرك الأقباط أنهم بالغوا فى تفاؤلهم لأن الحكومة مهما كانت متسامحة لا تستطيع أن تعيش دون جباية الضرائب . وزادت خيبة أملهم عندما أدركوا أن الفاتح الجديد كان يريد أن ينعم بثمرة انتصاره . لذلك لم يلبثوا أن وضعوا نصب أعينهم هدفاً واحداً هو تغيير حكامهم الجدد والتحرر من ربقتهم .

وقف الشعب أثناء الفتح موقف المحايد الذى يعطف على العرب ولكن بعض الأقباط الذين يسكنون ضواحى الاسكندرية انحازوا إلى البيزنطيين وانضموا إلى صفوفهم عندما قام هؤلاء بهجوم مضاد على العرب . وسبب هذا الانحياز — كما سبقت الإشارة إليه — أن عمراً أجاب بخشونة على صاحب « إخنا » عند ما طلب إليه تحديد قيمة الضريبة الواجب دفعها للخزينة .

غير أن الأقباط لم يحركوا ساكناً بعد مقتل عثمان والانشقاق الذى حدث بين أنصار على بن أبى طالب وأعدائه . وقد أثار هذا الموقف دهشة المستشرقين . ولكن الأكليروس القبطى — وكان وقتئذ هو الذى يمكنه إشعال نار الثورة — كان راضياً كل الرضى عن الإحتلال العربى ، لأن عمرو كرم بطريركهم كل الاكرام وأحاطه بالاجلال والاعتبار وطلب إليه نصائحه وبركته وأمر باعفاء رجال الدين من الجزية .

ولما قامت ثورة العباسيين على الأمويين ، كان الموقف فى مصر قد تغير كل التغير لأن خلفاء دمشق فرضوا الجزية على رجال الدين وزادوا نسبتها على الشعب وذلك لحاجتهم إلى المال ، مما أغضب الشعب لهذين الإجراءين فثار عام ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) أثناء خلافة هشام بن عبد الملك . وهذا دليل

على عدم رضاء الأقباط — وعلى رأسهم رجال الدين — عن حكامهم .

وقد شاء القدر أن يلجا مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين ، إلى مصر حيث اضطهد البطريرك قبل أن يكبله بالحديد . وكان هذا العمل بمثابة إيذان لانضمام النصارى كلهم إلى صف العباسيين (الخراسانيين كما كان يسميهم ساويرس بن المقفع) . وقد زودنا هذا المؤرخ بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية عن أبناء ملته فقال : « كان بقية النصارى بمصر قالوا للخراسانيين : « هذا أبونا البطرك عند مروان ولا ندرى ما يصنع به . » وكان البشامرة (أهل البشمور) قد لقوهم من الفرما وقالوا للخراسانيين : إن بطركنا قد أخذه مروان ليقتله بسبب أنا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم إلينا . » وكان الناس يقولون إن يد الرب مع الخراسانيين ، وكانوا إذا وجدوا قوم عليهم علامة الصليب، يخففوا عنهم الخراج ويرفقوا بهم ويعملوا معهم الخير فى جميع البلاد ، وصلبوا مروان منكس بعد أن قتلوه . وبجلوا الخراسانيين أنبا خيال وأكرموه كرامة عظيمة »[1] .

ولما كان العباسيون أكثر دراية من عمرو ، فقد عرفوا كيف يستعينون بالأهالى الذين كانوا على استعداد لمساعدتهم ضد حكام البلاد . إلا أن كثيراً ما يعيد التاريخ نفسه إذ قد وجد العباسيون أنفسهم مضطرين إلى فرض ضرائب باهظة . ويقول ساويرس فى ذلك : « ولما كان فى ثالث سنة من مملكة الخراسانيين ، أضعفوا الخراج وأكملوه على النصارى ولم يوفوا لهم بما وعدوهم »[2].

وأدت هذه السياسة إلى تعدد الثورات فى البلاد واستفحال أمرها . فقد قامت خمس ثورات هامة بين سنة ١٢١ هـ (٧٣٩م) وسنة ١٥٦ هـ (٧٧٣م). ولكن نشبت أكبر ثورة فى عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) أيام خلافة المأمون ، إذ سالت فيها الدماء وترتبت عليها نتائج رهيبة . وقد لوحظ انضمام عدد كبير

---

(١) تاريخ البطاركة اليعاقبة ، ص ٢٠٤ و ٢٠٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٠٥

من المسلمين إلى النصارى فى ثورتهم . واختار الثوار أنسب الأوقات للقيام بحركتهم حيث كان عدد كبير من الولايات فى حالة ثورة . وإذا كانت الأطماع السياسية فى الخارج هى التى حركت هذه الثورات ، فانها لم تقم فى مصر إلا بسبب الضرائب كسابق عهدها . وكتب المقريزى فى هذا الصدد : « لما كان فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ ، انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد وقبطها وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيها فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب »[١] .

وكان وجود البشموريين[٢] فى صفوف الثوار جعل القتال بدون هوادة . ويقول كاتب عربى ذكره المقريزى إن هؤلاء القوم كانوا أكثر توحشاً وتعنتاً من سائر سكان مصر ، وقد أقلقوا السلطات . ألم يناصبوا العرب العداء سبع سنوات بعد سقوط الإسكندرية فى أيدى عمرو ؟ ألم يكونوا أول من قام باعلان الثورة ضد جباة الضرائب ؟

ويذكر المستشرق « كاتريمير » Et. Quatremère ضمن بحثه مخطوطاً عربياً عن حياة ميخائيل ، فيأتينا بتفاصيل وافية عن استعداد هؤلاء القوم للقتال . ويقول هذا المخطوط : « قام البشموريين بالثورة ضد عبد الملك وكان يقودهم مينا بن بكيرة ، وقد انضموا إلى أهل شبرا سنباط واستولوا على هذه الناحية ورفضوا أن يدفعوا الجزية للحاكم وللقائم العام على شئون الضرائب. وقد سار إليهم عبد الملك على رأس جيش ، ولكنه لاذ بالفرار بعد مذبحة كبيرة . فأرسل إليهم عبد الملك جيشاً وأسطولا ولكنهما باءا بالفشل الذريع . وعند ما قدم الخليفة مروان مصر وأخبر بما حدث ، كتب إلى البشموريين يعرض عليهم العفو العام ولكنهم رفضوا هذا العرض ، فسير إليهم جيشاً قوياً

(١) الخطط ، الجزء الأول ، ص ٧٩ — ٨٩

(٢) سكان بشمور وهى أرض واقعة على مستنقعات يزرع فيها الغاب ، بين الإسكندرية ورشيد ، بالقرب من بحيرة أدكو . ويزعم سعيد بن بطريق أنهم سلالة أربعين يونانياً بقوا فى مصر بعد انتصار العرب ثم نما عددهم بالتزاوج (ص ٥٧) .

مكوناً من جنود مصريين وأخرى سورية ، إلا أنها لم تستطع أن تلتحم بالثوار الذين اعتصموا فى منطقة المستنقعات ذات الطرق الضيقة التى لا يمكن أن يمر خلالها سوى شخص واحد ، إذا انزلقت قدمه فى الوحل غاص فيه ومات حتما . واستطاعت الجيوش العربية أن تحاصر هذا المكان ، ولكن عند ما أسدل الليل ستاره ، خرج البشموريين من معاقلهم وساروا فى الممرات التى انفردوا بمعرفتها ومالبثوا أن انقضوا انقضاض الصاعقة على المسلمين فقتلوا منهم ما وسعهم القتل وسلبوا نقودهم وخيولهم .

« ولما دخل الكوثر بن الأسود ، قائد قوات مروان ، الإسكندرية ، أمر بسجن البطريرك ميخائيل بعد أن ضربه ثم أمر بقطع رأسه . وكان الأمر ينفذ وكانت يد الجلاد مرفوعة لتهوى على رقبة البطريرك ، عند ما اختلج قلب كوثر بعاطفة الشفقة وقال لصحبه : « ماذا نجنيه من قتل هذا الشيخ العجوز ؟ لقد كتب إلى البشموريين يطلب إليهم الكف عن محاربتنا ولكنهم أبوا أن يعملوا بنصيحته . فلنأخذه معنا إلى رشيد ليكتب إلى هؤلاء القوم أنه بسببهم ما ناله من سوء المعاملة . » وبينما كان الأمير فى طريقه إلى رشيد ، علم أن المدينة وقعت فى أيدى البشموريين الذين خربوها وأحرقوها بعد أن قتلوا من فيها من المسلمين »(١) .

ولو كانت الثورة اندلعت فى القطر المصرى وحده بسبب الخلاف حول دفع الضرائب ، لما قام الخليفة بالسفر إلى مصر لقطع دابرها . ولكن صادف أن أعلن نصر بن شباث فى نفس الوقت الثورة على الخلافة واعتمد فى حركته على السوريين الذين ظلوا مخلصين لبنى أمية ، كما وصل أسطول حربى من الأندلس ورسا فى ميناء الإسكندرية ، فقلق المأمون كثيراً وخشى استفحال الثورة لأن المصريين لا يتورعون عن الاتفاق مع الأمويين الذين لجأوا إلى إسبانيا كما اتفقوا مع العباسيين ضد الأمويين .

---

(١) *Recherches*, p. 152-6.

ولا بد أن ميخائيل السورى كان يعنى ما يقوله عند ما كتب : « أعلن نصر وصحبه الثورة فى الشام وحثوا فى آن واحد المصريين على الثورة »[١] . « واستولى عليها رجلان هما سرى وجورى[٢] وبعد أن جلبا الذهب بمقدار الأحجار ، أخذا يحصلان الجزية (باسمهما) . ولما توفيا ، خلفهما ولداهما : فتولى عبيد بن سارى على الفسطاط والجنوب ، وحكم أحمد[٣] الشمال . أما الإسكندرية ، فقد استولى عليها قوم جاءوا من بلاد الأندلس »[٤] .

وعلى الرغم من أن البطريرك يوساب عمل جاهداً لاقناع البشموريين على عدم ارتكاب أعمالهم العدوانية ، نرى ساويرس يبرر ثورتهم فيقول : « عامل العرب البشموريين على الأخص فى غاية من القسوة . فقد ربطوهم بسلاسل إلى المطاحن وضربوهم بشدة ليطحنوا الغلال كما تفعل الدواب سواء بسواء . فاضطر البشموريين أن يبيعوا أولادهم ليدفعوا الجزية ويتخلصوا من آلام العذاب . ولما اقتنعوا نهائياً أن هذا الظلم لا يحده إلا الموت وأن بلادهم كلها مستنقعات تخللها الطرق الضيقة التى ينفردون بمعرفتها ، وأنه يعد من المستحيل على جيوش المسلمين أن يغزوها ، فقد اتفقوا جميعا على إعلان الثورة ورفضوا دفع الجزية . . . وكان البطريرك يوساب يذوب حسرة على رعيته التى تحالف على إفنائها الطاعون والمجاعة والحرب . غير أن البشموريين وطدوا عزمهم على مواصلة القتال وأخذوا يصنعون لأنفسهم الأسلحة وحاربوا الخليفة علانية ورفضوا دفع الجزية على الإطلاق . ووصلت بهم الحال أنهم قتلوا كل من جاء إليهم ليقوم بعمل الوسيط بينهم وبين السلطة . وقد تحسر البطريرك عليهم لأنهم خاضوا غمار الحرب ضد عدو يفوقهم فى العدد والعتاد ،

---

(١) تاريخ ، الجزء الثالث ص ٥٩

(٢) المقصود هنا السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى .

(٣) المقصود هنا على بن عبد العزيز الجروى

(٤) يذكر ساويرس هذا الحادث دون أن يعلق عليه أهمية .

وتعرضوا للموت بحكم إرادتهم ، فكتب إليهم خطابا حاول فيه أن يقنعهم بعدم قدرتهم على مقاومة الخليفة بالسلاح ويصف لهم المصائب التى ستحوق بهم ويطلب إليهم أن ينصرفوا عن عزمهم . ولما اتضح له أن هذا الخطاب لم يؤثر فيهم ، أرسل الخطاب تلو الخطاب ملحاً فى رجائه . ثم لما قدم الأساقفة حاملين معهم هذه الرسائل ، انقض عليهم البشموريين وجردوهم من ملابسهم وأمتعتهم وطردوهم بعد أن أوسعوهم سباً وشتما . ولما عاد هؤلاء الأساقفة إلى البطريرك وقصوا عليه كل ما حدث لهم ، قرر البطريرك أن يترك هذا الشعب لمصيره »[1] .

وكان المأمون فى ذلك الحين قائماً فى سوريا ، فخف إلى مصر بعد أن منح عفوه إلى نصر الثائر . وكان بطريرك « تل مهرة » « ديونيسيوس » نازلا فى دمشق ، فأرسل إليه المأمون خطاباً يقول فيه : « امكث هنا لتأتى معنا إلى مصر لأننا نريد منك أن تذهب كسفير عند « البياماى »[2] فى مصر السفلى ونقنعهم بالكف عن القتال والعودة إلى الطاعة »[3] .

ولنترك الآن ديونيسيوس يحدثنا بنفسه عما طرأ : « عند ما وصلنا إلى مدينة الفرما ، استدعانى الملك وقال لى : « لقد علمت أيها البطريرك بنبأ ثورة النصارى المصريين المعروفين باسم البياماى . وأنهم لم يكتفوا بالخراب الذى أصابهم من جراء هجومنا الأول عليهم . ولولا تسامحى وعدم تفكيرى فى القضاء عليهم لما أرسلت إليهم رجلا مثلك . خذ معك المطارنة الذين بصحبتك وسائر المطارنة المصريين واذهب لمقابلتهم وفاوضهم بشرط أن يسلموا الثوار وليأتوا معى. ومع جيشى إلى المكان الذى أعينه فاسكنهم فيه . فإذا رفضوا فانى سأقتلهم بالسيف . » ولما حدثت الخليفة طويلا على أساس أن يخضع البشموريين

---

(١) ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .
(٢) كان بعض الرواة المسيحيين ، ومن بينهم ابن بطريق ، يسمون هكذا البشموريين .
(٣) ميخائيل السورى ، الجزء الثالث ، ص ٧٦ .

لحكمه ويتركهم فى بلادهم أجاب بالنفى وقال : « لا ! فليخرجوا من البلاد أو يتعرضوا للقتل ! »

ثم يستأنف ديونيسيوس قصته قائلا : « لقد وجدناهم مجتمعين وقد احتموا فى جزيرة محاطة بالمياه والخيزران والغاب من كل جهة . فخرج إلينا رؤساؤهم وتقدموا نحونا . ولما وجهنا إليهم اللوم على الثورة التى أشعلوها والمذابح التى اقترفوها ، أنحوا باللائمة على من كان يحكمهم[1] . إلا أنهم عند ما علموا بوجوب الخروج من بلادهم ، حزنوا حزناً شديداً ورجونا أن نبعث إلى الملك برسالة نطلب إليه فيها أن يسمح لهم بالمثول بين يديه ليقصوا عليه كل ما احتملوه من الهوان .

« وقالوا إن أبا الوزير الوالى[2] كان يرغمهم على دفع جزية لا يستطيعون تحملها ، وكان يسجنهم ويربطهم إلى الطواحين ويضربهم ضرباً مبرحاً ويضطرهم إلى طحن الحبوب كالدواب تماماً ، وعند ما كانت تأتى نساؤهم إليهم بالطعام ، كان خدمه يأخذونهن ويهتكون عرضهن . وقد قتل منهم عدداً كبيراً ، وكان عازماً على إبادتهم عن بكرة أبيهم حتى لا يشكوه إلى الملك . . . ولما عدنا إلى الملك ، أخبرناه بالظلم الواقع على المصريين وجور الوالى . وبعد أن قدمت له تقريرى قال لى : « أنا غير مسئول عن سياسة ولاتى لأنى لم أمل عليهم هذا الموقف الذى اتبعوه . أنا لم أفكر قط فى إرهاق الناس . وإذا كنت قد أشفقت على الروم وهم أعدائى ، فكيف لا أشفق على رعيتى ؟ »[3] .

ويحدثنا المؤرخون المسلمون على أن المأمون ، حينما وصل إلى مصر ، عنف الوالى عيسى بن منصور تعنيفاً شديداً وعزله قائلا : « لم يكن هذا

---

(١) لعلهم يقصدون الوالى .

(٢) لعله يقصد صاحب الخراج فى دائرة البشموريين .

(٣) ميخائيل السورى ، جزء ٣ ، ص ٧٨ و ٧٩ .

الحادث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد »[١] .

وعلى الرغم من نصائح رجال الأكليروس المتلاحقة ، رفض البشموريين التسليم ، فلم يكن من المأمون إلا أن سحقهم سحقاً وقتل عدداً كبيراً منهم . ثم أرسل فى طلب رؤسائهم و « أمرهم أن يغادروا هذه البقعة ، غير أنهم أخبروه بقسوة الولاة المعينين عليهم وأنهم إذا غادروا بلادهم لن تكون لهم موارد للرزق إذ أنهم يعيشون من بيع أوراق البردى وصيد الأسماك . وأخيراً رضخوا لأمره وسافروا على سفن إلى أنطاكية حيث أرسلوا إلى بغداد [٢]. وكان يبلغ عددهم ثلاثة آلاف ، مات معظمهم فى الطريق . أما الذين أسروا أثناء القتال ، فقد سيقوا عبيداً ووزعوا على العرب . وبلغ عدد هؤلاء الخمسمائة ، فأرسلوا إلى دمشق وبيعوا هناك »[٣].

واستطاع المأمون أن يطفىء جذوة الثورة الوحيدة المستقرة فى البلاد . وكتب المقريزى فى هذا الشأن : « ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أراضى مصر وخذل شوكتهم فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان ، وغلب المسلمون على القرى فعاد القبط بعد ذلك إلى كيد الإسلام وأهله بأعمال الحيلة واستعمال المكر وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم فى كتاب الخراج » [٤].

ويجدر بنا أن نذكر هنا أنه بينما كان البشموريين يقاتلون قتال اليائس

---

(١) الكندى ، ص ١٩٢

(٢) كتب صاحب تاريخ البطريرك ميخائيل فى هذا الصدد التفاصيل الآتية : « أمر المأمون بالبحث عما تبقى من البشموريين فى مصر وأرسلهم إلى بغداد حيث مكثوا فى سجونها ، ثم أطلق سراحهم شقيق المأمون وخليفته إبراهيم . وقد عاد البعض إلى بلادهم وبقى البعض الآخر فى بغداد وهم فيها حتى الآن ويعرفون بالبشموريين . ولعل عاد بعضهم بعد ذلك إلى مصر وفى نفوسهم روح الثورة. Quatremère, *Recherches*, p.161-3

(٣) ميخائيل السورى ، الجزء الثالث ، ص ٨٣

(٤) الخطط ، ج ١ ، ص ٧٩ — ٨٠

فى ثورتهم الأخيرة التى يخرج منها المقريزى بنتائج عن جانب عظيم من الخطورة ، لم يسجل المؤرخون أية ثورة للاقباط فى أية بقعة أخرى من القطر . والواقع أن الأقباط لم يلجأوا بعد ذلك إلى أسلوبهم القديم ، كما يقول المقريزى ، لأنهم لم يكن لديهم أبداً غير هذا الأسلوب . ولما قامت الثورات ، اشترك فيها الأقباط بتشجيع من العناصر الأجنبية سواء كانت هذه العناصر من المسلمين أو من البشموريين (وهم مزيج من الأقباط واليونانيين) . ولما أبيد البشموريين عن بكرة أبيهم ، لم يحاول الأقباط القيام بأية حركة ثورية عامة .

هـ — الفوائد التى جناها الأقباط

الأقباط يحتكرون الأعمال الإدارية .

إن الأحداث التى ذكرناها لا تعنى بأن الأقباط كانوا تعساء تحت حكم الولاة العرب ، بل كانوا أسعد كثيراً مما كانوا عليه أيام البيزنطيين . وبالرغم من جهود الخلفاء واهتمامهم بتطبيق تعاليم القرآن ، فان الأقباط لم يقتصروا على شغلهم معظم الوظائف الإدارية فحسب ، بل كان لهم الأمر والنهى فى بعض الأحيان . وبقى نظام الضرائب والحسابات بين أيديهم مما أتاح لهم الفرصة لتحقيق مكاسب كبيرة . وكذلك يمكننا أن نقول انه فيما يتعلق بالأقباط ظلت تعاليم القرآن غير معمولا بها .

وقد أظهر الخلفاء مراراً رغبتهم فى إبعاد الأقباط من الوظائف الإدارية كما أنهم أظهروا خيبة أملهم — شفهياً إن لم يكن كتابياً — كلما وجدوهم فى مناصبهم . ولكن دراية عمرو بن العاص السياسية تغلبت على تزمت عمر الدينى . ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد مضى قرن من فتح مصر ، ذكر حكام الأقاليم بواجبهم ، ووجه إليهم رسالة قوية قال فيها : «عمر بن عبدالعزيز

يقرأ لكم كلمات الله هذه (وهنا ذكر بعض الآيات القرآنية الخاصة بالذميين). لقد سمعت أنه فيما مضى ، عند ما كانت الجيوش الإسلامية تدخل البلاد ، كان المشركون يذهبون لمقابلتهم وأن المؤمنين يطلبون معاونتهم فى إدارة البلاد لسدادة رأيهم ودرايتهم فى الشئون الإدارية وجباية الضرائب . ولكن لا يوجد الرأى السديد ولا الدراية عند الذين يستأثرون غضب الله ورسوله . ثم إن الله أمر بنهى هذه الحالة ، ولا أود أن يخبرنى أحد بأن والياً ترك فى ولايته عاملا يدين بعقيدة غير العقيدة الإسلامية ، وأنى سأقيل هذا الوالى فى الحال . وأنه من الواجب علينا أن نبعد الذميين من الوظائف كما أنه من الواجب علينا أن نقضى على دينهم . فليخبرنى كل وال عما فعله فى ولايته » (١).

ولما تلقى أيوب بن شرحبيل هذه الرسالة ، الغى امتياز الأقباط الخاص بإدارة أموال المقاطعات وأحل المسلمين محلهم(٢) .

ومع ذلك ، لم يمض خمس وثلاثين عاماً على إصدار هذا الأمر حتى أخطر الخليفة العباسى المنصور بوجوب إصدار أوامر دقيقة بخصوص إبعاد الذميين من الوظائف . نعم أن هذا الإجراء لم يمهد له من قبل بل كان ابن ساعته . فقد حدث أن تقدم إلى الخليفة بعض المسلمين ، فى أثناء حجة له ، والتمسوا منه أن يحميهم من جور النصارى ، بعد أن أذن لهم الخليفة بأن يتدخلوا فى شئون المسلمين وأن يخبروه بكل ما يعلمونه خاصاً بالأمويين . فما كان من المنصور إلا أن قال لكاتم أسراره : « هذا ختمى ، خذه وابعث بأمرى لطلب جميع المسلمين الذين لهم دراية فى العمل واكتب إلى جميع الولاة لكى يفصلوا الذميين من الخدمة . » ولما كان كاتم أسراره مقتنعاً من أن هذه الأوامر لن تدخل فى دور التنفيذ ، أجاب الخليفة بقوله : « لم أفعل شيئاً

---

(١) ابن النقاش (ترجمة النص الفرنسى المذكور فى الجريدة الأسيوية الفرنسية) .
(٢) الكندى ، ص ٦٩ .

مما أمرتنى به لأنى على يقين من أن الذميين إذا أثير غضبهم ، فعلوا الدسائس ضدنا »[١] .

والواقع أن الذميين لم يقالوا أبداً دفعة واحدة من وظائفهم بل أصبحوا فى خلافة المهدى أصحاب الأمر والنهى وأظهروا كبرياءهم حتى سخط عليهم المسلمون واحتجوا على ذلك : « فأمر الخليفة حينئذ الا يترك الوالى بجانبهم أى كاتب ذمى ، وأمر أيضاً بقطع يد المسلمين الذين يستعينون بكاتب نصرانى »[٢] .

أما الخليفة المهدىّ الذى كان يوصى حكامه بأن يتخلصوا من موظفيهم الذميين ، فلم يحاول قط تطبيق المبدأ الذى كان ينادى به . وقد استمر النصارى يتمتعون بشغل الوظائف الإدارية كما كان حالهم فى الماضى . وأحسن دليل على ذلك ما صرح به المأمون لكاتم سره لما كان فى مصر : « سئمت من الشكاوى التى أتلقاها ضد النصارى بخصوص اضطهادهم المسلمين وعدم نزاهتهم فى إدارة الشئون المالية »[٣] .

وكذلك ، اكتفى عمر بن عبد العزيز والمنصور والمهدى وهارون الرشيد والمأمون والمتوكل والمقتدر بالله بأن يعزلوا اسمياً النصارى من الوظائف العامة ولكنهم فى الواقع تركوهم فى مراكزهم .

امتناع تنفيذ الأوامر الخاصة بزى النصارى .

أذن عمرو للأقباط بارتداء زى المسلمين[٤] . فلم ينالهم من ذلك الحين أى ضغط من هذه الناحية والواقع أن الخليفة والوالى لم يفكرا حتى عام ٢٣٣ هـ (٨٤٨ م) فى إلغاء هذا الأذن . وقد رأى عمر بن عبد العزيز فى الوقت الذى

---

(١) ابن النقاش .
(٢) ابن النقاش .
(٣) ابن النقاش .
(٤) وبالأحرى أنه لم يمنعهم من أن يستتروا بزى المسلمين .

أمر فيه بعزل أهل الذمة من الوظائف العامة أن يذكروا ولاته بشروط عمر ، فيقول لنا ابن البطريق : « لم يزل النصارى يلبسون السواد ويركبون الخيل فى أيام المتوكل . أما المتوكل ، فكتب إلى جميع البلدان أن يأخذوا النصارى بلباس العيار والرقاع فى الدراريع رقعة من قدام ورقعة من خلف وأن يمنعوا من ركوب الخيل[١] وأن تصير فى سروجهم أكر ويركبون بركب خشبى وتصور على أبواب دورهم صور الشياطين (وفى نسخة أخرى صور « الخنازير والقرود ») فقال النصارى من هذا إذاء شديد وحزن وغم »[٢] .

و– اتجاه العرب إلى اتباع سياسة استعمارية .

أظهرنا كيف تأثر العرب والأقباط على السواء بالاعتبارات المالية ، وقد ظل المال فى الواقع مدة طويلة العامل المهيمن على علاقاتهم . ويقول المستشرق جاستون فييت : « كان الخلفاء الأولين يعتقدون ، فى الخمسين سنة التى تلت وفاة النبى ، بعدم استطاعتهم تكوين امبراطورية إسلامية »[٣] . لذا وجدنا أن المال ، خلال هذه الفترة التى كان العرب فى حاجة ماسة إليه ، أصبح الرائد لسياستهم حيال الشعوب المغلوبة . ولم تمكنهم عدم خبرتهم انتهاج سياسة استعمارية سليمة كما أن المنازعات الداخلية التى قامت مبكرة فى الامبراطورية الجديدة لم تسمح لهم باتباع سياسة بعيدة المدى .

بزغت شمس الامبراطورية العربية فى عهد الأمويين . فلما أصبحت حدودهم فى مأمن من الخطر ، أخذ الخلفاء يعملون على طبع البلاد المحتلة بطابع عربى إسلامى .

والأمثلة عديدة . لما وضع عمرو نظاماً للعدل فى مصر ، احترم إرادة

---

(١) ابن بطريق ، ص ٥٩

(٢) ابن بطريق ، ص ٦٣ .

(٣) *L'Egypte Arabe*, dans *Hist. de la Nation Égyptienne*, IV, p. 47.

الأقباط بأن جعلهم يحاكمون أمام قضاة من جنسهم ودينهم فيما عدا الحوادث الجنائية . ولكن ما أن تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة عام ٦٠ ه (٦٤٤ م) إلا وعين إلى جانب القاضي القبطي قاضياً مسلماً ليحكم في القضايا المدنية الخاصة بأهل الذمة . وفي عام ١٢٤ ه (٧٤٥ م) ، قرر حفص بن الوليد توزيع ميراث الذميين حسب تعاليم الشريعة الإسلامية لا حسب قوانينهم الخاصة[١] . وقرر عمر بن عبد العزيز أنه إذا قتل عربي نصرانياً ، لن يحكم عليه بالاعدام بل يطلب إليه أن يدفع فدية قدرها خمسة آلاف « زوزة » ، ثم منع خصم مبالغ على إيراد المساكن والمواريث والأراضي لمصلحة الكنائس والأديرة والفقراء[٢] .

وما هذه إلا أمثلة تدل دلالة واضحة على الروح التي كانت سائدة في هذا العصر ، وهذه الروح أخذت تزداد قوة إذ كان العربي المنتصر يريد إظهار تفوقه على الذمي المقهور .

ولكن الأمر الذي كان له أكبر أثر في حياة الأقباط الاجتماعية ، هو القرار الخاص باستعمال اللغة العربية في المعاملات الرسمية . وقد صدر هذا القرار عام ٨٥ ه (٧٠٥ م) في ولاية عبد الله بن عبد الملك[٣] . فأخذ الأقباط يهملون تدريجا دراسة اللغتين اليونانية والقبطية وتعلموا اللغة العربية التي أصبحت لغة الأعمال . وقبيل ذلك ، كان العرب قد اتخذوا قراراً عملياً في هذا المضمار ، فتعلم بعضهم اللغة القبطية . ويذكر لنا الكندي مثل القاضي خير بن نعيم (١٢٠ — ٧٣٨) الذي « كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها ، وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم »[٤] ، مما جعلنا نفرض أن بعض الموظفين درسوا اللغة القبطية ليوطدوا الصلة بينهم وبين الشعب .

---

(١) أبو المحاسن بن تغري بردي ، طبع دار الكتب المصرية ، جزء ١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) ميخائيل السوري ، جزء ٢ ، ص ٤٨٩

(٣) الكندي ، ص ٥٨ — ٥٩

(٤) الكندي ، ص ٣٤٩ (على الهامش) .

ويذكر « رينودو » أن « البطريرك يوساب ، عند ما وجه كلامه باللغة القبطية إلى المطارنة الذين جاءوا يتهموه ، فهم بعض المسلمين ما قاله البطريرك ونقلوه إلى القاضى »(١) .

قلق العرب من سرعة إقبال الأقباط على دراسة اللغة العربية وخاصة القرآن ، إذ كانوا يعتقدون أنهم سيضطرون الأقباط إلى ترك وظائفهم إذا أمروهم باستعمال لغة القرآن فى الأعمال الرسمية . ولذلك أصدر الخليفة المتوكل فى سنة ٢٣٥ هـ (٨٤٩ م) نشرة يحذر فيها من توظيف النصارى واليهود ومن تعليمهم اللغة العربية(٢) . ويضيف أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه لعام ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) أنه طلب إلى الذميين أن يعلموا أبناءهم اللغتين العبرية والسريانية بدلا من اللغة العربية »(٣) .

زد على ذلك أنه كلما تضخم عدد الذين اعتنقوا الإسلام ، ظهر للأغلبية أن النصارى ما هم إلا عنصر مناوىء فى وسط المجتمع الإسلامى . وكان المسلمون يميلون إلى اعتبارهم حلفاء طبيعيين للامبراطورية البيزنطية المسيحية ، فتحملوا لذلك رد فعل العرب بين حين وآخر . ويؤكد ميخائيل السورى أن عمر بن عبد العزيز أساء معاملة النصارى لأن جيوشه اضطرت إلى رفع حصار القسطنطينية بعد أن تحملت خسائر فادحة »(٤) .

وغضب أيضاً المهدى على النصارى لأن بعض الفرق البيزنطية هزمت ابنه هارون الرشيد وقائدين من قواده . « وقد أرسل المهدى أيضاً محتسباً لهدم الكنائس التى بنيت فى عهد العرب وأمر ببيع العبيد النصارى وخرب عدد كبير من المعابد »(٥) .

---

(١) تاريخ البطاركة ، ص ٢٩٠
(٢) الخطط ، جزء ٢ ، ص ٤٩٤
(٣) حبيب زيات ، لقب القاضى فى دولة المماليك ، فى مجلة المشرق سنة ١٩٣٨ .
(٤) ميخائيل السورى ، جزء ٢ ، ص ٤٨٨
(٥) ميخائيل السورى ، جزء ٣ ، ص ٣

ثم جاء هارون الرشيد ، ففرض على الذميين زيا خاصاً ، ذلك لأن سكان الحدود كانوا يتجسسون لمصلحة الامبراطور « نقيفور » البيزنطى . ولكن يلوح أن هذا الاجراء لم ينفذ إلا فى مدينة بغداد . أما أقباط مصر ، فلم ينالهم منه شيئاً .

ولما انتقل الحكم إلى الولاة المستقلين ، وضعوا حداً للسياسة التى كان يتبعها الخلفاء ، ونعم النصارى مرة أخرى بشىء من التسامح للأسباب التى سنبينها فى الباب التالى .

(٥)

سياسة الولاة المستقلين

الدولة الطولونية والدولة الاخشيدية

استقل الطولونيون والاخشيديون بحكومة مصر مع أنهم ظلوا اسماً تحت سلطان الخلافة العباسية . ويقول المستشرق « بيكر » فى هذا الصدد : « يبدأ التاريخ الخاص بمصر الإسلامية بالطولونيين . ولما كان أحمد بن طولون مستقلا عن السلطة المركزية ، فلم يعمل فقط على استغلال البلاد ، بل حرص دائماً على أن تنتج هذه البلاد باستمرار حتى يعلو صيت أسرته . وبذلك تحولت مصر من ولاية بسيطة إلى مركز لامبراطورية عظيمة ، وتحسنت أحوال الإدارة وارتفع مستوى المعيشة كما هى الحال فى مختلف العصور التى كان لمصر خلالها حكومة ثابتة الأركان »(١) .

وكان لهذا الوضع الجديد نتائجه الطبيعية . ومن ضمن النتائج البارزة أن الولاة المستقلين لم يعتمدوا على الخليفة بل كانوا على أهبة لمواجهة عدائه ، فأرادوا أن يكتسبوا عطف عناصر الشعب ومن بينهم الأقباط .

على أننا لا نستطيع التقدير ، على وجه التدقيق ، الحد الذى وصلوا إليه فى تسامحهم ، ذلك لأن عهد الطولونيين والاخشيديين كان قصيراً للغاية حيث لم يمتد إلى كثير من خمسين سنة بينما لا تعطينا المصادر التى عثرنا عليها إلا معلومات يسيرة عن العلاقات بين المسلمين والأقباط .

ومع ذلك ، فاننا نعلم أن ابن طولون بدأ عهده باجراء حاز قبول المسلمين والنصارى على السواء . فقد قرر إلغاء جميع الضرائب الهلالية التى فرضها

---

(١) *Encycl. de l'Islam*, Égypte.

صاحب الخراج أحمد بن المدبر . ولما أبعده ابن طولون ، جمع بين يديه السلطات المدنية والعسكرية والإدارة السياسية والمالية . وعنى الوالى أول ما عنى بالغاء الضرائب وابطال طرق العنف التى كانت تصحب جبايتها . ولا غرابة إذا نقصت حصيلتها مائة الف دينار منذ السنة الأولى .

وقد اطمأن الشعب لهذا الإجراء وعاد إلى عمله . ويؤكد بعض رواة العرب أن قيمة الضرائب التى جلبت إلى بيت المال لم تبلغ سوى ثمانمائة الف دينار فى أول هذا العهد بينما بلغت أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار قبل وفاة ابن طولون . وقدرت ثروة الوالى الشخصية بأكثر من عشرة ملايين دينار .

وفى هذا العهد لم يعامل النصارى واليهود معاملة سيئة بوجه عام ، ولم يشتكوا من أحد. هذا مع العلم بأن بطريرك اليعاقبة دخل السجن لعدم دفعه غرامة حكم عليه بها .

إذن كيف نستطيع أن نعلل تسامح ابن طولون مع أهل الذمة وقسوته على بطريرك الأقباط ؟ نقرأ فى مخطوط قبطى يرجع إلى هذا العهد[١] أن ابن طولون لم يكن يعامل جميع طبقات الشعب على قدم المساواة ، فكان يفضل الأتراك على بقية المسلمين ، والملكيين على سائر النصارى . وكان يميل إلى اعتبار بطريرك اليعاقبة خصما خطيراً له ، وكان ينتهز كل فرصة تسنح له ليوقع عليه الغرامات حتى تظل كنيسته فى حالة فقر مدقع .

وهذه المعاملة تجعلنا نعتقد أيضاً أن البطريرك أبى أن يحرج مركزه بتقديم ولائه الكلى إلى ابن طولون منذ اللحظة الأولى لأن الخليفة لم يعترف بابن طولون كوال شرعى على مصر .

وعلى أية حال ، لم يشكوا النصارى من معاملة ابن طولون لهم . وينقل لنا المؤرخ البلوى حديثا دار بينه وبين رهبان دير القصير[٢] نقطف منه

---

(١) Butcher, *History of the Church of Egypt* I, p. 457-8

(٢) بالقرب من مدينة حلوان .

ما يلى : « كان الأمير احمد بن طولون كثيراً ما يتردد علينا ويعتكف فى صومعة من صوامعنا ويتأمل . وكان يتحدث بصفة خاصة مع راهب اسمه أنطون »[١] .

وقد استفاد الرهبان بطبيعة الحال من هذه العناية ولما تقدموا إلى ابن طولون بالشكوى من ثقل الجزية المفروضة عليهم ، منحهم بعض الامتيازات . ثم كف أيدى رجاله عنهم . ويحكى أن ضابطاً سلب من راهب ، بطريق التهديد ، خمسمائة دينار ، فاشتكى الراهب أمره إلى الوالى ، فأمر بإعادة المبلغ إليه[٢] .

وكان ابن طولون لا يأنف من إلحاق بعض الجنود المرتزقة من اليونانيين بجيشه ، ولا يستنكف ، إذا ما أصيب بمرض عضال ، أن يطلب من أفراد شعبه على اختلاف أديانهم الابتهال إلى الله يمن عليه بالشفاء . ويقول المؤرخ البلوى فى هذا الصدد : « لما رأى ابن طولون اشتداد العلة ، أحضر خواصه وقال لهم : « استهدوا لنا الدعاء من الناس كافة وسلوهم الخروج إلى الجبل والتضرع إلى الله جل اسمه بالمسألة له فى عافيته لنا ، فشاع هذا القول منه فى الناس ، فخرج المسلمون بالمصاحف إلى سفح الجبل وتضرعوا إلى الله فى أمره بنيات خالصة لمحبتهم له . . . فلما رأى اليهود والنصارى ذلك من المسلمين ، خرج الفريقان ، النصارى معهم الإنجيل ، واليهود معهم التوراة . . . . وارتفعت لهم ضجة عظيمة هائلة حتى سمعها فى قصره ، فبكى لذلك »[٣] .

وقد زاد هذا العطف فى عهد خمارويه الذى أراد ، عند ما جلس على أريكة الحكم ، أن يصحح خطأ والده . وكان البطريرك القبطى ميخائيل ، عند ما توفى ابن طولون ، لا يزال سجيناً لوشاية من بعض أفراد الطائفة القبطية

---

(١) سيرة أحمد بن طولون . عنى بنشرها محمد كرد على ، ص ١١٨ . — وأنطون المذكور هو أنطون منية أندونة .

(٢) سيرة ابن طولون ، ص ٢٠٦

(٣) البلوى ، ص ٣٣٠

نتيجة إقالة البطريرك أسقف اسمه « سقا » لسوء سلوكه وخروجه على النظم الكنسية ، فحقد الأسقف على رئيسه وأراد أن ينتقم منه فاتهمه بأنه يملك ثروة طائلة . وكان ابن طولون فى ذلك الوقت يعد حملته على سوريا ، ولما كانت خزانته خالية من المال ، فقد استدعى هذا البطريرك وأمره بأن يودع ما عنده الكنوز فى خزينة الدولة ، محتجاً بان الرهبان النصارى لا يجوز لهم إلا الاحتفاظ بالمال الذى يقوم بأودهم ويستر عوراتهم طبقاً لشريعتهم ، كما أكد له ذلك الأسقف « سقا » . وحاول البطريرك عبثا أن يبرهن على افتراء الأسقف فيما ادعاه . ولكن ابن طولون زجه فى سجن ضيق ظل فيه سنة كاملة . وتمكن يوحنا وابراهيم بن موسى ، كاتما سر ابن طولون ، من اطلاق سراح البطريرك تحت ضمانتهما ، على أن يدفع النصارى التابعين له مبلغاً كبيراً من المال . فأضطر البطريرك إلى توقيع سند عليه بعشرين ألف دينار ، تعهد بسدادها على دفعتين . ولكنه لم يستطع دفع القسط الأول إلا بصعوبة وبعد أن قام بعقد القروض وبيع الأراضى التابعة للكنيسة[1] . ذلك لأن المبالغ التى فرضها البطريرك لهذه المناسبة على كل نصرانى كانت بعيدة من أن تفى بالمطلوب . ولما كان البطريرك فى حالة لا تسمح له بدفع ما تعهد به ، فقد أعيد إلى السجن بعد أن اعتكف فى دير القديسة مريم ، بالقرب من قصر الشمع ، فى ضواحى الفسطاط . وظل فى السجن إلى أن توفى ابن طولون . ولما تولى خمارويه الحكم ، أمر باطلاق سراح البطريرك من السجن وأعفاه من التزاماته .

وحذا خمارويه حذو أبيه بزياراته لدير القصير التابع للملكيين وأمر ببناء منظرة فيه . ويقول أبو صالح الأرمنى[2] أن خمارويه كان يطيل التأمل فى صناعة

---

(١) باع إلى اليهود ربع كنائس الأسكندرية ، وارض الحبشة بمصر والكنيسة التى بجوار المعلقة وفرض ضريبة سنوية على كل نصرانى (تاريخ جورج ماكين ، ترجمة Vattier ، ص ١٨٥) .

(٢) Abû Sâlih the Armenian, *The Churches and Monasteries of Egypt*, fol. 49-51.

الفسيفساء فى هذا الدير وهى تمثل صور العذراء والمسيح وصور التلاميذ الاثنا عشر .

ولم يشد المؤرخون النصارى بتسامح الأخشيديين كما أشادوا بتسامح الطولونيين . فهم يتهمون مؤسس هذه الأسرة ، محمد بن طغج الاخشيدى ، بأنه ، عند ما عجز عن دفع مرتبات الجنود ، اضطهد أهل الذمة وابتز منهم المال الكثير ، مما اضطرهم إلى تصفية بعض أملاك الكنائس . لذلك امتنعوا عن الكلام عن حادث من أهم حوادث تاريخ مصر الإسلامية ألا وهو اشتراك أمير مسلم ، بصفة رسمية ، فى حفلة دينية مسيحية أى عيد الغطاس الذى كان يحتفل به الأقباط احتفالا فخما عظيما . وقد ترك لنا المسعودى وصفاً دقيقاً لهذا الحادث ، قال : « لقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر والأخشيد محمد بن طغج ، أمير مصر ، فى قصره المعروف بالمختار فى جزيرة الروضة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها . وقد أمر فاسرج فى جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر فى النيل فى تلك الليلة ألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور المشرفة على النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ، ولا تغلق فيها الدروب ويغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشر الداء »[١] .

نعم إن عهد كافور قد تخللته الحروب التى شنها الامبراطور البيزنطى « نيقيفور فوكاس » على حدود سوريا ، فأصاب فيها نصراً كبيراً ، ولكن بالرغم من أن الأغلبية فى مصر كانت تحقد على هذا العمل كل الحقد ،

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ ، طبعة مصر ، ١٣٤٦ ، جزء ١ ، ص ٢١٢ و ٢١٣

وبالرغم من أن الشعب كان يثير الشغب بعد كل موقعة يشترك فيها البيزنطيون ويهاجم النصارى ويخرب كنائسهم ، إلا أن هذه المظاهرات لم تشجعها السلطات التى كانت تلجأ فى الحال إلى القوة لاخمادها . ويؤيد هذا المستشرق جاستون فييت عندما يقول : « أن الحكومة لم تكن لها يد فى هذه الاضطرابات الشعبية »[١] بل بالعكس فان الخليفة أصدر عام ٣١٣ هـ (٩٢٥ م) مرسوماً لتهدئة النفوس فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية أعلن فيه أن الجزية لن تفرض على الأساقفة والرهبان والعلمانيين المعوزين .

ولسوء الحظ ، أن قوة الاخشيديين أخذت تضعف ، فلم يتمكنوا من حماية الأقليات حماية جدية فى سوريا . وعلى الرغم من المساعدات التى قدموها لبطريرك مدينة القدس ضد بعض القواد الطامعين ، فإنهم لم يستطيعوا انقاذه من القتل[٢] . غير أن سقوط الاخشيديين وظهور الفاطميين جعل النصارى يتمتعون بالنفوذ والرغد لبضع سنين .

---

(١) *Encyclopédie de l'Islam*, Art. Kibt

(٢) يحيى بن سعيد الانطاكى ، ص ١٢٤ و ١٢٥ .

٦

عظمة الأقباط واضمحلالهم فى عهد الفاطميين

بينما كانت سياسة الولاة نحو الأقباط تقوم على قواعد واستثناءات معينة ، تعرضت سياسة الفاطميين ، التى كانت مبينة بوجه عام على التسامح ، لتغييرات محسوسة جداً حسب الاستعداد الشخصى للولاة الذين تبوأوا الحكم . وكان الفاطميون ينتقلون من التسامح الكامل إلى الاضطهاد الشنيع . فبعد أن مهدوا لأهل الذمة عصراً زاهراً ، لم يكونوا يتوقعونه ، عادوا فقضوا عليهم قضاء نهائياً .

وليس بعجيب إبداء هذا التسامح من خلافة مستقلة وطدت أركانها فى مصر من قريب ، وكان لها أعداء أقوياء فى بيزنطيا وبغداد ، ولا سيما أنه لم يكن فى استطاعتها الاعتماد على مساعدة السنيين المخلصة . ولقد انتهج الطولونيون والإخشيديون هذه السياسة لمصلحتهم الشخصية ، وعلى أية حال ، فان استيلاء الفاطميين على الحكم أثار كالعادة آمال الأقباط ، مما جعلهم يقدمون إليهم يد المساعدة .

على أن الفاطميين ، لما وصلوا إلى مصر ، عملوا فى الحال على كسب عطف السنيين وتقديرهم . وكان هذا إجراء عملياً من لدنهم . فان أول خطبة ألقاها الخليفة المعز لدين الله ، وذكرها معظم المؤرخون ، تتضمن هذا الاتجاه . فقد صرح الخليفة للجموع التى خفت لاستقباله بالقرب من منارة الإسكندرية « أنه لم يسر إلى مصر لازدياد فى الملك أو المال ، وإنما سار رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين وإقامة الحق والسنة »[1] .

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، ص ٨٨ .

ولم يتردد المعز ومن جاء بعده أن يستعينوا بالنصارى واليهود أو بالذميين الذين اعتنقوا حديثاً الديانة الإسلامية ، ليبلغوا هدفهم المقدس . وكان جوهر ، القائد المظفر ، عبداً يونانياً قدم كهدية إلى الخليفة المعز ، ومن هنا كنى بالرومى . أما اليهودى يعقوب بن كلس ، فقد اعتنق الإسلام فى ظروف لا تؤيد بأى حال صدق عواطفه الدينية . كان أصله من بغداد وقدم إلى مصر فى عهد كافور الإخشيدى ، ويصفه لنا المؤرخ « ابن القلانسى » أنه رجل واسع الحيلة وذكى . ويقص علينا أن كافور قال عنه فى يوم من الأيام : « لو كان مسلماً لاستوزرته » فلما سمع يعقوب هذا الحديث ، دخل مسجداً فى يوم الجمعة ونطق بالشهادتين . ولما رأى ذلك ابن حنزابة ، الوزير فى الحكم ، أراد أن يقتله قبل أن يصبح منافساً خطيراً له . ففر ابن كلس إلى المغرب وعاون الفاطميين معاونة صادقة على فتح مصر . وقد جعله المعز أكبر مستشاريه وعينه أميناً على بيت المال ، ولما جاء العزيز ، جعله وزيراً . ومن جهة أخرى ، عين العزيز عيسى بن نسطورس الملكى وزيراً ، كما عين اليهودى منشى حاكماً عاماً على سوريا .

وأبطل هذا التقليد الحاكم بأمر الله بعد أن اضطهد الذميين ، ولكنه لم يستغن أبداً عن جميع الموظفين النصارى . ولما تولى المستنصر الخلافة ، عاد إلى خطة الفاطميين الأولى ، فاستعان بالأرمنى بدر الجمالى إنقاذاً لعرشه . فحكم بدر البلاد حكماً مطلقاً وعين ابنه الأفضل شاهنشاه ليخلفه فى الوزارة . أما الخليفة الحافظ لدين الله ، فلم يتردد فى الاستعانة بالنصرانى « بهرام » ، وهو من طائفة الملكيين ، بعد أن منحه لقب « سيف الإسلام » .

إن وجود النصارى فى وظائف الدولة الرفيعة دليل قاطع لتسامح الفاطميين . ثم إن هذه الفترة من تاريخ مصر مليئة بالأحداث المتعلقة بأهل الذمة ، غير أن كل خليفة اتبع سياسة تختلف عن سياسة سلفه . لذلك رأينا أنه من المنطق أن ندرس كل عهد على حدة لنستطيع أن نبين كل دور من أدوار هذه

الفترة الخطيرة من تاريخ الأقباط وأن نخرج بالنتائج المترتبة عليها .

المعز لدين الله ٣٥٨ – ٣٦٥ هـ (٩٦٩ – ٩٧٦ م) .

شرع القائد جوهر ببناء الجامع الأزهر الذى يعد من أعظم الأدلة لكرم الخليفة إذ زوده بمكتبة عامرة وأقيمت به الدروس لتعليم فقه الشيعة . وكان المدرسون الملحقون به والطلبة يأخذون أجورهم من الخليفة العزيز بالله .

وكان المعز يدرك تماماً أنه لن يستطيع حكم البلاد وهو أمام تيار من العداء العام . ولما كان الشيعيون غير محبوبين فى مصر وسوريا ، فقد حاول أن يتقرب إلى السنيين وذلك بإظهار شىء من النفور إزاء الذميين . فألغى التقليد التى بدأه الإخشيديون من حضور الحفلات الخاصة بالنصارى ومنع الأقباط فى عيد النيروز من جمع الحسنات من العظماء ومن رش المارة بالماء العكر أو إشعال السواريخ فى هذه المناسبة ، كما حرم عليهم نصب الخيام والتنزه بالزوارق على النيل بالقرب من المقياس فى ليلة الغطاس ، وهدد بالإعدام شنقاً كل من يخالف أوامره . فكف النصارى عن الاحتفال بهذه الأعياد طيلة عهده[١].

وأطلق المعز ، إلى جانب ذلك ، سراح الإخشيديين الذين اعتقلهم جوهر[٢] .

على أن نفوذ ابن كلس كاد يؤدى – إذا صدقنا رواية المؤرخين النصارى – إلى حادث فى غاية الغرابة . فقد أراد هذا الرجل أن يقلل من شأن الديانة المسيحية فى نظر الخليفة ، فطلب أن تجرى أمامه مناقشات دينية[٣] . وسمع الخليفة أثناء هذه المناقشات أن الرجل المؤمن يستطيع بإيمانه أن يزحزح الجبال .

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، طبع بولاق ، جزء ١ ، ص ٤٦ ، ٤٧
(٢) الأنطاكى ، ص ١٣٩ .
(٣) *P.O.*, III, p. 384. وكان ساويرس بن المقفع يشترك فى هذه المناقشات . (Wuestenfeld, *Geschichte des Fatimiden*, p. 127); Ibn Al Rahib, p. 133.

فأرسل فى طلب البطريرك « أفرام » وسأله فيما إذا كان الإنجيل يحوى مثل هذا الكلام . فرد البطريرك بالإيجاب . فما كان من الخليفة إلا أن أمره بالقيام بمهمة نقل الجبال وإلا « محا من الأرض اسم النصرانية »[١] .

ذهل الرهبان الأقباط عند ما أخبروا بأوامر الخليفة ، فأخذوا يصلون ويبتهلون فى كنيسة المعلقة . وبعد مضى ثلاثة أيام ، رأى البطريرك فى منامه السيدة العذراء تطمئنه ، فتوجه بسرعة ، يحيط به عدد كبير من النصارى يحملون الصلبان والأناجيل إلى المكان الذى عين له ، حيث كان الخليفة ورجال حاشيته فى انتظاره .

ويؤكد المؤرخون النصارى أن المعجزة حدثت بالفعل[٢] وأن الخليفة أبدى دهشته وأمر بإعادة بناء جميع الكنائس الخربة . ثم أرسل فى طلب كبار الأقباط والعلماء المسلمين وأمر بقراءة الإنجيل والقرآن أمامه . ولما استمع إلى النصين ، ما كان منه إلا أن أمر بهدم المسجد القائم أمام كنيسة أبو شنوده وبناء كنيسة مكانه أو توسيع كنيسة أبى سيفين .

وقد يتساءل الناس لماذا لم يخط الخليفة الخطوة الأخيرة باعتناقه الدين المسيحى ؟ وفعلا لم ير المؤرخ القبطى مندوحة فى ذلك ، فأكد أن الخليفة المعز تعمد فى المكان القريب من كنيسة القديس يوحنا وتنازل بعد ذلك عن كرسى الخلافة لابنه العزيز بأمر الله ، وصرف أيامه الأخيرة فى العبادة فى أحد الأديرة . وقد أعاد ذكر هذه القصة مرقس سميكة باشا ، أحد مؤسسى المتحف القبطى بالقاهرة ، ولكن أحمد زكى باشا والأستاذ عبد الله عنان

(١) أبو صالح الأرمنى ، ص ١١٦ — ١١٧

(٢) لا يؤمن رينودو بهذه المعجزة . وهو يلاحظ أن مكين النصرانى والمقريزى امتنعا عن الإشارة إلى هذا الحادث . ولكن « مارك بول » البندقى ، الذى عاد إلى بلاده عام ١٢٩٥ م ، جاء معه ببعض التفاصيل المتعلقة بهذا الحادث . ويدعى كل من اليعاقبة والملكيين أنهم أصحاب هذه المعجزة .

احتجا بشدة على هذه الرواية[١] .

العزيز بأمر الله ٣٦٦ – ٣٨٦هـ (٩٧٦ – ٩٩٦م) .

ينقل إلينا جميع المؤرخين المعتد بأقوالهم أحداثاً دقيقة عن حكم الخليفة العزيز بالله تدل على الرعاية التي شمل بها النصارى الملكيين واليعاقبة . وكان الناس يعتبرون ، حتى خلافة العزيز ، أن الوالى متسامحاً إذا أعطى تصريحاً بترميم كنيسة أو ببنائها مقابل هدية تساوى بعض مئات من الدنانير . ولكن فى خلافة العزيز وبعدها نرى السلطة هى التى تولى العمل ببناء الكنائس للنصارى وتسهر على حراسة العمال ، إذا اقتضى الحال ذلك . وبينما كان المؤرخون النصارى يهللون لوال لم يظلم أبناء جلدتهم ، عمل العزيز على إلغاء الفوارق الاجتماعية بين المسلمين والذميين .

ومن المشاهد أن خلافة العزيز تعد تحولا هاما فى تاريخ مصر الإسلامية ، ذلك لأن الخليفة دعا لأول مرة لمبدأ المساواة الكاملة بين عنصرى الأمة .

كان العزيز قد تزوج من امرأة نصرانية من طائفة الملكيين وأنجب منها ضمن ما أنجب بنتاً أسماها « ست الملك » وكانت أخلاقها تشبه أخلاق والدتها أو ، بمعنى آخر ، كانت تعطف كثيراً على النصارى . وكان العزيز يحب زوجه وابنته حبا جماً ويعمل برأيهما إلى حد جعله يصدر أمراً مخالفاً للقانون ، وهو تعيين نسيبيه « أرسين » و « أرستيد » بطريركين ، أحدهما على الإسكندرية والآخر فى أنطاكية .

هل يدل ذلك على أن عزيزاً كان ضعيفاً ؟ كلا ! فإن عهده امتاز بالحروب الدفاعية التى قام بها على الحدود الشرقية لإمبراطوريته ، وبتنظيم

(١) لم يذكر مؤرخ مشهور قصة اعتناق المعز الدين المسيحى . أما سعيد الأنطاكى ، فلم يتكلم عن معجزة الجبل ، ولكنه يذكر ، بدون قصد الوصول إلى نتيجة معينة ، أن خبر موت المعز ظل مكتوماً زهاء ثمانية أشهر وأنه فى يوم من الأيام ، قبل وفاته ، جعل أسرته تبايع ابنه العزيز الخلافه (ص ١٤٦) .

إدارة حازمة داخل البلاد . ولكى تستطيع الدولة أن تواجه المصروفات الضخمة التى كانت تتطلبها الحاجة ، فقد وضع بيت المال تحت رقابة شديدة ، وحدد مرتبات ثابتة لموظفيه ومنعهم منعاً باتاً من قبول أى رشوة أو هدية ، وأمر بألا يصرف شىء إلا بمقتضى وثيقة مكتوبة(١) .

وأنشأ العزيز جيشاً قوياً جمع فيه بعض العناصر التركية والزنجية واشتبك فى عدة معارك ضد بيزنطيا . وقد وصلت الخلافة الفاطمية فى عهده إلى أوج عظمتها .

ويرى المسلمون أن العزيز أخطأ خطأ فاحشاً باعتماده على الذميين وغيرهم ممن لا يمتون إلى الإسلام إلا اسمياً . فقد استمر يعقوب بن كلس خمس عشرة سنة الساعد الأيمن للخليفة ، قام خلالها بشتى الإصلاحات . ويذكر لنا الأنطاكى أنه لما مات يعقوب « ركب العزيز إلى داره ، وصلى عليه ، وكشف عن وجهه ، وبكى عليه بكاء شديداً (٢) . ويضيف ابن القلانسى أن العزيز أمر « أن يدفن فى داره بالقاهره فى قبة كان بناها لنفسه ، وحضر جنازته وأغلق الدواوين وعطل الأعمال أياماً »(٣) .

وبعد وفاة يعقوب ، منح العزيز ثقته لعيسى بن نسطورس النصرانى الذى ما لبث أن أصبح وزيراً . ثم ألحق بخدمته أبا المنصور ، طبيب المعز النصرانى ، وأعطاه مركزاً ممتازاً .

وقد لاحظ الخليفة أن الرعايا المسلمين لم يعتادوا رؤية النصارى يشغلون الوظائف الكبرى فى الدولة ويتمتعون بشتى الاحترامات ، حتى إنهم كانوا ساخطين على هذه التعيينات . وبينما كان يتنزه فى المدينة ذات يوم ، إذ لمح فى طريقه شبحاً يشبه امرأة(٤) كانت تحمل عريضة هذا نصها : « بالذى

---

(١) *Encyclopédie de l'Islam*, art. "Aziz bi amr Illah"

(٢) الأنطاكى ، ١٧٢

(٣) ذيل تاريخ دمشق ، طبعة ليدن وبيروت ، ص ٣٢ .

(٤) يدعى بعض المؤرخين أمثال يوسف بن مرعى القدسى أن الذى حمل العريضة هو شخص=

أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك . . . »[١]

وأراد العزيز أن يحد من غضب الشعب ، فاضطر إلى الاستغناء عن عدد من الموظفين النصارى ، ولكنه كان لا يلبث أن يعيدهم إلى مراكزهم ، إما تحت ضغط حريمه عليه ، أو لأنه كان يرى استحالة الاستغناء عن خدماتهم .

ولجأ المتذمرون آخر الأمر إلى السكوت ، إذ كانوا يواجهون إدارة تعتمد على قوة مسلحة كبيرة . وعلى كل ، يلاحظ أن شغل الذميين للوظائف العليا لم يكن أمراً ذا بال إذا قسناه بالإجراءات الأخرى التى عادت عليهم بالفائدة فى ذلك العهد .

أولا ، على الرغم من المصاريف الباهظة التى أثقلت كاهل الميزانية لبذخ الخلفاء من جهة ، وتسليح عدد كبير من الفرق استعداداً للحروب من جهة أخرى ، فإن العزيز لم يعد العمل بالضرائب الهلالية التى فرضها ابن المدبر وألغاها ابن طولون (ومع ذلك فان مجموع الخراج والجزية كان فى هبوط بالنسبة للعهد السابق) . وقدر الشعب هذا الاعتدال فى فرض الضرائب حق قدره فى كل زمن وعهد .

وكان اليعاقبة ، فيما يخصهم ، يرون بمزيد الفرح أن البطريرك أفرام كان موضع احترام وتقدير الخليفة. ففى هذا العهد ، قرر البطريرك ، لأول مرة ، نقل كرسيه من الإسكندرية إلى القاهرة . ويظهر أن العزيز سمح للبطريرك ، باصلاح الكنائس المهدمة دون أن يستأذن فى ذلك. ومما يعزز اعتقادنا بصحة هذا الإجراء ، الحادث الذى وقع عند بدأ الأعمال فى كنيسة القديس مكاريوس . ويقول أبو صالح : « ما أن بدأ البطريرك هذه الأعمال حتى هاجموه المسلمون . وما لبث أن أسرع الخليفة ، فأصدر

= معين شق طريقه بين الجماهير المحتشدة واختفى بعد ذلك . أما المكين ، فهو يضع هذا الحادث فى عهد الحاكم بأمر الله الذى انتقم لهذه الجرأة بإحراق العاصمة (Vattier, p. 267-8) .

(١) أبو صالح ، ص ٣٥ .

أمره باستئناف عملية الترميم ، على أن يقوم بتسديد المصاريف اللازمة . وتسلم بعد ذلك البطريرك الأمر الصادر بهذه المناسبة (الذى يقضى بالتصريح ببناء الكنيسة) ولكنه رفض المال ، راجياً العزيز فى ألا يلح عليه بقبوله . ووافق العزيز على إعادة المال إلى الخزينة ، ولكنه أمر فرقة من الجيش أن تحرس البناء طول مدة العمل وأن تقبض على كل من يحاول عرقلة تنفيذ هذا الأمر ومعاقبته . ولما علم الشعب بنيات الخليفة ، لم يعاود عدوانه ، وهكذا تمت أعمال البناء »[1] .

ونرى مبالغة العزيز فى إظهار عطفه على النصرانية ، فى رفضه معاقبة من يهجر الإسلام ويعتنق الديانة المسيحية . ومجمل الرواية أن أحد كبراء المسلمين ، واسمه « وساع »[2] اعتنق المسيحية ، فقبضت عليه السلطات بتهمة الردة . ولكن بعض الشخصيات الكبيرة تدخلت لصالحه كما توسطت له زوجة العزيز لدى الخليفة الذى أطلق سراح « وساع » دون أن يناله أى سوء أو أذى واعتكف فى دير بالصعيد حيث قضى بقية حياته .

وأخيراً ، وقع فى هذا العهد حادث لو حصل فى عهد آخر لجلب للنصارى المصائب ، ولكنه انتهى على غير ما يشتهى المسلمون . يروى سعيد بن يحيى الأنطاكى فى هذا المقام : « كان العزيز قد اعتزم أن يغزو بلاد الروم وأمر عيسى بن نسطورس بإعداد الأسطول . . . وعزم عل تسييره بعد صلاة الظهر من نهار الجمعة ، فوقع فيه نار فى ذلك اليوم وأحرق منه ستة عشر مركباً ، واتهم الرعية بحريقه تجار الروم الواردين بالبضائع إلى مصر ، فثار عليهم الرعية والمغاربة وقتلوا منهم مائة وستين رجلا ونهبت كنيسة ميخائيل التى للملكية بقصر الشمع ، ونهبت كنيسة النسطورية . وركب ابن نسطورس وقت النهب ونزل إلى مصر وتقدم بكف الأذى على الروم والمنع من معارضتهم ، ونودى فى البلد بأن يرد كل واحد من النهابة

(١) أبو صالح ، ص ٣٥ .

(٢) كتبه المستشرق « كاتريمير » باللغة اللاتينية « Vasah » .

جميع ما أخذه ، فرّد البعض من ذلك ، وأحضر من سلم من التجار الروم من القتل ، ودفع لكل واحد منهم ما اعترفه وقبض على ثلاثة وستين رجلا من النهابة واعتقلوا ، وأمر العزيز بالله باطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم وقتل ثلثهم . فكتب رقاع منها « تضرب » ومنها « تقتل » ومنها « تطلق » ، وتركت تحت إزرار ، وتقدم كل واحد منهم وأخذ رقعته ، كان يعمل به بحسب ما يخرج فيها »(١) .

وكان من شأن هذه الإجراءات زيادة غضب المسلمين . وإذا كان الحاكم بأمر الله قد اضطهد النصارى يوماً ، فلم يكن ذلك إلا إرضاء لروح الانتقام التى استفزت قلوب الشعب . أما القسوة التى امتاز بها الاضطهاد فى هذا العهد ، فسببها ميل الحاكم إلى سفك الدماء .

الحاكم بأمر الله ٣٨٦ – ٤١١ هـ (٩٩٦ – ١٠٢٠ م) .

بينما كان العزيز بالله فى مدينة بلبيس يستعد لاستئناف القتال ضد البيزنطيين ، وافته المنية وهو فى الحمام . فخلفه نجله الصغير الذى أنجبه من زوجته المسيحية ، وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، ولقب عند اعتلائه العرش بالحاكم بأمر الله .

ولم يكن هناك ما ينذر بوقوع الأحداث المفجعة التى خضبت عهده بالدماء وأدخلت الذعر فى نفوس النصارى والمسلمين على السواء . والواقع أن الحاكم ، حينما بلغ رشده ، سارع إلى اطمئنان كل الموظفين النصارى على مراكزهم واهتدى بنصائح أخته « ست الملك » التى كانت تعطف على النصارى عطفاً شديداً (٢) .

ولما كان الحاكم قاصراً عند وفاة والده ، فقد وضع تحت وصاية « برجوان »

(١) ص ١٧٨ – ٩

(٢) ابن القلانسى ، ص ٦٠

الحص السلافى ، وقد عم الاضطراب البلاد خلال هذه الوصاية بسبب العداوة القائمة بين الوصى وابن عمار ، قائد جيش الخليفة ، الذى قتل بعد أن هزمت القوات التركية قواته المكونة من قبائل شمال إفريقيا . وكان ابن عمار قتل ابن نسطورس قبل أن يلاقى حتفه . ولم يمض وقت طويل حتى لحق « برجوان » بخصمه . فقد أمر الخليفة عام ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) باغتياله لتكبره عليه ونعته بألقاب مهينة .

ولما أمر الخليفة الشاب بقتل برجوان ، أقلق الشعب وأضجره وحمله على التوجه إلى مقر الخلافة . ولم يستطع الحاكم الإفلات من ثورة شعبه إلا بالبكاء والعويل والتحجج بشبابه وعدم درايته بالحكم . ونتساءل : هل خجل بعد ذلك من إظهار ضعفه ، فقرر فيما بينه وبين نفسه أن يثأر من هذا الشعب ؟ نسوق هذا الفرض ولا نستبعده[1] . ومهما يكن من الأمر ، فأننا لا نستطيع أن نحمله وحده مسئولية الأحداث الدامية التى استهدف لها النصارى .

والواقع أن بعض الدساسين عملوا على التخلص من النفوذ الذى ناله الذميون فى عهد العزيز فاستغلوا ميل الخليفة إلى سفك الدماء . ومن الخطأ أن نعتقد أن الحاكم كان يكره الذميين . وكيف يكون ذلك ووالداه اللذان يحبهما حباً شديداً كانا متسامحين كل التسامح ؟ فلما تولى الخلافة عين قبطياً ، اسمه « فهد بن إبراهيم » ، كاتم سره ومنحه ثقته كل وأعطاه لقب « الرئيس » . ولما اغتيل برجوان ، أرسل الحاكم فى طلب فهد وخلع عليه أحسن الحلل وقال له : « لا تقلق أبداً لما حدث . » ويقص علينا ابن القلانسى ما دار بين الحاكم وكاتم سره ، فيقول : « جلس الحاكم وقت العشاء الأخير واستدعى الحسين بن جوهر وأبى العلاء بن فهد بن إبراهيم الوزير ، وتقدم إليه باحضار

(١) لما أخذ الحاكم يبشر بألوهيته عام ٤٠٨ هـ ، غضب الشعب وثار وعاد يهاجم قصر الخليفة طالباً درازى . فانتقم الحاكم لذلك بإحراقة القاهرة .

سائر كتاب الدواوين والأعمال ، ففعل ، وحضروا وأوصلهم إليه وقال لهم : « إن هذا فهداً ، كان أمس كاتب برجوان عبدى ، وهو اليوم وزيرى ، فاسمعوا له وأطيعوا ووفوه شروطه فى التقدم عليكم ، وتوفروا على مراعاة الأعمال وحراسة الأموال . » وقبل فهد الأرض وقبلوها وقالوا : « السمع والطاعة لمولانا . » وقال لفهد : « أنا حامد لك وراض عنك وهؤلاء الكتاب خدمى ، فاعرف حقوقهم وأجمل معاملتهم واحفظ حرمتهم وزد فى واجب من يستحق الزيادة بكفايته وأمانته »[1] .

وسرعان ما أصبح فهد هدفاً للدسائس ، إذ خشى الحاسدون أن الثقة التى حازها تزيد من نفوذه ونفوذ النصارى ، فأوعزوا على الوشاية به عند مولاه ليضعفوا ثقته فيه . فاتهمه أبو طاهر وابن عداس الكاتبان باختلاس الأموال ، غير أن الحاكم لم يحسن استقبالها ، فحملا آخرين على تقديم شكاوى مماثلة ضده .

فهم الحاكم مغزى هذه الشكاوى . ولكنه اضطر إلى السماح باغتيال فهد ممالأة للظروف . ثم أفهم حاشيته أنه أصدر أمره هذا تحت ضغط شديد . ثم أرسل فى طلب أنجال القتيل وخلع عليهم خلعة وأمر بألا يمسهم أحداً بسوء وألا ينهب منزلهم . وقد أراد الحاكم بذلك أن يتحدى أبا طاهر وابن العداس اللذين أوعزا بهذه الجريمة واللذين توصلا إلى أعلى المناصب لتنفيذ خطتهما المعادية للنصارى فى مصر وسوريا .

وبالرغم من ذلك ، اضطر الحاكم أن يأمر بقتل عدد آخر من أعيان القبط فيما بعد . ولقد شعر هؤلاء بالخطر المحدق بهم منذ مقتل فهد ، حتى أنه عند ما أمر الخليفة أحدهم ، واسمه أبو نجاح ، باعتناق الإسلام ، طلب من الخليفة أن يمهله يوماً يفكر فيه . ثم ذهب إلى أصحابه وحثهم على أن يستشهدوا ، قائلا : « إن المسيح قد منحنا من خيرات الأرض الشىء الكثير

---

(١) ابن القلانسى ، ص ٥٦

وها هو ذا اليوم قد رأف بنا وهو ينادينا إلى ملكوت السماء »[١] .

وأخذ اضطهاد النصارى يزداد عنفاً يوماً بعد يوم منذ ذلك الحين . وأول من استهدف له موظفو الدولة ، حيث فصل الخليفة عدداً كبيراً منهم ولم يترك إلا الذين اتضح له عدم الاستغناء عن خدماتهم[٢] . غير أن خروج أغلب الموظفين أتى على البقية الباقية من نفوذ الذميين الذين كان لهم الأمر والنهى فى مختلف المصالح[٣] .

ثم أصبح الاضطهاد عاماً سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) ، وسلط الحاكم غضبه على النصارى والسنيين[٤] . فأمر الأولين أن يضعوا ملابس تميزهم عن سواهم ، كما كتب على المساجد عبارات مهينة للنيل من أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ، ومنع السكان من تناول بعض الأطعمة التى كان يفضلها رؤساء العرب السنيين .

وفى عام ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) ، فرض الحاكم قيوداً أخرى على الزى ثم منع الأثرياء من النصارى من امتلاك العبيد واستخدام المسلمين . وأصدر أمره فى نفس السنة بهدم كنائس القاهرة ونهب كل مافيها ، ولما علم بأن النصارى يطوفون خارج أسوار كنيسة القيامة بالقدس ، أثناء الاحتفالات الدينية ، وخاصة يوم أحد الشعانين وفى عيد الفصح ، أمر بهدم الكنيسة . وكان لهذا الاجراء الأخير دوياً هائلا ، لا فى الشرق فحسب ، بل وفى الغرب ، إذ « بكى المسيحيون جميعهم »[٥] . ولا بد أن يكون هذا الاجراء أحد الأسباب الهامة لقيام الحروب الصليبية . وتقول الرواية أن الكاتب الذى نسخ هذا الأمر كان نصرانياً وأنه مات حزناً بعد أيام قلائل .

(١) رينودو ، ص ٣٩٥ .

(٢) يقرر المقريزى أن طبيب الحاكم النصرانى أعاد كثيرا من الموظفين بعد رفتهم باسبوع واحد.

(٣) الأنطاكى ، ص ١٨٥

(٤) وأخذ الحاكم يحرق المصاحف التى كتبت فى عهد الحكام السنيين .

(٥) Michaud, *Histoire des Croisades*, 7e édit. , I, p. 24.

وفى عام ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) ، صدرت أوامر مشددة تقضى بالغاء الأعياد المسيحية ومنع الاحتفال بها فى أنحاء البلاد . وصودرت أوقاف الكنائس والأديرة لحساب بيت المال . ومنع أيضاً ضرب النواقيس ، كما نزعت الصلبان من قباب الأجراس ، ووصل الحال إلى أنه طلب إلى النصارى أن يمحوا الوشم من أيديهم وأذرعتهم .

وفى عام ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) ، شاعت إرادة الحاكم أن يعلق النصارى حول عنقهم صلباناً من الخشب طول الصليب ذراع ووزنه خمسة أرطال . ونفذت مشيئة الحاكم بحذافيرها وخاصة بالنسبة إلى الموظفين الذين لم يتيسر الاستغناء عنهم « لمضايقتهم »[١] .

وفى ربيع عام ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) ، صدر أمر بهدم وسلب الكنائس والأديرة الموجودة فى الأراضى المصرية بدون استثناء . وكان على كل موظف نيط به هذا العمل أن يتأكد من هدم الأبنية الموجودة فى المنطقة التابعة له هدماً تاماً . ويقال إن عدد الكنائس والأديرة التى هدمت فى ذلك الحين بلغ ثلاثين ألفاً .

ومما زاد الحالة سوءاً ، وحشية الرعاع والسوقة الذين ما لبثوا أن هبوا هبتهم ليحققوا إرادة مولاهم . فمحوا الكنائس محواً ووصلت بهم ثورة الانتقام إلى نبش القبور واستخراج عظام الموتى لاستعمالها وقوداً للحمامات[٢] .

وصدر بعد ذلك أمر إلى المكاريين والنوتية بأن يرفضوا نقل الذميين .

وأخيراً ، وضع الحاكم أهل الذمة بين أمرين : إما الموت وإما الارتداد عن دينهم . فأسلم عدد كبير من الناس اجتناباً لهذا الارهاق ، كما هجر بعضهم دورهم سراً ولجأوا إلى المناطق التابعة للإمبراطورية البيزنطية . أما الذين كتموا إيمانهم ، فكانوا يجتمعون فى ندوات خاصة حيث كانوا يخفون

---

(١) الأنطاكى ، ص ١٩٥ .

(٢) الأنطاكى ، ص ١٩٥

الآنية والذخائر المقدسة التى أفلتت من المصادرة والنهب والسلب .

ويذكر المقريزى أمراً قضى بنفى جميع النصارى إلى أراضى الروم[١] ، وأن النصارى التمسوا عفو الحاكم بأمر الله ، فأذن لهم بالبقاء فى مصر[٢] .

ويصف لنا الأنطاكى مشهداً وقع بالقاهرة عام ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) يدل على اليأس الذى ملك قلوب النصارى ، فيقول : « اجتمع سائر من بمصر من الكتاب والعمال والأطباء وغيرهم مع أساقفتهم وكهنتهم وتوجهوا إلى قصره وكشفوا عن رؤوسهم فى باب القاهرة ومشوا حفاة باكين مستغيثين إليه يسألونه العفو والصفح ولم يزالوا فى طريقهم يقبلون التراب إلى أن وصلوا إلى مقره ، وهم فى تلك الحال ، فأنفذ إليهم أحد أصحابه وأخذ منهم ورقة كانوا كتبوها يلتمسون عفوه عنهم وإزالة سخطه ، فأعاد إليهم الرسول ورد عليهم رداً جميلا »[٣] .

لم يتحمل نصارى مصر من الاضطهاد ، منذ دخول العرب أرض مصر ، أكثر مما تحملوه فى عصر الحاكم . ولم يحاول مؤرخ مسلم واحد أن يبرر هذه الأعمال الوحشية . لقد أراد بعض الذين دونوا تاريخ هذه الفترة أن يخففوا من مسئولية الحاكم بحجة ضعف قواه العقلية . غير أنه لا يوجد ما يؤكد أن الحاكم كان مجنوناً . لعله كان شرس الطباع ، فكان يجد لذة فى تعذيب غيره ، ولكنه كان يعى كل أفعاله حتى الغريبة منها . وأكثر من ذلك ، أقول أن كل أمر كان يصدر عنه ، إنما كان استجابة لفكرة معينة سواء كانت هذه الفكرة حسنة أم سيئة ، وأن إغلاق الأماكن العامة ومنع النساء من الخروج إلى الطريق ، والعبارات المهينة التى كتبها على جدران المساجد ، ما كانت إلا تنفيذاً لخطة مرسومة .

وهكذا استمر الحاكم يعبث بخضوع شعبه له ، إلى أن جاء أحد المغامرين

---

(١) قد يقصدون هنا النصارى الملكيين . — أما الأنطاكى ، فلم يتحدث عن النفى ، بل عن حركة هجرة سرية سن لها الحاكم قانوناً فيما بعد .

(٢) الخطط ، جزء ٢ ، ص ٤٩٦

(٣) الأنطاكى ، ص ١٨٨

من الأندلس اسمه « أبو ركوة » وكان يدعى أنه من بنى أمية ، فرفع علم الثورة فاجتمع حوله عدد كبير من الناقمين على أفعال الحاكم بأمر الله ، فما كان من الحاكم — وهو الخليفة الواقعى الذى يعى تماماً كل أفعاله — إلا أن كف عن تحدى السنيين ، كما كف عن إيذاء الناس . ثم إنه ألغى بعض الطقوس الخاصة بطائفة الاسماعيلية ، كما أدخل بعض التقاليد السنية .

ولم يكن ادعاء الحاكم بأنه إله ، إلا نتيجة منطقية لمذهب طائفة الاسماعيلية الشيعى ، لا مظهراً من مظاهر جنونه . ونحن نتساءل ، هل كان ادعاؤه الألوهية مقدمة لتسامحه الدينى الذى عمل به فى آخر عهده ، كما يؤكده بعض المستشرقين ؟ ليس هناك ما يحملنا على أن نثق بهذا القول ، بل يخيل إلينا أن حادثاً خطيراً حدث فى ذلك الحين ، فأجبره على التسامح .

إن تعاليم مذهب الاسماعيلية لم تكن جديدة على الفاطميين الذين كانوا يستوحونها فى كل وقت . ويتضح من هذا أنها لم توضع موضع الاعتبار فقط منذ أعلن الحاكم دعوته . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد مضت أربع سنوات بين إعلان الدعوة وبين إجراءات العفو التى اتخذها الحاكم نحو النصارى .

كنا نفهم أن يعفو الحاكم عن الذين يعترفون بدعوته ويجزل لهم العطاء ، ولكننا نلاحظ عكس ذلك . نراه يسمح للذميين أن يتعبدوا علانية ، بل يذهب إلى حثهم على إعادة بناء كنائسهم وأديرتهم وزيادة رهبانهم .

إن الحوادث التى وقعت فى آخر لخلافته ، تلقى ضوءاً على ما قدمناه . يذكر لنا الأنطاكى أنه فى عام ٤١١ هـ (١٠٢٨ م) توجه الأنبا « صلمون » ، رئيس دير طور سينا ، إلى الحاكم وبسط إليه حالة فقر رهبان الدين المذكور ، والتمس منه إعادة الأراضى الموقوفة التى صادرها . فلبى الحاكم طلب رئيس الدير . وفى نفس السنة ، استأذن الأنبا صلمون بعمارة دير القصير وبإعادة الرهبان إليه وإقامة الصلوات فيه . فأجابه إلى طلبه وصدر

« سجل » بهذا المعنى إلى « صلمون بن إبراهيم » فى شهر ربيع الآخر من عام ٤١١ هـ[١] . وفى جمادى الآخرة من نفس السنة ، صدر سجل بإعادة بناء كنيسة القيامة .

وتبع هذا الأمر أوامر أخرى مماثلة شملت الكنائس والأديرة . وتشجع النصارى وأخذوا يطالبون بامتيازات أخرى . ويقول سعيد الأنطاكى : « لما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس وتحديدها ورد أوقافها ، لقيه جماعة من النصارى الذين كانوا أسلموا فى وقت الاضطهاد وطرحوا أنفسهم عليه بين يديه وهم مسترسلون للموت . وقالوا له : « إن الذى دخلنا فيه من التظاهر بدين الإسلام ، لم يكن باختيارنا ولا برغبة منا . فنحن نسأل أن تأمرنا بالعود إلى ديننا ، إن رأيت ذلك ، أو تأمر بقتلنا » . فأمرهم للوقف بلباس الزنانير ولباس السواد وحمل الصلبان وكان كل منهم قد أعد عدة غيار ثيابه »[٢] . ثم يقول المؤرخ المذكور أن عدداً قليلا من الناس حذا حذوهم خوفاً من أن يكون الحاكم يريد الإيقاع بهم ، ذلك لأن الديانة الإسلامية تمنع الردة . ولكن ، بناء على اقتراح الأنبا صلمون ، أكد الحاكم حسن استعداده نحو النصارى .

وأبرز سعيد الأنطاكى صداقة الحاكم لأنبا صلمون ، فروى لنا كيف كان الخليفة يخف إلى تحقيق أمانى الراهب جميعها وكيف كان يقابله كل يوم فى الطريق الصحراوى المؤدى إلى دير القصير على جبل المقطم ويسأله عما هو فى حاجة إليه حتى أن ألسنة السوء ، من بعض المسلمين ، تناولته بالتشنيع وزعمت أن الخليفة أصبح مريداً للأنبا صلمون ، خاصة بعد أن لبس الحاكم زى الرهبان .

---

(١) الأنطاكى ، ص ٢٩٩

(٢) الأنطاكى ، ص ٢٣٠ ، ٣١ . و ويذكر الأنطاكى مضمون كل سجل ويوصفه وصفاً دقيقاً .

إن هذه التفاصيل وما يليها لها أهمية بالنسبة إلى الأحداث المقبلة . ويواصل الأنطاكى حديثه قائلا : « وكان فى كثير من الأيام يقصد دير القصير ويشاهد عمارته ويحث الصناع على الفراغ منه ، وأطلق له دنانير تصرف عليه . ودفع أيضاً إلى الرهبان المقيمين فيه دنانير ورسم لهم مساعدة البنائين لتروج عمارته[١] . وكان يعدل أيضاً إلى ديارات جدّدها اليعاقبة بالقرب من القرافة الكبرى ، وإذا أراد الدخول إلى الجبل أو الطلوع إلى دير القصير[٢] أو غيره من الديارات ، تتأخر الركابية عنه فى الموضع المعروف بالقرافة وإلى الساقية ، ويمضى وحده . »

وقد اختفى الحاكم نهائياً فى إحدى الجولات وظل اختفاؤه سراً غامضاً . هل قتل بإيعاز من أخته « ست الملك » التى كان هددها بالموت لسوء سلوكها ، كما يؤكد بعض المؤرخين ؟ إن الأنطاكى لم يستبعد أمر قتله ولكنه لم يعلق عليه ، بل اكتفى بالقول بأن ست الملك عند ما علمت باختفاء شقيقها ، أسرعت فأمرت بالبحث عنه فى دير القصير « لئلا يكون مستتراً فيه . »

وجاءت أخبار المؤرخين المسلمين متأخرة ومدعاة للشك . ويذكر لنا أبو المحاسن بن تغرى بردى أن الحاكم ، قبل أن يترك قصره للمرة الأخيرة ، أعطى والدته ثلاثين ألف دينار ليؤمنها من العوز . وتقول الرواية نفسها ان الحاكم كان يرصد النجوم وينتظر أن يظهر فى السماء نجم معين يعلن بنهاية عمره . فلما رآه ليلة اختفائه ، أذاع الخبر بصوت مرتفع يسمعه من حوله . ولكنه قام بجولته الليلية كعادته بعد أن صفى أعماله الشخصية كأنه لن يعود أبداً[٣] . أما الأسقف ساويرس بن المقفع ، الذى دوّن تاريخه ثلاثين سنة بعد وفاة الحاكم ، فانه لم يذكر ست الملك ، بل اكتفى بالقول بأن الخليفة

---

(١) الأنطاكى ، ص ٢٣٢ – ٣ .

(٢) كان ديراً للملكيين .

(٣) أبو المحاسن ، طبع دار الكتب ، الجزء الرابع .

صرف الخادمين اللذين كانا برفقته بعد أن أمرهما بعقر الحمار ، ثم اختفى[١] .

زد على ذلك أن الشعب كان مقتنعاً بأن الحاكم لم يزل على قيد الحياة حتى أن أحد الدجالين ، واسمه « سكين » ، ادعى فى سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤١م) أنه الخليفة — وكان يشبهه شبهاً كبيراً — وصدقه عدد كبير من سكان الفسطاط فتبعوه ويمموا معه شطر قصر الخليفة وهم يصيحون : « ها هو الحاكم ! »[٢] .

وسواء قتل الحاكم ، أم اختفى ، أم لجأ إلى دير من الأديرة ، فأن هناك حقيقة واقعة لا سبيل إلى إنكارها وهى أنه ، قبل أن يترك عرشه ، قضى على نفوذ النصارى فى مصر . ومنذ ذلك الحين ، أصبح الأقباط مهملين فى الدولة ، وأصبح تاريخهم عبارة عن جملة أحداث ثانوية . وفقدوا بعد ذلك شخصيتهم تدريجياً ليندمجوا فى سواد الشعب الذى كان يحتقرهم .

الظاهر لاعزاز دين الله ٤١١ — ٤٢٧ هـ (١٠٢٠ — ١٠٣٦ م) .

أخذ نفوذ ست الملك ينبعث من جديد بعد اختفاء الحاكم . وكانت تعطف دائماً على النصارى فكانت تشجعهم علانية بارسال الهدايا والعطايا للأسقف الملكى مثلا[٣] .

وبعد مضى بضع سنوات ، أى فى عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) « وقعت الهدنة مع صاحب الروم ، وخطب للظاهر فى بلاده ، وأعاد الجامع بقسطنطينية وعين فيه مؤذناً ، فأعاد الظاهر كنيسة القيامة بالقدس وأذن لمن أظهر الإسلام فى أيام الحاكم أن يعود إلى النصرانية ، فرجع إليه كثير منهم[٤] .

وهكذا أقر الظاهر الردة مستصدراً سجلا يقول فيه : « أن الدخول فى دين الإسلام يجب أن يكون اختيارياً لا تحت تأثير القوة » ، فصرح بمقتضاه

(١) انظر أيضاً . S. de Sacy, *Religion des Druzes*, I, p. CCCXVI.

(٢) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 342.

(٣) الأنطاكى ، ص ٢٣٧ .

(٤) الخطط ، جزء ١ ، ص ٣٥٥ .

للنصارى بالعودة إلى عقيدتهم الأصلية(١) . ولعل هذا الأمر فريداً فى نوعه فى تاريخ الإسلام ، وهو أهم حادث فى عهد الظاهر ، أضف إلى ذلك أنه « عاد من بلاد الروم جماعة من النصارى الذين أسلموا وتظاهروا بالنصرانية ، ولم يتعرض لهم أحد ، وأخذ منهم وممن عاد من النصارى بمصر أيضاً ، الجزية من السنة التى انتهى استخراجها منهم إلى السنة التى عاد فيها كل واحد منهم »(٢) .

ويقال إن الظاهر سمح للأقباط بالاحتفال بعيد الغطاس وبأن يقيموا الملاهى العامة بهذه المناسبة(٣) . ويبدو بصفة عامة أن الأقباط استعادوا شيئاً من الثقة والطمأنينة فى هذا العهد ، مما جعل الرحالة المسلم « ناصرى خسرو » يقول عن زيارته لمصر عام ١٠٣٥ م : « لم أعرف بلاد تتمتع بالأمن والطمأنينة كبلاد مصر . لقد رأيت نصرانياً كان أغنى رجال مصر . ولم يستطع أحد أن يحصى عدد المراكب التى كان يملكها ولا أن يقدر عدد أملاكه ولا قيمتها فاستدعاه الوزير وقال له : « إن الحالة فى هذه السنة غير مرضية وتثقل آلام الشعب على حاشية السلطان . قل لنا ماذا تستطيع أن تعطينا من القمح سواء بعته لنا أو أقرضته لنا ؟ » فأجاب النصرانى : « الحمد لله أنى ، بفضل ثروة السلطان ووزيره ، أملك الآن من القمح مقدرة عظيمة حتى أنى أستطيع أن أمد مصر به لمدة ست سنوات »(٤) .

لا شك فى أن قصة خسرو شيئاً من المبالغة . ولكن إغفاله ذكر الاضطهاد ونقله عن لسان قبطى عبارات بهذه الصراحة ، لدليل على أن النصارى كانوا يعيشون فى أمان فى هذا العهد .

(١) الأنطاكى ، ص ٢٣٥ — ٦
(٢) الأنطاكى ، ص ٢٣٩
(٣) ابن إياس ، جزء ١ ، ص ٥٨
(٤) *Sefer Nameh*, publié, traduit et annoté par Ch. Schefer, p. 155-6.

المستنصر بالله ٤٢٧ — ٤٩٥ هـ (١٠٣٦ — ١١٠١ م) .

حكم الخليفة المستنصر البلاد مدة طويلة ، إذ ارتقى العرش فى السابعة من عمره ، ولكن خلافته لم تكن مجيدة . فإن اضمحلال الفاطميين الذى بدأ فى العصر السابق ، ازداد بسبب الفوضى الداخلية . وقد نهب المرتزقة الأتراك قصر الخليفة ، ولما جردوه من ثروته ، اضطر الخليفة أن يفترش حصيرة فى قصره الذى كان خالياً من كل أثاث ، حتى أن أعداءه الألداء رثوا لحالته التعسة وذرفوا الدموع عليها .

لم يؤثر المستنصر على مجرى الحوادث ، وبينما كان الجند الأتراك والجند السود يشتبكون فى قتال دموى عنيف ، وبينما حل فى البلاد قحط شديد جعل الشعب يأكل الجثث وأجياف الحيوانات ، كان الوزراء يتتابعون على كرسى الحكم ، ولم يكن نتيجة ذلك سوى استمرار حالة الفوضى التى انغمست فيها البلاد .

ونحن نذكر هذه التفاصيل الخارجة نوعاً ماً عن الموضوع ، لنظهر فقط كيف أرسل الخليفة — وقد أعيته الحيلة — فى طلب الأرمنى بدر الجمالى . وقد استتب الأمن فى البلاد ، وخاصة بالنسبة للأقلية ، فى عهد الوزير الذى كان عبداً ، ثم أسلم فأصبح وزيراً عظيما .

وقبل وصول بدر إلى مصر ، كانت الأقلية تتحمل الشىء الكثير من غضب الوزير « اليازورى » و « نصر الدولة » . ففى وزارة اليازورى ، تحولت أنظار الفاطميين نهائياً نحو الشرق . ولما ثارت تونس على خلافة مصر ، لم يجهز اليازورى حملة ضد الثوار ، بل لجأ إلى قبيلتى « بنى هلال » و « بنى سليم » العربيتين ، حليفتى الفاطميين ، وكانت لهما شهرة واسعة فى أعمال السلب والنهب على الحدود الغربية للدلتا ، وقال لهما : « لقد تركنا لكما ولاية تونس ، فاجتاحوها وخربوها . » هذا لأن الفاطميين كانوا وقتئذ يساعدون

بأموالهم ثورة أحد القواد الأتراك ضد خلافة بغداد (٤٥٠ هـ — ١٠٥٩ م) ، فلم يهتموا إطلاقاً بمصير بلادهم الأصلية . ولما فشلت الثورة ضد العباسيين ، أقيل اليازورى .

وكان من البديهى أن يعتمد حكام مصر فى مثل هذه الظروف الحرجة على مؤازرة جميع طبقات الشعب أكثر منه فى أى وقت آخر . ولكن يبدو حقاً أن نفوذ الأقباط تلاشى منذ خلافة الحاكم ، لأن اليازورى أظهر عدوانه لهم طوال مدة حكمه ، وكان ينتهز كل فرصة ليغتصب منهم المال . « فلما اتهم البطريرك خريستودولوس بتحريض ملك النوبة النصرانى بعدم القيام بواجباته نحو الخليفة الفاطمى ، ألقى اليازورى القبض على البطريرك دون أن يقوم بأى تحقيق ، وأمره بدفع مبلغ مائة دينار . ولما جىء به إلى القاهرة ، أرسل إلى « عبد الدولة » محافظ منطقة مصر السفلى الذى اقتنع ببراءته ، فذهب إلى اليازورى « وأخذ منه فى الحال تصريحاً باطلاق سراحه »(١) .

وإلينا مثل آخر . « كان رأس القديس مرقس الانجيلى موضوعاً فى الإسكندرية ، فى منزل أبى يحيى بن زكريا . فلما مرض يحيى مرضه الشديد ، خشى عشرة من النصارى — فى حالة موته — أن توضع ممتلكاته وأمواله تحت الحراسة وأن تقع هذه الذخيرة المقدسة بين أيدى المسلمين . فما كان منهم إلا أن نقلوا الصندوق الذى كان يحوى رأس القديس إلى منزل أبو الفتاح والد المؤرخ الذى أتم تاريخ البطاركة . ولكن سبق أن ذاق أبو الفتاح هذا نير الاضطهاد والتغريم ، فخشى أن يغضب عليه الخليفة ورفض حفظ هذه الوديعة لديه . وعندئذ ، نقل الرأس عند « سرور » الذى كان يسكن أمام أبو الفتاح . فلما بلغ الوزير الخبر ، أمر بالقاء القبض على أبى الفتاح وعلى جميع النصارى الذين اشتركوا فى نقل الصندوق . وحتم « كوكب الدولة » ، محافظ الإسكندرية ، أن يعاد إليه رأس القديس مرقس ومبلغ العشرة آلاف

(١) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 299-300

دينار التي كانت مع الرأس . ونجح المتهمون فى نيل الافراج عن أنفسهم ما عدا أبو الفتاح الذى أرسل إلى الفسطاط حيث اعتقلته السلطات ليضطر إلى دفع المبلغ الذى حدده المحافظ . وبعد مضى ثلاثة أيام ، أطلق سراح أبي الفتاح بعد أن دفع مبلغ ستمائة دينار فقط . »

وهناك حوادث أخرى تثبت عدم اهتمام اليازورى ورجاله بالأقباط . يحدثنا فى هذا الشأن صاحب تاريخ البطاركة ، فيقول : « إن أبا الحسين الصيرفى ، الذى شغل عدة وظائف ، ومنها وظيفة قاضى الإسكندرية ، عُين آخر الأمر رئيساً لمجلس العقود . وحدث أن مر بمدينة « دمرو » ، مقر البطاركة ، فادعى أنه لم يحط بالاجلال والاعتبار المناسبين لمركزه . فكتب إلى الوزير خطاباً وجه فيه شتى الاتهامات ضد البطريرك وذكر فيه أن« دمرو» أصبحت قسطنطينية أخرى ، إذ يوجد فيها سبع عشر كنيسة معظمها حديثة البناء ، هذا فضلا عن عدد كبير منها بنيت حديثاً فى القرى المحيطة بالمدينة . وقد بنى البطريرك لنفسه قصراً نقش عليه عبارات مهينة للديانة الإسلامية . » وختم القاضى خطابه مقترحاً على الوزير أن يغلق كل الكنائس وأن يأمر بهدم تلك التى بنيت حديثاً ، وأن يعمل خاصة على إلزام النصارى بدفع مبالغ كبيرة فى الحال . فأمر الوزير اليازورى ، بناء على هذا الخطاب ، بإغلاق الكنائس فى جميع أنحاء مصر . ونفذ نصر الدولة ، محافظ مصر السفلى ، الأمر ، فألقى البطريرك والأساقفة فى السجن وحتم على النصارى أن يدفعوا عشرة آلاف دينار »(١) .

وقد مدّ المسلمون يد المساعدة أحياناً إلى الأقباط الذين لم يكونوا ليتوقعوا ذلك ممن ناصبهم العداء ردحاً من الزمن . لقد ذكرنا قصة عبد الدولة الذى أفرج عن البطريرك بعد أن اقتنع ببراءته . ويبدو أن « حصن الدولة » كان أكثر غيرة منه على حماية الأقباط . فلما أمر الوزير باغلاق كنائس

(١) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 342-5.

الإسكندرية ومصادرة كل ما فيها من نفائس ، وفرض غرامة على نصارى المدينة تبلغ عشرة آلاف دينار ، ما كان من هذا الحاكم إلا أن أرسل فى طلب « موهوب » ، مؤرخ سيرة البطاركة ، وعمه « صدقه » الذى كان يعمل تحت إمرته ، وقال لهما : « هذا كتاب يخصكما ، إنه يحوى أوامر يجب أن أضعها موضع التنفيذ غداً . فاذهبا فى الحال وجردا كنائسكم سراً من الأوانى والحلى وكل ثمين فيها »(١) . إلا أن أحد الرهبان — كما كان يحدث ذلك عادة فى مثل هذه الأحوال — وشى بالبطريرك انتقاماً منه لأنه لم يرفعه إلى درجة أسقف .

ثم إن الفوضى التى عمت البلاد بعد وفاة اليازورى ، حالت بين النصارى وبين تحسين حالتهم . ولقد انتهز رجال قبيلة البربر المعروفة باسم « اللواتة » فرصة هزيمة جيش المستنصر أمام قوات القائد التركى نصر الدولة ، فألقوا القبض على البطريرك خريستودولوس ، وبعد أن ذاقوه ألوان العذاب ، نهبوا منزله . فأسرع أبو الطيب الزراوى ، كاتم سر نصر الدولة ، يرجوه أن يفاوض اللواتة ، ففعل وتمكن من إطلاق سراح البطريرك بعد أن دفع فدية قدرها ثلاثة آلاف دينار(٢) . غير أن هذا الاتفاق لم يضع حداً لأعمال السلب التى كانت تقوم بها هذه القبيلة فقد اجتاحت مصر السفلى ونهبت أديرة وادى حبيب ، وقتلت معظم رهبانها وفرقت شمل الباقيين(٣) .

ومما زاد الطينة بلة ، أن انتشرت المجاعة فى البلاد وكان نصر الدولة فى هذه الأثناء يتحدى الخليفة ، مدفوعاً بالنجاح الذى لقيه والنصر الذى أحرزه . فلم يكن من هذا الأخير إلا أن استدعى بدر الجمالى ، وكان عبداً أرمنياً عند الأمير السورى جمال الدولة بن عمار ، اشتهر بقوة شكيمته وحدة ذكائه

(١) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 347-8.

(٢) idem, II, p. 398-9.

(٣) idem, II, p. 400.

وحسن إداراته ، وكان يعتمد على قوة من الأرمن و بعض الفرق المخلصة له .

ويرى المسيو جاستون فييت فى بدر الجمالى أقوى شخصية فى مصر الإسلامية ، بيد أنه يمتاز أيضاً بطباعه الغريبة عن طباع أهل الشرق . « وقد أراد أن يكون دكتاتوراً منذ الساعة الأولى ، ولما عرض الخليفة عليه الحكم ، أملى شروطه ولم يقبل النقاش »(١) . وفعلا ، أجاب بدر المستنصر بأن التمرد قد تفشى بين الجند فى مصر إلى درجة يستحيل عليه معها أن يعيدهم إلى النظام وأنه لن يطيع أوامر الخليفة ، إلا إذا سمح له باستبدالهم بجنود آخرين من سوريا ، وفى هذه الحالة يضمن للبلاد الأمن والسلام(٢) . وسلمه الخليفة حينئذ براءة مزينة بالألقاب الآتية : « السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . »

وبدأ بدر عمله باغتيال أمراء الأتراك أثناء مأدبة أعدها لتكريمهم . فلما خلا الجو من المعارضين ، أخذ يعمل بكل ما أوتى من نشاط لإنماء موارد البلاد والمحافظة على الأمن داخل الحدود وخارجها .

ولم تذكر لنا المصادر العربية تفاصيل إدارته ، واكتفت بالإشارة إلى الهدوء والرخاء وإنماء الزراعة وزيادة الدخل السنوى فى عهده .

ومن الطبيعى أن تميل العلاقات بين المسلمين والنصارى إلى الاعتدال فى ظل حكومة حكيمة . وكان النصارى ، على الأخص ، ينظرون بعين الرضى إلى هذا الأرمنى الذى حكم البلاد حكماً مطلقاً . ذلك لأنهم كانوا يعتبرونه ، رغم اعتناقه الإسلام ، واحداً منهم ، كما كان هو أيضاً يشملهم بعطفه ويفصل بالعدل فى الشكاوى المقدمة منهم(٣) . ولم يترددوا فى طلب تحكيمه فى منازعاتهم الدينية البحتة . ويؤيد ذلك ، الحادث الذى رواه الأب

---

(١) *Les Mosquées du Caire*, I, p. 34

(٢) الخطط ، جزء ١ ، ص ٣٨٢

(٣) وجاء عدد كبير من الأرمن إلى مصر فى عهد بدر الجمالى . واستقبلت السلطات المحلية البطريرك « جريجوار » الأرمنى استقبالا حافلا واعطوا له كنيسة طره (أبو صالح ص ٤٧)

رينودو فى تاريخه : « فى عام ٤٧٥ هـ (١٠٨٢) م ، جاء اثنان وخمسون أسقفاً مصرياً إلى بدر الجمالى يشكون إليه البطريرك كيرلس . وبعد أن حثهم الوزير على العيش فى وئام واتحاد ، وطلب إليهم أن يحترموا رئيسهم الدينى ، أوصاهم بعدم جمع الأموال وتكديسها وأبان لهم أفضلية صرف الإيرادت المتحصلة على أسقفياتهم فى أوجه البر . ثم صرفهم بعد أن سلم إلى كل واحد منهم جواز يحميهم من كل جور »[1] .

وكان عطف بدر الجمالى على النصارى لا يدل على تحيز أو ممالأة : شكا له بعض التجار المسلمون أن « فكتور » ، أسقف النوبة ، قد هدم مسجداً . فما كان منه إلا أن أمر فى الحال بالقاء القبض على البطريرك خريستودولوس وحمله مسئولية هذا العمل . ثم يذكر لنا «رينودو» أن بدر الجمالى أصدر مرسوماً سنة ٤٧٩ هـ يأمر النصارى واليهود أن يتمنطقوا بزنار أسود وأن يدفعوا ضريبة استثنائية قدرها دينار وثلث الدينار عن كل فرد[2] . والحقيقة أن هذه الضريبة لم تكن إلا حجة تقليدية لملء خزينة الدولة .

توفى بدر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) . فعين الخليفة من تلقاء نفسه الأفضل إبن المتوفى ،وزيراً . وقد أخذ لقب شاهنشاه.وتوفى الخليفة بعد وفاة بدر ببضعة شهور . ونشبت أول الحروب الصليبية فى حكومة الأفضل شاهنشاه ، وسنتكلم عنها فى الباب التالى .

لقد ثبت بدر وابنه النفوذ الأرمنى فى مصر وامتد هذا النفوذ إلى عهد « بهرام » الوزير النصرانى للخليفة الحافظ لدين الله ، الذى جاء بعد الخليفة الآمر بأحكام الله .

الآمر بأحكام الله ٣٩٥ — ٥٢٥ هـ (١١٠٢ — ١١٣١ م) .

هو ثالث الخلفاء الفاطميين الذين تولوا الحكم فى مصر وهم فى سن صغير ،

---

(١) ص ٤٥٧ — ٩

(٢) رينودو ، ص ٤٥٧ — ٩

إذ كان عمره خمس سنوات حينما توفى والده . ولما كان الأفضل ، ثم المأمون ، قد رفضا التنازل عن حكمهما المطلق ، انتهز الآمر أول فرصة سنحت له فى عام ٥١٩ — وكان عمره آنذاك ٢٩ عاماً — ليستدرج سلطته ورفض أن يعين وزيراً خلفاً للمأمون ، بل اكتفى بتعيين رئيسين هما جعفر بن عبد المنعم وأبو يعقوب إبراهيم السامرى . وكان يشرف على أعمالها راهب قبطى اسمه ابن أبى النجاح[1]. وأبو النجاح هذا بالغ فى محاباة النصارى على حساب المسلمين[2]. ويذكر لنا القلقشندى بعض التفاصيل التى تدلى على أن الأقباط نسوا بسرعة الأسباب التى أدت إلى اضطهادهم فى عهد الحاكم بأمر الله . وكتب صاحب « صبح الأعشى » ما يأتى : « فى أيام الآمر بأحكام الله الفاطمى بالديار المصرية ، امتدت أيدى النصارى وبسطوا أيديهم بالخيانة وتفننوا فى أذى المسلمين وإيصال المضرة إليهم ، واستعمل منهم كاتباً يعرف بالراهب ولقب بالأب القديس الروحانى النفيس أبى الآباء وسيف الرؤساء ، مقدم دين النصرانية وسيد البطريركية ، صفى الرب ومختاره ، وثالث عشر الحواريين . فصادر اللعين عامة من الديار المصرية : من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر ، وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم . فخوفه بعض مشايخ الكتاب بخالقه وباعثه ومحاسبه وحذره من سوء عواقب أفعاله وأشار عليه بترك ما يكون سبباً لهلاكه . وكان جماعة من كتاب مصر وقبطها فى مجلسه ، فقال مخاطباً ومسمعاً للجماعة : « نحن ملاك هذه الديار حرثاً وخراجاً ، ملكها المسلمون منا وتغلبوا عليها وغصبوها واستملكوها من أيدينا ، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين ، فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبة إلى من قتل من رؤسائنا وملوكنا فى أيام الفتوح . فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين وأموال ملوكهم وخلفائهم حلّ لنا وهو بعض ما نستحقه

---

(١) هو غالب ابن النجاح الذى قتل فى عهد الحاكم .

(٢) خطط المقريزى ، جزء ٢ ، ص ٢٩١

عليهم . فإذا حملنا لهم مالا ، كانت المنة لنا عليهم . » فاستحسن الحاضرون من النصارى والمنافقين ما سمعوه منه واستعادوه »[١] .

إذا لم نستطع أن نجزم بصحة هذه الرواية ، فاننا نستطيع أن نؤكد أن ابن أبي النجاح كان مكروهاً من الشعب . وقتل فعلا سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٩م). أما الخليفة فقد حب شعبه ومات فى السنة التالية مقتولا هو أيضاً .

كيف نعلل العودة إلى التسامح الدينى فى عهد الآمر بأحكام الله؟ يرد المسيو فييت على ذلك قائلا : « هناك عدة فروض تتصل بهذا الأمر : فربما وجدنا فى مصر رابطة تشبه الاتحاد المقدس الذى يعقب عادة النكبات الوطنية ، ولقد نكب الشعب بسبب المجاعة التى حلت فى عصر المستنصر . ويجب ألا ننسى أن التجارة والزراعة كانتا بين أيدى النصارى تقريباً . ويمكننا أن نفرض أيضاً أن مبادئ الاسماعيلية التى انتشرت منذ عهد المستعلى ، أغضبت عدداً كبيراً من المسلمين وأبعدتهم عن حكومتهم ، فنهج وزراء الآمر سياسة التوازن الطبيعية ويبدو أنهم وجدوا عند النصارى الحظوة التى فقدوها عند غيرهم »[٢] .

وفى رأينا أن سياسة بدر الجمالى والأفضل شاهنشاه لم تكن غريبة عن هذا الجو المشبع بالعطف على النصارى . ومن المحتمل أيضاً أن يكون الآمر قد أصدر ، اطمئناناً للرأى العام الإسلامى ، مرسوماً يأمر فيه حكام الولايات بعدم إعفاء الذميين من الجزية حتى ولو كان الذمى من علية قومه ، وعدم السماح له بارسال جزيته عن طريق شخص آخر ، حتى لو كان من أعيان أو رؤساء ملته ، وإنما تؤخذ الجزية منهم مباشرة ، إذلالا لهم وتمجيداً للإسلام والمسلمين ، وأن يدفع جميع الذميين الجزية بدون تحقيق أو استثناء[٣] .

---

(١) صبح الأعشى ، جزء ٢ ، ص ٢٩١

(٢) *Matériaux pour un Corpus*, Mémoires I.F.A.O. "Egypte" II.

(٣) ابن النقاش

لولا الجملتان الهامتان اللتان يحويهما هذا المرسوم ، لما كانت له قيمة تاريخية . ففى عهد الفاطميين ، حظى النصارى بكل التسهيلات اللازمة لدفع الجزية حفظاً لكرامتهم ، كما أعفوا كلية فى بعض الحالات من سداد هذه الضريبة . وفعلا ، كيف يتصور وزيراً يهيمن على شؤون الامبراطورية الفاطمية بأسرها ، ثم يقوم بنفسه لدفع جزيته ؟ ولا شك أن هذا وضع قد يقلل من شأنه أمام مرؤوسيه . فالوثيقة التى ذكرها ابن النقاش تلقى ضوءاً على ناحية غامضة من التاريخ الإسلامى .

وقد اشتهر الآمر بميله إلى زيارة الأديرة ، وكان يبنى بجوارها المناظر ليمضى فيها ساعات طويلة[١] .

وقد لامه المسلمون ، فيما لاموه عليه ، اهماله الشديد للحرب المقدسة وللحملات ضد الصليبيين مما جعل الافرنج يستولون فى عهده على جزء كبير من ساحل سوريا وعلى مواقع حصينة أخرى[٢] .

الحافظ لدين الله ٥٢٥ — ٥٤٤ ﻫ (١١٣١ — ١١٤٩ م) .

لم تمنع نهاية الآمر المحزنة خليفته وابن عمه ، الحافظ لدين الله ، من أن يولى ثقته أحد الأرمن النصارى ، واسمه « بهرام » . وكتب المؤرخ يوسف ابن مرعى ، معلقاً على هذا التعيين ، أن الشعب قبل على مضض هذا التعيين المنافى للنظم المتبعة وللذوق السليم ، وأن بعض رجال الحاشية احتجوا على ذلك وأخبروه بأنه لا يليق أن يتولى نصرانى الوزارة لأن من واجب الوزير أن يكون فى معية الخليفة فى صلاة الجمعة . ولكن الحافظ أصر على رأيه وقرر أن ينوب قاضى القضاة عن بهرام فى هذه المناسبة[٣] .

كما أن الأقباط لم يرتاحوا لوزارة بهرام ، ذلك لأنهم كانوا ينظرون بعين

(١) يذكر أبو صالح أن الآمر أنشأ منظرة فى دير الناهية وتوجها بقبة كبيرة (ص ٦٢)

(٢) الخطط ، جزء ٢ ، ص ٢٩١

(٣) *Passe-Temps*, dans *Revue d'Egypte*, juin 1895.

القلق الى ازدياد عدد الأرمن فى مصر . والواقع أن هذا الوزير لم يكتف باحضار أقاربه واسناد الوظائف الهامة اليهم ، ومنحهم دخلا كبيراً ، بل شجع هجرة أكثر من ثلاثين ألف أرمنى إلى مصر . « والى جانب قلق الأقباط وغيرتهم ، كان المسلمون حاقدين ومذهولين من ازدياد نفوذ النصارى ، اذ تعدد بناء الكنائس والأديرة حتى خيف على مستقبل الديانة الإسلامية »(١).

ولما انتزع رضوان السلطة من بهرام ، نجح فى كسب عطف الجماهير باستغلال شعورهم الدينى . وقال المقريزى فى هذا الشأن أن رضوان « أوقع بالنصارى وأذلهم فشكره الناس »(٢). فأخرج الموظفين النصارى وخاصة الذين عينهم بهرام ، ثم أراد أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، ولكن الحافظ لم يسمح له بذلك ، وبعد أن كان يتحداه باستقبال بهرام فى مقره ، أثار جنده عليه غير أن مركز بهرام ازداد سوءاً ، فاضطر أن يرحل إلى أسوان حيث قضى بقية أيامه فى دير مجاور لهذه المدينة . وبرحيله زال النفوذ الأرمنى من مصر .

آخر الخلفاء الفاطميين ٥٤٤ — ٥٦٧ هـ (١١٤٩ — ١١٧١ م) .

تعود أهمية تاريخ هؤلاء الخلفاء إلى ارتباطهم ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الحروب الصليبية . وفى اليوم الذى استنجد الخليفة العاضد لدين الله بجيوش نور الدين لينقذه من الصليبيين ، حكم على أسرته بالزوال .

الخلفاء الفاطميون والأعياد المسيحية .

لم يقتصر عمل الخلفاء الفاطميين على اسناد وظائف الدولة الرئيسية إلى الذميين ، بل أعادوا التقليد الذى سنه محمد الأخشيدى بالاشتراك فى الحفلات الدينية المسيحية . ولكن بينما كان الأخشيديون يشتركون فى هذه الأعياد

(١) G. Wiet, *L'Égypte Arabe* dans *Hist. Nation Égypt*, IV, p 275.

(٢) الخطط ، جزء ١ ، ص٣٥٧

بصفتهم الشخصية ، صبغها الفاطميون بالصبغة الرسمية . فلم يعودوا يحضرونها بصفتهم الشخصية ، بل الدولة نفسها هى التى أصبحت تحتفل بهذه الأعياد .

وقد وصفنا من قبل عيد الغطاس ، نقلا عن المسعودى . ولما جاء المعز ، ألغى هذا العيد ولكن لم يلبث أن أعاد العزيز الاحتفال به احتفالا عظيما . وفى عام ٣٨٨ هـ ، أى فى أوائل عصر الحاكم ، ذكر المقريزى ، نقلا عن المسبحى ، أن السلطة استمرت تحتفل بهذا العيد بالأبهة نفسها ، برئاسة فهد بن ابراهيم ، كاتم أسرار الوزير برجوان . وفى سنة ٤٠١ هـ ، ألغى الحاكم هذا الاحتفال بعد أن شرع فى حركة الاضطهاد الكبرى التى قام بها ، ولما خلفه الظاهر ، صرح بإقامة العيد ثانية سنة ٤١٥ هـ ، ولكن اشتراكه فيه كان اشتراكاً سلبياً ، إن صح هذا التعبير ، وقال المقريزى : « نزل أمير المؤمنين ، الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم ، لقصر جده العزيز بالله لينظر الغطاس ومعه الحرم . ونودى ألا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم إلى البحر فى الليل وأمر الخليفة الظاهر لاعزاز الدين بأن توقد المشاعل والنار فى الليل ، فكان وقيداً كثيراً . وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران ، فقسسوا هناك طويلا إلى أن غطسوا . »

وكان الملكيون واليعاقبة يحتفلون معاً بهذا العيد . وكان الملكيون يخرجون من كنيسة القديس ميخائيل بقصر الشمع ، فإذا ما وصلوا إلى ضفة نهر النيل ، وعظهم أسقفهم باللغة العربية ثم استنزل نعم الله على الخليفة وأفراد البلاط الذين يريدونه . ثم كانوا يقفلون عائدين إلى كنيستهم بنفس الطريقة التى جاءوا بها حاملين الشموع والصلبان حيث كانوا يختمون صلواتهم[١] » .

ويروى لنا ابن أياس عن هذا الاحتفال تفاصيل غريبة ، فيقول أن

---

(١) الأنطاكى ، ص ١٩٦ . ويقول هذا المؤرخ أن الحاكم حضر هذا الاحتفال عدة مرات متنكراً .

« البحر كان يمتلىء بالمراكب والزوارق ويجتمع فيها السواد الأعظم من الخاص والعام من المسلمين والنصارى ، فإذا دخل الليل ، تزين المراكب بالقناديل وتشعل فيها الشموع وكذلك على جوانب الشطوط من بر مصر والروضة ، وكان يشعل على الشطوط فى تلك الليلة أكثر من ألفا مشعال وألف فانوس وتنزل رؤساء القبط فى المراكب ، وكان ينفق فى تلك الليلة من الأموال مالا يحصى فى مآكل ومشارب ، وتتجاهر الناس بشرب الخمر وتجتمع أرباب الملاهى من كل فن ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة ، ولا يغلق فى تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق . وكانوا بعد العشاء يغطسون فى بحر النيل ، النصارى مع المسلمين سوية ، ويزعمون أن من يغطس فى تلك الليلة يأمن من الضعف فى تلك السنة . »

وهناك عيد آخر فى أهمية هذا العيد ، ألا وهو النوروز ، أى رأس السنة القبطية . وشكا كبار المؤرخين المسلمين من أن الأقباط كانوا فى هذه المناسبة يفرطون فى استغلال الحرية التى كانت تمنح لهم ، فيضرون بالأخلاق كل الضرر . وكان المحتفلون بهذا العيد يلهون بصب المياه القذرة على المارين . فيقول المقريزى عند ما وصف لنا عيد نيروز سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) ، فى خلافة الآمر : « وصلت الكسوة المختصة به من الطراز وثغر الإسكندرية مع ما يبتاع من المذاب المذهبة والحريرى والسوادج ، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم على اختلافها وأسماء أربابها ، وأضاف النوروز البطيخ والرمان ، وعراجين الموز وأفراد البسر وأقعاص التمر القوصىّ وأقفاص السفرجل ، وبكل الهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر من كل لون بكلة مع خبز برّ مارق . وأحضر كاتب الدفتر الاثباتات بما جرت العادة به من اطلاق العين والورق والكسوات على اختلافها فى يوم النوروز ، وغير ذلك

من جميع الأصناف ، وهو أربعة آلاف دينار وخمسة عشر ألف درهم فضة »[١] .

ويضيف المقريزى إلى ما تقدم أن الأسواق كانت تقفل فى هذه المناسبة ويكاد لا يمر أحد فى الشوارع ، وكانت توزع النقود على موظفى الدولة وعلى نسائهم وأولادهم .

وكان عيد الميلاد ثالث عيد يحتفل به احتفالا عظيما فى عهد الفاطميين ، « وكان من رسوم الدولة الفاطمية فيه تفرقة الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية والمقارد التى فيها السمك وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية والبورى ، فيشمل ذلك أرباب الدولة[٢] ، أصحاب السيوف والأقلام ، بتقرير معلوم . ويقول المقريزى أيضاً : « أدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر أقليم مصر موسما جليلا يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة والتماثيل البديعة بأموال لا تحصى ، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشترى من ذلك لأولاده وأهله . كانوا يسمونها الفوانيس واحدها فانوس ، ويعلقون منها فى الأسواق بالحوانيت شيئاً يخرج عن الحد فى الكثرة والملاحة ويتنافس الناس فى المغالاة فى أثمانها . »

وهناك عيد آخر كان المحتفلون به يتجاوزون حدود اللياقة ، ألا وهو عيد الشهيد[٣] ، وقد ألغى فى عهد المماليك . وفى هذا العيد ، كانوا يغمسون فى النيل أصبع قديس . وكان الشعب يعتقد أن النيل لا يفيض إلا إذا غمس فيه سنوياً أصبع هذا القديس . ويؤكد المؤرخون أن فلاحى شبرا كانوا يعتمدون على بيع المشروبات الروحية أثناء هذا الاحتفال لدفع الضرائب المقررة عليهم .

وكانت الحكومة ، فى عهد الفاطميين ، تسلك أيضاً خمسمائة دينار ذهباً

(١) الخطط ، جزء ١ ، ص ٤٩٣ .
(٢) الخطط ، جزء ١ ، ص ٤٩٤ ؛ و *P.O.* X, fasc. 4, p. 322
(٣) نجهل فى أية سنة بدأ الأقباط يحتفلون بعيد الشهيد .

بمناسبة عيد العهد ، وكان هذا المبلغ يوزع على جميع أرباب الرسوم .

ومن عادة النصارى فى أخميم « إذا عملوا عيد الزيتونة ، المعروف بعيد الشعانين ، أن يخرج القسوس والشمامسة بالمجامر والبخور والصلبان والأناجيل والشموع المشعلة ويقفوا على باب القاضى ، ثم أبواب الأعيان من المسلمين فيبخروا ويقرءوا فصلا من الانجيل ، ويطرحوا له طرحاً ، يعنى يمدحونه . »

ولما تولوا الأيوبيون الحكم ، أبطلوا جميع هذه العادات .

* * *

لقد ذكرنا الحوادث العديدة والمتنوعة التى تتعلق بالعلاقات بين الأقباط والمسلمين فى هذه الفترة ، وأشرنا إلى أهميتها . ولكننا نشعر بعدم اهتدائنا إلى الطريق إذا أردنا الكشف عن الأسباب التى وجهت سياسة هذا الخليفة أو ذاك .

وهناك نقطة من شأنها أن تلقى بعض الضوء على أبحاثنا . ذلك أن نظام الفاطميين كان يشبه إلى حد غريب الماسونية فى أيامنا هذه . وكان أتباعهم يحاطون بأسرار طقوسهم شيئاً فشيئاً ، كما كانوا يجتمعون فى محافل حسب درجاتهم .

ولا بد أن تكون هناك — كما هو الحال فى الماسونية — كلمات مصطلح عليها ، بعضها معروفة لدى الجميع وبعضها لا يعرفها إلا كبار الرؤساء . ومن البديهى ألا نعرف هذه المصطلحات ، كما أنها ستظل فى عالم الغيب إلى الأبد . لذلك ، فأن بعض مظاهر السياسة الفاطمية ستبقى مجهولة ، فلن نستطيع أن نجزم بأن العزيز أو الحاكم أو من جاء بعدهما من الخلفاء كانوا يستوحون أوامر المحافل الكبرى أو أنهم كانوا يعملون وفق ميولهم الشخصية ومصلحة البلاد .

لقد حاول الفاطميون الغرباء عن بلادهم أن يحققوا الوحدة القومية والتعاون الخالص لجميع المسلمين ، كما تدل على ذلك ، بصفة قاطعة ، تصريحات المعز وأعمال قائده جوهر . ولكن يبدو أن الخلفاء عدلوا مبكرين عن التقرب من السنيين بعد أن قاموا بمحاولات فاشلة . ولما أصبح تحت تصرفهم جيش

كبير من أهل شمال أفريقيا ، ولما عززوه بالعناصر التركية والجنود السود ، فضلوا كسب عطف الذميين الذين لم يزالوا فى ثرائهم ونفوذهم حتى قدوم الفاطميين ، لانتمائهم إلى الطبقة المثقفة المسيطرة على الأداة الحكومية .

وهذا الفرض ، لا يمكن اهماله ، لأن تاريخ الفاطميين يدل على طموحهم ، وهم حكام مصر الإسلامية الذين قطعوا علانية ، دون سواهم ، صلتهم بمركز الخلافة العباسية وأعلنوا سيادتهم السياسية والدينية . وكل حاكم فى أسرتهم أراد أن يوسع رقعة إمبراطوريته ، وكل واحد منهم أراد أن يخلد ذكرى عهده ببناء مسجد فى غاية الروعة أو قصر فخم ، وكل واحد منهم عاش عيشة كلها ترف ورفاهية . وإذا أحصينا مع المقريزى ثروة الخليفة المستنصر أو خزائن الفاطميين وتحفهم التى نهبها الثوار ، يخيل إلينا أننا نقرأ كتاب ألف ليلة وليلة .

وكان الفاطميون لهذه الأسباب فى حاجة ملحة إلى المال ، أى إلى إدارة منظمة تقوم على عاتق موظفين أكفاء ومخلصين ، يقومون بجباية الضرائب فى مواعيدها ويعملون جاهدين على أنماء الثروة الاقتصادية . وكان الأقباط على استعداد تام للقيام بهذا الدور خير قيام .

فلما يأس الفاطميون من استمالة السنيين إلى جانبهم ، لجمودهم نحوهم ، ولمسوا إخلاص النصارى الذين كانو يجمعون بين الكفاءة فى الأعمال الحسابية وجباية الضرائب وبين المهارة فى إتقان الصناعة ، أرادوا أن يردوا جميل الأقباط إليهم ، فأظهروا لهم تسامحاً لا حد له .

غير أن هناك نقطة ما زالت تقلقنا : لقد أثار المعز ، وهو أول خليفة نزل مصر ، إشاعات حول وفاته ، ولم يتردد فيها التاريخ القبطى حيث يقول أن هذا الخليفة ترك الحكم بعد أن اعتنق المسيحية ؛ ومن جهة أخرى ، بلغ تسامح العزيز مع النصارى درجة تدعو إلى الدهشة بالنسبة إلى عصره ؛ أما الحاكم ، فانه اختفى بعد أن تردد آخر شهور خلافته على الرهبان وأصلح

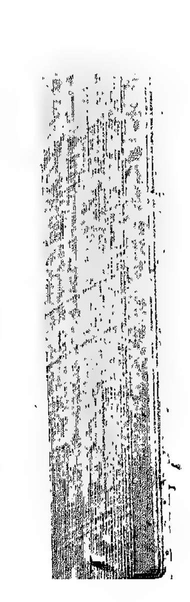
الأديرة والكنائس ؛ ثم يأتي الظاهر ، فيضع قانوناً للردة ، ويليه المستنصر الذى أرسل فى طلب الوزير الأرمنى بدر الجمالى ؛ أما الآمر ، فقد زار الأديرة وزينها وأهمل محاربة الصليبيين ؛ وأخيراً خاطر الحافظ بحياته ليحمى وزيره بهرام النصرانى . هل نستطيع أن نجزم بأن الإفراط الذى وقعت فيه هذه الأسرة كان يبرره فقط إخلاص النصارى لها ؟

وقد نال الأقباط فى هذا العهد المجد والثروة والحظوة والسلطان إلى أن أدى غضب الشعب عليهم إلى اضمحلال نفوذهم . ذلك لأن الأقلية الدينية استغلت ثقة الخلفاء لهم ليفوزوا بأكبر نصيب من التسامح للذميين ، بينما أظهروا عدم مبالاتهم ، بل جهروا بعداوتهم للأغلبية الدينية .

وقد استطعنا ، بفضل كتاب « قانون ديوان الرسائل » لابن الصيرفى ، أن نكون فكرة عن طريقة العمل فى المصالح الأميرية . وهذا ما يقوله المؤلف عن التأشيرات التى كانت تكتب على العرائض : « فلعهدى بالتوقيعات ، يكتب على بعضها « يعرض » وعلى أكثرها « يجدد عرضها » ، وما أشبه ذلك من الفوارغ التى لا معنى لها وتعاد إلى أصحابها ، فإذا كتبوا غيرها وقع عليها مثل ذلك أيضاً ، وأما « لا سبيل إلى ذلك » فهى لفظة قد اعتادها حتى لو التمس نصرانى أن يسلم أو مسلم أن يبنى مسجداً من ماله فى أرض مباحة لا مالك لها ، لوقع على رقعته : « لا سبيل إلى ذلك » . ولا يوقع إلا فيما كان تخطيطه الجزية على الذمة أو عمارة الكنائس ، وما أشبه ذلك لكون بعض من يوقع فيها نصرانياً »[1] .

ولا عجب لذلك ، فإن الأقباط كانوا يأملون فى ذلك الوقت باسترداد النفوذ الذى كانوا يتمتعون به عند ما فتح العرب مصر . فلما اضطهدهم الحاكم فكروا فيما آلوا إليه من بؤس وأسفوا على المجد الذى بلغوه قبل أن ينحدروا إلى الظلام الحالك .

(١) مصر ، مطبعة الواعظ ، ١٩٠٥ ، ص ١٥٠ و ١٥١



٧

موقف الصليبيين من النصارى

سياسة صلاح الدين والأيوبيين إزاء الاقباط

إن ضخامة الوسائل التى أعدها الصليبيون وتعدد هجماتهم تدل بلا شك على أن الحروب الصليبية كانت محاولة لمحو نفوذ الإسلام فى الشرق . فقد شنت هذه الحروب أول ما شنت لانتزاع حماية القبر المقدس من الخلفاء ، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى قتال عام بين جيوش الإسلام وجيوش المسيحية ، أى بين الشرق المسلم والغرب المسيحى .

لما تحدثنا عن الفتح الإسلامى ، حاولنا أن نحدد موقف الفاتح واستعداد الشعوب المهددة بالغزو . كذلك سنحاول أيضاً تحديد سياسة الغزاة ، أى الصليبيين ، نحو النصارى فى مصر ، وموقف النصارى منهم . غير أن المستندات التى عثرنا عليها قليلة . ذلك لأن النصارى فى الشرق ، وخاصة النصارى فى مصر ، فقدوا نفوذهم ، كما بينا ذلك ، مما دعى مؤرخى الحروب الصليبية ، سواء الشرقيين منهم أم الغربيين ، إلى أن يصرفوا عنايتهم إلى غير مصير الأقليات الدينية . فلم يذكروها إلا مصادفة ، كما أنهم لم ينوهوا إلا بمعلومات سطحية .

لذلك نرى أنفسنا مضطرين إلى الالتجاء إلى طريقة الاستنتاج . ومع كل ، فسنحاول ، بما تحت أيدينا من وثائق قليلة ، أن نعطى فكرة دقيقة إلى حد ما عن هذا الموضوع .

جهل الصليبيين وخشونتهم .

كان الصليبيون فرساناً لا يخشون الموت ، مهروا فى فنون المبارزة والقتال ، وكانوا يرتكزون على شجاعتهم وغلظتهم للظفر بالعدو والانتصار عليه . وكانوا يأنفون ، لزهوهم وكبريائهم ، الالتجاء إلى الطرق السلمية أو الدبلوماسية ليصلوا إلى رغباتهم . ويقول المؤرخ « ميشو » Michaud : « كان البارونات والنبلاء يجهلون ، لغلظتهم ، الكلمات المعبرة عن حقوق المرء ، وكان أفق علمهم قاصراً على ميادين الحروب ، وهى سياسة الأمراء والدول فى ذلك العصر »(١) .

وينقل إلينا «ميشو» ، من بين الروايات القديمة ، هذه القصة التى تكشف لنا عن عقلية هؤلاء الفرسان فى القرون الوسطى . « بينما كان عدد من الأمراء الفرنسيين يقومون بفروض الاحترام للإمبراطور « الكسيس » ساعة استقبالهم له ، ذهب الكونت « روبير دى بارى » وجلس بجانبه فأمسكه « بودوان دى هينو » من ذراعه وقال له : « اعلم أنه يجب احترام تقاليد البلاد التى تقدم إليها . » فأجابه « روبير » : « أحقاً تقول ؟ كيف يجلس هذا الفلاح بينما يقف هذا العدد الكبير من القواد العظام ؟ » وأراد الإمبراطور أن يفهم معنى هذا الحديث . فلما انصرف النبلاء من عنده ، استبقى « روبير » وسأله عن أصله وعن وطنه . فأجابه : « إنى فرنسى ومن أعرق النبلاء ، وإنى لا أعرف إلا شيئاً واحداً ، ذلك أن يوجد بالقرب من كل كنيسة ساحة يذهب إليها كل من يحترق شوقاً لإظهار شجاعته . وقد ذهبت إليها عدة مرات ، فلم يجرؤ أحد على منازلتى »(٢) .

فالصليبيون إذن ورّطوا أنفسهم فى مغامرة خطيرة للغاية لاعتمادهم على السيوف فقط . وإذا أدى الحماس إلى زيادة عددهم بكثرة ، فإن الجيوش

(١) *Histoire des Croisades*, I p. 41.

(٢) *idem*, I p. 101-2.

تحركت دون أن تتخذ أيه حيطة . وقد تقدمها جمع غفير من الحجاج غير المسلحين ، فهبوا متأثرين بخطب بطرس الراهب وبتعصبهم الدينى ، فواجهوا الموت بارتياح ، وقد أبادهم الأتراك تقريباً عن آخرهم .

وسافرت بعد ذلك جيوش البارونات المسلحة ، وقد بلغ عدد جنودها نصف مليون تقريباً غير أن النظام كان ينقصها ، ولم يكن عليها قائد واحد ، وكان الخلاف فى كثير من الأحيان يدب بينهم ، وكان كل فريق يميل إلى العمل حسب هواه ، فتحمل الجيش من جراء ذلك مضايقات خطيرة وخسائر فادحة رغم تفوق قواته على قوة المدافعين المسلمين . كما أن ملابس الجند كانت ثقيلة بالنسبة لمناخ بلاد حارة كفلسطين ، ثم إنهم لم يفكروا فى استخدام أسلحة للحصار ، بل عرقلوا عملياتهم الحربية بجيش من النساء ، عطل حركاتهم وأبطأ تقدمهم واستهلك مؤنهم .

ثم إن الصليبيين كانوا يجهلون طبيعة البلاد التى اجتاحوها ، وكانوا لا يستعينون فى أغلب الأحيان بالمرشدين أو الأدلاء . وهناك رواية ، نجهل مصادرها ، تقول إن أحد الوطنيين ، واسمه قراقوش (؟) ، هو الذى لفت نظر « فيليب أوغست » إلى أن مصر مفتاح سوريا : ومن ذلك الحين ، تعددت حملات الصليبيين على وادى النيل بقصد قطع دابر هجمات العرب والاستيلاء على بلاد مشهورة بتربتها الخصبة[1] . ولما دخلوا الأراضى المصرية ، كانوا أبعد الناس معرفة بأحوال فيضان النيل وما يترتب عليه ، فتقدموا غير مبالين بالعواقب ، حتى حان موعد فتح السدود ففاضت الترع والقنوات وحاصرت جيوشهم واضطرتهم إلى التسليم . وبلغ بهم الجهل بنظم البلاد السياسية حدّ إطلاقهم على الوزير الأفضل شاهنشاه لقب « ملك بابليون »[2] .

زد على ذلك أن عدم استعدادهم الدبلوماسى كان أشد خطورة عليهم

---

(١) A. Rhyme, *L'Egypte Française*, coll "L'Univ. Pittoresque" p. 7.

(٢) Michaud, I, p. 507.

من عدم استعدادهم العسكرى . فقد هبّ الصليبيون لإنقاذ « الكسيس » إمبراطور بيزنطيا من الخطر العثمانى . ولكن فاتهم أن يأخذوا منه الضمانات الكافية . فلما وصلوا إلى ضفاف البسفور ، فاجأهم الإمبراطور بسياسته المائعة ، حتى نفذ صبرهم منه . ولم يتخذوا الحيطة بعقد معاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية لتنظيم مرورهم بأراضيها إلا قبيل الحملة الثالثة .

ثم كان الصليبيون يجهلون كل شىء عن البيزنطيين الذين اشتهروا بسعة الحيلة بقدر ما مهروا فى فن الدبلوماسية ، وكانوا يعتبرون شعوب أوروبا شعوباً بربرية ، ويعتزمون التخلص من الصليبيين بعد أن يأمنوا خطر المسلمين ويجنوا ثمرة انتصاراتهم . ولما رأوا أن قوات الغرب لا تكفى لدرء الأخطار عن إمبراطوريتهم ، أسرعوا إلى ترضية الفريقين المتحاربين . فعقد « إسحق الملاك » معاهدتين فى وقت واحد : الأولى مع فريدريك الثانى ، والثانية مع صلاح الدين الأيوبى .

وكيف يطلب إلى رجال عسكريين ، جلّ همهم التبارى فى ساحات القتال ، كيف يطلب إليهم أن يحلوا رموز السياسة المعقدة أو أن يستغلوا العروض التى تقدم إليهم من شعوب أخرى ، كالتتر مثلا ، لعقد محالفات ؟

أكان فى استطاعتهم أن يدركوا أن الشرق الإسلامى لم يكن متحداً حينما فيه ؟ وكيف يدركون ، مع جهلهم التام بالديانة الإسلامية ، أن خلافتين ، ما زالتا قويتين ، تتنازعان السيطرة على العالم الإسلامى : الأولى فى مصر ، وهى الخلافة الفاطمية الشيعية ، والأخرى فى بغداد ، وهى الخلافة العباسية السنّية ؟

ومع ذلك ، فإن الصليبيين كان فى مقدورهم الانتصار بلا شك ولا عناء ، لو كان أمامهم العرب دون سواهم . ولكن الأتراك القادمين من آسيا تدخلوا فى الأمر لرفع مستوى قوة الخلفاء المتخاذلة ، فرجحوا بذلك كفة الإسلام ، هذا بالرغم من أن انضوائهم تحت لواء العباسيين جلب عليهم عداوة الصليبيين

والفاطميين وبعض الإمارات السورية التى استغلت الفوضى السائدة لإعلان استقلالها .

حقق الفاطميون ما لم يخطر ببال الصليبيين ، فأرسلوا إليهم وفداً لعقد تحالف بينهم . ولما وصل الوفد الفاطمى عند الصليبيين ، كانوا وقتئذ يحاصرون أنطاكية . وترك لنا « روبير لوموان »(١) قصة رائعة عن هذه المقابلة ، ويقول : « حاول الجنود المسيحيون أن يخفوا عن المسلمين ما تحملوه من بؤس وشقاء ، فتزيوا بأزيائهم النفيسة وحملوا أجمل أسلحتهم . . . واستقبل رؤساء الجيش الوفد المصرى تحت خيمة بديعة . وقال الوفد صراحة فى خطابه ان الخليفة لم يفكر أبداً فى إبرام محالفة مع المسيحيين ، إلا أن انتصارات الصليبيين على الأتراك ، وهم أعداء سلالة على بن أبى طالب الألداء ، جعل الخليفة يعتقد أن الله تعالى قد أرسلهم إلى آسيا قصاصاً وعدلا .

وكان الخليفة المصرى على استعداد ليتقرب من المسيحيين المنتصرين ، ويدخل فلسطين وسوريا بجيوشه . ولما علم أن كل ما يرجوه الصليبيون هو الاستيلاء على القدس ، وعد بأن يعيد الكنائس إلى سابق مجدها وإقامة الشعائر فيها ، وفتح أبواب المدينة المقدسة لجميع الحجاج على أن يأتوا مجردين من الأسلحة وألا يقطنوا فيها أكثر من شهر . »

كان يمكن أن يعتبر ما عرضه الوزير الأفضل شاهنشاه أساساً للمفاوضات إذ كان الفاطميون يهتمون خصوصاً بحماية حدود مصر الشرقية باستعادة فلسطين التى وقعت بين أيدى الأتراك . ثم كان نفوذ الأقليات الدينية ، أو بالأحرى النفوذ الأرمنى فى مصر ، قوياً فى ذلك الوقت ، لأن سلطة الخليفة كانت معدومة . وليس بمستبعد على الفاطميين ، الذين ذهبوا بتسامحهم إلى ترقية النصارى إلى رتبة الوزارة ، أن يتحالفوا عسكرياً مع المسيحيين لإنقاذ عرشهم المتداعى .
غير أن الصليبيين لم يكونوا فى مستوى يسمح لهم أن يسلكوا سياسة واسعة .

---

(١) Michaud, I, p. 156.

ولا نعجب إذ رأيناهم يجيبوا بأسلوبهم الخشن : «لم نقدم إلى آسيا لنخضع لأوامر المسلمين أو نتقبل حسناتهم . وعلى كل ، فإننا لم ننس إهانات المصريين للحجاج الغربيين . وما زلنا نذكر أن النصارى ، فى خلافة الحاكم ، سلموا إلى الجلادين ، وأن كنائسهم هدمت ، ولا سيما كنيسة القيامة من أعلاها إلى أسفلها . . . إن المسيحيين يريدون أن يتولوا بأنفسهم حراسة القدس ويتحكموا فيها . اذهبوا وقولوا لمن أرسلكم أن عليه أن يختار الحرب أو السلم ، قولوا له إن المسيحيين المعسكرين أمام أنطاكية لا يهابون شعوب مصر ولا الحبشة ولا بغداد ، وأنهم لا يتحالفوا إلا مع الدول التى تحترم القوانين العادلة وأعلام يسوع المسيح »[١] . ومن عجب ، رغماً عن خشونة الإجابة ، فإن المفاوضات لم تقطع ، بل صاحبت بعثة مسيحية الوفد الإسلامى إلى مصر .

ونقول بعد ذلك إن الحلف الذى عرضته مصر على الصليبيين شىء لا يذكر بالنسبة للذى عرضه ، فيما بعد ، التتر على الملك لويس التاسع . والواقع أن عدداً كبيراً من التتر اعتنق الدين المسيحى تحت تأثير القساوسة النسطوريين ، ثم أن زوجة جنكيز خان المسيحية لم تزل تطالب زوجها بالتسامح مع أبناء دينها ، والتحالف مع الصليبيين . ولو أن هذا التحالف قد أبرم ، لما استطاع الأتراك أن يصمدوا طويلا أمام القوات المتحالفة . ولكن الصليبيين أهملوا هذا العرض الذى كان من شأنه أن يدعم الإمبراطورية اللاتينية الشرقية الآيلة للسقوط ، بل عمدوا دائماً على زيادة أعدائهم وإشعال نار البغضاء فى قلوب حلفائهم . وهكذا نراهم ، أثناء الحرب الصليبية الثانية ، ينقلبون على والى دمشق ، حليفهم الطبيعى لأنه كان عدو الأتراك ، بدلا من أن يهاجموا قوات نور الدين .

ولا يعنينا أن ندخل فى تفاصيل الحروب الصليبية . وكل ما نرجوه من عرض الحوادث السابقة ، أن نبين عدم استعداد الصليبيين عسكرياً وسياسياً

(١) Michaud, I p. 157.

قبل دخولهم فى هذه المغامرة الكبرى ، وذلك بسبب جهل تنظيمها التام .
ويقول المؤرخ الحديث « رينيه جروسيه Grousset» فى هذا الشأن : « لقد توغل البارونات الفرنجة بدون استعداد فى هذا العالم الإسلامى المترامى الأطراف والمعقد أشد تعقيداً ، وكان عليهم أن يرتجلوا النظم لإنشاء دولة ، ويتبعوا سياسة ثابتة إزاء الأهلين ، ويبتكروا نظاماً إدارياً ينسجم مع البيئة »[١] .
وكلمة الارتجال هى خير ما يعبر بها فى هذه المناسبة لأن الصليبيين لم يكونوا قد أعدوا أية خطة ، ولكن الظروف هى التى أملت عليهم موقفهم . فكانوا أبعد الناس عن التفكير فى الاستعانة بنصارى الشرق قبل بدء الحملة .
وعلينا حينئذ أن نقتصر فى بحثنا على دراسة علاقة الصليبيين بالأقليات الدينية ، وهو ما يهمنا .

الصليبيون والنصارى الشرقيون .

ليس بالإمكان أن ننظر إلى موقف النصارى من الصليبيين نظرة عامة . ويجب ألا يكون التمييز بين اليعاقبة والملكيين ، ولكن بين اليعاقبة وبين سائر الجاليات المسيحية فى الشرق . ذلك لأن اليعاقبة السوريين الذين لجأوا إلى مصر عند اقتراب الصليبيين من سوريا ، خوفاً منهم ، لم يلبثوا أن عادوا إلى بلادهم بعد أن استقر الموقف فى القدس[٢] .

ليس من العسير أن ندرك سبب ذلك . ففى أوائل القرن العاشر الميلادى اجتاح البيزنطيون بقيادة « نقيفورفوكاس » ونائبه « جان تزيميسيس » مقاطعة صقلية وشمال سوريا ، ثم لبنان ، حيث أوقف الفاطميون تقدمهم . واحتفظ البيزنطيون بأكبر جزء من الأراضى التى احتلوها مدة مائة وخمسة عشر عاماً ، وأخذوا يحلون بالتدريج العناصر المسيحية فى تلك الجهة محل العناصر الإسلامية .

(١) *Histoire des Croisades*, I, p. 313.

(٢) Abbé Martin, *Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem*, Journal Asiatique, Nov. — déc. 1888.

وحدث قبل ظهور الصليبيين بخمس عشر سنة أن انتزعت القبائل التركية ، تحت قيادة طغرل بك ، هذه الممتلكات من البيزنطيين . فمن الطبيعي إذن أن تخف الشعوب المسيحية فى أرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا إلى استقبال الصليبيين ، خاصة وأنهم لم يأتوا إلى الشرق إلا تحقيقاً لهدف دينى ، وهو تحرير القدس ، موضع تقديس المسيحيين أجمعين ، وتلبية لدعوة الامبراطور البيزنطى « الكسيس كومنين » .

وكان الأرمن أول من ساعد الصليبيين أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى ، ويقول «ميشو» : « لم يكن «بودوان» فى حاجة إلى مرشدين فى بلاد كان سكانها يعرضون عليه مساعدتهم »(١) . وقد انتخبه سكان الرّها المتحمسين ملكاً عليها ، ولما قدم إليها ، ذهب إليه أسقفها واثنى عشر من وجهائها وأخذوا يحدثونه عن ثروة الأردن تحريضاً له على افتتاحها .

وحذا اللبنانيون حذو الأرمن ، فقدموا مساعدتهم للفاتح وكانوا له خير معين(٢) . « وكان يوجد وقتئذ ببيروت عدد كبير من النصارى الملكيين واليعاقبة ، ولم يترددوا جميعاً فى مناصرة الصليبيين وصاهروهم عن طريق الزواج ، فزاد عدد الأسر الأوروبية . وكانوا يؤلفون أغلبية الأطباء والصيادلة فى الجيش وفى معسكرات الصليبيين . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يضطلعون بأعمال الترجمة فى مختلف الدواوين »(٣) .

وقد ارتاح الصليبيون واطمأنوا لموقف هذه العناصر ، إذ أنهم وجدوا فيهم حلفاء مخلصين فى قلب الإمبراطورية الإسلامية . وعلى أى حال ، فان الصليبيين أظهروا شعور العطف نحو جميع النصارى على حد سواء ، فلم يكن أمامهم إلا عدو واحد ، وهو المسلم .

---

(١) Michaud, I, p. 136.

(٢) Grousset, I, p. 142.

(٣) H. Lammens, *La vie à Beyrouth sous le règne des Croisés*, al Machriq, 1933.

وكتب ميخائيل السورى ، الأسقف اليعقوبى ، فى هذا الصدد قائلا : « لما اجتاز الصليبيون البحر ، اجتمعوا وأخذوا عهداً على أنفسهم أمام الله بأنهم لو دخلوا القدس سيعيشون بسلام مع مختلف المذاهب المسيحية وسيوزعون الكنائس والأديرة على جميع الطوائف المسيحية . . . »[١] . غير أن نشوة النصر جعلتهم ينقضون بعض وعودهم . « فلما احتل الصليبيون مدينة أنطاكية ، طردوا الأروام من كنائسهم الكبرى ، وطردوا أساقفتهم . ثم عينوا بطريركاً وعدة أساقفة من اللاتين »[٢] . ويؤيد متى الرهاوى هذه القصة ويتهم اللاتين المنتصرين بالاستيلاء على أديرة الأرمن والروم والسوريين والجورجيين[٣] ولكنها أعيدت إليهم بعد ذلك[٤] . ثم حدثنا ميخائيل السورى عن العلاقات بين مسيحى الشرق والغرب ، فقال : « كان يوجد أساقفة من اللاتين فى أنطاكية والقدس بعد أن احتل الصليبيين هاتين المدينتين. ولكن أساقفتنا كانوا يعيشون بينهم دون أن يضطهدهم أحد أو يسوء إليهم . ولم يثير الافرنج صعوبات فيما يختص بعقيدة سائر النصارى ولم يحاولوا أن يفرضوا حلا واحداً لاتحاد جميع الشعوب التى تعتنق المسيحية بل كانوا يعتبرون كل من يعبد الصليب مسيحياً ، وذلك بدون تحقيق ولا امتحان سابق »[٤] .

ومما يدل أيضاً على تسامح الصليبيين مع النصارى الشرقيين ، الخطاب الذى أرسله وجهاؤهم إلى البابا « أوربانوس » يدعونه فيه إلى زيارة القدس . وقالوا فى هذا الخطاب : « . . . لقد هزمنا الأتراك والوثنيين ، ولكننا لا نستطيع أن نستعمل العنف مع الملحدين من الروم والأرمن والسريان واليعاقبة . . . . تعال وحطم بنفوذك الذى لا مثيل له الإلحاد كلها »[٥] .

---

(١) جزء ٣ ، ص ١٨٣
(٢) جزء ٣ ، ص ١٩١
(٣) ذكره Grousset ، جزء ١ ، ، ص ٣١٢
(٤) جزء ٣ ، ص ٢٢٢
(٥) ميشو ، جا ص ١٥٠

أضف إلى ذلك أنه على أثر قيام المذابح العظيمة التى كانت سبباً فى إخلاء مدينة القدس من سكانها المسلمين الذين سبق لهم إبادة العناصر النصرانية ، قرر « بودوان » تعميرها بالنصارى الشرقيين . فعرض على السريان والروم القاطنين فى الأردن أن يقيموا فى القدس دون أن يهتم بالمذهب الذى يعتنقونه . وكذلك كان الوئام تاماً أو يكاد يكون بين مسيحيي الشرق والغرب فيما عدا يعاقبة مصر .

ومن جهة أخرى ، يشهد الرحالة ابن جبير ، المعروف بعدم ميله للنصارى ، أن الصليبيين كانوا يعاملون المسلمين معاملة حسنة ، إذ قال : « المسلمون مع الأفرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة »(١) .

بقى علينا أن نبحث موقف اليعاقبة فى مصر ، ويبدو أن قلة المستندات والخلط بين الملكيين واليعاقبة فى روايات المؤرخين لا تمكننا من الوصول إلى رأى قاطع فى هذه المسألة . إلا أن أحد القرارات التى اتخذها الصليبيون إزاء الاقباط يلقى شيئاً من الضوء على هذه المسألة . لما احتل الصليبيون القدس ، منعوا النصارى المصريين من الحج إلى هذه المدينة بدعوى أنهم ملحدون . وكتب أحد المؤرخين الأقباط يشكو من هذه المعاملة قائلا : « لم يكن حزن اليعاقبة بأقل من المسلمين » ، ثم قال متحسراً : « بأى حق يمنع النصارى الأقباط من الحج إلى القدس أو الاقتراب من المدينة ؟ إن الصليبيين يكرهوننا كما لو كنا ضللنا عن الإيمان القويم »(٢) .

وقد ذكرنا أن الصليبيين لم يظهروا أى تعصب نحو المذاهب المسيحية الأخرى . فلماذا أظهروا هذا التعصب نحو المصريين وحدهم ؟ هل لمسوا أثناء وجودهم فى الشرق حقد اليعاقبة إزاء الملكيين ؟ إن هذا الحقد الذى بدأ منذ حركة ديوسقوروس وامتد إلى نهاية القرن التاسع عشر يجعلنا نميل إلى الاعتقاد

---

(١) رحلات ابن جبير ، طبعة ليدن ، الطبعة الثانية ، ص ٤٧٩ .

(٢) رينودو ، ص ٤٧٩ .

بأن اليعاقبة المصريين لم يرتاحوا كثيراً لوجود الجيوش الكاثوليكية فى الشرق(١) .

ولكن ، هل وجهة نظرهم هذه أعفتهم من عنت المسلمين ؟

لما نشبت الحرب الصليبية الأولى ، لم يسجل التاريخ أية مظاهرة ضد الأقباط بالرغم من اشتراك الجيوش الفاطمية فى القتال دفاعاً عن القدس التى انتزعتها من الأتراك قبل ظهور الصليبيين ، ذلك لأن الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى كان يحكم البلاد تحت الفاطميين .

ولما عرف الصليبيون طريق مصر ، توالت اعتداءاتهم على الأراضى المصرية . وفى هذا الأثناء ، أخذ سلطان الفاطميين فى الأفول ، وبلغ الضعف بالخلفاء مبلغاً جعلهم يخضعون لحكم الوزراء إلى أن جاء اليوم الذى استنجد فيه العاضد بنور الدين ، فما كان من صلاح الدين قائمقام نور الدين إلا أن دخل بعساكره الأكراد وادى النيل ليطرد منه الفاطميين والصليبيين .

ويقول تاريخ البطاركة أن فى فترة الانتقال والفوضى والحروب التى أعقبت طرد الفاطميين ، عمل الأكراد ثانية بالقوانين الخاصة بزى الذميين ولطخت الكنائس بالوحل وكسرت الصلبان ، وتدل كثرة الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية من المسيحيين فى هذا العصر على حدوث اضطهادات (٢) .

ويحق لنا أن نتساءل هل كان صلاح الدين هو ذلك القائد الذى اشتهر فى الغرب بالتسامح مع رعاياه المسيحيين ؟ هذا رأيهم إلى الآن إذ يذكرون له ما كان يكنه من احترام لاعدائه الافرنج . ولكنهم يعوزهم البرهان . وأخيراً أراد أحمد زكى باشا (٣) أن يظهر التسامح الدينى لمؤسس الدولة الأيوبية ، فذكر لنا أن اليعاقبة فى مصر كانوا يتجسسون لحساب صلاح الدين . ولكن هذا

---

(١) لم يسمح للملكيين بعد الحرب الصليبية السادسة بإصلاح كنائسهم بعكس اليعاقبة الذين نالوا بعض تسهيلات تتعلق بطريقة معيشتهم فى حين أن أجبر الملكيون على اتباع قوانين فيها إهانة لهم .

(٢) Renaudot, p. 540.

(٣) مجلة المجمع العلمى المصرى عام ١٩١٦ تحت عنوان : Coupe magique dédiée à Salaheddine

الدليل يعزز فقط وجهة نظرنا عن كراهية اليعاقبة لشعوب الغرب .

ولا ننسى أن صلاح الدين أصدر ، فى اليوم الذى عينه الخليفة العاضد وزيراً بدلا من « شيركوه » ، أمراً يحرم على الذميين شغل وظائف الدولة . ولما كان صلاح الدين متديناً ، فلم يحاول تحرير مبادئه . وكان يحذو فى ذلك حذو أخيه الأكبر نور الدين الذى كتب ذات يوم إلى الخليفة العباسى : « إن المسلمين حكموا خمسمائة عام ولم يسوءوا خلالها إلى النصارى . أما الآن ، وقد انصرمت هذه الأعوام ، يجب ألا يبقى هؤلاء النصارى فى الإمبراطورية الإسلامية ، ومن لم يسلم منهم يقتل . » فأجاب الخليفة : « إنك لم تفهم تماماً أقوال النبى وأن الله لا يأمرنا أن نقتل من لم يرتكب السوء »(١) .

ولا نستطيع الجزم بأن صلاح الدين كان متعصباً أو أنه كان يضطهد النصارى ، غير أننا نعتقد أنه كان لا يميل إليهم بأى حال من الأحوال ، وذلك رغم استخدامه لعدد من الكتاب النصارى ، خصوصاً وأنه لم يمنح أحدهم أى امتياز خاص .

ويصف المستشرق « رينو » Reinaud السلطان صلاح الدين بالعبارة الآتية : « لقد تنازع حكمه عاطفتان : الطموع وكرهه للنصارى . والغريب أنه لم يكره النصارى كأفراد بل كان يكرههم كأمة . فلما هزمهم سرعان ما تغير موقفه نحوهم . وآية ذلك أنه لم يكتف بالتسامح مع أقباط مصر ، وكان عددهم فى ذلك الوقت كبيراً نوعاً ما ، ولكنه احترم عهدهم وجعل بعضهم فى خدمته(٢) .

كتب « رينو » رأيه هذا اعتماداً على موقف صلاح الدين من النصارى بعد فتحه مدينة القدس ، وقد نصت شروط التسليم على أن المسيحيين الافرنج يعتبرون وحدهم أسرى حرب وعليهم دفع الدية الحربية إذا أرادوا فك هذا

---

(١) ميخائيل السورى ، ج ٣ ص ٣٤٣ — ٥

(٢) *Notice sur la vie de Saladin.* 36-7

الأسر . ويضيف ابن الأثير ، الذى عاصر الحروب الصليبية ، إلى ذلك قوله : « أما الفرنج من أهل القدس ، فإنهم أقاموا وشرعوا فى بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن ، فأشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج ، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك ، فاستقروا ، فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج »(١).

على أن تسامح صلاح الدين مع النصارى الشرقيين يعود إلى أن هؤلاء النصارى سهلوا له مهمة الاستيلاء على بيت المقدس وذلك بإلحاحهم على الصليبيين بأن يسلموا المدينة ، ولما كان عددهم يفوق عدد الصليبيين فقد تمكنوا من تحقيق رغبتهم(٢) .

وبالاختصار نقول إن صلاح الدين رفض الاعتراف بالامتيازات التى حصل عليها النصارى فى عهد الفاطميين . ومن المحتمل أن يكون إخراجه الذميين من وظائفهم هو ، كما يقول المسيو فييت ، « بمثابة حركة تطهير أجريت ضد الفاطميين أكثر منها بغضاً ضد النصارى . » ولكن صلاح الدين لم يتوان فى إلغاء اشتراك الخلفاء فى الأعياد المسيحية ، ذلك التقليد الذى كان رسخت جذوره فى البلاد(٣) . ومهما يكن من أمر ، فقد بدأ السلطان فى نظر الأقباط حاكماً عادلا ورؤفاً ، إذ أن وجوده فى الحكم منع عنهم بلاءاً كثيراً وأوقف حركة التخريب . ولولاه لاستمرت الفوضى فى البلاد . ثم إن الأقباط

---

(١) الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، المطبعة الأزهرية ، سنة ١٣٠١ هـ ، ج ١١ ص ٢٥١

(٢) رينودو ، ص ٥٤٥ .

(٣) يقول « اميلينو » أنه على الرغم من أن الحكم الأيوبى لم يكن قاسياً على النصارى بالنسبة لعهود أخرى ، فإنه من الملاحظ أن حالة النصارى تغيرت عما كانت عليه أيام الولاة أمثال عبد العزيز بن مروان . ويقص علينا إميلينو عن مؤرخ قبطى أن أحد التجار الأقباط ، واسمه حنا ، تزوج من مسلمة ، ولما ندم على فعلته أراد أن يستشهد ، فأثار عليه غضب الجماهير . واختتم المؤرخ القبطى قصته قائلا : « صل لأجلنا أيها الشهيد العظيم لأنك تعرف فى أية ضائقة يعيش الأقباط » (فى مجلة المجمع العلمى المصرى سنة ١٨٨٥ : Deux documents coptes)

فرحوا لأن صلاح الدين ألغى الضرائب الهلالية العديدة التى أعادها آخر الخلفاء الفاطميين .

وبعد أن توفى صلاح الدين ، واجه الأيوبيون حملتين صليبيتين خطيرتين على مصر : الحملة التى شنها «جان دى بريين » Brienne وحملة الملك لويس التاسع .»

لما نزل «جان ذى بريين » على ساحل دمياط واحتل المدينة ، قلقت السلطات المصرية وأخذ أولياء الأمر يتساءلون عما إذا كان النصارى فى مصر سيستقبلون الافرنج بحفاوة كما استقبلهم النصارى الأرمن والسوريين ؛ وتساءلوا أيضاً هل من الحكمة أن يحولوا دون هذا التعاون الذى قد يؤدى إلى عواقب خطيرة بالنسبة إلى المسلمين . ومما زاد المشكلة تعقيداً أن كان فى دمياط نفسها عدد كبير من النصارى الملكيين . والدليل على ذلك ما ذكره الأنطاكى عن وجود أسقفاً خاص بهذه المدينة فى عهد الظاهر لدين الله(١) .

وكان هذا القلق وحده كافياً لبعث الاضطرابات فى القاهرة خاصة : « وقد شمل الذهول والفزع جميع السكان وراجت الإشاعات حول موقف النصارى فأصبحوا موضع الريبة ، وثار ضدهم عدد كبير من الناس . . . وأصدر السلطان أمره بتعبئة نصف سكان مصر والقاهرة مختارين أو مكرهين لمقاتلة الصليبيين . . . . أما النصارى القاطنين فى القاهرة ، فقد فرضت عليهم ضريبة وكذلك سائر الأغنياء .

هكذا انتهزت الحكومة فرصة الفزع الذى حل فى البلاد لتملأ خزائنها التى تأثرت من الحرب القائمة . والذى يجب الإشارة إليه هى الطريقة التى توسل بها رجال الحكم ليأخذوا من النصارى أكثر قدر من المال دون أن يلجأوا إلى العنف . ويدلى « رينودو » عن هذا الحادث تفاصيل شيقة . قال : « أرسل حاكم مصر ، بعد أن استشار رجال القانون ، فى طلب قساوسة الأقباط اليعاقبة والملكيين وقال لهم : « سافروا (مع المسلمين) !» وإمعاناً فى تخويفهم

(١) الأنطاكى ، ص ٢٣٧ .

قال : « لأجل الحرب اخرجوا مع المسلمين ! غير أنكم لن تصلوا إلى باب المدينة حتى يقتلوكم وما من أحد يستطيع أن يلومهم فى الظروف التى نحن فيها . » وكان يقصد بكلامه هذا الملكيين ، إذ كان المسلمون يأخذون عليهم حبهم للفرنج ومحاكاة عوائدهم وطريقتهم فى تصفيف شعرهم وعدم إجرائهم عملية الختان وغيرها من الأشياء المماثلة . فخاف القساوسة من هذا الكلام خوفاً شديداً ، فأسرع أحدهم إلى القول : « لدينا مبلغ ألف دينار . » فأجاب الحاكم : « حسناً اذهبوا وأحضروا هذا المبلغ . » ثم قيل للقساوسة الأقباط الذين كانوا حاضرين : « إن هؤلاء القوم ليسوا بمرتبتكم . إنكم تساوون أربعة وعشرين واحداً منهم . ولكن إذا فرضنا أنكم لا تساوون إلا عشرة فقط ، فعليكم أن تدفعوا لنا عشرة آلاف دينار . » وأخيراً تم التوافق على دفع ثلاثة آلاف فقط . ووضعت الأختام على كنيسة المعلقة وكنيسة الملكيين ومعبد اليهود »(١) .

ويضيف « رينودو » على ماتقدم أن جنود القاهرة ، وهم فى طريقهم إلى دمياط ، نهبوا كنائس اليعاقبة والملكيين التى صادفتهم . وأصدر السلطان أمراً بهدم كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية بدعوى أنها تتحكم فى الميناء وأنه إذا ما استولى عليها الفرنج استطاعوا أن ينصبوا فيها آلا ت الحرب ويسيطروا على الخليج . وحاول النصارى عبثاً دفع ألفى دينار لإنقاذ الكنيسة ولكنها خربت عن آخرها .

ويبدو أن الاضهاد كان عنيفاً إذ يقول المؤرخ « كولبو » Coulbeaux فى كتابه « تاريخ الحبشة »(٢) أن النجاشى « لابيليلا » Labilela صرح عام ١٢١٨ بدخول عشرة آلاف قبطى فروا من أعمال المسلمين الانتقامية . إلا أن ليس هناك ما كان يبرر هذا الاضطهاد بدليل أنه لا

---

(١) رينودو ، ص ٥٧٢

(٢) ص ٢٥٦ و ٢٦٦ .

يوجد مستند عربى واحد يتكلم عن مساعدة النصارى للصليبيين . ولكن كان ظهور الصليبيين كافياً وحده لإثارة الشك فى قلوب المسلمين . وهذا حدث أيضاً فى جميع البلدان التى ظهر فيها الصليبيون .

وقد أظهر الملك الكامل الذى خلف والده العادل عطفاً على النصارى إلى درجة أن الرواية الفرانسيسكانية تدعى أنه أمضى بقية حياته فى دير (وهو ما نستبعده) . ويبدو أن تهديد التتار الزاحفين من الشرق قد أثر فى سياسته نحو الصليبيين . وتقول إحدى الوثائق المسيحية أنه منع سب المسيحيين بالكلمات وحتى بالإشارات[١] وهدد من يخالف الأمر بالعقوبة الصارمة . غير أنه لم يستطع أن يمنع البدو من الإساءة إلى النصارى بعد أن أمر البدو باجتياح المناطق المجاورة لمدينة دمياط[٢] .

فقدت الحروب الصليبية ، فى عهد فريدريك الثانى والملك الكامل ، صبغتها الدينية بعد أن مد إمبراطور ألمانيا يده إلى الملك المسلم الذى ترك له القدس بدون قتال . ولكنها أصبحت فى عهد لويس التاسع حرب إبادة . وقد أمدنا المقريزى بالخطاب الذى أرسله لويس التاسع إلى الملك الصالح[٣] ، وهذا نصه : « أما بعد ، فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية كما أنه لا يخفى علىّ أنك أمين الأمة المحمدية ، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرّمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار ، وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان وأدخلت علىّ الأقساء والرهبان وعملت قدّامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا إليك وقاتلك فى أعز البقاع إليك ،

---

(١) ذكرها المؤرخ « ميشو » فى تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٤٢٥ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٣) الخطط ، ج ١ ص ٢١٩ .

فإما أن تكون البلاد لى فيا هدية حصلت فى يدىّ ، وإما أن تكون البلاد لك والغلبة علىّ فيدك العليا ممتدة إلىّ ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى ، وهى مرسلون إليك بأسياف القضاء . »

ولم يكن جواب الملك الصالح على هذه الرسالة بأقل غطرسة منها ، إذ جاء فيه : « أما بعد ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، ولو رأت عينك أيها المغرور حدّ سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تقض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوّله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فإذا قرأت كتابى هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلوه وتكون على آخره سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، وقول الحكماء إن الباغى له مصرع وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام . »

وأكبر الظن أن كان لتبادل الرسائل هذه أثره على موقف الحكام بالنسبة للنصارى فى مصر . إلا أن التاريخ لا يعطينا أية معلومات عن هذه النقطة .

على أننا نستطيع أن نقدم بعض التفاصيل عما حدث فى دمياط بفضل التقرير الذى وضعه « الكونت دى شامبانى » عن هذه الحملة[1] . وعلمنا أنه بينما كان لويس التاسع يستعد لمحاصرة دمياط ، قام المسلمون بقتل جميع النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقة ولا رحمة . وفى اليوم التالى وجد الصليبيون مدينة دمياط خاوية . أما النصارى الذين فروا من المدينة ونجوا من القتل ،

---

(١) ميشو ، ج ٣ ص ١٢٢ .

فقد عادوا إليها وأعملوا سيوفهم فى رقاب المسلمين الذين لم يساعدهم كبر سنهم أو مرضهم من اللحاق بالجيش الإسلامى المتقهقر . فان هؤلاء النصارى خفوا إلى استقبال الصليبيين الذين أعتبروهم كأخوتهم وأشركوهم فى موكب انتصاراتهم .

هل كان يوجد فى القاهرة فى هذه الظروف شبكة للجاسوسية لحساب الصليبيين ؟ إن التاريخ الإسلامى لا يذكر إلا حالة فردية واحدة وهى حالة أبى الفضائل بن دوخان . كتب عنه ابن النقاش : « كان أكبر الكتاب نفوذا . وكان قذى فى عين الإسلام والخراج الذى يشوه وجه الدين . وكانت سلطته قوية لدرجة أنه أرسل ذات يوم إلى نصرانى اعتنق الإسلام أمراً وقع عليه السلطان ليحثه على العودة إلى المسيحية . وكان لم يزل يراسل الفرنج ويخبرهم عما كان يحدث عند المسلمين والحكام والأعيان . وكان مبعوثو الفرنج والنصارى يقتحمون دائماً مكتبه ، فكان يستقبلهم بحفاوة ويصفى أعمالهم قبل أعمال غيرهم »(١) .

هل اعتنق بعض المسلمين الديانة المسيحية أثناء الحروب الصليبية ؟ لمح إلى ذلك بعض مؤرخى الغرب . وجاء فى كتبهم أن أحد الصليبيين قال : « لدينا بعض المؤمنين الشرقيين الذى يمكنا الاتكال عليهم . فهم يعرفون البلاد من أقصاها إلى أقصاها وكذلك الاخطار التى قد نصادفها فيها وأنهم تلقوا سر العماد بتقوى حقيقية »(٢) . ولا نعلم بالضبط إذا كان يقصد صاحب هذا القول أفراد طائفة اليعاقبة الذين عادوا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية أو بعض المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية .

ومن الغريب أيضاً أن نرى ، بعد النكبة التى حلت بجيوش لويس التاسع وإبادتها عن بكرة أبيها ، عددا من الصليبيين قد أربكهم الفزع

---

(١) ترجمة النص الفرنسى المنشور فى المجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٥١ .

(٢) ميشو ، وثائق عن الحروب الصليبية ، ج ٣ ص ٤٦٤ .

وبلبل أفكارهم ، فأخذوا يشكون فى إيمانهم ، ولما خيروهم بين اعتناق الإسلام والموت لم يترددوا فى إعتناق الإسلام .

ومهما كان الأمر ، فإن الحروب الصليبية تركت أثراً مشئوماً . وإذا كانت العلاقات بين الشرق والغرب قد امتازت بالمعرفة والاعتبار ، فلاشك أيضاً أن هذه الحروب حفرت هوة عميقة بين الإسلام والمسيحية .

أما فيما يختص بأقباط مصر ، أى اليعاقبة ، فقد رأوا فى هزيمة الفرنج عقاباً جديداً أنزل على أنصار كنيسة روما . وعلى الرغم من الاضطهادات التى عانوها ، فانهم ظلوا المحور الأساسى الذى ارتكز عليه أعظم الحكام المسلمين .

٧

كارثة النصرانية فى عهد السلاطين المماليك

إن قصة الحروب الصليبية جعلتنا نلمس عن قرب اضمحلال العنصر القبطى منذ اضطهاد الحاكم بأمر الله له . وقد استمرت هذه الحالة فى عهد سلاطين المماليك والأتراك إذ كانوا لا يأبهون مطلقاً بهذه الأقلية . كان السلاطين يعتبرون الأقباط جزءاً لا يتجزأ من الأمة لأنهم كانوا يقدمون لهم خدمات قيمة فيما يختص بجباية الضرائب . أضف إلى ذلك أن الحكام كان يمكنهم ابتزاز أموال الأقلية بسهولة دون أن يخشوا من قيامها بأية حركة ثورية جديدة ، فرتبوا مصير الأقباط حسب هواهم أو هوى الشعب .

وقد استطاع بعض الكتاب الأقباط أن يشغلوا بعض المراكز الكبيرة فى الدولة . ولكن الشعب كان يظهر غضبه بمجرد ما يرى قبطيا له نفوذ وكان لم يعد يقبل أن يكون لأقلية دينية صغيرة حقوق عليه .

وتمكن القبطى ، وسط هذه الاعتبارات كلها ، أن يسير قدماً ، ذلك لأن مواطنه المسلم لم يكن حائزاً أو قل إن شئت لم يكن يريد أن يحوز الصفات اللازمة للقيام بجباية الضرائب . وفيما خلا هذه الوظيفة ، شعر القبطى أنه غير مرغوب فيه ، وبذا أصبحت الأمة القبطية جماعة مهمتها تدريب الأخصائيين فى شئون الضرائب والمال .

لم تتغير حالة القبطى خلال الستة قرون التى سبقت عهد محمد على الكبير ولم يقع حادث يستحق الذكر عدا بعض أعمال الاضطهاد الطارئة التى كانت تؤثر فى سير حياته المطموسة التى لم يكن أمامها إلا هدف واحد هو الاحتفاظ

بالعمل الوحيد الذى صرحت له به السلطات المدنية . وكان هذا العمل — أى جباية الضرائب — سبب كيانه وأمله الوحيد فى الثراء .

وسنقتصر فيما يختص بالعلاقات بين المسلمين والأقباط فى هذه الفترة الطويلة على ذكر بعض الاحداث المتفرقة التى لا يجمعها أى ارتباط ومتبعين طريقة المؤرخين العرب فى سرد الحوادث مكتفين بذكر بعض التفاصيل عن الاحداث القليلة التى لها بعض الأهمية .

* * *

بينما كان الملك لويس التاسع يجلو عن مصر مع فلول جيشه ، اعتلت عرش البلاد أسرة جديدة ألا وهى دولة المماليك البحرية . وكانت المهمة الملقاة على هذه الأسرة ليست هينة إذ كان عليها أن تقوم بتصفية ما تبقى من الدولة اللاتينية فى الشرق وأن تستعد خصوصاً لمواجهة خطر الغزو المغولى . ويجب أن نعترف بفضل مصر التى أنقذت العالم الإسلامى من تلك الكارثة وذلك بشجاعة الملك المظفر قطز ومماليكه .

قال عربى يمدح الملك الظاهر بيبرس خلف قطز : « كان يوماً فى مصر ويوماً فى الحجاز ويوماً فى دمشق ويوماً فى حلب . » وكانت تكاليف الحرب باهظة وكان ملوك هذه الدولة فى حياتهم الخاصة يعيشون عيشة مترفة ، ولذا كانوا دائماً فى حاجة إلى المال . وكانوا إلى جانب الضرائب العادية والاستثنائية لم يتوانوا فى اغتصاب أموال الذميين .

ومن الملاحظ أن الملكيين كانوا مميزين عن اليعاقبة ، ذلك لأن الغرب تذكر الخدمات التى أداها له هؤلاء الملكيين خلال الحروب الصليبية . ولما كانت العلاقات التجارية قد نمت وازدهرت بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى ،

---

(١) يقول Heyd (ج ١ ص ٣٨٦) إنه بينما كانت تستعر نار الحرب الدينية لم يعدم الشرق من التجار الأوروبيين الذين كانوا يوردون إلى المصريين عتاد الحرب الذى سرعان ما كان يستخدم ضد الصليبيين ، فأصبحت المصلحة المادية تعلو كل اعتبار آخر .

فقد استطاعت دول الغرب أن تضغط على البلاد الإسلامية كلما كان الملكيون معرضين للاضطهاد . وكان من النادر ألا يأبهوا بهذه « الإنذارات » .

أما اليعاقبة ، فقد بقوا فى عزلة عن سائر العالم . وكان يحدث بين حين وآخر أن يهدد ملوك الحبشة مماليك مصر حتى يعود هؤلاء إلى شيء من التسامح ، وقد خصصنا باباً لهذه التدخلات الخارجية . ولنعد الآن إلى الأحداث الداخلية .

نجد أولا أن هناك أمراً له أهميته ، ذلك أن السلطان « أيبك » ، وهو أول من تولى الحكم فى دولة المماليك البحرية ، استوزر قبطياً اسمه شرف الدين أبو سعيد هبة الله ومنحه سلطة واسعة للغاية[١] . ويحق لنا أن نعجب بعد ما أحدثته جيوش الفرنج من فوضى واضطراب فى البلاد وبعد الاضطهادات التى تحملها النصارى من أجل ذلك ، أن يفكر أصحاب السلطان فى تعيين قبطى وزيراً على مصر ، غير أن المقريزى ، الذى يروى لنا هذا الأمر ، يضيف أن هذا الوزير أسرع فى وضع ضرائب جديدة أسماها « الحقوق السلطانية » ، « فحصل للناس منها مالا خير فيه »[٢] .

وهكذا لما رأى السلطان أن خزائنه خالية من المال ، ولما أراد أن يزيد دخله وينظم مالية البلاد ، لم يتوان لحظة فى طلب مساعدة أحد الفنيين فى المسائل المالية ، ولم يكن هذا الفنى إلا قبطى .

غير أن بيبرس لجأ فى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) إلى طرق عاجلة إذا صدقنا المؤرخ النصرانى المفضل بن أبى الفضائل[٣] وقد كتب يقول : « لما قدم

---

(١) الخطط ، جـ ٢ ص ٩٠ – يبدو أن هذا القبطى قد اعتنق الإسلام وحاز ثقة آخر سلاطين الدولة الأيوبية كطبيب ولكن ما لبث أن أمر قطز بصلبه على باب القلعة .

(٢) الخطط ، جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٣) لقد كلفت الحروب الصليبية مصر أموالا باهظة . ويذكر لنا المقريزى فيما يذكر برهاناً على ما يقول أن الكبرى الذى بنى فى دمياط ليحول بين الأسطول الغربى وعبور النيل (بعد قطع السلاسل التى كانت تمنع دخول الميناء) كلف سبعين ألف دينار (الخطط جـ ١ ص ٢١٦) .

السلطان من الشام ، أمر بالنصارى واليهود ، فمسكوا عن بكرة أبيهم وأوقدت لهم النار بالاحطاب فى جورة كانت بالقلعة التى بناها داراً للملك السعيد وأراد إحراقهم ، فاشتراهم الحبيس الراهب بخمس مائة الف دينار يقومون منها فى كل سنة بخمسين ألف دينار . وكان هذا الحبيس فى مبدى أمره كاتباً فى صناعة الانشاء ثم ترهب وانقطع فى جبل حلوان فيقال انه وجد فى مغارة مالا كان للحاكم العبيدى ، أحد الخلفاء المصريين . فلما حصل له هذا المال وفد به الفقراء والصعاليك من سائر الأديان . فاتصل خبره بالسلطان الملك الظاهر فأحضره وطلب منه المال فقال له : ان طلب السلطان منى شيئاً أدفعه من يدى فلا ولكنه يصل إليك من جهة من تصادره وهو لا يقدر على ما يطلب منه فانى أعطيه وأساعده على خلاص نفسه منك ، فلا تعجل . فلما كانت هذه الواقعة ، ضمنهم من السلطان بذلك المال المقرر على النصارى . وكان يدخل الحبوس ويطلق منها من كان عليه دين وهو عاجز عن وفائه ، ثقيل كان أو خفيف . وكذلك لما طلب من أهل الصعيد المقرر من أهل الذمة ، سافر إليهم وأدى عنهم ما طلب منهم وكذلك سافر إلى الإسكندرية فرأى أهلها منه ما هالهم . . . وقيل أحصى ما وصل إلى بيت المال من جهته على تلك الوجوه المقدم ذكرها فى مدّة سنتين فكان ستمائة ألف دينار مصرية خارجاً عما كان يعطيه من يده سراً للناس وما خلص به من الحبوس »[١] .

هذه هى الرواية المسيحية ، وهى تدعو إلى الاعتقاد بأن بيبرس أراد الحصول على كنز الراهب بتهديد النصارى . وتختلف رواية المقريزى بعض الشىء عن تلك التى قصها علينا المفضل . قال : « كان قد كثر الحريق بالقاهرة ومصر فى مدة سفر السلطان ، وأشيع أن ذلك من النصارى . ونزل بالناس من الحريق فى كل مكان شدة عظيمة ووجد فى بعض المواضع التى

(١) تاريخ مفضل بن أبى الفضائل . نشره Blochet فى P. O. ، ج ١٢ ص ٤٧٧ — ٩.

احترقت نفط وكبريت . فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود ، وأنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم . فجمع منهم عالم عظيم فى القلعة ، وأحضرت الأحطاب والحلفاء ، وأمر بالقائهم فى النار ، فلاذوا بعفوه وسألوا المن عليهم . وتقدم الأمير فارس الدين أقطاى ، أتابك العساكر ، فشفع فيهم ، على أن يلتزموا بالأموال التى احترقت ، وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار . فأفرج عنهم السلطان وتولى البطرك توزيع المال والتزموا أن لا يعودوا إلى شيء من المنكرات ولا يخرجوا عما هو مرتب على أهل الذمة ، وأطلقوا »[1] .

وفى عام ٦٧٨ ، أقيل جميع النصارى الذين كانوا يعملون فى ديوان الحرب وحل محلهم المسلمين . وفى نفس اليوم الذى قامت السلطة بتنفيذ هذا القرار ، هدم دير الخندق الكائن خارج القاهرة بالقرب من باب الفتوح ولم يترك فيه حجر على حجر . وقد اشترك جمع غفير فى أعمال التخريب .

وتدل الدلائل كلها على أن السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل أعادا النصارى إلى وظائفهم بعد أن عزلهم منها . ويقول المقريزى ان هؤلاء النصارى أصبحوا يعاملون المسلمين بأنفة وأرادوا أن يظهروا أهميتهم بارتداء الأزياء الثمينة . ويروى أن أحد النصارى ، واسمه « عين الغزال » ، « صدف يوماً فى طريق مصر (سنة ٦٨٢ هـ) سمسار شونة مخدومه ، فنزل السمسار عن دابته وقبل رجل الكاتب . فأخذ يسبه ويهدده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير وهو يترفق له ويعتذر ، فلا يزيده ذلك عليه إلا غلظة وأمر غلامه فنزل وكتف السمسار ومضى به والناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبة جامع أحمد بن طولون ومعه عالم كبير ، وما منهم إلا من يسأله أن يخلى عن السمسار وهو يمتنع عليهم . فتكاثروا عليه وألقوه عن حماره وأطلقوا السمسار .

---

(١) كتاب السلوك لمعرفة الملوك ، طبعة دار الكتب المصرية ، ج ١ ص ٥٣٥ .

وكان قد قرب من بيت أستاذه ، فبعث غلامه لينجده بمن فيه ، فأتاه بطائفة من غلمان الأمير وأدجاقيته فخلصوه من الناس وشرعوا فى القبض عليهم ليفتكوا بهم ، فصاحوا عليهم ما يحل ومروا مسرعين إلى أن وقفوا تحت القلعة واستغاثوا : نصر الله السلطان . فأرسل يكشف الخبر فعرفوه ما كان من استطالة الكاتب النصرانى على السمسار وما جرى لهم ، فطلب عين الغزال ورسم للعامة بإحضار النصارى إليه وطلب الأمير بدر الدين بيدرا النائب والأمير سنجر الشجاعى وتقدم إليهما بإحضار جميع النصارى بين يديه ليقتلهم . فما زالا به حتى استقر الحال على أن ينادى فى القاهرة ومصر أن لا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أمير ، وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام ، فمن امتنع من الإسلام ضربت عنقه ومن أسلم استخدموه عندهم . ورسم للنائب بعرض جميع مباشرى ديوان السلطان ويفعل فيهم ذلك فنزل الطلب لهم وقد اختفوا ، فصارت العامة تسبق إلى بيوتهم وتنهبها حتى عمّ النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم وأخرجوا نساءهم مسبيات وقتلوا جماعة بأيديهم . فقام الأمير بيدرا النائب مع السلطان فى أمر العامة وتلطف به حتى ركب والى القاهرة ونادى من نهب بيت نصرانى شنق . وقبض على طائفة من العامة وشهرهم بعد ما ضربهم فانكفوا عن النهب بعد ما نهبوا كنيسة المعلقة بمصر وقتلوا منها جماعة . ثم جمع النائب كثيراً من النصارى كتاب السلطان والأمراء وأوقفهم بين يدى السلطان عن بعد منه ، فرسم للشجاعى وأمير جاندار أن يأخذا عدة معهما وينزلوا إلى سوق الخيل تحت القلعة ويحفروا حفيرة كبيرة ويلقوا فيها الكتاب الحاضرين ويضرموا عليهم الحطب ناراً ، فتقدم الأمير بيدرا وشفع فيهم ، فأبى أن يقبل شفاعته وقال : « لا أريد فى دولتى ديواناً نصرانياً . » فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمته ومن امتنع ضربت عنقه ، فأسلموا »[1] .

---

(١) الخطط ، ج ٢ ص ٤٩٧ — ٨ .

ولم يرق فى نظر المقريزى إسلامهم وقال : « صار الذليل منهم بإظهار الإسلام عزيزاً يبدى من إذلال المسلمين والتسلط عليهم بالظلم ما كان يمنعه نصرانيته من إظهاره » . ولكن لم تمنع هذه الاعتبارات القيمة المسلمين من استعمال القسوة فى معاملتهم الذميين . وكانوا أيضاً ينتقمون لأنفسهم من النصارى كلما غزا بعض قراصنة البحر الأوربيين سواحلهم[1] .

وفى شهر رجب من عام ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) حدثت مأساة فى القاهرة غريبة فى نوعها ففى هذا التاريخ وصل القاهرة وزير صاحب المغرب حاجاً . « وبينما هو ذات يوم يسوق الخيل تحت القلعة ، إذ هو برجل راكب على فرس وعليه عمامة بيضاء وفرجية مصقولة وجماعة يمشون فى ركابه وهم يسألونه ويتضرعون إليه ويقبلون رجليه وهو معرض عنهم وينهرهم ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه . فقال له بعضهم : « يا مولاى الشيخ ، بحياة ولدك النشو تنظر فى حالنا . » فلم يزده ذلك إلا عتواً وتحامقاً . فرق المغربى لهم وهمّ بمخاطبته فى أمرهم . فقيل له : « وإنه مع ذلك نصرانى . » فغضب لذلك وكاد أن يبطش به ثم كف عنه وطلع إلى القلعة . . . . » ويستطرد المؤرخون قائلين ان الوزير المغربى « اجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه يومئذ الأمير سلار ، فتحادث الأمير معه ومع الأمير بيبرس الجاشنكير فى أمر اليهود والنصارى وأنهم عندهم فى غاية الذلة والهوان وأنهم لا يمكن أحد منهم من ركوب الخيل ولا الاستخدام فى الجهات الديوانية وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب لبسهم أفخر الملابس وركوبهم الخيل والبغال واستخدامهم فى أجل المناصب وتحكيمهم فى رقاب المسلمين ، وذكر أن عهد ذمتهم انقضى من سنة ٦٠٠ الهجرية النبوية[2] . فأثر كلامه

---

(١) Michaud, *Histoire des Croisades*, III, p. 365

(٢) لا يعطى الرواة أى إيضاح عن تصريح الوزير . وربما يعنى أن اعتداء الفرنج على مصر جعل المسلمين يشعرون بأنهم غير مرتبطين بتعهدات سابقة .

عند أهل الدولة ولا سيما الأمير بيبرس الجاشنكير ، فأمر بجمع النصارى واليهود ورسم ألا يستخدم أحد منهم فى الجهات السلطانية ولا عند الأمراء وأن تغير عمائمهم فيلبس النصارى العمائم الزرق وتشد فى أوساطهم الزنانير ويلبس اليهود العمائم الصفر والتزام العهد العمرى . . . . »(١) .

ويذكر الرواة المسلمون أن كنائس القاهرة أقفلت مدة أيام . ويقول أبو الفضائل إن هذه الكنائس ظلت مغلقة لمدة قصيرة وأن الأديرة الموجودة فى الضواحى وغيرها لم تمس بسوء ، فضلا عن كنائس الأقاليم(٢) . ولكن إذا انتقلنا إلى الإسكندرية ، وجدنا أن حين وصول الأوامر إليها ، بوشر فى هدم الكنائس ومنازل النصارى .

وفى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٣ م) ألغى الملك محمد بن قلاوون والأمير بيبرس الجاشنكير عيد الشهيد . وقد سبق التكلم عن هذا العيد فى عهد الفاطميين . وها هوذا ابن إياس يقدم لنا تفاصيل جديدة عنه . فى الثامن من شهر بشنس (١٥ مايو) من كل عام ، كان الأقباط يخرجون من صندوق مودع فى كنيسة شبرى أصبع أحد الشهداء ويغطسونه فى النيل . وكان النصارى يحتفلون فى هذه المناسبة احتفالا عظيما فيتوجهون من كل جهة لزيارة كنيسة شبرى . وكان يشترك فى هذا الاحتفال عدد كبير من الراقصين والراقصات . فكان يجتمع فى هذا المكان خلق عظيم فيصرفون أموالا طائلة على الملاهى ويرتكبون أعمال السوء ويشربون الخمر حتى يسكرون . وكان يذهب عدد كبير من الناس ضحايا لأعمال القتل والاغتيال إذ لا يوجد هناك حاكم ولا شرطة لمنع هذه الجرائم .

وقد سبق القول أن سكان القاهرة كانوا يشتركون فى هذا العيد منذ أمد

---

(١) الخطط ، ج ٢ ص ٤٩٨ .

(٢) كان المفروض أن تطبق هذه الاجراءات على مصر وسوريا ولكن استثنى منهما مدينتا كرك وشوباك لأن النصارى كانوا الغالبية هناك . ويتضح من ذلك أن قلة الأقباط العددية سببت لهم الاضطهاد .

بعيد ويقال إن فى أيام العيد الثلاثة كان يباع فى شبرا من النبيذ ما يزيد عن ألف دينار » وكان اعتماد فلاحى شبرى دائماً فى وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر فى عيد الشهيد . فعشق ذلك على أقباط مصر كلهم . وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعانى الكتابة وهو يومئذ فى خدمة الأمير بيبرس وقد احتوى على عقله واستولى على جميع أموره كما هى عادة ملوك مصر وأمرائها من الأتراك الانقياد لكتابهم من القبط [١] . وما زال الأقباط بالتاج إلى أن تحدث مع مخدومه الأمير بيبرس فى ذلك وخيل له من تلف مال الخراج إذا أبطل هذا العيد ، فان أكثر خراج شبرى إنما يحصل من ذلك » .

ومن ذلك الوقت استمر هذا العيد منقطعاً حتى سنة ٧٣٨ ، إذ وقع فيها حادث غريب كان سبباً فى إعادة الاحتفال بعيد الشهيد من جديد . ذلك « أن الأمير يلبغا اليحياوى والأمير ألطنبغا الماردينى طلبا من السلطان أن يخرجا إلى الصيد ويغيبا مدة . فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه فى محبتهما وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما : « نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفرجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد » .

ولكن فى سنة ٧٥٥ هـ [٢] « تحرك المسلمون على النصارى . . . وهدمت كنيسة النصارى (بشبرى) وأخذ منها أصبع الشهيد فى صندوق وأحضر إلى الملك الصالح وأحرق بين يديه فى الميدان من قلعة الجبل وذرى رماده فى البحر حتى يأخذه النصارى . فبطل عيد الشهيد من يومئذ » [٣] .

ولنعد الآن ، بعد هذا الاستطراد إلى صلب الموضوع .

كان عام ٧٢٠ هـ (١٣٢٠م) خراباً على الأقباط . ولم يعرف ما حدث

---

(١) الخطط ، جـ ١ ص ٦٩ . نلاحظ أن الأقباط عادوا إلى شغل وظائفهم بعد مضى عامين فقط على زيارة الوزير المغربى .

(٢) يذكر ابن إياس هذا الحادث ضمن حوادث عام ٧٦٠ هـ

(٣) لم يحاول المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٥١٢) إخفاء الحقيقة فذكر جميع الحوادث المؤسفة بدون تحيز .

بالضبط ولكن ، بمجرد إشارة ، اعتدى الشعب على الأقباط فى جميع أنحاء البلاد مما يجعلنا نعتقد أن هذه الحركة قد دبرت منذ أمد بعيد . ولم يدرك محمد بن قلاوون فى بادىء الأمر خطورة هذه الحركة التى كانت تدبر فى الخفاء . ولما طغت عليه ، اضطر مرغماً أن يساير الجماهير ويقوم هو أيضاً باضطهاد النصارى . ويذكر المقريزى(١) هذه الاضطهادات بتفاصيلها . قال : « إن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لما أنشأ ميدان المهارى لقناطر السباع فى سنة عشرين وسبعمائة ، قصد بناء زريبة على النيل الأعظم بجوار الجامع الطيبرسى ، فأمر بنقل كوم تراب كان هناك وحفر ما تحته من الطين لأجل بناء الزريبة ، وأجرى الماء إلى مكان الحفر فصار يعرف إلى اليوم بالبركة الناصرية . وكان الشروع فى حفر هذه البركة من آخر شهر ربيع الأول ٧٢١ هـ . فلما انتهى الحفر إلى جانب كنيسة الزهرى وكان بها كثير من النصارى لا يزالون فيها وبجانبها أيضاً عدة كنائس فى الموضع الذى يعرف اليوم بحكر اقبغا ، أخذ الفعلة فى الحفر حول كنيسة الزهرى حتى بقيت قائمة فى وسط الموضع الذى عينه السلطان ليحفر ، وهو اليوم بركة الناصرية ، وزاد الحفر حتى تعلقت الكنيسة وكان القصد من ذلك أن تسقط من غير قصد لخرابها وصارت العامة من غلمان الأمراء العمالين فى الحفر وغيرهم فى كل وقت يصرخون على الأمراء فى طلب هدمها وهم يتغافلون عنهم إلى أن كان يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الآخر من هذه السنة وقت اشتغال الناس بصلاة الجمعة والعمل من الحفر بطال ، فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عال مرتفع « الله أكبر » ووضعوا أيديهم بالمساحى ونحوها فى كنيسة الزهرى وهدموها حتى بقيت كوماً وقتلوا من كان فيها من النصارى وأخذوا جميع ما كان فيها وهدموا كنيسة « بومينا » التى كانت

---

(١) لم يحاول المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٥١٢) إخفاء الحقيقة فذكر جميع الحوادث المؤسفة بدون تحيز .

بالحمراء وكانت معظمة عند النصارى من قديم الزمان وبها عدة من النصارى قد انقطعوا فيها ويحمل إليهم نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه الشعب ويبعث إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة فوجد فيها مال كثير ما بين نقد ومصاغ وغيره . وتسلق العامة إلى أعلاها وفتحوا أبوابها وأخذوا منها مالاً وقماشاً وجرار خمر فكان أمراً مهولا . ثم مضوا من كنيسة الحمراء بعد ما هدموها إلى كنيستين بجوار السبع سقايات تعرف إحداهما بكنيسة البنات كان يسكنها بنات النصارى وعدة من الرهبان ، فكسروا أبواب الكنيستين وسبوا البنات وكنّ زيادة على ستين بنتاً وأخذوا ما عليهن من الثياب ونهبوا سائر ما ظفروا به وحرّقوا وهدموا تلك الكنائس كلها هذا والناس فى صلاة الجمعة . فعند ما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولا كبيراً من كثرة الغبار ودخان الحريق ومرج الناس وشدة حركاتهم ومعهم ما نهبوه ، فما شبه الناس الحال لهوله إلا بيوم القيامة وانتشر الخبر وطار إلى الرميلة تحت قلعة الجبل فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته ، فبعث لكشف الخبر ، فلما بلغه ما وقع انزعج انزعاجاً عظيما وغضب من تجرى العامة واقدامهم على ذلك بغير أمره ، وأمر الأمير أيد غمش أمير آخور أن يركب بجماعة الأوشاقية ويتدارك هذا الخلل ويقبض على من فعله ، فأخذ أيدغمش يتهيأ للركوب ، وإذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت فى القاهرة وخربت كنيسة بحارة الروم وكنيسة بحارة زويلة وجاء الخبر من مدينة مصر أيضاً بأن العامة قامت بمصر فى جمع كثير جداً وزحفت إلى كنيسة المعلقة بقصر الشمع ، فأغلقها النصارى وهم محصورون بها وهى على أن تؤخذ . فتزايد غضب السلطان وهمّ أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة ، ثم تأخر لما راجعه الأمير أيدغمش ونزل من القلعة فى أربعة من الأمراء إلى مصر وركب الأمير بيبرس الحاجب والأمير ألماس الحاجب إلى موضع الحفر وركب الأمير طينال إلى القاهرة وكل منهم فى عدة وافرة ، وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يعفو



عن أحد ، فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرّت النهابة فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر الذى نهبه من الكنائس . ولحق الأمير أيدغمش بمصر وقد ركب الوالى إلى المعلقة قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب فأخذه الرجم حتى فرّ منهم ولم يبق إلا أن يحرق باب الكنيسة ، فجرد أيدغمش ومن معه السيوف يريدون الفتك بالعامة فوجدوا عالماً لا يقع عليه حصر وخاف سوء العاقبة فأمسك عن القتل وأمر أصحابه بارجاف العامة من غير إهراق دم ونادى مناديه من وقف حل دمه ففرّ سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا وصار أيدغمش واقفاً إلى أن أذن العصر خوفاً من عود العامة ثم مضى وألزم والى مصر أن يبيت باعوانه هناك وترك معه خمسين من الأوشاقية . وأما الأمير ألماس ، فإنه وصل إلى كنائس الحيمراء وكنائس الزهرى ليتداركها فإذا بها قد بقيت كيماناً ليس بها جدار قائم ، فعاد وعاد الأمراء فردوا الخبر على السلطان وهو لا يزداد إلا حنقاً ، فما زالوا به حتى سكن غضبه .

« وكان الأمر فى هدم هذه الكنائس عجباً من العجب وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة من هذا اليوم بجامع قلعة الجبل ، فعند ما فرغوا من الصلاة قام رجل موله وهو يصيح من وسط الجامع : « اهدموا الكنيسة التى فى القلعة ، أهدموها » وأكثر من الضياح المزعج حتى خرج عن الحدّ ثم اضطرب . فتعجب السلطان والأمراء من قوله ورسم لنقيب الجيوش والحاجب بالفحص عن ذلك ، فمضيا من الجامع إلى خرائب التتر من القلعة . فإذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها ، ولم يفرغوا من هدمها حتى وصل الخبر بواقعة كنائس الحمراء والقاهرة ، فكثر تعجب السلطان من شأن ذلك الفقير وطلب ، فلم يوقف له على خبر . واتفق أيضاً بالجامع الأزهر أن الناس لما اجتمعوا فى هذا اليوم لصلاة الجمعة ، أخذ شخصاً من الفقراء مثل الرعدة ، ثم قام بعد ما أذن قبل أن يخرج الخطيب وقال : « اهدموا كنائس الطغيان والكفرة ،

نعم الله أكبر وفتح لله ونصر » وصار يزعج نفسه ويصرخ من الأساس إلى الأساس ، فحدق الناس بالنظر إليه ولم يدروا ما خبره وافترقوا فى أمره ، فقائل هذا مجنون ، وقائل هذه إشارة لشىء . فلما خرج الخطيب ، أمسك عن الصياح وطلب بعد انقضاء الصلاة ، فلم يوجد . وخرج الناس إلى باب الجامع فرأوا النهابة ومعهم أخشاب الكنائس وثياب النصارى وغير ذلك من النهوب ، فسألوا عن الخبر فقيل قد نادى السلطان بخرائب الكنائس ، فظن الناس الأمر كما قيل حتى تبين بعد قليل أن هذا الأمر إنما كان من غير أمر السلطان وكان الذى هدم فى هذا اليوم من الكنائس بالقاهرة كنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستين بحارة زويلة .

« وفى يوم الأحد الثالث من يوم الجمعة الكائن فيه هدم كنائس القاهرة ومصر ورد الخبر من الأمير بدر الدين بيلبك المحسنى والى الإسكندرية بأنه لما كان يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر بعد صلاة الجمعة ، وقع فى الناس هرج وخرجوا من الجامع وقد وقع الصياح « هدمت الكنائس » ، فركب المملوك من فوره ، فوجد الكنائس قد صارت كوماً وعدّتها أربع كنائس وأن بطاقة وقعت من والى البحيرة بأن كنيستين فى مدينة دمنهور هدمتا والناس فى صلاة الجمعة من هذا اليوم ، فكثر التعجب من ذلك إلى أن ورد فى يوم الجمعة سادس عشرة الخبر من مدينة قوص بأن الناس عند ما فرغوا من صلاة الجمعة فى اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر قام رجل من الفقراء وقال : « يا فقراء ، اخرجوا إلى هدم الكنائس . » وخرج فى جمع من الناس فوجدوا الهدم قد وقع فى الكنائس ، فهدمت ست كنائس كانت بقوص وما حولها فى ساعة واحدة ، وتواتر الخبر من الوجه القبلى والوجه البحرى بكثرة ما هدم فى هذا اليوم وقت صلاة الجمعة وما بعدها من الكنائس والأديرة فى جميع إقليم مصر كله ، ما بين قوص والإسكندرية ودمياط ، فاشتد حنق السلطان على العامة ، خوفاً من فساد الحال ، وأخذ الأمراء فى تسكين

غضبه وقالوا : « هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله ، ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه وما هذا إلا بأمر الله سبحانه وبقدره لما علم من كثرة فساد النصارى وزيادة طغيانهم ليكون ما وقع نقمة وعذابا لهم .» هذا والعامة بالقاهرة ومصر قد اشتد خوفهم من السلطان لما كان يبلغهم عنه من التهديد لهم بالقتل . ففرّ عدة من الأوباش والغوغاء وأخذ القاضى فخر الدين ناظر الجيش فى ترجيع السلطان عن الفتك بالعامة وأخذ كريم الدين الكبير ، ناظر الخاص ، يغريه بهم إلى أن أخرجه السلطان إلى الإسكندرية بسبب تحصيل المال وكشف الكنائس التى خربت بها ، فلم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس ، حتى وقع الحريق بالقاهرة ومصر فى عدة مواضع وحصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس . فوقع الحريق فى ربع بخط الشوايين من القاهرة فى يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسرت النار إلى ما حوله واستمرت إلى آخر يوم الأحد ، فتلف فى هذا الحريق شىء كثير . وعند ما أطفىء ، وقع الحريق بحارة الديلم فى زقاق العريسة بالقرب من دور كريم الدين ناظر الخاص . . . . وبلغ ذلك السلطان فانزعج انزعاجاً عظيما لما كان هناك من الحواصل السلطانية وسير طائفة من الأمراء لإطفائه ، فجمعوا الناس لإطفائه وتكاثروا عليه ، وقد عظم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلثاء ، فتزايد الحال فى اشتعال النار وعجز الأمراء والناس على إطفائها لكثرة انتشارها فى الأماكن وقوة الريح التى ألقت باسقاف النخل وغرّقت المراكب فلم يشك الناس فى حريق القاهرة كلها وصعدوا المآذن وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح وضجوا بالتكبير والدعاء وجأروا وكثر صراخ الناس وبكاؤهم وصعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح . . . . فما هو إلا أن كمل إطفاء الحريق ونقل الحواصل وإذا بالحريق قد وقع فى ربع الظاهر خارج باب زويلة وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتاً . وهب مع الحريق ريح قوية فركب الحاجب والوالى لإطفائه

وهدموا عدة دور من حوله حتى انطفأ فوقع فى ثانى يوم حريق بدار الأمير سلار فى خط بين القصرين وحريق بحارة الروم وعدة مواضع حتى أنه لم يخل يوم من وقوع الحريق فى موضع . فتنبه الناس لما نزل بهم وظنوا أنه من أفعال النصارى وذلك أن النار كانت ترى فى منابر الجوامع وحيطان المساجد والمدارس فاستعدوا للحريق وتتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذا الحريق من نفط قد لف عليه خرق مبلولة بزيت وقطران .

« فلما كان ليلة الجمعة النصف من جمادى ، قبض على راهبين عند ما خرجا من المدرسة الكهارية بعد العشاء الآخرة ، فكان وقد اشتعلت النار فى المدرسة ورائحة الكبريت فى أيديهما . فحملا إلى الأمير علم الدين الخازن ، والى القاهرة ، فأعلم السلطان بذلك ، فأمر بعقوبتهما . فما هو إلا أن نزل من القلعة وإذا بالعامة قد أمسكوا نصرانياً وجد فى جامع الظاهر ومعه خرق على هيئة الكعكة فى داخلها قطران ونفط وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر وما زال واقفاً إلى آن خرج الدخان ، فمشى يريد الخروج من الجامع ، وكان قد فطن به شخص وتأمله من حيث لم يشعر به النصرانى ، فقبض عليه وتكاثر الناس ، فجروه إلى بيت الوالى وهو بهيئة المسلمين ، فعوقب عند الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب ، فاعترف بأن جماعة من النصارى قد اجتمعوا على عمل نفط وتفريقه مع جماعة من أتباعهم وأنه ممن أعطى ذلك وأمر بوضعه عند منبر جامع الظاهر ، ثم أمر بالراهبين فعوقبا فاعترفا أنهما من سكان دير البغل وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التى تقدم ذكرها بالقاهرة غيرة وحنقاً من المسلمين لما كان من هدمهم للكنائس وأن طائفة النصارى تجمعوا وأخرجوا من بينهم مالا جزيلا لعمل هذا النفط .

« واتفق وصول كريم الدين ناظر الخاص من الإسكندرية ، فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى . فقال : « النصارى لهم بطريرك يرجعون إليه ويعرف آحوالهم . » فرسم السلطان بطلب البطرك عند كريم الدين ليتحدث

معه فى أمر الحريق وما ذكره النصارى من قيامهم فى ذلك . فجاء فى حماية والى القاهرة فى الليل خوفاً من العامة . فلما أن دخل بيت كريم الدين بحارة الديلم وأحضر إليه الثلاثة النصارى من عند الوالى ، قالوا لكريم الدين بحضرة الوالى والبطرك جميع ما اعترفوا به قبل ذلك . فبكى البطرك عند ما سمع كلامهم وقال : « هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس » وانصرف من عند كريم الدين مبجلا مكرماً فوجد كريم الدين قد أقام له بغلة على بابه ليركبها فركبها وسار . فعظم ذلك على الناس وقاموا عليه يداً واحدة . فلولا أن الوالى كان يسايره وإلا هلك . وأصبح كريم الدين يريد الركوب إلى القلعة على العادة ، فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامة : « ما يحل لك يا قاضى تحامى للنصارى وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال . » فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته واجتمع بالسلطان فأخذ يهون أمر النصارى الممسوكين ويذكر أنهم سفهاء وجهال . فرسم السلطان للوالى بتشديد عقوبتهم ، فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة فاعترفوا بأن أربعة عشر راهباً بدير البغل قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها وفيهم راهب يصنع النفط وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعلوا للقاهرة ثمانية ولمصر ستة . فكبس دير البغل وقبض على من فيه وأحرق من جماعته أربعة بشارع صليبة جامع بن طولون فى يوم الجمعة ، وقد اجتمع لمشاهدتهم عالم عظيم . فضرى من حينئذ جمهور الناس على النصارى وفتكوا بهم وصاروا يسلبون ما عليهم من الثياب حتى فحش الأمر وتجاوزوا فيهم المقدار . فغضب السلطان من ذلك وهمّ أن يوقع بالعامة واتفق أنه ركب من القلعة يريد الميدان الكبير فى يوم السبت . فرأى من الناس أمماً عظيمة قد ملأت الطرقات وهم يصيحون : « نصر الله الإسلام ، انصر دين محمد بن عبد الله » .

« . . . . . واتفق مع هذا مرور كريم الدين ، وقد لبس التشريف من الميدان ، فرجمه من هنالك رجماً متتابعاً وصاحوا به : « كم تحامى النصارى

وتشدّ معهم » ولعنوه وسبوه ، فلم يجد بداً من العود إلى السلطان وهو بالميدان وقد اشتد ضجيج العامة وصياحهم حتى سمعهم السلطان ، فلما دخل عليه واعلمه الخبر ، امتلأ غضباً واستشار الأمراء وقال للأمير ألماس الحاجب : « امض ومعك أربعة من الأمراء وضع السيف فى العامة من حين تخرج من باب الميدان إلى أن تصل إلى باب زويلة واضرب فيهم بالسيف من باب زويلة إلى باب النصر بحيث لا ترفع السيف عن أحد البتة . » وقال لوالى القاهرة : « اركب إلى باب اللوق وإلى باب البحر ولاتدع أحد حتى تقبض عليه وتطلع به إلى القلعة وحتى لم تحضر الذين رجموا وكيلى يعنى كريم الدين ، وإلا وحياة رأسى شنقتك عوضاً عنهم » . . . . فما غربت الشمس حتى احضر ممن أمسك من العامة نحو مائتى رجل ، فعزل منهم طائفة أمر بشنقهم وجماعة رسم بتوسيطهم وجمع رسم بقطع أيديهم ، فصاحوا بأجمعهم : « يا خوند ما يحلّ لك ما نحن الذين رجمنا » . . . . وما زالوا بالسلطان إلى أن قال للوالى : « اعزل منهم جماعة وأنصب الخشب من باب زويلة إلى تحت القلعة بسوق الخيل وعلق هؤلاء بأيديهم . » فلما أصبح يوم الأحد ، علق الجميع من باب زويلة إلى سوق الخيل . . . . وجلس السلطان فى الشباك وقد احضر بين يديه جماعة ممن قبض عليهم الوالى ، فقطع أيدى وأرجل ثلاثة منهم ، والأمراء لا يقدرون على الكلام معه فى أمرهم لشدة حنقه ، فتقدم كريم الدين وكشف رأسه وقبل الأرض وهو يسأل العفو ، فقبل سؤاله . . . .

« وعند ما قام السلطان من الشباك ، وقع الصوت بالحريق فى جهة جامع ابن طولون وفى قلعة الجبل وفى بيت الأمير ركن الدين الأحمدى ، وفى صبيحة يوم هذا الحريق قبض على ثلاثة من النصارى وجد معهم فتائل النفط ، فاحضروا إلى السلطان واعترفوا بأن الحريق كان منهم فلما ركب السلطان إلى الميدان على عادته ، وجد نحو عشرين ألف نفس من العامة قد صبغوا خرقاً بلون آزرق وعملوا فيها صلباناً بيضاء وعند ما رأوا السلطان صاحوا بصوت عام

واحد : « لا دين إلا دين الإسلام ، نصر الله دين محمد بن عبد الله ، يا ملك الناصر يا سلطان الإسلام انصرنا على أهل الكفر ولا تنصر النصارى . » فارتجت الدنيا من هول أصواتهم وأوقع الله الرعب فى قلب السلطان وقلوب الأمراء وسار وهو فى فكر زائد حتى نزل بالميدان وصراخ العامة لا يبطل . فرأى أن الرأى فى استعمال المداراة وأمر الحاجب أن يخرج وينادى بين يديه من وجد نصرانياً فله ماله ودمه ... فخرج ونادى بذلك ، فصاحت العامة وصرخت : « نصرك الله » وضجوا بالدعاء . وكان النصارى يلبسون العمائم البيض ، فنودى فى القاهرة ومصر من وجد نصرانياً بعمامة بيضاء ، حلّ له دمه وماله ، ومن وجد نصرانياً راكباً ، حلّ له دمه وماله . ومنع الأمراء من استخدام النصارى وأخرجوا من ديوان السلطان ، وكتب لسائر الأعمال بصرف جميع المباشرين من النصارى ، وكثر إيقاع المسلمين بالنصارى حتى تركوا السعى فى الطرقات وأسلم منهم جماعة كثيرة . وكان اليهود قد سكت عنهم فى هذه المدة ، فكان النصرانى إذا أراد أن يخرج من منزله يستعير عمامة صفراء من أحد من اليهود ويلبسها حتى يسلم من العامة . . . .

وأخيراً « نودىَ فى الناس بالأمان وأنهم يتفرجون على عادتهم عند ركوب السلطان إلى الميدان وذلك أنهم كانوا قد تخوفوا على أنفسهم لكثرة ما أوقعوا بالنصارى وزادوا فى الخروج عن الحد ، فاطمأنوا وخرجوا على العادة إلى جهة الميدان ودعوا للسلطان وصاروا يقولون : نصرك الله يا سلطان الأرض ، اصطلحنا ، اصطلحنا . » وأعجب السلطان ذلك وتبسم من قولهم . »

ويحصى المقريزى بعد ذلك الخسائر التى سببتها هذه الكارثة فيقول إن عدد الكنائس التى خربت بمصر أربع وخمسون كنيسة فضلا عن عدة أديرة هدمت عن آخرها ، وقتل عدد كبير من الناس وحدثت خسائر لا تحصى فى الأموال .

نستخلص من هذه الحوادث بعض الاستنتاجات . فلسنا نعد فى حاجة إلى الإشارة إلى موقف السلطان محمد بن قلاوون . فقد كان يعطف على

النصارى ويرغب فى حمايتهم ولكنه اضطر أخيراً إلى مسايرة الجماهير الحانقة . ولسنا فى حاجة أيضاً إلى الإشادة إلى حكمة أولياء الأمور وكره الأعيان من المسلمين والأقباط لأعمال العنف .

ولا شك أن هذه الحركة قد دبرتها فى الخفاء جمعيات لها صبغة دينية لأنها كانت حانقة على استمرار نفوذ النصارى فى البلاد . ومن ناحية أخرى ، فإن الأعمال الانتقامية التى قام بها الأقباط قد دبرتها سراً رؤوس جامحة كانت تعتقد أنها بعملها هذا قد تستطيع أن تقنع الأغلبية بالعودة إلى اعتدالهم فى معاملتهم . ولكن استنكار البطريرك للأعمال الارهابية كان دليلا على أن هذه الأعمال غير مرغوبة لدى الأقباط عامة . وعلى أى حال ، فإن تدخل السلطات أنقذت الأقباط مرة أخرى من استفحال الكارثة .

وفى عام ٧٢٨ « رفع النصارى قصة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون يسألون الأذن فى إعادة ما تهدم منها (أى كنيسة الست بربارة) ، فأذن لهم فى ذلك ، فعمروها أحسن ما كانت ، فغضبت طائفة من المسلمين ورفعوا قصة للسلطان بأن النصارى أحدثوا بجانب هذه الكنيسة بناء لم يكن فيها ، فرسم للأمير علم الدين سنجر الخازن ، والى القاهرة ، بهدم ما جددوه ، فركب وقد اجتمع الخلائق فبادروا وهدموا الكنيسة كلها فى أسرع وقت وأقاموا فى مرضعها محراباً أذنوا وصلوا وقرأوا القرآن ، كل ذلك بأيديهم ، فلم تمكن معارضتهم خشية الفتنة ، فاشتد الأمر على النصارى وشكوا أمرهم للقاضى كريم الدين ، ناظر الخاص ، فقام وقعد غضباً لدين أسلافه وما زال بالسلطان حتى رسم بهدم المحراب ، فهدم وصار موضعه كوم تراب ومضى الحال على ذلك »[1] .

وبعد سنين ، اتهم أحد النصارى أنه حفيد رجل كان قد اعتنق الإسلام . فحكم القاضى على هذا النصرانى بأن يدخل الإسلام وألقاه فى السجن ليجبره

(١) الخطط ، ج ٢ ص ٥١١ .

على ذلك .. فذهب النصارى جميعاً لمقابلة الحاكم وتمكنوا من إطلاق سراح الرجل فى حلكة الليل . وفى اليوم التالى توجهت الجماهير إلى منزل القاضى وكان الحاكم قد استدعاه ولامه لوماً شديداً على ما اتخذه من إجراء غير أن الجماهير أيدت صراحة موقف القاضى وأغلقت الحوانيت وأخذت تقذف الحاكم بالحجارة فاضطر إلى مغادرة المدينة . ثم توجهت الجماهير نحو الكنيسة التى بجوار هذه المنطقة فخربتها وأحرقت الصلبان والصور التى بها . ونبشت القبور وأخرجت الجثث والقتها فى النيران . وبعد ذلك قررت مهاجمة النصارى القاطنين فى تلك المقاطعة . وفى هذا الأثناء ، شكا الحاكم للقاضى من هذه الاجراءات العنيفة التى اتخذت ضد النصارى إذ أشاعت الفوضى فى البلاد وسببت للسلطان خسارة فى فرع من فروع دخله يبلغ خمسمائة ألف درهم[١] .

وفى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤) ، « رفعت قوائم إلى الأمير صرغتمش من ديوان الأحباش فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديور ، فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى . فلما سمع الأمير صرغتمش بذلك ، حنق وطلع إلى القلعة وشاور السلطان على ذلك ، فرسم السلطان بأن يخرج ذلك من يد النصارى وكتب بذلك مربعات وأنعم بها على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم . . . . ثم أن السلطان رسم بهدم الكنائس والديور »[٢] .

وهنا نتساءل ، ما هى الحوادث التى أدت إلى اتخاذ هذه الإجراءات التعسفية ضد النصارى ؟ لا يذكر لنا التاريخ عنها شيئاً . ويحتمل أن تكون الخزانة العامة فى حاجة إلى المال ويحتمل أيضاً أن السلطان أراد بذلك تهدئة خواطر المسلمين ومنع قيام حركة ثورية أخرى .

---

(١) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 251-2

(٢) ابن إياس ، جـ ١ ص ٢٠٦ .

ويبدو أن عيل صبر النصارى من هذا الحال ، فطرحوا جمودهم جانبا وهبوا يحاولون النيل من ممتلكات المسلمين وحرق مساجدهم على الأخص معرضين بذلك أنفسهم للاستشهاد . ويذكر لنا المقريزى حالات بعض الذين وصل بهم اليأس إلى هذا الحد . ففى عام ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) وقع حادث فردى مؤداه أن نصرانياً من مواليد مدينة الطور وكاتب فى إحدى الدواوين قصد القاهرة ووقف يخطب ضد الديانة الإسلامية . فلما قدم للتحقيق قال للقاضى : « إن هدفى الحصول على شرف الاستشهاد . » وفى عام ٧٩١ قدم القاهرة جماعة من الرجال والسيدات وأعلنوا على الملأ خروجهم عن الإسلام وعزمهم على العوده إلى حظيرة المسيحية ، وقالوا : « لقد جئنا هنا لكى نغتفر الخطايا التى اقترفناها ، فنقدم حياتنا على مذبح التضحية لننال نعم سيدنا المسيح » ، فقطعت رؤوسهم جميعاً . وفى عام ٧٩٥ (١٣٩٢ م) ، قام فى القدس أربعة من الرهبان وتحدوا علانية فقهاء الإسلام وتكلموا عن الإسلام بأسلوب ملؤه الاحتقار ، فحكم عليهم بالحرق أحياء(١) .

غير أن هذه الحوادث التى تدل على استياء النصارى لم تتعدد ولم يكن لها أى تأثير على الشعب .

وفى عام ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م) « رسم السلطان الملك الظاهر برقوق بابطال ما كان يعمل فى يوم النوروز وأرسل الحجاب مع جماعة من المماليك السلطانية ووالى الشرطة ، فطافوا فى أماكن المتفرجات وفى الطرقات ، فمن وجدوه يفعل ذلك يضربونه بالمقارع وصاروا يقطعون أيدى جماعة ممن كان يفعل ذلك . وقاموا فى ذلك قياماً عظيما حتى بطل ذلك من القاهرة وأشهروا النداء بمن يفعل ذلك بالشنق ، فانكف الناس من يومئذ عن ذلك »(٢) .

وفى عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) ، هدم الأمير يلبغا السالمى كنيسة للنصارى

---

(١) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 251 & 257.

(٢) ابن إياس ، جـ ١ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

بجوار شبرا الخيمة وحطم أكثر من أربعين ألف جرة نبيذ . وكان عازماً على اضطهاد النصارى ولكن حال سائر الأمراء بينه وبين تنفيذ أغراضه[١] .

وفى عام ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) ، أراد الأمير سيف الدين أن يفرض غرامة على النصارى ، ولكن السلطات عارضت فى ذلك، فما كان منه إلا أن توجه مغضباً إلى الحى الذى كان يباع فيه النبيذ وأمر باهراق عدة آلاف جرة منه وأخذ من النصارى عنوة بعض المال[٢] .

وفى عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) ، أرغم النصارى واليهود على زم أكمامهم وتقصير عمائمهم بحيث لا تتجاوز سبعة أذرع طولا . وطلب إليهم أيضاً أن يعلقوا جرساً صغيراً فى عنقهم عند دخولهم الحمام وأمرت نساءهم بارتداد فساتين صفراء . وفى نفس السنة ، أخذ على النصارى عدم مبالاتهم بالقوانين الجديدة الخاصة بأزيائهم ، وبعد نقاش طويل تقرر طردهم من الدواوين . وقد ألقى فى السجن كاتم أسرار الوزير النصرانى أبو الفضائل ثم جلد بالسياط وطيف به شوارع القاهرة يتبعه محتسب يصيح بأعلى صوته : « هكذا نعامل النصارى الذين يشتغلون وظيفة فى دواوين السلطان . » فلم يجرؤ أحد من النصارى بعد ذلك على شغل أية وظيفة رسمية[٣] .

ومنع النصارى فيما منعوا من ركوب البغال فى مدينة القاهرة . أما فى خارجها فقد صرح لهم بركوبها ولكن على طريقة النساء ، مما اضطر بعضهم إلى اعتناق الإسلام هرباً من هذا الإذلال ، فانتقلوا من جحيم الذلة إلى نعيم الإجلال والاكرام وقد امتطوا الجياد بدل البغال وأخذوا ينظرون إلى المسلمين شذراً وينعمون برؤيتهم وهم يعملون على كسب رضائهم بالخضوع لهم والتشفع عندهم »[٤] .

---

(١) الخطط ، ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٢) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 258-9

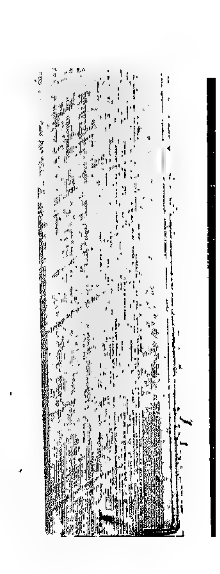
(٣) Quatremère, *Mémoires*, II, p. 460-2

(٤) شكا المقريزى قبل ذلك مر الشكوى من إقبال السلطات على جعل النصارى يعتنقون الإسلام .

وفى عام ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) «حصل على النصارى واليهود من الذل والخزى والإهانة والتغريم ما يفوق الوصف»[١] بسبب الترميمات التى قام بها الملكيون سراً فى كنيستهم. «ورسم السلطان بعقد مجلس بحضرته بالقضاة الأربعة وغيرهم من مشايخ الإسلام وأركان الدولة من المباشرين وغيرهم، وأحضر مؤنس بطريرك النصارى اليعاقبة، وفليوثاؤس بطريرك النصارى الماكيين، وعبد اللطيف، من طائفة اليهود الربائيين، وفرج الله، أحد مشايخ اليهود القرائيين، وابراهيم، كبير طائفة اليهود السامرة، وسئلوا عن العهد المكتتب على أسلافهم، فلم يعرفوه، ودار الكلام فى المجلس فيما يؤمرون إلى أن اقتضت الآراء السعيدة تجديد العهد عليهم على وفق المنقول عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.»

وفى سنتى ٨٤٩ و ٨٥٠ هـ، هدمت بضع كنائس وأرسلت أنقاضها إلى السلطات المختصة. ويذكر السخاوى أنه لم يبق فى عام ٨٥٢ كنيسة واحدة لم يلحق بها ضرر.

لقد ذكرنا الأحداث البارزة التى وقعت فى هذا العصر وهى تظهر لنا إلى أى حد وصل انحلال الأمة القبطية وكيف عمل المسلمون على ضعف النفرذ القبطى فى البلاد. ومن جهة أخرى، نشاهد شدة حرج السلاطين إذ أنهم أبقوا على الدجاجة ذات البيض الذهبى (وفى الحقيقة كان إنتاج هذه الدجاجة ضعيفاً جداً) ولم يستغنوا عن خدمات الأقباط، فعملوا على الحد من غضب الجماهير قدر المستطاع.



(١) السخاوى، التبر المسبوك فى ذيل السلوك، طبعة بولاق ص ٣٦.

٩

القبطي في خدمة البكوات المماليك

حالته قبيل الحملة الفرنسية

دخل السلطان سليم الأول مصر عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) بعد أن تغلب على قوات طومان باى . ويصف ابن إياس هذا الفتح وصفاً شائقاً ومفصلا ، ولكنه لم يذكر الأقباط فى هذه المناسبة إلا مرة واحدة فى مجرى حديثه عن انتقال بعض الصناع الذين انتقاهم السلطان للسفر إلى الآستانة . ويقول ابن إياس ان الفاتح أخذ جماعة من طائفة اليهود والسامرية والنصارى ويذكر لنا أسماءهم ، ومن بينهم شيخ الملكيين الاسكندرى[1] .

وبعد مضى أربع سنوات يروى لنا المصدر نفسه حادثا يبرهن على أن العدالة فى مصر لم تفقد سيرها العادى تحت الحكم العثمانى . ذلك أنه لما انتصر السلطان سليمان على الإفرنج ووردت البشائر بذلك ، أقيمت معالم الزينة فى القاهرة سبعة أيام متوالية . وحدث أن « أتى إلى بيت القاضى بشر ثلاثة مباشرين من النصارى ليتفرجوا على الزينة ، فسكروا هناك سكراً فاحشاً وتجاهروا بالمعاصى حتى خرجوا عن الحد . فأرسل القاضى بشر ينهاهم عن ذلك . فما سمعوا له كلاما وتزايد منهم الحال ، فجاء بنفسه وأغلظ عليهم فى القول وسبهم فسبوه وأفحشوا فى السب له وسبوا دين الإسلام على ما قيل . فأرسل القاضى بشر من قبض عليهم وتوجه بهم إلى المدرسة الصالحية وحضر قضاة القضاة الأربعة وكان ذلك اليوم يوم الجمعة قبل الصلاة .

---

(١) ابن إياس ، ج ٣ ، ص ١٤٩ . ويعنى ابن إياس بكلمة شيخ الملكيين الإسكندرى بطريرك طائفة الملكيين .

فلما حضر قاضى القضاة المالكى محى الدين الدميرى ، قامت عنده البينة بما وقع من النصارى فى حق القاضى بشر الحنفى ، فتوقف القاضى المالكى فى قتل النصارى، ثم قال : « يجب عليهم الحد والتعذير ، فإنهم كانوا سكارى . » وكذلك قال بقية القضاة . فلما سمع القاضى بشر بذلك . . . . كبر على القضاة وأغلظ فى القول على قاضى القضاة المالكى واجتمع بالمدرسة الصالحية الجم الكثير من العوام ، فهموا بأن يرجموا القضاة فى ذلك اليوم . . . . ثم إن بعض الانكشارية قبض على النصارى وأخرجهم من المدرسة الصالحية . فلما خرجوا بهم ، قطعوهم بالأطبار قطعاً قطعاً . . . . فلما قطعت النصارى اجتمع السواد الأعظم من العوام بباب المدرسة الصالحية وأخذوا رمم النصارى وأطلقوا فيها النار ، وأخذوا السقائف التى تقع على الدكاكين ووضعوها عليهم وأشعلوها بالنار ، فاحترقوا وصاروا كالرماد »[1] .

وينقل إلينا ابن إياس حادثاً مماثلا وقع عام ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م) يبرهن على آن المباشرين الأقباط لم يزالوا وقتئذ يتمتعون بنفوذ عظيم ، يمكنهم إذا ما دعت الضرورة أن يدافعوا عن مصالح أبناء دينهم . فقد حدث « أن جماعة من النصارى كانوا يسكرون فى بيت عند جامع المقسى على الخليج . فلما قوى عليهم السكر ، تزايد منهم الضجيج والتجاهر بالسكر وكان فى جامع المقسى ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به . فثقل عليه أمرهم ، فأرسل إليهم من ينهاهم عن ذلك ، فأغلظ عليهم فى القول وقال لهم : « أما تستحيون من الشيخ ابن عنان ؟ » فسبوا الشيخ ابن عنان سباً قبيحاً ، فطلع الشيخ إلى ملك الأمراء وشكا له من النصارى، فأمر ملك الأمراء بالقبض على النصارى، فهربوا وقبضوا على واحد منهم . فرسم ملك الأمراء بحرقه . فلما رأى النصرانى عين الجد ، أسلم خوفاً من الحرق . فألبسوه عمامة بيضاء . فلما جرى ذلك ،

---

(١) ابن إياس ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ — ٦٩ .

خاف بقية النصارى على أنفسهم واختفوا عند يونس النصرانى »[١] الذى يقول عنه ابن اياس ان خاير بك « جعله متحدثاً على الدواوين وصارت المسلمون تقف فى خدمته ويخضعون له »[٢] .

غير أن الحادث التاريخى البارز فى العصر العثمانى ، هو بدون شك محاولة اليعاقبة اعتناق المذهب الكاثوليكى .

أظهرت الكنيسة الكاثوليكية ، منذ الفتح العربى ، عدم اهتمامها ظاهرياً بعلاج انشقاق الأقباط عنها لعجزها عن القيام بهذه المهمة . إلا أنها فى الواقع لم ينقطع اهتمامها بمصير اليعاقبة فى مصر .

وقد قامت محاولة لمصالحة الأقباط اليعاقبة والكاثوليك فى عهد البطريرك كيرلس الثالث ، أى فى خلال العصر الأيوبى ، ولكنها باءت بالفشل .

وفى عام ١٤٣٩ ، فى مجمع « فلورنسا » حيث اتحد البيزنطيين واللاتين مرة أخرى بعد انشقاقهم ، أرادت الكنيسة المصرية أن تكون ممثلة فى هذا المجمع[٣] .

وبعد مضى قرن من الزمن ، أى فى عام ١٥٦٠ م ، قدم روما قسيسان قبطيان يحملان عريضة تشهد برغبة رؤسائها والشعب القبطى بأسره فى العودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية والخضوع لسلطة البابا نائب المسيح . فأجاب البابا بيوس الرابع إلى هذا الطلب وأمر قسيسين يسوعيين « كريستوفور دى رودريكس » و « جان باتيست اليانو » بالسفر إلى مصر والتحدث إلى البطريرك القبطى والتأكد من نياته . فسافر اليسوعيان وجرت محادثات بينهما وبين عضوين من الطائفة القبطية عينهما البطريرك جبرائيل للقيام

---

(١) ابن إياس ، ج ٣ ، ص ٣١٠ – ٣١١ .

(٢) ابن إياس ، ج ٣ ، ص ٣١٥ .

(٣) نلفت النظر ، دون أن نحاول إيجاد أية علاقة بين هذين الحدثين ، ان معاهدة بين الحبشة وأوروبا أبرمت للمرة الأولى عام ١٤٢٩ . وفى عام ١٤٤٢ ، طلبت الحبشة أيضاً أن يكون لها ممثل فى مجمع فلورنسا .

بهاذه المهمة . ولكنهما لم يصلا إلى ما كان يرجوان فى الوصول إليه ، إذ اعترف محدثيهما القبطيين بأن الأقباط لقبوا حقاً البابا فى الكتاب المرسل إليه بلقب « أب الآباء » و « راعى الرعاة » و « رئيس جميع الكنائس » إلا أن هذه الألقاب لم يقصد منها إلا الاكرام ، وقد جرت العادة أن تحرر الخطابات إلى الأصدقاء بهذا الأسلوب . ثم أضافا إلى ما تقدم أن كل بطريرك له السلطة التامة على كنيسته وذلك منذ مجمع كالسيدونيا ويتعين عدة بطاركة مستقلين عن بعضهم بعضاً (١) .

وبعد مضى عشرين سنة على هذه المحاولة ، أى فى عام ١٥٨٢ م ، عاود اليعاقبة مسعاهم لدى الكرسى الرسولى ، وطلبوا إيفاد الأب جان باتيست اليانو إلى مصر (وكان آنئذ فى سوريا) ليتحقق بنفسه من صادق نياتهم وليعطوه البرهان الملموس على إيمانهم وخضوعهم .

وأمر البابا الأب اليانو بالسفر إلى القاهرة حيث اجتمع بالطائفة القبطية بحضور البطريرك . وكاد يتم الاتفاق ، إلا أن البطريرك توفى فجأة . ويدعى الكاثوليك أنه مات مسموماً . وعلى أى حال ، فإن المجلس انفض بعد وفاة البطريرك وألقى القبض على مندوب البابا باعتباره جاسوس أجنبى . واضطر البابا إلى دفع فدية قدرها خمسة آلاف دينار لاطلاق سراح ممثله وتمكينه من العودة إلى بلاده .

وأعيد النظر فى هذه المسألة مرة أخرى عام ١٥٩٧ م ، إذ أوفد البطريرك جبرائيل الثامن مبعوثين يحملان إقراراً بالإيمان وعليه توقيعه . وذكر فى هذا الإقرار أنه يؤمن إيماناً ثابتاً بقوانين مجمع نيقيا وبقانون مجمع القسطنطينية ويعترف بأن أحداً من الذين خارج الكنيسة الكاثوليكية لن يستطيع أن ينال الحياة الأبدية غير أن هذا التصريح لم يذكر القرارات التى اتخذت فى مجمع كالسيدونيا ، ولم يكن فى استطاعة البابا أن يحصل على كل شىء دفعة واحدة ، فقرر

(١) مذكور فى : *Dictionnaire de Trévoux*

السكوت عن هذه المسألة .

وبينما كان المندوبان القبطيان فى روما ، أرسل لهما البطريرك التعليمات الآتية : « لا تدعوا أحداً يخدمكم من المتراجمين (كذا) إلا من تراجمين كتاب جبل لبنان الذين هم المارونيين . فأنهم من أقاربنا وعارفين بلساننا وأصحابنا . ثم إنكم تقبلوا لنا أيادى السيد البابا وتسألوا من تفضلاته وإحسانه بأن ينعم علينا ويتصدق فى كل سنة بترتيب جامكية (عطية) فاننا فى غاية الضيق والشدة . وما تحتاجه كنائسنا وأديرتنا والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والذين بالسجون والحديد لسبب الجوالى وغيرهم . . . . وأنتم يا أولادى تعرفوا ذلك أكثر منى ومن عملكم تعرّفوا السيد البابا عن ذلك . فإن السيد المسيح أعطاه السلطة على سائر المسيحيين وأبوهم وأبونا نحن أيضاً ، وحيث ما هو أبونا ، فيساعدنا فى ضيقنا الذي نحن فيه . »

وقد أرسل البابا مشكوراً بعض المساعدات (١) .

وتكشف لنا هذه الوثيقة عن بعض ما كان يهدف إليه الأقباط . كان للمسألة المالية علاقة وثيقة بالمسائل الدينية . وربما كان الأقباط يؤملون أيضاً أن تتدخل أوربا الناهضة لمصلحتهم ، كما تدخلت لمصلحة الملكيين ، إذا انضموا إلى صفوف الكاثوليك . ولكن ليست هناك أية وثيقة معروفة تسمح لنا أن نؤيد هذه النظرية .

وقد دام الاتحاد مع روما قرناً ونصف قرن . ويدعى «رينودو» أن هذا الاتحاد قد زال لأن الكنيسة القبطية كانت فى حاجة إلى اكتساب تأييد الباشوات الأترك(٢) .

وإذا تركنا جانباً هذا الحادث ، نلاحظ أنه لم يحدث فى تاريخ الأقباط

---

(١) الأب انطون رباط ، البابا اكليمندوس الثامن وبطريرك الأقباط جبرائيل ، فى مجلة المشرق ، عام ١٩٠٧ — ١٩١٤ .

(٢) تاريخ البطاركة ، ص ٦٠١ و ٦٠٢ .

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ما يسترعى النظر ، ما عدا الغرامات التى كانت تفرض عفواً على الأقباط والكنائس التى كانت تغلق إلى أن يسدد دافعو الضرائب ما عليهم .

وقد شعرت مصر بالهدوء الداخلى والعظمة فى عهد على بك ثم عادت الفوضى إليها ثانية وتعرض الأقباط بطريقة غير مباشرة للاضطهاد . ذلك أنه لما قدم إلى مصر عام ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) القبطان حسن باشا ليؤكد سيادة الباب العالى على مصر ، أبى أن يغادر البلاد قبل أن يملأ جعبته الخاصة بالنقود . فقام بعدة إجراءات تعسفية ضد النصارى تحقيقاً لمأربه . قال الجبرتى : « نودى على طائفة النصارى بأن لا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمون ولا يشتروا الجوارى والعبيد ومن كان عنده شىء من ذلك باعه أو أعتقه ، وأن يلزموا زيهم الأصلى من شد الزنار والزنوط . وأرسل حسن باشا إلى القاضى وأمره بالكشف عن جميع ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهرى على الديور والكنائس من أطيان ورزق وأملاك والمقصود من ذلك كله استجلاب الدراهم والمصالح . و (فى اليوم التالى) نودى على طائفة النصارى بالأمان وعدم التعرض لهم بالإيذاء وسببه تسلط العامة والصغار عليهم . »

وبعد ذلك « نودى على النصارى واليهود بأن يغيروا أسماءهم التى على أسماء الأنبياء كابراهيم وموسى وعيسى ويوسف وإسحق ، وأن يحضروا جميع ما عندهم من الجوارى والعبيد ، وأن لم يفعلوا ، وقع التفتيش على ذلك فى دورهم وأماكنهم ، فصالحوا على ذلك بمال ، فحصل العفو وأذنوا لهم فى أن يبيعوا ما عندهم من الجوارى والعبيد ويقبضوا أثمانها لأنفسهم ولا يستخدموا المسلمين ، فأخرجوا ما عندهم وباعوا بعضه وأودعوه عند معارفهم من المسلمين . »

وبعد يومين « نودى على النصارى باحضار ما عندهم من الجوارى والعبيد ساعة تاريخه ثم نزلت العساكر وهجمت على بيوت النصارى لاحضار ما فيها ، فكان شيئاً كثيراً ، وأحضروهم إلى القبطان ، فأخرجوهم إلى المزاد

وباعوهم واشترى غالبهم العسكر وصاروا يبيعونهم على الناس بالمرابحة . وقرر على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة الأمراء المصرية مبلغ دراهم مجموع متفرقها خمسة وسبعون ألف ريال . وأمر أيضاً بإحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو فى ملكهم وأن يكتب جميع ذلك فى قوائم ، ويقرر عليها أجرة مثلها فى العام ، وأن يكشف فى السجل على ما هو جار فى أملاكهم ، ثم قرر أيضاً خمسمائة كيس ، فوزعوها على أفرادهم ، فحصل لفقرائهم الضرر الزائد وقرر أيضاً على كل شخص ديناراً جزية ، العال كالدون ، وذلك خارج عن الجزية الديوانية المقررة .

« وقبض قبطان باشا أيضاً على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقاً من ودائع النصارى . وقبض القبطان على المعلم واصف وحبسه وضربه وطالبه بالأموال ، وواصف هذا أحد الكتاب المباشرين المشهورين ، ويعرف الإيراد والمصاريف وعنده نسخ من دفاتر الروزنامة ويحفظ الكليات والجزئيات ، ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك ويعرف التركى . وقبض على بعض نساء المعلم إبراهيم الجوهرى من بيت حسن أغا كتخدا على بك ، أمين احتساب سابقاً . فأقرت على خبايا أخرجوا منها أمتعة وأوانى ذهب وفضة وسروجاً وغيرها »(١) .

وبعد سفر القبطان باشا واقتسام البكوين عبدى بك واسماعيل بك السلطة ، تعرض الأقباط للاضطهاد مرة أخرى . ويروى الجبرتى أن « حضر عبدى باشا واسماعيل بك إلى بيت الشيخ البكرى باستدعاء بسبب المولد النبوى . فلما استقر بهم الجلوس ، التفت الباشا إلى جهة حارة النصارى وسأل عنها . فقيل له انها بيوت النصارى ، فأمر بهدمها وبالمناداة عليهم من ركوب الحمير ، فسعوا فى المصالحة وتمت على خمسة وثلاثين ألف ريال ، منها على الشوام سبعة

---

(١) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١١٥ - ١٢٠ .

عشر ألف وباقيها على الكتبة »(١) .

وبالرغم من هذا كله ، لم يتوان الأب « برنا » اليسوعى من الكتابة إلى الأب « فليريو » عام ١٧١١ م يقول : « مصر هى البلد الوحيد فى الامبراطورية الإسلامية الذى تقام فيه شعائر الدين المسيحى بحرية أكثر من أي بلد آخر . ولهذا السبب ، فإن عدداً كبيراً من نصارى البلاد الأخرى يلجأون إليها . . . » فيجدر بنا إذن إعادة النظر فى حالة الأقباط فى مصر قبيل قدوم الحملة الفرنسية .

الأقباط قبيل الحملة الفرنسية .

كان من شأن القرن التاسع عشر حدوث تطورات ذات شأن فى مصر . فما كان استعداد الأقباط لتلقى هذه التطورات ؟ وما كانت أهميتهم من حيث العدد ؟ وما هى حالتهم المعنوية ؟ يمكننا أن نجيب جزئياً على هذه الأسئلة بعد الاطلاع على روايات الرحالة أو مذكرات القناصل التى نشرت حتى الآن .

ترك الأقباط بصفة عامة أثراً سيئاً فى نفوس الأجانب . وكان نفوذهم قد اضمحل وعددهم نقص . ولم يكن لهم أثر إلا فى القاهرة والإسكندرية حيث كانوا يحترفون الصناعة والحسابات ، وفى الصعيد حول مدينة أسيوط وإلى جنوبها فى اتجاه أسوان . ففى هذه المناطق البعيدة عن العاصمة كان الشعور أقل عنفاً ، فكان الأقباط يعيشون فى أمن نسبى .

ولم يكن فى مصر ، فى مطلع القرن التاسع عشر ، سوى مائة وخمسون ألف قبطى على ثلاثة ملايين من السكان . وكان يقطن القاهرة وحدها عشرة آلاف قبطى . وتذكر إحصائية مسيحية أن ستمائة ألف شخص كانوا

---

(١) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ١٥٤ .

(٢) *Lettres édifiantes*, V, p. 226

يدفعون رسماً للبطريرك عند الفتح الإسلامى وأن هذا العدد نقص إلى عشرة آلاف وخمسة عشر ألف شخص عند ما كان الأب « فانسليب » فى زيارة مصر عام ١٦٧١ م[1]. ومن جهة أخرى ، يذكر الرحالة « نيبوهر» عام ١٧٦٠ أنه لم يكن يوجد فى مصر إلا اثناعشر مطراناً معظمهم فى الوجه القبلى بينما كان عددهم عند الفتح الإسلامى سبعين[2] .

وكان عدد الرهبان صغيراً جداً ، وهم موزعين بين أربع أو خمس أديرة مثل دير القديس مكاريوس ودير القديس أنطونيوس . . . . وهى كلها فى حالة يرثى لها . وكان القساوسة — وكلهم متزوجون — يهتمون بحاجاتهم المادية أكثر من اهتمامهم برغبتهم وبواجباتهم الدينية . لقد استبد بهم الجهل إلى حد كان يصعب معه انتخاب بطريركاً من بينهم[3] . ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر عليهم ، وخاصة على الرهبان منهم ، شيئاً من التقوى ، غير أنهم كانوا يعتقدون أن الدين ما هو إلا مجرد تلاوة الصلوات وملاحظة أيام الصوم المتعددة .

وإذا كان الأجانب يعتبرون الأقباط « قوماً جهلاء وغير متمدينين » [4] فعذرهم فى ذلك أن مظهر النصارى الذى اتصف بالتواضع والفقر كان يوحى بالاحتقار . أما المؤرخون المسلمون ، فقد تجاهلوا فى عصر المماليك هذه الأقلية التى لا غنى لهم عنها مع ما تسبب لهم من مضايقات على الرغم من حالة الضعف التى وصلت إليه .

ولم يعد القبطى إلا مباشراً عرضة للاضطهادات وللإهانات . ويكتب «فانسليب» قائلا : « نقرر أنه لا توجد طائفة بمصر معرضة للاضطهاد كالأمة

(١) *Nouvelle relation*, p. 298-9

(٢) *Voyage en Arabie* وكان الأب برنا يكتب للأب فلوريو بتاريخ ٢٠ يوليو ١٧١١ : « يتكون الاكليروس من ١١ أو ١٢ أسقفاً . »

(٣) Thévenot, *Relation*, p. 501.

(٤) نفس المصدر

القبطية . ذلك لأنه لم يعد من بينهم من يستطيع أن يكون موضع احترام الأتراك لعلمه ، أو موضع خوفهم لسطوته . فكان الأتراك يعتبروهم حسالة العالم وأقل منزلة من اليهود . وقد كانوا يسيئون معاملتهم عند ما يحلو لهم ذلك ويغلقون لهم كنائسهم وأبواب منازلهم حين يروق لهم الأمر ولأتفه الأسباب وأبعدها عن العدل لكى يغتصبوا منهم بعض المال »(١) .

إلا أن الوظائف الإدارية التى كان المماليك يضطرون إلى إسنادها إلى الأقباط قد أعطت لهؤلاء الأقباط فرصة الانتقام من الظلم الذى كان ينزله عليهم أسيادهم وإعادة جمع ثروتهم بسرعة . أضف إلى ذلك أن الاضمحلال الذى أصاب الأقباط حدث على دفعات . فقد بدأ قبل دخول العرب ، أى فى عهد الرومانيين والبيزنطيين ، ومن هنا يتضح لنا أن الأقباط اعتادوا على هذا اللون من الحياة منذ أمد بعيد وارتضوا لأنفسهم حياة متواضعة ، فلم يبدوا أية شكوى لاعتقادهم أنهم الطبقة المفكرة التى لا يمكن للأمة أن تستغنى عن معارفها وخبرتها فى الأعمال إذا أرادت أن تضمن حسن سير الإدارة فى البلاد . وعلى أى حال ، لم يكن المسلمون أنفسهم بأحسن حال من الأقباط تحت حكم البكوات المماليك .

وأحسن برهان على تسليم الأقباط بالأمر الواقع ، انهم لم يفكروا أبداً فى الهجرة (إلا فى عصر الحاكم ومحمد بن قلاوون) بل كانوا متعلقين ببلادهم تعلقاً شديداً . وكتب القنصل الفرنسى « دى مايبه » فى هذا الصدد : « فى شهر سبتمبر سنة ١٦٩٩ ، تلقيت أمراً من ملك فرنسا باختيار ثلاثة من أولاد الأقباط لإرسالهم إلى فرنسا وتربيتهم هناك على النحو الذى كان يربى عليه أولاد بعض الأمم الشرقية . وحاول القساوسة عبثاً إقناع الموسرين لإرسال أولادهم ولم يكونوا أكثر توفيقاً مع الأسر الفقيرة مهما كان عدد أولادها وعمد بعض الآباء والأمهات إلى سحب أولادهم من مدارس الإرساليات والتضحية

(١) *Nouvelle relation*, p. 298-9.

بالمساعدات المالية التى كانت تعطى لهم على الرغم من شدة حاجتهم إليها ، وذلك خوفاً من أن ينتزع أولادهم رغم إرادتهم ، مما يدل على إجلالهم لوطنهم وشدة تعلقهم به . ويعلق « دى مابيه » على هذا الحادث قائلا : « يعتقد الأقباط أن بلادهم لا مثيل لها وهم فى ذلك على حق . ومن يستطع أن يعيب عليهم حبهم لبلد وصفها الأجانب بأنها الفردوس الأرضى ؟ »(١) .

وإذا تركنا جانباً المبالغ التى كانت تؤخذ عنوة من الأقباط ، يجب أن نلاحظ أنهم كانوا يعيشون منسيين ، بل كانوا ينعمون بهدوء نسبي وخاصة فى الأقاليم . نعم أن بعض الرحالة يحدثونا أحياناً بشىء من السخط عن القيود المفروضة على النصارى فيما يختص بملابسهم ، كما يقولون أيضاً أن ركوب الخيل كان محرماً على غير المسلمين . إلا أن هذه القوانين كانت تطبق فى المدن الكبرى دون سواها . أما فيما عدا ذلك ، فلم يكن الإنسان يستطيع أن يميز بين القبطى وغيره . ويكتب « تيفينو » قائلا : « لا يستطيع المسيحيون ، سواء كانوا من الأفرنج أو غيرهم ، أن يمتطوا الجياد فى المدن . ولكنهم يستطيعون ذلك فى الأرياف إذا أرادوا »(٢) .

ولا ننسى أن الأقباط المتعلمين والمثقفين قد نالوا الحظوة لدى أسيادهم مثال ذلك أن المعلم رزق ، مباشر على بك وكاتم أسراره ، كان يتمتع بسلطة واسعة جدا . وهناك أيضاً المعلم ابراهيم الجوهرى الذى توفى عام ١٢٠٩ هـ (١٧٩٧ م) والذى ميزه الجبرتى عن غيره من النصارى ، فذكره ضمن وفياته . وهذا الحادث مما يلفت النظر ، ذلك لأن المؤرخ المسلم لم يكن يهتم عادة بوفاة النصرانى مهما علت مرتبته . ونحن نورد هنا ما قاله الجبرتى فى رثائه له : « مات الذمى المعلم إبراهيم الجوهرى ، رئيس الكتبة الأقباط بمصر ، وأدرك فى هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع

---

(١) *Description de l'Égypte*, II, p 134-5

(٢) *Voyage*, p. 508

طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم . وأول ظهوره فى أيام المعلم رزق كاتب على بك الكبير . ولما مات على بك وترأس إبراهيم بك، قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه فى الكليات والجزئيات ، حتى دفاتر الروزنامة والميرى وجميع الإيراد والمنصرف وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته . وكان من دهاقين العالم ودهاته ، لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور ويدارى كل إنسان بما يليق به من المداراة ، ويحابى ويهادى ويواسى ويفعل ما يوجب انجذاب القلوب والمحبة ويهادى ويبعث الهدايا العظيمة والشموع إلى بيت الأمراء . وعند دخول رمضان ، يرسل إلى غالب أرباب المظاهر ومن دونهم الشموع والهدايا والأرز والسكر والكساوى ، وعمرت فى أيامه الكنائس وديور النصارى ، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان ، ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق وحزن إبراهيم بك لموته وخرج فى ذلك اليوم إلى قصر العينى حتى شاهد جنازته وهم ذاهبون به إلى المقبرة »[١] .

على أن المباشرين الأقباط فى جملتهم لم يتمتعوا بالنفوذ الذى حازه الجوهرى . وكانت غايتهم الوحيدة جمع المال . « وأصبحوا لا يهتمون بما يعلى من شأن وطنهم ، بل كان يدفعهم الحرص والبخل فى كل أعمالهم وينأى بهم عن العلوم والفنون ، فلم يعودوا يشعرون بأى ميل إلى النبوغ فيها »[٢] .



---

(١) الجبرتى ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

(٢) *Description de l'Égypte*, XIV, p. 299.

١٠

سياسة بونابارت الإسلامية
وموقف الفرنسيين من الأقباط

إن الحملة الفرنسية على مصر تهمنا لعدة أسباب . فهى أول محاولة منذ الحروب الصليبية قامت بها دولة غير مسلمة لغزو وادى النيل . وهى أيضاً أول مرة منذ الفتح العربى تحكم مصر دولة مسيحية كما أنه لأول مرة منذ ظهور الإسلام يحاول بعض مسيحى أوروبا التعاون مع مسلمى مصر .

لذلك تحتل هذه الفترة مكاناً عظيما فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والأقباط ، إذ كان هذين العنصرين أمام مشكلة جديدة . فما كان موقفهما من هذا الفاتح ؟

بونابارت ، حامى الإسلام .

فى ٢٨ يونيو عام ١٧٩٨ ، أى قبل نزول القوات الفرنسية إلى الساحل المصرى ، وصل الأميرال « نلسون » أمام الإسكندرية . وكان جاداً فى البحث عن أسطول بونابارت . فلما لم يجده هناك ، أراد أن يحذر المصريين من هجوم فجائى يشن عليهم . ولكنهم رفضوا الاستماع إليه لعدم ثقتهم بالأجنبى على الإطلاق ، وطلبوا إليه أن يغادر مياه الإسكندرية على وجه السرعة .

وكان بونابارت يعلم أن العمارة الفرنسية قد تستقبل استقبالا عدائياً ، إذا ما وصلت إلى الساحل المصرى . ولكنه كان شديد الثقة بسياسته الجديدة ، وكان يعتقد أنها سوف تزيل الحواجز القائمة منذ أجيال بين الشرق المسلم والغرب المسيحى .

وكانت الحملة الفرنسية فى نظر مماليك مصر معاودة للمحاولات التى

قام بها « بودوان » و « أمورى » و « جان دى بريين » و « لويس التاسع » فى سبيل القضاء على الإسلام ، أو هى على الأقل غارة من غارات القرصان الأوروبيين أوسع مدى من سابقاتها (١).

أما بونابارت فقد تقدم إلى أسوار الإسكندرية على أنه حامى الإسلام ، بل بطل من أبطاله . فقال : « لسنا كفار العصور الهمجية الذين يأتون إليكم لمحاربة إيمانكم . اننا نعترف بأن إيمانكم رفيع القدر . وسوف نعتنق دينكم إذا حلت الساعة التى يصبح فيها الفرنسيون الراشدون مؤمنين حقيقيين »(٢).

لم يعلن بونابارت أهمية تذكر لاعتماد الأهالى على القوة فى صد العدوان الفرنسى ولعدم تصديقهم خطبه الحماسية ، ذلك لأنه كان يؤمل أملا كبيراً فى أنهم سوف يصغون إلى صرخته عاجلا أم آجلا . فلم يدخر وسعاً إلى أن يحين هذا الموعد فى إظهار عطفه عليهم وإخلاصه لهم . ويكتب « فرنسوا شارل رو » فى هذا الصدد قائلا : « لم يتقدم قط مستعمر أوروبى إلى البلاد الإسلامية وهو مشبع بروح التسامح والاحترام والعطف مثل بونابارت ، خصوصاً وإن لم يفكر أبداً فى أعمال التبشير لصالح الديانة المسيحية ، وكان بعيداً كل البعد عن أى اعتبار دينى يسىء إلى الإسلام . . . . ولم يأت قط أى مستعمر أوروبى مثل بونابارت بهذا الاستعداد الطيب ولم يدل بتصاريح أكثر علانية وأكثر صراحة ، ولم يقدم البراهين المتعددة والمقنعة » (٣) .

وكانت باكورة أعمال بونابارت تصريحه للقوات الفرنسية المتأهبة لغزو مصر ، وذلك قبل نزولها إلى البر ، أى فى أول يوليو : « ان الشعوب التى

(١) يقول الرحالة « نيبوهر » إن أهالى دمياط يمتازون عن سائر المصريين بكرههم للنصارى . ولا بد أن ذكرى الحروب الصليبية هى التى أوحت لهم هذا الكره .

(٢) من رسالة إلى والى حلب مؤرخة شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ . وقد نشرت وثائق الحملة الفرنسية فى عدة موسوعات . فلن نذكر المصادر ، بل نقتصر على ذكر تاريخ الوثيقة .

(٣) F. Charles-Roux, *Bonaparte, gouverneur d'Égypte*, p. 76

سوف نعيش معهم يدينون بالإسلام ، وأول ما يؤمنون به هو أن « لا إله إلا الله ومحمد رسول الله . » فلا تنازعوهم فى ذلك ، بل عاملوهم كما عاملتم اليهود والإيطاليين واحترموا رجال الدين كما احترمتم الحاخامات والمطارنة ، وأظهروا للمواسم التى أمر بها القرآن والمساجد نفس التسامح الذى أظهرتموه ازاء الأديرة والمعابد وازاء ديانة موسى والمسيح . »

ولما كانت الثورة الفرنسية قد أبعدت الفرنسيين عن الديانة ، فقد اكتفى بونابارت بتوصية رجاله أن يظهروا احترامهم للمسلمين . أما تصريحه الذى وجهه إلى الشعب المصرى ، فكان أكثر وضوحاً إذ كشف فيه نواياه الحقيقية وعن السياسة التى سوف ينتهجها ازاءهم . وقد ظلت هذه السياسة رائده مدة إقامته بينهم . قال بونابارت فى ندائه للمسلمين : « أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلاد ، قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون . وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالارية (الفرسان) الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه . »

ولما احتل القائد الفرنسى البلاد ، أسرع إلى تنفيذ ما وعد به ، فلم ينقض شهر على نزوله الإسكندرية ، حتى أمر بالاحتفال بالمولد النبوى احتفالا عظيما وصفه لنا المؤرخ « أميدى ريم » ، معاصر الحملة ، وصفاً رائعاً ، فقال : « كان بونابارت يرتدى زياً شرقياً جميلا ، ولبس عمامة ، وانتعل بابوجا ، وصحبه جميع ضباطه وقواده إلى المسجد الرئيسى حيث كان مجتمعاً حوالى المائة شيخ . فجلس بونابارت بينهم على وسادات منثورة على الأرض ، ثم شبك ذراعيه وأخذ يتلو معهم تواشيح تقص حياة النبى منذ

مولده إلى وفاته ، ويؤر مثلهم أعلى جسده ويحرك رأسه مما لفت أنظار رجال الدين الذين أعجبوا بتقواه »[1] .

ولما كان يريد أن يقوم بأكبر دعاية حول موقفه هذا ، فقد كتب إلى الجنرال « مارمون » بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٧٩٨ يقول : « . . . . . قابل من طرفى الشيخ المسيرى وقل له فيما تقوله كيف احتفلنا بمولد النبى ، قل له إنى فى القاهرة أجتمع برؤساء القضاء وكبار القوم ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام وانى أكثر الناس اقتناعاً بصفوة الديانة الإسلامية وقداستها . . . »

وفى نفس اليوم ، كتب إلى الشيخ المذكور رأساً يقول له : « . . . أرجو ألا يتأخر الوقت الذى أستطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمثقفة فى البلاد ووضع نظام ثابت يرتكز على مبادىء القرآن الحقة الوحيدة التى تستطيع إسعاد البشر دون سواها . »

هل كان بونابارت صادقاً فى دعواه ؟ إن كانت الاعتبارات السياسية هى فى رأينا التى أملت عليه موقفه هذا ، يجب ألا نستبعد أن الشرق قد أثر فيه تأثيراً عميقاً وأنه كان يكن للإسلام عطفاً كبيراً ، فلم يمل من الاجتماع بالعلماء . أما العلماء ، فعلى الرغم من أن الفاتح الفرنسى كان يثير ظنونهم وأنه لم يكن فى نظرهم إلا كافراً ، فكانوا يرتاحون لإثارة المناقشات الدينية فى حضرته ، وكانوا يعجبون إعجاباً شديداً بعقليته الجبارة مما جعلهم يؤملون سراً بأنه سينضم إليهم يوماً من الأيام رافعاً لواء الإسلام .

وقع بونابارت فى الشباك التى نصبها هو نفسه . ألم يقل ذات يوم لمن حوله بعزمه على ارتداء الملابس الشرقية وربما على اعتناق الديانة الإسلامية ؟ ولما كان بونابارت لا يحترف ديناً ولا يعترف بوجود الله ، فلم يكن من المنتظر أن يثير اعتناقه الإسلام قلق فى نفسه فضلا عن أن إسلامه قد يخدم مراميه السياسية . ولكن قواده سخفوا الفكرة ثم اعترضوا عليها صريحاً .

A. Rhyme : *L'Egypte française*, coll. "L'Univ. Pittoresque," p. 64 (١)

وها هوذا بونابارت يرجىء مؤقتاً تنفيذ رأيه ، إلا أنه عاد إلى التفكير فيه جدياً بعد انهزامه أمام عكا . ولما عاد من سوريا ، أذاع على الشعب « أنه يتلقى عدة دروس فى القرآن ، فأخذ يجيده ويحبه.» وأضاف إلى ذلك « أنه ينوى بناء مسجد كبير ثم اعتناق الإسلام . » وها هو يعود إلى مباحثة العلماء ومناقشتهم ويسألهم ما هى الشروط المتوفرة عند المسلم الصادق . فهو يطرح أمامهم المشكلة بكل صراحة ويريد أن يجيبوا عليها بدقة . ولما كان يشك فى شعور رجال جيشه ، كان يسائل نفسه إن كان اعتناق الإسلام وحده سيحدث الانقلاب الذى يرجوه من الناحية السياسية . ولكن عواقب اعتناق الجنرال عبد الله مينو الديانة الإسلامية لم تشجعه على ذلك .

لقد غرق الأسطول الفرنسى فى أبى قير ولم يبق لدى القائد العام إلا بضعة آلاف من الجند . ولما قطع خط المواصلات بينه وبين فرنسا ، وفقد كل أمل فى وصول النجدات ، لم يستطع ، وحوله شعب يكن له العداء ، إلا أن يأمل — وإن كان هذا الأمل بعيداً — فى قدرته على كسب عطف هذا الشعب الذين تدين غالبيته بالإسلام .

ولكن كيف عامل الأقباط والنصارى عامة ؟

بونابارت يضحى الأقباط ليناصر الإسلام :

ولما كان بونابارت متشبعاً بروح المساواة والأخاء ، فقد أبى أن يقع فريق من الشعب تحت نير الاضطهاد وأن يمنع من الحياة الحرة . ويقول « تيبودو » : « على الرغم من أن بونابارت أراد أن يظهر ميله إلى الإسلام أمام المسلمين ، فانه لم يتقاعس فى حماية العقائد المختلفة »[1] .

غير أننا لاحظنا عدم اهتمامه لمنح الأقباط دفعة واحدة جميع حرياتها وخاصة حرية العبادة . ولما طلب الأقباط إليه أن يلغى القيود التى فرضها

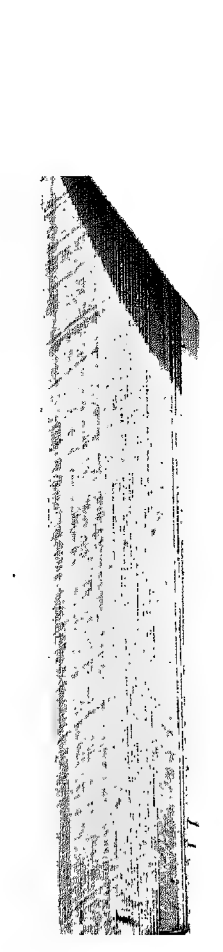
Thibaudeau : *Histoire de la Campagne d'Egypte*, Nlle. édit., II, p. 71 (١)

المماليك على شعائرهم الدينية ، أجاب المعلم الجوهرى بخطاب مؤرخ ٧ ديسمبر سنة ١٧٩٨ : « استلمت الكتاب الذى أرسلته الأمة القبطية . وأنه من دواعى سرورى حماية هذه الأمة التى لن تكون من الآن فصاعداً موضع الاحتقار ، وعند ما تتيح الظروف ، الشيء الذى لا أراه بعيداً ، قد أسمح لها بأن تقيم شعائرها الدينية علانية كما هو الحال فى أوروبا حيث يتابع كل إنسان عقيدته . » ولكنه أضاف إلى ذلك : « سأعاقب بشدة القرى التى قتل فيها الأقباط أثناء الثورات التى نشبت ، بينما أنك تستطيع من الآن أن تخبر أبناء طائفتك بأنى أسمح لهم بأن يحملوا السلاح ويركبوا البغال والخيول ويضعوا العمامات على رؤوسهم ويتزيوا بما يشاءون . »

وتعد هذه الرسالة الاجراء العملى الوحيد الذى استفاد منه الأقباط- فى عهد بونابارت الذى ما لبث أن الغى ما وعدهم به . ويقول الجبرتى : « إن نصارى الشوام رجعوا عاداتهم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق ، وتركوا لبس العمائم البيض والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك . ونبهوا أيضاً بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد لا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيء من ذلك »(١) . ثم يقص الجبرتى الحادث الآتى : « ان بعض الرعية من الفقهاء مر على بعض النصارى وهو يشرب الدخان ، فانتهره ، فرد عليه رداً شنيعاً فنزل ذلك المتعمم وضرب النصرانى ، واجتمع عليه الناس وحضر حاكم الخط فرفعها إلى قائمقام ، فسأل النصارى الحاضرين عن عادتهم فى ذلك ، فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل شهر رمضان لا يأكلون ولا يشربون فى الأسواق ولا بمرأى من المسلمين أبدا . فضرب النصرانى وترك المتعمم لسبيله . »

ولو أن عداء بونابارت للإقباط لم يذهب به إلى حد الاضطهاد ، فانه على أى حال لم يكن رفيقاً بهم . ويقول نقولا ترك : « طلب الجنرال بونابارت

(١) الجبرتى ، ج ٣ ص ٤٥ .



من تجار البهار الإسلام مايتين ألف فرانسا سلفه وطلب من طائفة الأقباط مباشرين الأقاليم وكتبة البلاد مايتين ألف فرانسا سلفة ثم طلب من التجار الشوامماية ألف فرانسا »[1] .

وكذلك صار الأقباط فى عهد بونابارت من خيبة أمل إلى خيبة أمل . نعم انه استعان بهم فى جباية الضرائب ، كما فعل المماليك من قبله ، ولكنه اتخذ هذا الاجراء مرغماً إذ كان يتكلم عنهم بقسوة شديدة فيقول : « انهم لصوص مكرهون فى البلاد غير أنه يجب مراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لإدارة البلاد دون سواهم . »

لذلك عين المعلم جرجس الجوهرى مباشراً عاماً وخوله السلطة على سائر المباشرين . ولكنه حرص على أن يكون معه موظف فرنسى لمراقبته . ثم لم يزل بونابارت منذ هذه اللحظة يترقب أول فرصة للتخلص من الجوهرى . ولما ترك القائد الفرنسى مصر ، أرسل إلى الجنرال « كليبر » كتاباً مؤرخ ٢٢ أغسطس عام ١٧٩٩ يقول له فيه بصراحة : « . . . . كنت مزمعاً ، ان سارت الأمور سيرها الطبيعى ، أن أضع نظاما جديداً للضرائب يجعلنا نستغنى تقريباً عن خدمات الأقباط . . . . . »

وأخيراً ، بالرغم من حاجته إلى زيادة عدد جيشه ، لم يفكر بونابارت قط فى الاستعانة بالأقباط ، كما أن الأقباط أنفسهم لم يظهروا حماسا زائداً فى طلب تجنيدهم ، فلم تؤلف الفرقة القبطية — كما سنبينه فيما بعد — إلا فى عهد الجنرال « كليبر » وفى ظروف خارجة تماماً عن إرادة الأقباط .

وكان بونابارت يأمل من وراء استغنائه عن خدماتهم ، مراقبة دخل الضرائب مراقبة فعلية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه كان يرغب خاصة فى ترضية المسلمين . وكتب إلى قواده فى عدة مناسبات يقول لهم : « مهما فعلتم ، تأكدوا من أن النصارى فى صفكم . فلا تترددوا إذن فى

(١) مذكرات ، مطبوعات المكتبة الخاصة لجلالة الملك ، ص ١٧ .

تفضيل المسلمين على النصارى . » وكرر هذا القول على الجنرال «كليبر» قبل رحيله إلى فرنسا . ولما انتصر على القوات العثمانية فى أبى قير وأراد أن يطمئن الأعيان والعلماء عن نياته ، صرح علانية : « نعم ، إنى أكره النصارى . لقد سحقت ديانتهم وحطمت هياكلهم وقتلت قساوستهم ، وهشمت صلبانهم ونكرت إيمانهم . وعلى الرغم من ذلك فأنى أراهم يفرحون لفرحى ويتألمون لألمى . فهل من المعقول أن أعتنق من جديد الدين المسيحى ؟ وما هى الفائدة التى سأجنيها من هذا العمل ؟

موقف المسلمين .

لقد أتيح لنا، بفضل المستندات الثابتة التى ذكرناها ، أن نجزم بأن بونابارت حاول بأقواله وأعماله كسب عطف المسلمين . ولم يذهب طبعاً لإرضائهم إلى حد اضطهاد النصارى ولكنه لم يبد لهؤلاء ما يدل على عطفه عليهم .

ولكن بونابارت لم يوفق فى إزالة البغضاء من قلوب المسلمين بسبب وجوده بينهم وذلك بالرغم من المظاهر المواتية ، فكان يشعر أن الشعب يتحمل حكمه كارهاً وأنه يترقب الفرصة التى تتاح له للتخلص منه . ولما تحدث الجبرتى عن زيارة القواد الفرنسيين للأعيان بمناسبة الأعياد الإسلامية ، أصرح بأن الأعيان كانوا يستقبلونهم بشىء من الترحيب المصطنع .

وقد مزقت ثورة القاهرة الأولى الستار الذى كان يخفى وراءه مهزلة التعاون بين المسلمين والفرنسيين . وقد دبرت المؤامرة فى الأزهر حيث أظهر بونابارت منذ فترة وجيزة مزيد عطفه على الإسلام . « وفى ذات يوم ، نهار الأحد فى عشرين ربيع آخر ، نزل أحد المشايخ الصغار ، وكان من مشايخ الأزهر ، وبدا ينادى فى المدينة أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر (يعنى نقولا ترك : عليه أن يتوجه إلى الجامع الأزهر) لأن اليوم ينبغى لنا أن نغارى

فى الكفار »[١] . وقد أخذ الفرنسيون على غرة بينما كانوا يطوفون فى شوارع العاصمة بدون أسلحة . وقد قتل الغوغاء جميع الذين تعاونوا مع الفرنسيين سواء كانوا مسلمون أم نصارى .

ولما قرر بونابارت أن يعطف على الثوار ، لم يصدقه أحد . ولما أراد بعض النصارى المطالبة بتعويض عما لحق بهم وبمساكنهم من أضرار ، رفض المسلمون التقدم بمثل هذا الطلب لاعتقادهم الراسخ أن أحداً لن يستمع إلى شكواهم كما ورد ذلك فى تاريخ الجبرتى . ولما علم الناس ، بعد أسابيع ، أن القوات العثمانية احتلت قلعة أبى قير « أظهروا البشر وتجاهروا بلعن النصارى »[٢] . ولكن الجنرال بونابارت انتصر على العثمانيين وعاد إلى القاهرة . فاضطر الأعيان والعلماء وأعضاء الديوان أن يتوجهوا إلى داره ليقدموا له فروض التهانى بمناسبة عودته السعيدة ، ولاحظ بونابارت مرة أخرى حزنهم وخيبة أملهم . ولكنه لم يحاول الانتقام منهم أو تعديل سياسته ازائهم ، فنهج السياسة التى سار عليها غداة ثورة القاهرة . غير أنه لامهم بلهجة هادئة على موقفهم ، فقال : « أيها العلماء والأعيان ، إنى أتعجب من حزنكم لانتصارى . إنكم لم تقدروا موقفى إزاءكم حتى الآن ، مع أنى كررت لكم أننى مسلم وأنى مؤمن بأن لا إله إلا الله وأنى أجل النبى وأحب المسلمين . »

ويتضح من ذلك أن العلاقات مع المحتل لم تكن طيبة إلا فى المظهر . وإذا كان بونابارت قد استمر فى إظهار صداقته نحو المسلمين ، إلا أنه شعر بفشله فى إقناعهم بحسن نياته ، وبأن القوة لا بد منها لإقرار النظام ، إذ كان الشعب ينظر إليه كرجل كافر يقود جيشاً من الكفار وأن قيامه بمصر كان يشجع النصارى على حساب المسلمين . غير أنه أمل ، حتى آخر لحظه ، فى قدرته على إزالة عداء الشعب نحوه . وكان إصراره هذا

---

(١) مذكرات ، ص ٢٨ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ص ٧٥ .

يستحق كل الإعجاب ولا سيما أن قواده كانوا يكظمون غيظهم من هذه السياسة . ولما آل الحكم إلى الجنرال «كليبر» ، لم يتردد هذا القائد فى محاباة النصارى ويأذن للجنرال المعلم يعقوب تكوين « الفرقة القبطية . »

وقبل أن نتناول الكلام عن هذه الفرقة التى انتقدها بعض المؤرخين الوطنيين وكانت موضع لاتهامات لا أساس لها من الصحة ، يجدر بنا أن نبسط سياسة الأقباط ازاء الفرنسيين .

موقف الأقباط .

كان المصرى المسلم يعتقد أن القبطى الذى استعبده المماليك وأذلوه ، تأثر بوجود الجيوش المسيحية فى الأراضى المصرية وأنه أظهر استعداده للانضمام إليهم . لذلك ، لما وصلت العمارة الفرنسية إلى مياه الإسكندرية ، ظل الفرنسيون والأقباط موضع شك السلطات وتعرضوا من جراء ذلك إلى أعمال السوء . طلبت السلطات إلى بعض القائمين الفرنسيين ألا يغادروا مساكنهم بينما أرسلت البعض الآخر إلى القلعة . ويقال ان مراد بك قرر قطع رؤوسهم ، إلا أنه أرجأ تنفيذ خطته إلى ما بعد انتصاره بناء على مشورة «كارلوروستى» ، قنصل النمسا . وكان الأقباط ينتظرون نفس المصير ، ولكن الباشا توسط لهم وأنقذهم من مصيرهم المحتوم . ويكتب نقولا ترك فى هذا الشأن : « قال الوزير وشيخ البلد إبراهيم بك : غير ممكن أننا نسلم فى هذا العزم والرأى لأن هؤلاء رعية مولا نا السلطان صاحب النصر والعز والشأن . وكان الوزير وشيخ البلد كل يوم يرسلوا إليهم (أى إلى النصارى) سليم أغا ، مستحفظان أغات الانكشارية ، حالا يطمنهم فى محلاتهم على أرواحهم وأموالهم ويطلق المناداة ، فى كل البلد على حفظ الرعايا وعدم المعارضة لهم »[١] .

على أن الجبرتى يضيف إلى ذلك قوله : « صار الأمراء يفتشون فى محلات

---

(١) مذكرات ، ص ١٣ .

الافرنج على الأسلحة وغيرها ، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنائس والأديرة على الأسلحة ، والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود ، فيمنعهم الحكام عنهم . ولولا ذلك المنع ، لقتلتهم العامة وقت الفتنة »[١] .

هل كان فى موقف الأقباط ما يبرر هذه الروح الانتقامية ؟ لا . ومن المحتمل أن يكون الأقباط قد وجدوا فى قدوم الفرنسيين أبناء دينهم ما يلطف من مصيرهم . ولكن موقفهم من الأوروبيين فيما مضى والوثائق التى عثرنا عليها عن الحملة الفرنسية ، لا تسمح لنا من الجزم بأن الأقباط حاولوا مساعدة الغزاة .

هل نستطيع أن نأخذ عليهم موقفهم السلبى وقت الخطر ؟ ولكن هل كان فى استطاعتهم أن يقوموا بعمل ما بعد أن جردتهم السلطات من سلاحهم ؟

إننا نميل إلى الاعتقاد بأن النصارى كانوا أضعف من أن يستطيعوا اتخاذ أى قرار ، فرضخوا لأوامر الأغلبية . وكانوا أثناء القتال يعتبرون أنفسهم متضامنين مع مواطنيهم المسلمين .

على أن انتصار الفرنسيين وفرار المماليك لم يؤثرا على سلوك الأقباط . وعند ما وصف الضابط « ريشاردو » أحد رجال الحملة دخول الجيوش الفرنسية المنتصرة مدينة القاهرة ، اعترف بأن « دخولها ظافرة إلى العاصمة الحديثة لمصر القديمة لم يحدث ما يلفت النظر ، ولم يهتم بها سكان المدينة ولم يخرج الجماهير إلى الطرقات ، فلم يشاهد فيها جماعات من الرجال ولا حتى من الأطفال وبالاختصار لم يبد الجمهور أى اهتمام لهذا الحادث »[٢] .

والملاحظة أن بونابارت أول من أرسل فى طلب المعلم جرجس الجوهرى الذى قدم إلى الجنرال الفرنسى أعيان الأقباط . ومن الطبيعى أن ينتهز الأقباط

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٧ .

(٢) Richardot. *Nouveaux mémoires*, p. 59-60.

هذه الفرصة ليقدموا فروض الطاعة والخضوع للرجل الذى جلس على أنقاض المماليك ورسخت قدمه فى البلاد . وكان أعضاء الوفد يرتدون الكساوى ذات الأكمام المذهبة ، المزدانة بالوريدات الذهبية وعلى رؤوسهم العمائم الكشمير . وأعربوا لبونابارت عن خالص ولائهم . . . . »[١] .

وقلق المسلمون لعمل الأقباط هذا مما دعا الجبرتى إلى اتهام النصارى صراحة بالتعاون مع الفرنسيين . وأخذ يشهر بالنساء السوريات واليونانيات اللواتى كن يدخلن الحريم لالقاء الرعب فى قلوب نساء البكوات المماليك وحملهن على دفع الضرائب التى فرضها الفرنسيون ، ثم يحمل على المباشرين الأقباط الذين يقومون بجباية الضرائب « على طريقة كبار الموظفين » أى باستعمال السوط . وقال أخيراً الجبرتى ان الأقباط والسوريين واليونانيين واليهود أصبحوا لا يحتملون لأنهم يركبون الخيل ويحملون السلاح .

ولكن سبق أن قلنا كيف كان بونابارت يعامل الأقباط بالقسوة وأنهم لم يفوزوا بمعاملة استثنائية إلا بعد أن تولى الجنرال «كليبر» الحكم وبعد أن ثار سكان القاهرة مرة أخرى على الفرنسيين . ما لبث أن ألغيت الإجراءات الاستثنائية بعد مقتل القائد الجديد .

ولما طلب ثوار القاهرة الأمان ، لم ير «كليبر» مانعاً من منحهم إياه، ولكنه أثقل كاهل البلاد بالضرائب بعد ذلك . ثم أرسل فى طلب العلماء والأعيان وألقى فيهم خطبة ملأها بعبارات التهديد والوعيد ووصفهم بالرجال الأشرار الجاحدين وأخبرهم بفرض ضريبة استثنائية على جميع السكان ، ما عدا النصارى الذميين[٢] .

إلا أن هذا الإجراء الذى يتفق تماماً مع روح «كليبر» القاسية ، كان يعتبر عملا غير سياسى إذ أوجد فرقاً بين المسلم ، عدو الفرنسى ، والقبطى

---

(١) G. Homsy, *Le général Jacob et l'Expedition de Bonaparte en Égypte*, p. 42.

(٢) مذكرات نقولا ترك ، ص ٨٩ و ٩٠ .

الذى يدين بدينه . ثم ان النصارى الذين عوملوا معاملة سيئة أثناء ثورتى القاهرة، اعتقدوا، بعد انتصار «كليبر» فى سهول عين شمس وقضائه على الثورة الداخلية ، أن أركان حكم الفرنسيين قد وطد إلى الأبد وأنهم سيظلون أسياده دون منازع . وقد استغلوا حظوة المحتل فتغطرسوا وتعجرفوا . وكتب الجبرتى فى هذا الصدد : « تطاولت النصارى من القبط والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يبقوا للصلح مكاناً ، وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين . . . وأمر الفرنسيون بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها مطلقاً سوى خمسة أنفار من المسلمين وهم الشرقاوى والمهدى والفيومى والأمير وابن محرم ، والنصارى المترجمين وخلافهم لا حرج عليهم »[١].

ولما اغتال سليمان الحلبى الجنرال «كليبر» ، تحرك نار الانتقام فى قلوب الجنود الفرنسيين واشتعلت فجأة . وقال نقولا ترك انه كان فى نية العساكر الفرنسية أن يبيدوا جميع سكان القاهرة من مسلمين ونصارى .

وخلف « مينو » الجنرال «كليبر» . ولما كان « مينو» رجلا إدارياً ، أظهر ريبته من المباشر القبطى . ولما كان القبطى غير محبوب من الفرنسيين ، فقد تحمل مضايقات لا حصر لها ولا عداد بينما تعرض المباشرون لرقابة شديدة . « وكان الفرنسيون يعاقبون بقسوة المباشرين الأقباط الذين اختلسوا الأموال وكانوا يتربصون الفرصة للاستغناء عن هؤلاء الموظفين الغير المخلصين. وفى شهر فاندمبير عام ٩ من الثورة ، اتهم « استيف » الأقباط باختلاس ١,٢٩٣,١٤٣ جنيها على حساب دافعى الضرائب ، فأمر « مينو» بالقبض على المباشر آبى طاقية وتغريمه ٧٥٠ ألف جنيه لتعويض الخسائر »[٢] .

ونقرأ أيضاً فى البند الرابع من الأمر المؤرخ ١٠ فاندمبير عام ١٠ ،

---

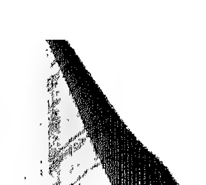
(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١١٣ .

(٢) G. Rigault, *Le général Abdallah Menou*, p. 118

الخاص بإعادة تنظيم الإدارة المصرية : « أن الأقباط ما هم فى مصر إلا أقلية مكروهة من المسلمين لأنهم يعملون على إثارة هذا الحقد عليهم . انه يجب علينا أن نضمن لهم العدل والحرية ولكن ليس من الحكمة بل من الخطر أن نتحالف معهم ونمنحهم الامتيازات . لذلك سيحضر رؤسائهم ورؤساء الأمتين اليونانية والسورية جلسات الديوان على أن يكون رأيهم استشارياً فقط . »

وعمل « مينو » على تحقيق مشروع بونابارت الخاص بتجريد الموظفين الأقباط من امتيازتهم . وقد ألغى فعلا وظائف المباشرين فى النظام الإدارى الجديد . واستثنى من ذلك المعلم يعقوب « الذى لا مراء فى كفاءته وإخلاصه للفرنسيين ، وقد يبقى فى الديوان بصفة مستشار لمدير الإيرادات العامة . وطلب إليه أن يقدم إلى الجنرال « استيف » المشايخ الذين سيقومون بجباية الضرائب ويكون لهم لقب المباشر ، وكذلك الأقباط الذين سيعملون تحت إمرة هؤلاء الشيوخ . »

وكتب « مينو » إلى الجنرال المعلم يعقوب يبسط له الأسباب التى جعلته يتخذ هذا القرار فقال : « أنت تعلم أننى قليل الثقة فى عدد كبير من مواطنيك الأقباط ، فراقبهم بعناية فائقة إذ أنهم غير مرتاحين إلى الإجراءات الإدارية التى اتخذتها والتى ترمى إلى إعادة النظام الذى لا يحبوه »[1] .



أما الأقباط ، فقد اتهموا بدورهم الفرنسيين أنهم يريدون التخلص منهم كى يختلسوا مال الخزينة العامة . وعلى العموم فان هذه الاجراءات التعسفية الموجهة ضدهم جعلتهم يتمنون جلاء الفرنسيين عن الأراضى المصرية . نعم أنهم كانوا يعلمون أن مواطنيهم المسلمين سوف يحاولون الانتقام منهم إذا ما رحل الفرنسيون عن البلاد ، ومع ذلك اختاروا أقل الضررين وفضلوا أن يقاسوا العذاب على أيدى المسلمين مدة من الزمن على حرمانهم من وظائفهم إلى الأبد .

(١) خطاب مؤرخ ١٢ مارس ١٨٠١ .

الجنرال يعقوب وتكوين الفرقة القبطية .

على أن هناك نقطة لم تزل غامضة ألا وهى تعاون الأقباط العسكرى مع المحتل .

فى نظر بعض الكتاب الوطنيين لا تحتمل مسألة المعلم يعقوب أية مناقشة : إنه خائن تعاون مع الفرنسيين وساهم فى ذل الشعب المصرى . ولم يحاول الكتاب الأقباط أنفسهم أن يفرقوا بين موقف المعلم يعقوب وبين موقف سائر الأقباط . وذهب أحدهم إلى حد كتمان هذه المسألة مما ضاعف كبر ذنب الأقباط فى عيون الوطنيين(١) .

واعتمد المؤرخ « جورج دوان » على حديث جرى بين القبطان « جوزيف إدموندس » وبين الجنرال يعقوب وصديقه « لاسكاريس » على ظهر السفينة « بلاس » وهما فى طريقهما إلى فرنسا . فأكد أن يعقوب كان يهدف إلى تحقيق استقلال مصر(٢) . وقد أيّد هذا الرأى المؤرخ المصرى شفيق غربال بك(٣) .

واعتمد سلامه موسى على هذه المذكرات ليكتب فى جريدة « مصر » القبطية عدة مقالات يمجد فيها أعمال الجنرال يعقوب الذى اعتبره أول من رفع صوته فى مصر وفى أوروبا مطالباً بحرية البلاد واستقلالها(٤) .

على أننا نرى شخصياً أن مختلف النظريات التى قيل بها حتى الآن نظريات خاطئة ونقول ان الجنرال يعقوب أنكر وطنه إن لم يكن قالباً فقلباً منذ اللحظة التى كون الفرقة القبطية . وسنرى من جهة أخرى أن الأمة القبطية استقبلت عمل الجنرال يعقوب بفتور .

---

(١) تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم بك ، القاهرة ١٨٩٨ .

(٣) الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ . القاهرة ١٩٣٢ .

(٤) انظر العدد المؤرخ ٢٦ نوفمبر ١٩٤٦ من جريدة « مصر » .

ولكن هذا لا يعنى أن يعقوب كان خائناً[١] إذ لم يكن وقتئذ جنسية مصرية محدودة . وكيف نلومه على موقفه هذا بينما طلب العثمانيون مساعدته لهم عند انسحاب الفرنسيين ؟

فإذا أردنا أن نفهم نفسية هذا الرجل ، يجب أن نلقى نظرة عن أعماله قبل الاحتلال الفرنسى .

كان يعقوب زكيا وصحيح البدن . وقد اشتهر بمهارته فى ركوب الخيل . كان يشغل ، كسائر أبناء طائفته ، وظيفة المباشر ، ولكنه لم يكن مسالماً مثلهم إذ أنه انضم ، قبل وصول الفرنسيين بزمن طويل، إلى صفوف إبراهيم بك ومراد بك فى المعركة الكبرى التى دارت بين جيوش المماليك وجيوش القبطان باشا . وقد شكره البكوان لشجاعته وأغدقا عليه النعم . وفى سنة ١٧٩٨ ، أصبح يعقوب وجيهاً وثرياً يحترمه ويعتبره الجميع .

ولما قدمه جرجس الجوهرى إلى الجنرال « بوسييلج » كتب هذا الأخير إلى بونابارت قائلا : « يقول الجوهرى إنك لن تجد إنساناً أكثر غيرة منه على مصالحنا وأنه يضع رأسه بين يديك راجياً أن تأمر بقطعها إن بدا من المعلم يعقوب أدنى خيانة »[٢] .

ونشعر هنا أن يعقوب المقاتل أعجب بقوة هؤلاء الجند الشبان الذين هزموا مماليك مراد بك وإبراهيم بك الذين عرف عنهم أنهم لا يكسرون . ثم إن يعقوب عرف عنه أن إخلاصه لرؤسائه يذهب به إلى حد إنكار الذات وكان المماليك هم رؤساءه بالأمس ، أما اليوم فكان الفرنسيون رؤساءه .

وقد ألحق يعقوب بالجنرال « ديزيه » مباشراً ، وأعجب إعجاباً شديداً بهذا القائد الشاب لشجاعته الفائقة ومهارته الحربية . فما كان منه إلا أن ألقى

---

(١) يؤيد أحمد حافظ عوض وجهة نظرنا فى كتابه « فتح مصر الحديثة أو نابليون بونابارت فى مصر . ص ٢٠٨ .

(٢) خطاب مؤرخ ٢ اغسطس ١٧٩٨ .

بدواته المعلقة بزناره واستل سيفه من غمده وخاض غمار معارك طاحنة وعرض نفسه للهلاك أكثر من مائة مرة . هذا لأنه كان يعتبر نفسه جندياً من جنود بونابارت وأخذ ينسى شيئاً فشيئاً أصله المصرى القبطى .

ولما سافر « ديزيه » إلى فرنسا مع بونابارت ، استقر يعقوب بالقاهرة حيث كان يحيط الفرنسيين بمعلومات مفيدة ، غير أن رائحة البارود ما زالت به حتى جذبته إليها . فلما حاصره الثوار فى ثورة القاهرة الثانية ، برهن أكثر من مرة على مهارته فى الفنون الحربية ، الشىء الذى جعله يستطيع أن يطلب إلى « كليبر » السماح له بتجنيد فرقة من الأقباط يتولى قيادتها . وقد أجاب « كليبر » إلى طلبه ومنحه رتبة أغا . وفرح يعقوب لذلك وأراد أن يعترف بالجميل فقام بتجهيز وتسليح فرقته على جيبه الخاص . وكان يبلغ عدد أفرادها ثمانمائة رجل وصفهم الجبرتى كما يلى : « ان يعقوب القبطى لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه سارى عسكرى القبطة ، جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة مع ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسادهم وزفارة أبدانهم »[١] .

أن تحيز الجبرتى ضد هذه الفرقة يكشف لنا عن شعور بعض المعاصرين العدائى . على أن الأقباط لم يكونوا أول من زود الجيش الفرنسى بالرجال . فقد سبقهم إلى ذلك عمر القلقجى الذى « توسط لمغاربة الفحامين وجمع منهم ومن غيرهم عدة وافرة وعرضهم على سارى عسكر ، فاختار منهم الشباب وأولى القوة وأعطاهم سلاحاً وآلات حرب ورتبهم عسكراً ورئيسهم عمر المذكور . وسكن العسكر المغربى بدار عند باب سعادة ورتبوا له من الفرنسيس جماعة يأتون إليهم فى كل يوم ويدربونهم على كيفية حربهم وقانونهم ومعنى إشاراتهم فى مصافاتهم فيقف المعلم والمتعلمون مقابلون له صفاً وبأيديهم بنادقهم فيشير

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

إليهم بألفاظ بلغتهم [١]» . ثم انضم المماليك إلى الفرنسيين بعد المغاربة . أما الأقباط فكانوا آخر من التحق با لجيوش الفرنسية . وعلى أى حال ، كان مجهودهم محدوداً جداً ، على خلاف المغاربة . فلم يشتركوا حتى فى المعارك التى سبقت تسليم الجيوش الفرنسية ولكن فرقتهم بقيت معسكرة فى القاهرة . وآخذ يفكر أفرادها فى حلها . والواقع أنه بينما كان يعقوب يستعد للابحار إلى فرنسا ، ركن جنده إلى الفرار أو الاختباء منه على الرغم من ضغطه عليهم .

لا يترك الإنسان بلاده باحثاً عن المغامرة إلا بدوافع قوية . وكان الأقباط لم يدركوا أبداً السبب الذى جندوا من أجله . أما يعقوب ، فكان عالماً بما فعل . انه نسى وطنه ووهب نفسه لخدمة رؤسائه الجدد منذ الأيام السعيدة التى تعاون خلالها مع « ديزيه » . ولكن كيف يكسب تقديرهم وهو مباشر ؟ لذلك انتسب إلى الجيش وساعدته أعمال البطولة التى قام بها على اكتساب عطف الفرنسيين . وتسلم قبل الجلاء بعشرة أيام رتبة جنرال وخطاباً يعبر فيه بونابارت عن خالص شكره على الخدمات التى أداها لفرنسا، فحال هذا التقدير دون اهتمامه بعروض الصدر الأعظم الذى منح له الأمان ووعده بإعادته إلى وظيفته السابقة . أما المعلم جرجس الجوهرى ، فقبل عروض الصدر الأعظم واستأنف نشاطه الخاص بجباية الضرائب تحت الحكم العثمانى ، ذلك لعدم وجود رباط الود بينه وبين الفرنسيين ، بخلاف المعلم يعقوب الذى تعلق من زمن بالجنرال « ديزيه »، وكان يكن لهذا البطل حباً شديداً لم يحاول أن يخفيه أبداً . ولما خرّ « ديزيه » صريعاً فى ساحة القتال الأوروبية، حياه جنوده المقيمين فى مصر . « وكان المعلم يعقوب حاضراً بملابسه العسكرية الفاخرة وقد التف حوله حرس الشرف وفرقة من جنوده . وكان حزنه يفوق كل حزن . ولما فكر الفرنسيون فى عمل نصب تذكارى له ، أسرع يعقوب بالكتابة إلى الجنرال «مينو» قائلا : « يا ديزيه ! سيقام لك نصباً فى فرنسا ! ان يعقوب

---

(١) الجبرتى ، جـ ٣ ، ص ٢٨ .

الذى كنت تحبه وكان يدللك كنفسه سيدفع ثلث التكاليف مهما بلغت . . . وهكذا سوف تعلم الأجيال القادمة أن يعقوب الذى حارب بجانبك كان يستحق تقديرك . . . يا للحسرة ! لقد وهبك قلبه منذ زمن طويل ! »

وهى كما نرى شعور لم نعهده فى أقباط هذا العهد ! لقد امتاز يعقوب عن سائر أفراد أمته ، وأراد أن يهدف مثل « ديزيه » إلى الفخر على ساحة القتال . ولكن شاء القدر أن يصاب على السفينة التى كانت تقله إلى فرنسا بمرض مجهول قضى نحبه على أثره . ولم تكن آخر كلماته عن مصر ولا عن أسرته ولا عن أفراد فرقته الذين ساروا فى ركابه . وبينما كان يحتضر ، طلب إلى الجنرال « بليار » الذى كان بجواره ، أن ينعم عليه بدفنه فى قبر « ديزيه » نفسه . ولكن لم تنفذ رغبته لأنه توفى على ظهر الباخرة فألقى جسده فى عرض البحر .

الأقباط بعد جلاء الفرنسيين .

عمل الفرنسيون فى الاتفاقية التى وقعوها على تأمين النصارى والمسلمين الذين ساعدوهم ، فاشترطوا فى المادة الثانية عشرة أن لكل من يقطن مصر مطلق الحرية ، مهما كانت جنسيته ، فى اللحاق بالجيش الفرنسى دون أن تتعرض أسرته للاضطهاد أو توضع ممتلكاته تحت الحراسة . وفى المادة الثالثة عشرة ، أنه لن يضطهد الذين يقطنون مصر ، مهما كانت ديانتهم ، فى أشخاصهم أو فى ممتلكاتهم بسبب علاقاتهم مع الفرنسيين أثناء احتلالهم مصر ، على أن يتبعوا من الآن فصاعداً قوانين البلاد .

ولكن ، على الرغم من هاتين المادتين الصريحتين ، فقد أرهق الشعب الفرنسيين أثناء انسحابهم ، ثم وجه غضبه إلى النصارى .

وهكذا لم تحاول الإجراءات التى اتخذها رجال الشرطة ولا تصريحات الوالى دون التخفيف من نار الانتقام المتأججة فى قلوب الشعب إلا بعد مضى وقت طويل .

ذروس الحملة .

دام احتلال الفرنسيين لمصر أقل من ثلاث سنوات ولكن هذه الفترة الوجيزة كانت حافلة بالأحداث ومليئة بالعظات .

جاء بونابارت إلى مصر مشبعاً بأحسن الشعور نحو المسلمين . وكان يريد أن يحابيهم على حساب النصارى إلا أن المسلمين أساءوا الظن به ثم عادوه وأخيراً كرهوه . إنهم نسوا تصريحات بونابارت المفعمة بالعطف على الإسلام وظلوا يتذكرون دخول الفرنسيين ساحة الأزهر حيث كان يعتصم ثوار القاهرة .

أما شعور النصارى ، فكانت أكثر تعقيداً . وقد رحب البعض ، أى اليونانيون والسوريون والأوروبيون ، باحتلال الجيوش الأجنبية لمصر بينما أن البعض الآخر ، أى الأقباط ، كبت شعوره ولم يظهروا عداءهم كما حدث عند ما نزل الصليبيون إلى السواحل المصرية ، ذلك لأن حملة بونابارت كانت خالية من الطابع الديني . ثم انهم كانوا يرحبون أن يرفع الفرنسيون من شأنهم حتى شعروا بأن المحتل كان يقصد تجريدهم من وظائفهم التقليدية ، أى وظائف المباشرين ، وعندئذ تمنوا عودة رؤسائهم الأتراك .

ولم يصف أحد شعور بونابارت نحو الفرنسيين أحسن من بونابارت ذاته ، إذ قال فى جزيرة سانت هيلينة بحضور « لاس كازيس » : « كنت أسيطر على جنودى إلى درجة يكفى معها أن أصدر إليهم أمراً يومياً عادياً لأجعلهم يعتنقون الإسلام . وكان الشعب يرضى عن هذا العمل ، وحتى النصارى أنفسهم قد يجدوا فى هذا العمل أحسن حل لمشكلتهم ، ولكانوا أقرونى لاعتقادهم أننى لا أستطيع أن أفعل لنا ولهم أحسن من ذلك . »

وبالاختصار ، فان الأقباط كانوا يتمنون رحيل هذا الأجنبى الذى لم يفيدهم بشىء ، بل كان وجوده بينهم يزيد كره المسلمين لهم .

ويمكننا أن نستنتج من حوادث هذه الحملة ثلاثة مسائل هامة : أولا ، أن احتقار المسلمين للأقباط جعل التفاهم بين هذين العنصرين من أعسر الأمور ؛ ثانياً ، أن وجود أمة مسيحية فى مصر أساءت إلى العلاقات بين الأقباط والمسلمين بالرغم من أن هذه الأمة كانت مشبعة بروح العطف على الأغلبية ؛ ثالثاً ، أن الأقباط الذين اضطهدهم المماليك واحتقروهم أصبحوا يرحبون بأمم أوروبا المسيحية على شرط أن تكون هذه الأمم منزهة عن كل غرض دينى .

١١

تسامح أسرة محمّد على

والاعتراف القانونى بالمساواة بين المسلمين والاقباط

فى هذه الحقبة المضطربة من حياة مصر ، أى فى فجر القرن التاسع عشر ، لم يكن يتصور الإنسان أن ضابطاً ألبانياً قدم البلاد حديثاً يستطيع بمحض إرادته أن يعدل القوانين التى سنت منذ أجيال لتحديد حالة الذميين الاجتماعية فى العالم الإسلامى . وكان من الصعب أن يتصور الإنسان أن حاكماً مجهولا ، يخضع لسيادة السلطان ، قد يشرع فى حركة إصلاحية جريئة فيلقى على السلطان والعالم أجمع درسا جميلا فى التسامح .

قد يقول البعض ان محمد على اتبع هذه السياسة لشدة رغبته فى إرضاء الأجانب وحرصه على خلق جو ملائم لتعاونهم معه إذ كان تعاونهم لا بد منه لعدة اعتبارات . لنسلم جدلا بهذا الرأى . ولكن لماذا تسامح أيضاً مع رعاياه النصارى ؟ ومن كان يجبره على ذلك ؟ ليس الأجانب على كل حال لأنهم كانوا يحتقرون الأقباط ، ولا الباب العالى الذى أشعل نار الثورة فى أنحاء الامبراطورية لصلابته نحو الذميين .

ثم إن ولاة مصر الحديثة ، لما انتهجوا سياستهم القومية ، لم يخلطوا بين الأقباط ومسيحى الغرب فى حين أن الأقباط أنفسهم لم يرغبوا فى ربط مصيرهم بمصير الأجانب لكرههم لهم . ففى منتصف القرن التاسع عشر ظهرت ، بفضل سياسة الأسرة الملكية وبتأثيرها ، تيارات جديدة كان من شأنها أن تحطم نهائياً النظم الاجتماعية العتيقة التى كان يعمل بها .

وهذا التطور البطىء الوطيد الأركان كلل بالفوز بفضل تعاون الأسرة المالكة مع الأعيان . فعلينا أن نحدد الدور الذى لعبه كل من الطرفين قبل أن ندرس الأحكام الرسمية التى قررت المساواة السياسية والاجتماعية بين جميع العناصر التى تتألف منها الأمة المصرية .

روح التسامح فى الأسرة الملكية .

مما لا شك فيه أن محمد على خلق فى مصر جواً اجتماعياً جديداً . ولما كان خلفاؤه مشبعين بهذه الروح ، فقد انتهجوا سياسة رفعت مصر فى نظر الأمم الغربية . وليس فى استطاعتنا أن نعدد مآثر العائلة الملكية فى هذه الناحية لأن الأمثلة كثيرة جداً على عكس العصور السابقة .

وفضل مؤسس الأسرة المالكة كبيراً جداً ، ذلك لأنه تولى السلطة فى عصر مضطرب غاية الاضطراب ، فى عصر كانت الخزينة المصرية خاوية من المال بينما كانت مصاريف الدولة باهظة والأقلية الدينية معرضة دائماً لاضطهاد الحكام. ومما يزيده فضلا أنه كان أول حاكم مسلم اتبع سياسة تسامح حقة . أما السلطان محمود الثانى، الذى تولى عرش الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٠٨ ، فقد اكتفى بحذو محمد على بالكلام لا بالأعمال . كان يقول : « لا أريد أن تكون هناك فوارق بين أفراد شعبى المنتمين إلى أجناس أو أديان مختلفة ، ويجب ألا يختلفوا إلا فى طريقتهم الصلاة فى معابدهم . » غير أن هذه التصريحات لم تكن قاطعة إلا من حيث الشكل ولم تطبق تطبيقاً عملياً . وبعد إحدى وعشرين سنة انتزعت الدول من السلطان فرمان الكلخانة سنة (١٨٣٩ م) وهو عبارة عن تصريح شفاهى كتب بأسلوب مبهم . وبعد سبع عشرة سنة أخرى ، انتزعت منه وعداً شفاهياً آخر دوّن فى الخط الهمايونى المؤرخ سنة ١٨٥٦ .

وفى هذا الأثناء كانت مصر تسرع الخطى تحت إشراف ولاتها فى

سبيل الوصول إلى المساواة السياسية والاجتماعية بين أبنائها . والفضل فى الحصول على هذه النتيجة يعود بلا شك إلى إرادة وقوة عزم مؤسس الأسرة الملكية .

فلما جلا الفرنسيون عن مصر ، تركوا الأقباط لا حول لهم ولا قوة وتركوا المسلمين فى حالة هياج شديد . أتهم القبطى بالتعاون مع المسيحى الأجنبى مع أن الأقباط — كما بيناه — لم يرغبوا فى وجود الأجانب بينهم بل تمنوا رحيلهم . ولكن المسلم ، الذى تحمل السوء من جراء أعمال القمع أثناء ثورتى القاهرة ، حاول أن يثأر لنفسه من النصارى ، فأهان الأقباط وفرض عليهم الغرامات وحكم على بعض أعيانهم بالقتل .

ولا غرابة حينئذ إذا كان الأقباط ، فى تلك الحقبة التعسة من تاريخهم ، نظروا إلى الأجنبى برهة . وكتب المستر وليم هاملتون ، قائد الأسطول البريطانى عام ١٨٠١ ، من مدينة أثينا بتاريخ يوليو ١٨٠٢ : « يميل الأقباط كثيراً إلى الانجليز وهم فى هذه الآونة شديدو الاستعداد لأجابة مطالب الحكومة البريطانية »(١). ولما أهمل البريطانيون هذه العروض ، تحول الأقباط إلى الفرنسيين . وكتب الجنرال سيبستيانى بدوره فى التقرير الذى رفعه إلى بونابارت بتاريخ يناير عام ١٨٠٣ يقول : « اقترح المباشر القبطى أن يراسلنى ليطلعنى على الحوادث الهامة فى مصر وسوريا وعرض خدماته وخدمات أمته فى حالة تطلعنا إلى الشرق . وتدل جميع المظاهر على شدة إخلاصه لنا ، ولكنى أجبته بأن ليس عندى تعليمات بهذا الشأن »(٢) .

ولم يعطف محمد على نفسه على الأقباط قبل أن يستتب الأمن فى البلاد. ولما كان همه الأول دفع رواتب جنوده واحباط دسائس أعدائه ، فقد اعتمد أول الأمر على الطريقة التقليدية ، وهى فرض غرامات على الأقباط الذين

---

(١) الوثائق الإنجليزية التى نشرها المسيو « دوان » فى منشورات الجمعية الجغرافية الملكية المصرية تحت عنوان *L'Angleterre et l'Égypte* ص ٤٠٨ .

(٢) الوثائق الفرنسية : *L'Égypte de* 1802 *à* 1804 ، ص ١١

أفلحوا فى أن يصرفوا الأنظار عنهم أثناء المعارك بين الأتراك والمماليك بعضهم بعضاً ، ثم فى أن يعينوا مباشرين ويختنوا .

ولما استقرت الأمور ، ترك محمد على جانباً نظم الحكم العتيقة . ومن اللحظة التى قرر فيها استخدام المصريين والاعتماد عليهم ، قضى مبدئياً على التفرقة بين القبطى والمسلم لأن كلاهما يستطيعان أن يقدما له أحسن الخدمات . ورأى أيضاً أنه لا داعى لتحقير الأقباط بدون سبب لأن الشخص ، إذا أريد أن يؤدى واجبه على أحسن وجه ، وجب أن يكون محترماً من الناس . ومضمون « التذكرة » الآتية هو أحسن دليل على صدق نيات الباشا ، وبها : « إن يوسف الذمى يشتغل فى الجبخانة فى خدمة الدولة ، وقد حررنا له هذه التذكرة الصادرة من ديواننا وسلمناها إليه حتى لا يتعرض لأية ملحوظة بسبب زيه »[١] .

لقد كان الأمر صريحاً . ولما كانت مسألة الأزياء ، حتى أوائل القرن التاسع عشر ، لم تفقد من حدتها التى كانت عليه فى أوائل الفتح الإسلامى ، فقد غضب المسلمون لموقف محمد على بدليل أن الجبرتى يحدثنا عن الأمر الذى صدر عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٧ م) « إلى الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ، ولا يلبسون العمائم البيض لأنهم خرجوا عن الحد فى كل شىء ، ويتعممون بالشيلان الكشميرى الملونة والغالية فى الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول وأمامهم وخلفهم الخدم بأيديهم العصى يطردون الناس عن طريقهم ، ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشاناً يضربون عليه بالبنادق الرصاص »[٢]. إلا أن الجبرتى كان يشك فى إمكان تنفيذ هذه الأوامر وها هو يسارع فيضيف إلى ما تقدم : « فما أحسن هذا النهى لو دام . »

---

(١) فى مجلة المعهد العلمى المصرى سنة ١٨٩٤ :
Yacub Artin Pacha, *Un tezkéré diwâni de 1222 de l'Hégire.*

(٢) جـ ٤ ص ٢٨٨ .

ومن جهة أخرى ، فان محمد على لم يحل بين النصارى وبين ممارستهم لطقوسهم الدينية ولم يرفض للأقباط أى طلب تقدموا به لبناء أو إصلاح الكنائس . وتحوى مخطوطات قصر عابدين عدداً كبيراً من الأوامر الخاصة بالكنائس ، حررت بالصيغة الآتية : « أمر إلى . . . . بشأن التصريح لطائفة الأقباط بتعمير الكنيسة ومساعدتهم فى ذلك وعدم مما نعتهم »[١] .

وفى عهد سعيد باشا والخديو إسماعيل تعددت أوامر بناء الكنائس ، وقد رأينا الولاة أنفسهم يستعجلون تنفيذها[٢] .

وكان الأقباط فى عهد المماليك يعانون صعوبات كثيرة للحصول على إذن بالحج إلى الأراضى المقدسة . ولكنهم استطاعوا بعد ذلك أن يقوموا كل عام بهذا الغرض تحت رعاية السلطات . وأول وثيقة عثرنا عليها تعود إلى عام ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) ، أى قبل فتح إبراهيم باشا بلاد الشام . ويوصى فيها محمد على متسلم غزة « بالقبط الذين يريدون الحج إلى القدس وأن لا يدع لآحد مجالا فى التداخل فى شئونهم »[٣]. أما الوثائق المؤرخة عامى ١٨٢٧ و ١٨٢٨ ، فكانت موجهة إلى متسلمى غزة والقدس ، وكان الباشا يوصيهما بحماية الراهب القبطى والزوار الأقباط الوافدين إلى القدس كعادتهم كل سنة حاملين قفص الشموع إلى كنيستهم التى بالقدس وبصيانتهم واكرامهم عند وصولهم إلى غزة والقدس »[٤] . وكان محمد على أول حاكم مسلم منح الموظفين الأقباط رتبة البكوية واتخذ له مستشارين من النصارى .

ولم يكتف محمد على بخلقه جوا من التسامح وتحسينه لحالة الأقباط ،

---

(١) محفوظات عابدين ، سجل ٧٢٨ « تركى » ، ديوان الخديوى ، بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٥ هـ (١٨١٩)

(٢) محفوظات عابدين ، أمر عالى بتاريخ ١٨ رمضان ١٢٧١ (١٨٥٤) سجل ١٨٨٢ ص ٤٢٦ .

(٣) محفوظات عابدين ، سجل ١٩ « معية تركى » بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٤١ (١٨٢٥)

(٤) محفوظات عابدين ، سجل ٧٤٠ « معية تركى » ص ٤ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٤٣ ، وسجل ٧٣٩ ص ٥٦ بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٤ .

بل ذهب إلى حد عدم تردده فى مؤازرتهم أحياناً . فقد حدث عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٤ م) ، أثناء تمرد حامية القاهرة ، أن اعتصم النصارى ، وقد استبد بهم الرعب فى أحيائهم وأقاموا عليها المتاريس وأغلقوا بعض الأبواب وتسلحوا بالبنادق . « وأمدهم الباشا بالبارود وآلات الحرب دون المسلمين حتى أنهم استأذنوا كتخدا بيك فى سد بعض الحارات النافذة التى يخشون وقوع الضرر منها ، فمنع ذلك »[١] .

وقد حدث عام ١٨٤٥ م شجاراً بين حمار ومزارع قبطى ، فسب المزارع الحمار الذى ذهب يشكو أمره إلى السلطات . فما كان من حاكم دمياط إلا أن أمر بضرب القبطى خمسمائة ضربة والطواف به فى الحى النصرانى ليهان من الجميع . ولما علم محمد على بهذا الحادث ، أرسل أحد كبار ضباطه الذى أمر بسجن حاكم دمياط خمس سنوات فى قلعة أبى قير وتغريمه مبلغاً كبيراً من المال »[٢] .

أضف إلى ذلك أن مطران الأقباط الكاثوليك صرح للدكتور « بورنج » أنه يتجول فى أنحاء المدينة معلقاً صليبه على صدره بحيث يراه الجميع ، ولم يحاول أحد سبه أو إهانته ، وأن الأقباط جميعهم يستطيعون ممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة[٣] .

وكانت السلطات نفسها تحترم الدين المسيحى . فقد أمر محمد على عام ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) ، كما فعل من قبله ابن طولون ، أن تقام الصلوات لترتفع مياه النيل . « وخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضاً واجتمعوا بالروضة وصحبتهم القساوسة والرهبان وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير فى تجمل زائد ، وصحبتهم طائفة من أتباع الباشا بالعصى المفضضة »[٤] .

---

(١) الجبرتى ، جـ ٤ ص ٢٢٦ .

(٢) Paton, *A History of the Egyptian Revolution*, II, p. 236-7

(٣) J. Bowring, *Report on Egypt and Candia*, p. 149

(٤) الجبرتى ، جـ ٤ ص ١٢١ — ٢ .

ومن البديهى أن بعض الذين اعتادوا فهم الأشياء على طريقتهم الخاصة لم يرتاحوا إلى هذا التحول الكبير فى معاملة النصارى . وقد نقل إلينا الجبرتى ، الذى كان يعبر إلى حدّ ما عن شعور أبناء دينه ، شكاوى الشعب بأسلوب لاذع ، فقال : « كتبوا أوراقاً لمشاهير الملتزمين مضمونها أنه بلغ حضرة أفندينا ما فعله الأقباط من ظلم الملتزمين والجور عليهم فى فائظهم ، فلم يرض بذلك ، والحال انكم تحضرون بعد أربعة أيام وتحاسبوا على فائظكم وتقبضونه ، فإن أفندينا لا يرضى بالظلم وعلى الأوراق إمضاء الدفتردار . ففرح أكثر المغفلين بهذا الكلام وإعتقدوا صحته وأشاعوا أيضاً أنه نصب تجاه قصر شبرا خوازيق للمعلم غالى وأكابر القبط »[١] .

هل يفهم من ذلك أن محمد على لم يكن مهتما بالناحية الدينية ؟ لا بالطبع ، بدليل أنه نراه يكافىء الذين يعتنقون الإسلام منحاً نقدية ويعينهم فى الوظائف الحكومية إلخ . . . . .[٢] ولم يتردد معاقبة المسلمين المرتدين علانية[٣] . ولكنه لم يعطى نفس الأهمية للخلافات التى كان مصدرها التقاليد البالية العتيقة .

وبالرغم من دلائل التسامح الواضحة التى امتاز بها عصر محمد على ، لم يكن فى استطاعة النصارى أن يدعوا بأنهم على قدم المساواة مع المسلمين . فقد حث والى مصر الكولونيل « سيف » (سليمان باشا) إلى اعتناق الإسلام حيث لا يجوز لغير المسلم بأن يتولى قيادة الجيش . ولا شك أن الوالى كان يعلم أن الوقت لم يحن بعد ليقطع صلته كلها بالتقاليد القديمة . وقد أفهمنا الجبرتى فى معرض رثائه لأحد المباشرين النصارى يدعى عبود أن « الباشا

---

(١) الجبرتى ، جـ ٤ ص ٢٢١ .

(٢) تذكر الأمر الصادر بتاريخ غرة شوال ١٢٤١ هـ (سجل ٥٧ معية سنية تركى ص ٣٤) والأمر الصادر بتاريخ ٧ ذى القعدة ١٢٤١ (سجل ٢١ « معية تركى » ص ٨٤) .

(٣) يذكر المستشرق « لين » إنه قابل فى شارع بالقاهرة امرأة ارتدت عن الإسلام وتزوجت بنصرانى فحكم عليها بالإغراق (*Manners and Customs of the Modern Egyptians*, p. 126)

كان يحبه ويثق به ويقول لولا الملامة لقلده الدفتردارية »[١] . وهذا الاعتراف الصريح يحدد بوضوح موقف الوالى من الذميين . ولكن يجب أن نلاحظ أيضاً أن محمد على كان هو الآخر لا يرى فى الأقباط إلا مباشرين ومحاسبين ممتازين ، فلم يحاول أن يدخلهم الجيش النظامى (وعلى كل فأن رغبة الأقباط عن الجندية كانت ظاهرة بوضوح ونفورهم من حياة المعسكرات كان فى غنى عن الدليل) ولا أن يعلمهم التعليم الحديث . ومن الملاحظ أن أول بعثة علمية إلى فرنسا كانت خالية من الطلبة الأقباط مع أنها كانت تجمع عدداً من المسيحيين .

وصفوة القول ، فقد أجمع نقاد هذا العصر على تقدم العلاقات بين المسلمين والأقباط تقدماً محسوساً ، ولكنهم أخذوا على الحكومة عدم اعترافها إلى ذلك الوقت بالمساواة علنياً بين الدين المسيحى والإسلام .

وقد وصف المؤرخون الأجانب عصر عباس باشا بأنه عصر رجعى . والواقع أن عباس باشا كان ضد الأوروبيين أكثر منه ضد النصارى . وإذا استغنى عن عدد كبير من الموظفين الفرنسيين على وجه الخصوص ، فقد عين وزيرين للخارجية من أصل أرمنى ، وهما أرام بك واسطفان بك ، كما أنه لم يفكر فى التخلص عن المباشرين الأقباط . لقد علل بعض المؤرخين الأوربيين كرهه للاوروبيين إلى نفوره من المسيحيين غير أننا لا نذكر أى أمر عدائى أصدره عباس باشا ضد الطوائف النصرانية .

ويعود الفضل فى إدخال النصارى ، وخاصة الأقباط ، فى صلب الأمة المصرية إلى الوالى سعيد باشا والخديو إسماعيل .

كان سعيد يرغب فى إشراك الأهالى فى حكومة البلاد ، بل كان يريد على الأخص إخراج الأتراك من سلك الوظائف المدنية والحربية . وأن الخطبة الوطنية التى ألقاها فى الضباط المصريين فى أواخر عهده قد أثرت

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ص ٣٠٣ .

فيهم تأثيراً كبيراً ، ويقال انها من الأسباب التى أدت إلى الحركة التى قاموا بها تحت إشراف عرابى باشا .

وكان من الطبيعى حينئذ ألا يحافظ سعيد باشا على روح التسامح التى أوجدها محمد على الكبير ازاء النصارى ، بل يعمل على إزالة آخر العواقب نحو اندماجهم فى صلب الأمة ، فقطع كل علاقة بينه وبين القديم بقراره قبول النصارى فى الجيش وتطبيق قانون الخدمة العسكرية عليهم . وكان يعتقد سعيد أن النصارى ، إذا حملوا السلاح للدفاع عن وطنهم وخضعوا إلى نفس الواجبات التى يؤديها المسلمون ، اكتسبوا نفس الامتيازات التى يتمتع بها مواطنوهم . وينص الأمر العالى الصادر فى جمادى الأولى عام ١٢٧٢ هـ (يناير ١٨٥٦ م) على أن أبناء أعيان القبط سوف يدعون إلى حمل السلاح أسوة بابناء أعيان المسلمين وذلك مراعاة لمبدأ المساواة[١] . إلا أن الأقباط — وقد أعفتهم السلطة منذ أجيال من الخدمة العسكرية — رأوا فى هذا الإجراء عملا ملتوياً يهدف سعيد من ورائه إلى اضطهادهم ، فلم يترددوا فى تقديم شكواهم إلى بعض أفراد الجالية البريطانية ،أى الإرساليات البروتستانية التى أجازها بطريرك الأقباط . فضغطت هذه الإرساليات على الوالى كى يعفى الأقباط من الخدمة العسكرية . أما تفاصيل هذه المسألة ، فقد سردها علينا مؤرخان إنجليزيان معاصران[٢] . وهما يصرحان أن التجنيد كان أداة لاضطهاد النصارى الذين قد يعرضون بعد تجنيدهم إلى مختلف ألوان الاضطهاد . وأضافا إلى ذلك أن المراد هو إكراههم على اعتناق الإسلام إذ يكون إسلامهم شرطاً أساسياً لترقيتهم فى سلك الجيش . فوسط البطريرك كيرلس الملقب بالمشرع ، بعض الإنجليز ، فاستطاعوا هؤلاء أن يحملوا سعيد على إعفاء الأقباط من الخدمة العسكرية . ولكن يبدو أن البطريرك دفع عمله

---

(١) محفوظات عابدين ، سجل ٥٠٥ « معية سنية تركى » رقم ٢١ .

(٢) E.L. Butcher, *The story of the Church of Egypt*, London, 1897; M. Fowler, *Christian Egypt*, 1901.

غالياً إذ مات بعد ذلك بقليل بتأثير السم . ومن جهة أخرى ، أقال سعيد عدداً كبيراً من الموظفين الأقباط .

أنه يصعب علينا ، بما لدينا من المستندات ، أن نؤكد هذا الحادث أو نكذبه . وليس من المستحيل أن الأقباط تحملوا بعض الظلم — وهذا أمر طبيعى إذا قدر أن المسلمين لم يعتادوا بعد إلى اعتبار الأقباط على قدم المساواة ، ولا سيما فى سلك الجندية .

وعلى كل ، فهناك أمر صريح ألا وهو انتظام الأقباط فى سلك الجيش فى عهد اسماعيل . وإذا كنا لا نحتاج أن نثبت نفور المصريين المسلمين والأقباط على السواء من الخدمة العسكرية فى ذلك الوقت ، إلا أن كلا الطرفين أدركا أنهما خاضعين لقانون التجنيد . وبينما كان الكاتب الفرنسى « جبرائيل شارم » Charmes يتحدث إلى الخديو اسماعيل فى قصر عابدين ، مرت كتيبة من الحرس أمام القصر . فقال اسماعيل لمحدثه : « أنظر إلى هذه الكتيبة أن فيها عرباً وأقباطاً ، ومسلمين ونصارى ، وهم يسيرون فى صف واحد . وإنى أؤكد لك أنه لا يوجد بينهم من يهتم بديانة جاره وأن المساواة بينهم تامة »[1] .

وهكذا كان سعيد باشا أول من دعى النصارى إلى حمل السلاح بمحض إرادته وقبل أن يخضع السلطان نفسه إلى مطالب الدول الأجنبية فيعلن الخط الهمايونى المؤرخ ١٨ فبراير ١٨٥٦ . وإذن لم تتأثر مصر بحركة الإصلاح فى تركيا ولم تنتظر إصدار تعليمات الآستانة للقيام بعمل مماثل .

والآن ، وقد وضحنا بعض النقط الخاصة بتجنيد الأقباط ، فانه يجدر بنا أن نبرئ سعيد باشا من التعصب الذى أريد اتهامه به . ألم نشاهد فى عصره موظفين رأوا التقرب إليه بمنع إقامة الأفراح فى حالة اعتناق قبطى الديانة الإسلامية ؟ وقد كتب الوالى إلى مدير جرجا فى هذا الشأن يقول : « علمت

(١) *Cinq mois au Caire et dans le Basse Égypte* p. 162.

بأنه لسبب إسلام أقباط سوهاج ، تجمع بعض الأهالى والشبان وتوجهوا عند القاضى وأخذوا المذكور ومروا به بالأسواق متظاهرين ومفتخرين باسلامه وبما أن هذا العمل كدر خواطر الأقباط والأجانب ، فعند وصول علم بذلك قمتم بتفريق المتظاهرين تهدئة لخواطرهم ثم عزلتم عمدة الناحية لسبب تساهله وتسامحه فى ذلك أيضاً . ثم حيث ان هذه الإجراءات ، ولو أنها أوجبت الممنونية ، وإنما يجب أيضاً بحسب التنبيهات بأنه عند حدوث مثل هذا الأمر ينبغى إفادة هذا الطرف . . . . »[١] .

أضف إلى ذلك أن سعيد باشا هو الذى ألغى الجزية المفروضة على الذميين بأمر أصدره فى ديسمبر سنة ١٨٥٥[٢] . وكتب المؤرخ « بول مريو » Paul Merruau فى هذا الصدد : « إن الحد الذى وضعه الإسلام بين مختلف طبقات الشعب قد زال فعلا بعد أن تولى سعيد الحكم . فإن روح تسامحه ظهرت فى سلسلة من أعماله قد يطول بنا سردها . فقد عين مسيحياً حاكماً للسودان[٣] وهو إجراء يميز عهده أحسن تمييز إذ أن هذا التعيين خطوة جديدة فى طريق التسامح ، وهذا التسامح يهدف إلى إفادة البلاد بكل الكفاءات مهما كانت الديانة التى تنتمى إليها . ونضيف إلى ذلك أن سعيد باشا سمح للجنود المصريين أن يمارسوا ديانتهم المسيحية علانية . . . . »[٤] .

أما الخديو اسماعيل ، الذى تلقى علومه فى فينا ثم فى باريس ، فقد وجد عند عودته إلى بلاده أن الجو يصلح لاتباع سياسة من التسامح - على أوسع نطاق . وقد أراد كأسلافه ألا تسبب المسائل الدينية أى احتكاك بين العنصرين وعبرّ عن خطته بوضوح فى الأمر الصادر عند توليه السلطة ردا على سؤال

---

(١) محفوظات عابدين ، أمر عالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٧٩ ﻫ (١٨٦٢) ، سجل ٥٣٠ « معية سنية تركى » ص ٨ .

(٢) سندرس فيما بعد مسألة الجزية .

(٣) الحقيقة أنه عين أراكيل بك حاكماً على مصوع لا على السودان كله .

وجهه إليه أحد كبار الموظفين ، قال فى الافادة المؤرخة ١٠ محرم ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ م) : «إن خليل عوض الحاوى ، من أهالى السلمية ومن طائفة الأقباط ، قدم عرضا يطلب فيه الخروج عن الدين المسيحى ، برغبته وبدون إجبار ، واعتناقه الدين الإسلامى . فأنه يجب استحضاركم قسيس من قسس الأقباط وكم عمدة من عمد الأقباط لأجل إقرار خليل عوض الحاوى أمامهم بأنه راغب اعتناق دين الإسلام من غير أن يجبره أحد فى ذلك لأجل ألا تكون هذه المسألة وسيلة فيما بعد للتشكى ، وبعد إقراره أمامهم يصير التصديق منهم على الإقرار ويحفظ بالمديرية»[1] . ولم تكن هذه الإجراءات الدقيقة تتبع فى مصر قبل ذلك التاريخ بل كانت الإجراءات فى مثل هذه الأحوال بسيطة للغاية .

ثم كانت العلاقات بين الخديو وبطريرك الأقباط على خير ما يرام . ويقص علينا قلينى فهمى باشا فى مذكراته أنه «عند ما أريد تنظيم شوارع مصر وفتح شارع كلوت بك ، كان يقضى النظام بجعل هذا الشارع قويماً أن يمر بكنيسة الأقباط ، فعرض على الأنبا ديميتريوس البطريرك آنئذ أن تبنى له كنيسة أفخر من هذه الكنيسة وكذا داراً للبطريركية أفخر من دارها الحالية ، كل ذلك على نفقة الحكومة فى نظير مرور الشارع معتدلا . فأجاب البطريرك قائلا : «أنى أتشاءم من هدم معبد دينى ليكون طريقاً كما أننى لا أرضى للجناب الخديو أن يوافق على هذا العمل . ولما عرض الأمر على الخديو قال : «لتكن إرادة البطريرك وليبق المعبد قائماً كما هو»[2] .

ولأول مرة أيضاً نرى حاكماً مسلماً يشجع أدبياً ويدعم مادياً التعليم الطائفى . وفى أمره العالى المرسل إلى نظارة المالية ، طلب الخديو منح المدارس القبطية الأرثوذكسية إعانة مالية فقال : «إنه نظراً لما علم لدينا من

---

(١) محفوظات عابدين ، سجل ٥٣٠ «معية سنية تركى» بتاريخ ٢٠ محرم ١٢٧٠ .

(٢) ذكريات ، جزء أول .

حصول السعي والاجتهاد من بطركخانة الأقباط فى استعداد وانتظام مكاتب ومدارس وإيجاد معلمين بها لتعليم الأطفال ما يلزم من العلوم واللغات الأجنبية ونحو ذلك ، وسعيها فى هذا النوع أوجب الممنونية عندنا ، فلأجل مساعدتها على ذلك وتوسعة دائرة التعليم الجارية بمكاتبها ، قد سمحت مكارمنا بالإحسان على تلك البطركخانة بألف وخمسماية فدان عشورية من أطيان المتروك والمستبعدات الموجودة بالمديريات على ذمة الميرى »(١) .

ذلك لأن الخديو كان يؤمن بأن القبطى مصرى كالمسلم على حد سواء وكان لا يرتاح إلى الذين كانت تستهديهم الإرساليات الإنجليزية أو البروتستانتية ولقد ذهب إلى حد وضع مركب بخارى تحت إمرة البطريرك ديميتريوس ليطوف برعيته ويحثها على البقاء فى كنف الكنيسة القبطية(٢) .

وقرر إسماعيل بعد ذلك علانية ورسمياً المساواة بين الأقباط والمسلمين ، وذلك بترشيح الأقباط لانتخابات أعضاء مجلس الشورى ثم بتعيين قضاة من الأقباط فى المحاكم .

ولما تحدث الخديو إلى نوبار باشا عن انتخابات مجلس شورى النواب ، قال له : « عندنا أقباط أيضاً بين المنتخبين وقد فتحنا الأبواب للمسلمين والأقباط بدون تمييز »(٣) . مع العلم أن قانون سنة ١٨٦٦ الخاص بإنشاء مجلس الشورى كان لا يفرق بين المصريين . وتنص المادة الثانية منه على أن « كل شخص بلغ من عمره الخامسة والعشرين يمكن ترشيحه على شرط أن يكون أميناً ومخلصاً وأن تتأكد الحكومة من أنه ولد فى البلاد .» أضف إلى ذلك أنه لما كان مجلس الشورى فى أول عهده يستوحى إرشادات الخديو إسماعيل ، فقد أجمع



---

(١) محفوظات عابدين ، سجل ١٩١٩ « أوامر عربية » بتاريخ ٢١ رجب ١٢٨٣ هـ (٣٠ نوفمبر ١٨٦٦) .

(٢) مذكرات قلينى فهمى باشا ، الجزء الأول .

(٣) محفوظات عابدين ، القسم الأوروبى ، خطاب بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٨٦٦ سجل ٣٤/٢.

النواب ، بمناسبة مناقشة سياسة الحكومة التعليمية ، على أنه يجب على المدارس الأميرية أن تقبل أولاد النصارى والمسلمين بدون تفرقة . وقال بهذه المناسبة أحد أعضاء المجلس من المسلمين : « (محمد الشواربى) : أن الأقباط ما خرجوا عن كونهم من أبناء الوطن ولذلك يجب أن يكونوا ضمن المدارس التى تعمل بالمديريات ولا يكونوا خارجاً منها متى أرادوا الدخول فيها »[١] .

ويجب نهائياً ألا ننسى أن الخديو إسماعيل هو أول حاكم طلب رتبة الباشوية لرجل مسيحى[٢] . وكان الأقباط يصرحون بفخر ، بعد وفاة هذا العاهل ، بأن حالتهم تحت حكمه كانت أحسن مما هى عليه تحت الاحتلال البريطانى . وقد ذكروا أن فى عهد إسماعيل كان بينهم عدد كبير من ذوى الرتب وأن واصف باشا عزمى كان يشغل وظيفة مشرفة للغاية إذ كان كبير التشريفاتية . وبالرغم من أن البعض كذب هذه الادعاءات وقالوا أن هؤلاء الأقباط كانوا يشغلون فى الواقع وظائف أقل أهمية من التى ذكرت ، فان الأقباط على الأقل لم ينكروا ضمناً شدة تسامح الخديو . وكتب « ساشو » Sachot المبعوث إلى مصر من لدى الحكومة الفرنسية إلى « دروى » Duruy وزير معارف فرنسا قائلا : « ليس رعايا مصر من المسلمين فحسب ! فمن المعلوم أن من أهلها عدداً غير يسير من المسيحيين الأقباط ، وإنى أنتهز هذه الفرصة لأنوه بالتسامح الدينى المنتشر فى أنحاء القطر والمرفرف على الجميع دون استثناء مما يشرف قوانين البلاد وشمائل أهلها »[٣] .

ولكن أجمل مدح هو الذى فاه به إسماعيل باشا نفسه ، فقد قال يوماً لجبرائيل شارم : « يعيش المسيحيون فى تركيا فى جو من التسامح المشوب

---

(١) الوقائع المصرية ، عدد ٦٩ المؤرخ ١٦ شعبان ١٢٨٣ (محضر جلسة ٢٨ رجب ١٢٨٣)

(٢) هو نوبار باشا .

(٣) *Rapport sur l'instruction publique en Egypte.* Paris Juin 1868

بالاحتقار ! وأما فى مصرفإنهم يعيشون فى جو من التسامح المقرون بالاحترام[١].

ولم ينأ خلفاء إسماعيل عن هذه السياسة ، بل كانت الأقلية ترى وجودهم على رأس الدولة ما يضمن سلامتهم . وعلى كل ، فقد ظهرت فى أواخر عهد إسماعيل قوة جديدة هى الرأى العام . وكانت المسائل الوطنية الكبرى تناقش بحرارة فى الصحافة وفى الاجتماعات وفى مجلس شورى النواب . وبالرغم من أن السلطة التنفيذية كانت تسيطر على جميع المسائل التى تهم الدولة ، فقد اضطرت أكثر من مرة أن تعمل حساباً لهذه القوة الجديدة .

والآن ، وقد بينا موقف الحكام ، يجدر بنا أن نتتبع رد فعل الرأى العام .

الرأى العام والأعيان أمام سياسة الحكام الجديدة .

لقد ذكرنا طوال دراستنا انتقادات الجبرتى للاجراءات التى اتخذها محمد على لصالح الأقباط . وأن ما لدينا من المستندات لا يسمح لنا بتسجيل غير هذه الانتقادات . أما الرحالة الذين تحدثوا عن تسامح محمد على ، فقد اقتصروا على ذكر الوقائع دون أن يخبرونا إذا كانت الأكثرية اعتادت هذه الأمور .

ولا يعقل أن نتوقع تغيير عقلية الشعب ، أو على الأقل الطبقة المستنيرة بين عشية وضحاها ، بأمر محمد على . ولكننا نستطيع أن نؤكد ، مستندين إلى بعض الأدلة ، أن العلاقات بين العنصرين تحسنت تحسناً ملحوظاً وأن مبدأ المساواة السياسية والاجتماعية أصبح شيئاً فشيئاً أمراً مألوفاً . وكتبت « لوسى دوف جوردون » Lucy Duff-Gordon تقول : « أن أهالى ببا ، ومعظمهم من المسلمين ، انتخبوا جرجس القبطى عمدة لهذه البلدة . . . ومما أثار إعجابى ، روح التسامح التى أجدها فى كل مكان . ويظهر أن المسلمين والأقباط على وئام تام . ويوجد فى ببا ثلاث عشرة أسرة قبطية مقابل عدد كبير جداً من المسلمين . ومع ذلك انتخب الأهالى جرجس عمدة

---

(١) *Cinq mois au Caire*, p. 162 . إن عدداً كبيراً من الأقباط استقروا فى السودان فى ذلك العصر وجنوا ثروات طائلة من التجارة ، ولكن ثورة المهدى سببت لهم أضراراً لا تعوض .

لهم وكانوا يقبلون يده طائعين بينما كنا نمر فى طرقات القرية »[١] .

ومما كان يلفت النظر أيضاً ، وجود رؤساء الوزارات النصارى كنوبار باشا وبطرس باشا غالى ، فى الاحتفال بسفر المحمل ، مندوبين عن الخديو .

ويقول القاضى « فان بيميلين » Van Bemelen أن الأزمة المالية التى حلت بالبلاد قبيل عزل إسماعيل وطدت شعور التضامن بين عنصرى الأمة « ومنذ اليوم الذى تحمل فيه المصريون المسلمون والأقباط النصارى المتاعب من عدم دفع الحكومة للمرتبات ومن ضرائبها الجائرة ، نما بين هذين العنصرين شعور أخوة »[٢] .

وكان أول أختبار لوجود هذا الاتحاد ثورة عرابى باشا التى قامت للقضاء على الضباط الجراكسة والتخلص من المراقبين الأجانب والنهوض بالعنصر المصرى . ألم تكن هذه الأوقات العصيبة فرصة للمسلمين والأقباط ليظهروا تضامنهم وتعاونهم ؟ قد أتفق فعلا جميع المراقبين على الإشادة بروح التعاون التى نشأت قبيل الحوادث الدامية التى وقعت فى شهرى يونيو ويوليو من عام ١٨٨٢ ، بل من قبل عزل إسماعيل عام ١٨٧٩ . وأن الالتماس الذى الذى رفع إلى الخديو للمطالبة باقالة « ريفرس ويلسن » Rivers Wilson وتأليف وزارة وطنية ودعوة مجلس الشورى قد وقع عليه الضباط والأعيان وبطريرك الأقباط وشيخ الإسلام . ولا يتردد الكاتب الإنجليزى « ولفريد سكاون بلنت » ، الذى شاهد هذه الحوادث ، فى التصريح بأن العلاقات بين المسلمين والأقباط لم تكن أحسن مما هى عليه اليوم »[٣] .

ولكن وجود عرابى باشا على رأس الثوار والخطاب الذى أرسله إلى « جلادستون » Gladstone عند ما كان الإنجليز يهددون بضرب الإسكندرية

---

(١) *Lettres édifiantes* ، الترجمة الفرنسية ، ص ٢٧ و ٢٨ .

(٢) *L'Egypte et l'Europe*, I, p. 26

(٣) التاريخ السرى للثورة المصرية ، ص ١٢٥ .

فهددهم بإعلان الجهاد بعد سقوط أول قذيفة بريطانية بناء على تعليمات النبى[١] ، ثم توزيع الأسلحة على أفراد الجاليات الأجنبية واستعمالها ضد أفراد الشعب ، كل هذه الأسباب أثرت تأثيراً على مجرى الحوادث . وحدث أن المتظاهرين والقوات المتقهقرة كانوا يخلطون كثيراً بين الأجانب والنصارى الوطنيين .

وقد اتهم بعد ذلك السلطات وقيل أنها هى التى حرضت الثوار على مهاجمة الأقلية المسيحية كى تحط من شأن حركة عرابى الذى اعتبر ثائراً على الخديو ، وقد قيل أيضاً أن الخديو إسماعيل عمل على تحريك تعصب الجماهير فأمر وحبذ القيام بقتل جميع النصارى[٢] . وسواء كانت هذه الإشاعات حقيقية أم كاذبة ، فأننا لا نستطيع أن ننتفع بها فى المشكلة التى نحن بصددها إلا إذا كانت تدل على أنه كان فى استطاعة الناس الصيد فى الماء العكر فى هذه الآونة وبعث المعتقدات القديمة التى كانت فى طريقها إلى الزوال ..

وجاء الاحتلال البريطانى فى أعقاب ثورة الضباط ، وبتعبير آخر ، احتلت دولة مسيحية بلداً إسلامية . وفى أثناء هذا الاحتلال ، اجتمع الأقباط عن هيئة مؤتمر فى مدينة أسيوط وتقدموا بمطالب عديدة باسم « الأمة القبطية » وما لبث أن اجتمع أعيان المسلمين فى مؤتمر عقد لهذا الغرض وأنكروا على الأقباط مطالبهم .

وأخذ الناس يتحدثون عن الخيانة وعن محاولة الأقلية المسيحية استغلال وجود دولة أوروبية لمصلحتها . أما المعتدلون فقد تأسفوا على عمل الأقباط

---

(١) احتج عرابى باشا لدى م . جريجورى ، مراسل جريدة التيمس اللندنية ، اتهامه بالتعصب ، غير أن المستر بلانت لاحظ أن القائد المصرى أضفى على الحركة طابعاً دينياً أكثر من مشايخ الأزهر أنفسهم .

(٢) عن كتاب جبرائيل شارم .

بأسيوط وقالوا أنهم وقعوا ضحية دسيسة إنجليزية كان يقصد منها بذر التفرقة في البلاد للسيطرة عليها عن طريقها . والواقع أنه لم تكن هناك أية خيانة ، ذلك لأن الأقباط الذين كانوا على كرههم الشديد للأجنبي لم يرتاحوا لدخول الإنجليز ، وقد اعترف اللورد كرومر نفسه ضمناً بذلك[1] . ولم تكن هناك أيضاً أية دسيسة إنجليزية بدليل أن الإنجليز أنفسهم فوجئوا بهذا المؤتمر وأن قليني فهمي باشا الذي عاصر هذه الأحداث أكد أن الذي أوحى به هو الخديو عباس الثاني الذي أراد إقلاق المحتل من جراء ذلك .

أن انعقاد مؤتمر أسيوط أثناء الاحتلال البريطاني يعد من الصدفة ، ذلك لأن الأقباط لم يكونوا يتوانوا في يوم من الأيام عن التعبير عن عدم رضاهم لعواقب تقدم التعليم في مصر . لماذا ؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال نعود إلى تسلسل الحوادث .

كانت لمصر ، وهي بلاد غنية وحديثة العهد بالمدنية ، عدة مرافق لاستغلال كفاءة شبانها المتعلمين . وكانت إلى عهد توفيق باشا في حاجة إلى موظفين يديرون مصالحها إذ أن الطلبة الذين تخرجوا في المدارس التي أنشأها محمد علي وأصلحها إسماعيل لم تكف لسد حاجات البلاد . فقد كانت هناك وظائف لجميع أصحاب الشهادات ولم يوجد واحد يعترض على حق الآخر في شغل الوظائف . وهكذا استطاع الأقباط أن يديروا مالية البلاد وحدهم دون شريك لهم .

ولكن ما لبثت الديون التي اقترضها اسماعيل أن خلقت أزمة اقتصادية خطيرة . وقد استغرق تسديد الديون موارد الميزانية وكان من الطبيعي ألا تستطيع الحكومة الصرف على جيش كبير ولا استبقاء العدد اللازم من الموظفين . فأحال الخديو مئات الضباط إلى الإستيداع . أما الطلبة الذين غادروا المدرسة قبل إتمام دروسهم للالتحاق بالوظائف الحكومية ، فقد

---

(١) Lord Cromer, *Modern Egypt*, II, p. 210

وجدوا بعض الصعوبات لتحقيق أغراضهم .

ومن ناحية أخرى ، استطاع الأقباط ، منذ الفتح الإسلامى ، احتكار إدارة البلاد المالية والاحتفاظ بها بفضل طريقة شخصية للمحاسبة كانوا يحتفظون بسريتها . ويقول الدوق « داركور » Duc d'Harcourt [1] فى هذا الصدد : « أن براعتهم الحسابية فريدة فى نوعها وهم ، دون أن يستعينوا بكتابة الأرقام وبطرق أعتادها منذ نعومة أظفارهم ، يعملون حسابات فى غاية التعقيد على أساس $\frac{١}{٢٤}$ و $\frac{١}{٣}$ و $\frac{١}{٤}$ و $\frac{١}{٢}$ و $\frac{١}{٢٤}$ من $\frac{١}{٢٤}$. ويصعب علينا أن نتابع عملهم الحسابى لأنهم يقومون به بسرعة فائقة مستعينين ببعض اختصارات غير مفهومة يدونونها على الورق . أننا نستطيع بدون شك أن نصل أسرع منهم إلى الحل الدقيق وذلك بالطرق الحسابية المتبعة فى أوربا . ولكن لما كانت طرقهم موضوعة حسب المقاييس المستعملة فى البلاد ، ولما كانوا لا يلجأون إلى الحساب العشرى ، فإن السرعة التى كانوا يعملون بها الحسابات فى مصر تفوق سرعتنا . وبفضل هذه الطرق المعقدة التى يعرفونها وحدهم ، أصبح العرب لا يستغنون عنهم وإن كانوا قد اضطروا إلى أن يسلموا بتفوق الأوروبيين عليهم إلا أنهم ظلوا أصحاب الأمر والنهى دون منازع أمام الوطنيين المسلمين .

وأعتقد « دور بك » Dor Bey ، مفتش التعليم بمصر ، أنه قد يكتشف فى المدارس القبطية على منهج خاص لدراسة الرياضيات . ولكنه لم يلبث أن قال : « لا يوجد من ذلك شىء . فان الأولاد الأقباط يصلون إلى هذه المهارة فى الحسابات بعد تمرينات عملية إذ يصحبون غالباً آباءهم إلى دواوين الحكومة ويجلسون بجانبهم أو تحت أقدامهم ويبدأ ن التدريب عليهم ثم يلتحقون بعد ذلك بدون أجر فى خدمة الدولة »[2] .

---

(١) *L'Egypte et les Egyptiens*, p. 57-8 .

(٢) *L'enseignement en Egypte*, p. 183

ولسنا فى حاجة إلى القول أن هذه الملاحظات كان لها قيمة إلى ما قبل فترة الاحتلال . ولكن لما شرع البريطانيون فى تجديد طرق العمل الحكومى ولما منعوا الآباء من استصحاب أولادهم إلى مكاتبهم ولما تشددوا فى تعيين ذوى الشهادات ، ولما عمموا التعليم ، شعر الأقباط أنهم سيفقدون الأمتياز الذى مكنهم إلى ذلك الوقت من العيش عيشة رغدة ، إلا وهو إدارة مالية البلاد . ويذكر هذا السبب بحذافيره الكاتب القبطى توفيق حبيب فى مقدمة تقريره عن مؤتمر أسيوط ، فهو يقول : « كان الحكام يختصون بالوظائف العمومية فئات أو طوائف معينة سواء بحكم الميل أو الضرورة ، ومن هذا القبيل نجد جميع الحكام والولاة الذين تقدموا محمد على بل محمد على نفسه وبعض خلفائه قد أختصوا الأقباط بمعظم مصالح الحكومة فى القاهرة والأرياف كما اختصوا الأتراك بالمناصب العسكرية والإدارية . ولو قرأت أقوال المؤرخين المسلمين لما وجدت اسم المصرى المسلم فى غير وظائف القضاء الشرعى إلا نادراً »[١] . ويستطرد الكاتب بذكر هذا القول المنسوب إلى اللورد كرومر : « لما احتل الإنجليز مصر ، كانت المصالح المصرية كلها تقريباً فى أيدى الأقباط . » ثم قال : « قد أباح رجال الاحتلال للمسلمين بل أعدوهم لدخول جميع الوظائف الكتابية والحسابية وغيرها مما كاد أن يكون محتكراً للأقباط . أن الاحتلال البريطانى قضى على احتكار الأقباط لبعض الوظائف . »

ليس الاحتلال البريطانى الذى الغى احتكار الأقباط للأعمال الحسابية بفضل طرقهم القديمة . إن إدخال الطرق الحديثة فى العمل هى التى أدت إلى إلغاء هذا الاحتكار . ويقول « هامون » Hamont بحق أن كل نظام كفيل بتسهيل العمل الإدارى ، كان يرفضه الأقباط إذ كانوا يعيشون فى الفوضى ومن الفوضى »[٢] .

---

(١) المؤتمر القبطى بأسيوط ، ص ٢ .

(٢) Hamon, *L'Egypte sous Méhémet-Ali*, I, p. 343

لم يستطع أحد أن يلومهم، لأنهم دافعوا بجميع الطرق عن مصدر كسبهم الوحيد على ما يعتقدونه . ولكن نستطيع أن نلومهم لأنهم احتفظوا فى عصر التقدم والمدنية بعقليتهم التى كانوا عليها فى الأزمنة الغابرة . (ونذكر أن هناك سند رسمى يكشف عن نية محمد على ، بعد مصرع المعلم غالى، تعيين خبير فرنسى لينظم مالية البلاد)[١] .

والواقع أن الأقباط منذ الاحتلال البريطانى كانوا مشغولين بمستقبلهم أكثر من حاضرهم إذ كانوا على غير حق عند ما تقدموا بشكواهم إلى اللورد كرومر وعقدوا مؤتمر فى أسيوط يتبادلون فيه الرأى عن مخاوفهم . وأقطع برهان لما نقدمه هو الإحصائيات التى أرسلها السير « الدون جورست » E. Gorst المعتمد البريطانى إلى حكومته فى تقريره عن سنة ١٩٠١ . وهذا الإحصاء يدل على أن الأقباط ، الذى كان عددهم لا يزيد عن عشر سكان القطر ، كانوا يحتلون ٤٥,٣٢ فى المائة من الوظائف ويقبضون ٤٠ فى المائة من المرتبات فى حين أن نصيب المسلمين لم يكن يتجاوز ٤٤ فى المائة والأجانب ٦ فى المائة .

هل كانت مسألة الوظائف الدافع الوحيد لعدم رضى الأقباط ؟ بالطبع لا . ذلك لأننا لا نستطيع اهمال العامل النفسانى . فإذا تعمقنا فى البحث ، وجدنا أن غضب الأقباط يقابل إلى حد بعيد غضب عرابى باشا وصحبه . لقد حلل القاضى « فان بميلين » بدقة موقف عرابى باشا . وأننا لا نعد أنفسنا مخطئين إذا أرجعنا عدم رضى الأقباط إلى نفس الأسباب التى أدت إلى ثورة عرابى باشا . ويكتب « فان بميلين » قائلا : « على الرغم من التقدم الذى وصل إليه المصريين[٢] ، فأنهم كانوا أقل رضى عن ذى قبل . فقد حدث لهم ما يحدث عادة لشعب مظلوم تحسنت حالته وفكت القيود عنه ، فيتذمر هذا الشعب بدلا من أن يظهر امتنانه . والواقع أننا نشعر فى هذه الحالة

---

(١) أمر من محمد على إلى إبراهيم باشا بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٣٧ (٧ مايو ١٨٢٢) . ذكره جورج طلماس فى *Mohammed Aly Khédive d'Egypte* p. 33

(٢) *L'Egypte et l'Europe*, II, p. 226

بحدة الآلام التى ما زالت فينا وبالنير الذى ما فتئنا نحمله ونحترق شوقاً إلى امتلاك الأشياء التى تذوقنا جزءاً منها . وكنا فيما مضى نرضخ بحكم العادة لما لا بد منه ولمصيرنا المحتوم . ولكن إذا كانت التجارب تدل على استطاعتنا التحرير من هذه القيود ، طلبنا بفارغ الصبر الحرية التامة والمستعجلة . وبينما كان لا نجرأ بالمطالبة بشىء فى الماضى تزداد جرأتنا كلما تتحقق مطالبنا وتزداد رغبتنا فيما نجرؤ على المطالبة به »[1] .

إلا أن الأقباط لم يظهروا استيائهم قبل عام ١٩٠٨ عند ما رفع أعيانهم إلى كل من مصطفى فهمى باشا واللورد كروور عريضة طلبوا فيها المساواة الكاملة فيما يختص بالتعيين فى الوظائف الإدارية وإغلاق المحاكم يوم الأحد وتعيين عضو آخر فى الجمعية الاستشارية وأخيراً تعليم الدين للطلبة المسيحيين فى المدارس الأميرية .

وقد قبلت السلطات المطلبان الثانى والثالث بينما طرحت المطلبين الآخرين على بساط البحث . وقد تبادلت جريدتى « المؤيد » لصاحبها الشيخ على يوسف « واللواء » التهانى بتلك الخطوة نحو المساواة الاجتماعية ، غير أن جريدة الحزب الوطنى نشرت للشيخ عبد العزيز جاويش مقالة عنوانها « الإسلام غريب فى بلاده » كانت فاتحة نزال عنيف بين الصحافة الإسلامية والصحافة القبطية .

وفى هذا الأثناء ، ترك مصطفى فهمى باشا الوزارة ، فحل محله بطرس باشا غالى فى ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ ولسنا بحاجة إلى القول أن الرئيس الجديد استقبل استقبالا فاتراً . ولاحظ محمد بك فريد بشىء من التهكم ، فى مقال له ، أن بطرس باشا غالى هو الوزير الوحيد الذى لا يحمل شهادة عالية واختتم مقاله بقوله أنه سيحكم على الوزير الجديد على ضوء أعماله .

---

(١) ضع كلمة « قبطى » بدل كلمة « مصرى » .

ارتاح الأقباط لتعيين بطرس باشا غالى رئيساً للوزراء وكفوا عن التذمر وعقدوا آمالا كبيرة على تعيينه . وقد ذهب أحد الأقباط إلى الرئيس الجديد وقال له : « إن شاء الله يا باشا تنظر لمطالبنا القديمة وتساعدنا على نيل المساواة فى عهدك . » ولكن بطرس باشا غالى ، الرجل السياسى المحنك الحريص على مصالح الطائفة القبطية أكثر من سواه ، قاطعه قائلا : « أنى لا أنوى التدخل فى هذه المسألة فابعدوا عنكم كل هذه الآمال الآن . »

ولكن بطرس باشا وقع مع الإنجليز إتفاقية السودان ، فما كان من أحد الشبان المنتمين إلى الحزب الوطنى إلا أن اعتدى عليه وقتله . ويمكننا أن نتصور إنفعال الأقباط وغضبهم لهذه الفعلة ، وأصبح أقل الناس تطرفاً مستعدين للموافقة على أشد المقترحات تطرفاً .

وكان قد ظهر منذ بضع سنوات على مسرح السياسة خطيب شاب درس فى جامعات مصر وفرنسا وتنبأ بالخطر الذى قد ينجم عن تعادى عنصرى الأمة . ولما كان وطنياً مخلصاً ، فقد أدرك أن الوقت غير مناسب للمجادلات الدينية . وكانت الأمة المصرية قد أدركت فى عهد الاحتلال البريطانى بأنه لم يعد من الحكمة أن تقوم مشادات لا فائدة منها تحول أنظار الرأى العام إلى أهداف أخرى وبأن العداء بين المسلمين والأقباط يساعد الأمة المحتلة على ترسيخ أقدامها .

هذا الشاب هو مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى . وهو أول من جمع تحت لواء الوطنية المسلمين والأقباط وضم إلى حركته عدداً كبيراً من أعيان الأقباط ، نذكر منهم ويصا واصف ومرقس حنا باشا وقد لعبا فيما بعد دوراً سياسياً خطيراً .

ومن خطب مصطفى كامل العديدة نختطف هاتين الجملتين : « أن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » ؛ « الأقباط أخوة لنا فى الوطن » .

ولما توفي مصطفى كامل عام ١٩٠٨ وهو فى عنفوان الشباب ، بكاه المصريون جميعاً . ومن ضمن ما قيل فى رثائه نذكر كلمة مرقس حنا باشا : « كون الفقيد الوحدة الوطنية وأرانا طريق الإخاء والحرية . إن الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية ولا واجب عليها سوى خدمة مصر والمصريين بلا تخصيص ولا تقسيم . هذا بناء مصطفى كامل وهذا عمل مصطفى كامل وقد بدا لنا جنى ثمره من الآن ، لأن الاتحاد هو السلّم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال . »

ولكن كانت هناك نقطة فى برنامج الحزب الوطنى قللت من حماس الأقباط : لقد دأب مصطفى كامل على تأييد أحقية المسلمين دون سواهم بحجة أنهم يدينون بدين الدولة الرسمى ، ولم يخفِ اهتمامه بتجديد سياسة الجامعة الإسلامية . لذلك لم يوافق الأقباط على نقط برنامجه كلها .

وعلى كل ، لم تلبث أن ساءت العلاقات بين الأقباط وخلف مصطفى كامل محمد بك فريد . كان محمد فريد وطنياً مخلصاً ولكن يعوزه اللين . ففقد تأييد جميع الأقباط لحزبه . وكان استقباله لوزارة بطرس غالى استقبالا فاتراً بل لم يفه بكلمة واحدة تعبر عن تأثيره الحقيقى وعن تأسفه لحادث اغتياله . ولما فقد كل أمل فى معاونة الأقباط له ، هاجمهم هجوماً عنيفاً . وتراجع بعد ذلك وأكد أن القاتل كان مدفوعاً إلى اقتراف فعلته بعاطفته السياسية لا الدينية ولكن الأقباط شهروا سياسة الحزب وطلبوا إلى أبناء طائفتهم ألا يساهموا فى أعماله .

ألم يفهم من هذه الظروف أن مؤتمر أسيوط قام بتأثير شعور الانتقام ؟ لذلك أنكره عدد كبير من أعيان الأقباط وعلى رأسهم بطريرك الأقباط وواصف غالى باشا نجل بطرس باشا . فكتب فى عدد ٢٣ يناير من جريدة « الريفورم » الفرنسية يقول إن التفاهم تام بين عنصرى الأمة وأصدر بعد ذلك نداء يدعو فيه إلى الوحدة لمجابهة المستقبل .

أما الطلبات التى اتفق عليها خلال مؤتمر أسيوط ، فلا تختلف عن الطلبات التى قدمت إلى مصطفى فهمى باشا واللورد كرومر . ويمكن تلخيصها فيما يلى : (١) راحة يوم الأحد ؛ (٢) المساواة فى الوظائف ؛ (٣) تشخيص العناصر المصرية فى الهيئات النيابية ؛ (٤) التعليم فى مجالس المديريات (أوضريبة الخمسة فى المائة لإعانة مدارس الأقباط فى المديريات) ؛ (٥) الإنفاق من الخزينة المصرية على جميع المرافق المصرية على السواء .

وقد احتج المؤتمر الإسلامى الذى عقد فى مصر الجديدة ، بتشجيع من السر الدون جورست وبرياسة رياض باشا ، على محاولة الأقباط « تقسيم الأمة المصرية باعتبارها نظاماً سياسياً إلى عنصرين دينيين ، أكثرية إسلامية وأقلية قبطية »(١) .

وقد لعب أعضاء هذا المؤتمر على وتر وحدة الأمة السياسية واستطاعوا بذلك أن ينتصروا على منافسيهم . ويقول تقرير هيئة تنظيم المؤتمر : « أن مثل هذا التقسيم يستتبع تقسيم الوحدة السياسية إلى أجزاء دينية ، أى تقسيم الشىء إلى أقسام تخالفه فى الجوهر . . . . إن لكل أمة ديناً رسمياً وذلك ضرورى بل مشخص من مشخصاتها ، ودين كل أمة هو دين حكومتها أو دين الأكثرية فيها . ولكن من غير المفهوم بالمرة أن يكون فى الأمة أكثر من دين رسمى واحد ، وعليه فلا معنى للاعتراف بأقليات دينية تعمل فى السياسة بهذه الصفة أو تكسب حقوقاً عامة أكثر من أن تخلى بينها وبين القيام بواجباتها الدينية عملا بحرية الاعتقاد . . . . وبعد ذلك كيف يمكن الاعتراف بأن أقلية دينية تباشر بهذه الصفة الأعمال العمومية ويكون لها مطالب خاصة كأنما هى أقلية سياسية ؟ لا يمكن الاعتراف بذلك إلا إذا أمكن أن يكون للأمة دينان فى آن واحد وأن يكون أساس الأعمال فى المصالح العامة هو الدين . . . . فمن الخطأ أن يكون من الأشياء المسلم بها اعتبار أن

(١) أعمال المؤتمر ، ص ٥ .

الأمة السياسية تتألف من عناصر دينية . »

ولسنا فى حاجة إلى ذكر ردود مؤتمر مصر الجديدة على مطالب مؤتمر أسيوط بعد أن عرضنا المبادئ التى سار على نهجها المؤتمر الإسلامى . وقد خفت حدة المجادلات بعد عقد مؤتمر مصر الجديدة . وعلى الرغم من عدم رضى الطرفين عن بعضهما ، فقد حاولا جاهدين نسيان الماضى .

ثم ما لبثت أن اعترف مؤتمر الصلح المنعقد بباريس بحقوق بريطانيا على مصر ، فهب الوطنيون المصريون جميعاً ليحتجوا على هذا الاعتراف . وهنا أدرك سعد زغلول ، زعيم الحركة الوطنية ، خطر إبعاد الأقباط عن عمل يتوقف نجاحه على اتحاد الأمة جمعاء . وكان يصرح دائماً أن مصر للأقباط وللمسلمين على السواء وأن الجميع يتمتعون بنفس الحرية وبنفس الحقوق . ومن جهة أخرى ، بينما كان مصطفى كامل مصرياً وداعياً للوحدة الإسلامية اقتصر سعد على أن يكون وطنياً فقط .

فلا عجب إذا رأينا الأقباط ينضمون إلى حركته بحماس . ونستطيع أن نؤكد أنهم نافسوا بغيرتهم مواطنيهم المسلمين ووضعوا نصب أعينهم تحقيق الأمانى الوطنية . وكتب المؤرخ محمد صبرى فى هذه الحركة قائلا : « كان الأقباط ، حسب اعتراف جريدة « المورننج بوست » الصادرة بتاريخ ٩ أبريل سنة ١٩١٩ ، أكثر تحمساً للملكية من الملك نفسه (وهى ترجمة لتعبير فرنسى Plus Royaliste que le Roi) . لقد كانوا بين أشد الناس تحمساً للدفاع عن الفكرة الوطنية وكانوا أول ضحايا الاستقلال . وكان القساوسة يحضون على حب الوطن من فوق المنابر وفى المساجد وفى الأزهر ، وكان المشايخ والعلماء من جانبهم يخطبون فى الكنائس . وكان أشد المشاهد تأثيراً ظهور الأعلام . وقد رسم عليها الهلال كأنه يعانق الصليب . أن هذا الحدث ما هو إلا ثورة سياسية ودينية »[١] .

---

(١) *La Révolution Egyptienne*, I, p. 38

الاعتراف القانونى بالمساواة السياسية والاجتماعية .

هيأ محمد على جواً اجتماعياً جديداً ؛ هذه حقيقة لا مفر منها . وقد اقتفى خلفاؤه أثره وأتموا العمل الذى بدأه . ولم يلبث هذا التسامح ، الذى ظهرت آثاره فى حياة الأفراد العامة أولا ، أن أثر فى قوانين البلاد وهكذا انتصر فى أقل من قرن مبدأ المساواة المطلقة بين المسلمين وغير المسلمين .

وكان أول مظهر قانونى لهذا المبدأ ، إلغاء الجزية المفروضة على الذميين .

لم يكن محمد على ينوى قط إلغاء الجزية لأنها كانت مصدر إيراد للخزينة ، وذلك على الرغم من فرمان الكلخانة (١٨٣٩ م) الذى كان يتضمن إلغاء هذه الضريبة ، وقد ظل حبراً على ورق فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية . على أن الجزية التى كان يدفعها الأقباط فى عصر محمد على تكاد لا تذكر بالنسبة للمرتبات التى يتقاضونها من الوظائف التى كانوا يشغلونها فى الدولة . وإذا أخذنا مثلا ميزانية عام ١٨٣٢ م (١٢٤٩ هـ) ، وجدنا أن الجزية التى كان يدفعها الأقباط بلغت ستمائة كيسة أى ثلاثة آلاف من الجنيهات بينما كانوا يتقاضون مرتبات بلغت عشرين ألف كيسة أى ستين ألف من الجنيهات[1] .

ومن جهة أخرى ، فإن محمد على باحتفاظه بالجزية لم يكن يهدف إلا لزيادة موارده لا التقليل من شأن رعاياه الذميين . وعلى كل ، فقد كان محمد على أول حاكم مسلم فتح باب الاستثناء صراحة ، ليس للأعيان فحسب بل ولعامة الشعب الذين كانوا يؤدون له خدمات ذات شأن . وهكذا ، عند ما ألحق نحوا من مائة قبطى بالعمل فى ترسانة الإسكندرية ، ونظراً لكفاءتهم ، فقد أشار باعفائهم من دفع الجزية . والأمر الصادر فى ٢٢ ربيع الآخر عام ١٢٥٢ (مايو ١٨٣٦) يقول : « يقتضى اتباع الأصول المدونة

---

(١) ذكره بورنج فى تقريره المشهور ، ص ٤٤ — ٥ .

بها وربط ماهية ومرتب الصنف الذى يستحقه الأقباط الذين يؤخذون للجهادية لكونهم يؤدون مصالح الميرى ومن اللزوم رعايتهم ورفاهيتهم كمطاوبه »[١] .

وقد ألغيت الجزية نهائيا فى عصر سعيد باشا عام١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م) ويفهم من أمر صدر قبل ذلك التاريخ أن سعيد باشا لم يتشدد أبداً فى جباية هذه الضريبة بطريقة عملية حيث أنه فى عام ١٢٧١ هـ (١٨٥٤ م) تنازل عن مبالغ متأخرة قدرها خمسة عشر ألفاً من الجنيهات[٢] . والأمر الصادر بتاريخ ٢١ صفر ١٢٧٢ هـ (١٨٥٥ م) يشمل رغبة الوالى فى التلطف مع الذميين المشمولين برعايته ويلغى الجزية فعلا [٣] ولم تثر هذه المسألة مرة أخرى فى عهد الخديو إسماعيل .

وكان من الطبيعى ، وقد رفعت عن الذميين القيود الخاصة بالضرائب والزى ، أن يعاملوا شيئاً فشيئاً على قدم المساواة بالمسلمين . وبالفعل ، عند ما أدخل الولاة النظام الدستورى بمصر لم يسعهم إلا أن يعتبروا الذميين جزءاً لا يتجزأ من الدولة والاعتراف لهم على هذا الأساس بنفس الحقوق والامتيازات التى يتمتع بها المسلمين .

وتنص المادة الخامسة من البرنامج الذى وضعه « بلنت » ونشرته جريدة التيمس الصادرة فى أول يناير ١٨٨٢ على أن « الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى ، فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات

---

(١) محفوظات عابدين ، خطاب من محمد على إلى حبيب افندى بتاريخ ٢٢ ربيع ثانى ١٢٥٢ سجل ٧٤ « معية تركى » رقم ٩١٠ — تخصص الأقباط منذ عهد بعيد فى أعمال بناء السفن . وقد أرسل عبد العزيز بن مروان إلى تونس ثلاثة آلاف قبطى ليقوموا بهذه الأعمال .

(٢) محفوظات عابدين ، أمر عالى إلى وزير المالية بتاريخ ٢٩ ربيع ثانى ١٢٧١ ، سجل ١٨٨٠ « معية عربى » رقم ٥٧ .

(٣) محفوظات عابدين ، أمر عالى بتاريخ ٢١ صفر ١٢٧٢ ، سجل ١٨٨٣ رقم ٨ .

ويعلم أن الجميع اخوان وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية . »

والدساتير المختلفة التى وضعت فيما بعد كانت أكثر صراحة ووضوحاً فى هذا الشأن . وأننا نذكرهم على سبيل المعرفة :

— مشروع إصلاح قدمه إلى حضرة صاحب السمو توفيق باشا خديو مصر اتحاد الشباب المصرى سنة ١٨٧٩ . وكان يقترح هذا المشروع « المساواة التامة بين جميع المصريين أمام القانون واستعدادهم لشغل جميع مناصب الدولة دون تفرقة بسبب أصلهم أو ديانتهم »(١) .

— مشروع دستور مصرى (والمعتقد أن واضعه اللورد كرومر) بتاريخ ١٩٠٨ يقترح أن « جميع رعايا الخديو هم مصريون بغض النظر عن دينهم أو عقيدتهم »(٢) .

— على أن القانون النظامى والانتخابى الصادر فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٣ كان يعبر عن الاضطراب الذى كان سائداً منذ انعقاد مؤتمرى أسيوط ومصر الجديدة . فقد حتم القانون تعيين أربعة نواب من الأقباط ضمن الأعضاء المعينين والبالغ عددهم خمسة عشر . وكتب اللورد كتشنر إلى حكومته بتاريخ ٦ يوليو ١٩١٣ معلقاً على هذا البند بقوله : « أن وجوب تمثيل الأقليات هو دليل قاطع على رغبة الحكومة فى منح جميع طبقات الشعب هذا اللون من التمثيل الذى من حقها تماماً . »

وقد أثار بعض أعضاء اللجنة التى شكلت لوضع المبادئ العامة لدستور عام ١٩٢٢ مشكلة التمثيل النسبى لجميع الطوائف الدينية . ويؤكد أنصار هذا النظام أنه إذا ضمنوا للأقليات الدينية تمثيلا ثابتاً فى الجمعية الوطنية ، فانهم يمنعون بذلك الانجليز من التدخل فى شئون مصر الداخلية بدعوى حمايتهم للأقليات ، وأن فى ذلك الاحتفاظ بالوضع الذى ينص عليه القانون

---

(١) كتيب نشر بالإسكندرية ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) *Project for an Egyptian Constitution*

النظامى المعمول به (١٩١٣) . وبالرغم من تأييد بعض الأعضاء المسلمين والأقباط لهذا المبدأ ، فان أغلبية الأعضاء عارضوه بشدة ، فأستبعد . ويقول لنا قلينى فهمى باشا فى مذكراته أن الملك فؤاد ، على الرغم من التسامح الدينى الذى أظهره طوال حياته ، كان يعارض كل المعارضة ابقاء التمثيل النسبى على أساس التفرقة الدينية ، ذلك أن هذا المبدأ قد يبقى على الانقسامات القديمة التى يترتب عليها إضعاف الوحدة القومية .

غير أن دستور عام ١٩٢٢ ينص على المساواة التامة بين جميع المصريين أيا كان دينهم أو عقيدتهم ، كما ينص على حريتهم فى ممارستهم لشعائر دينهم وقبولهم بالوظائف الحكومية إلخ . . . . وجرت التقاليد فوق ذلك على أن يكون دائماً ضمن أعضاء مجلس الوزراء وزير قبطى .

وهكذا ، بعد جهود دامت قرنا من الزمن ، جاء دستور الأمة ليتوج أعمال أسرة محمد على الكبير .

١٢

مسائل متنوعة

ا . — الدور الذى لعبه بطريرك اليعاقبة تحت الحكم الإسلامى .

أصبح بطريرك الأقباط ، على أثر الحفاوة التى أظهرها له رعاياه عند دخول العرب مصر ، مصدر قلق لعمرو بن العاص وسائر الولاة ، إذ أدركوا مدى نفوذ هذا الحبر وعملوا فى الحال على وضعه تحت رقابة شديدة ومطالبته بالخضوع للسلطة الشرعية وبمعنى آخر ، أنهم منعوه من اتخاذ أى إجراء ، حتى فى محيطه الدينى ، دون استئذانهم .

وأرادوا أولاً إقرار انتخاب البطريرك ، فألزموه أن يقيد أسمه فى سجلات الديوان قبل أن يباشر أعماله . وقد استطاع أحد الشمامسة الكاثوليكيين يدعى جرجس أن يفوز فى عهد عبد العزيز بن مروان بالكرسى البطريركى ، وذلك بتأييد بعض أساقفة الإسكندرية . ولكن اليعاقبة اعترضوا على صحة انتخابه بدعوى أنه لم ينتخب فى يوم الأحد . فأولى عبد العزيز بن مروان هذه المشكلة اهتمامه وأرسل فى الحال بعض جنوده للمحافظة على النظام ، ثم دعا الطرفين المتخاصمين للمثول بين يديه [1] . وكان عبد العزيز قلقاً بوجه خاص عند ما وصل إلى الإسكندرية لتولى مهام منصبه ، لم يرحب البطريرك الراحل بقدومه بحجة أن موعد وصول الوالى لم يعلن بعد. ويتهم ساويرس الملكيين باثارة غضب عبدالعزيز . وعلى أي حال استدعى هذا الأخير البطريرك وسلمه إلى جنده وأمرهم بألا يطلقوا

(١) ساويرس ، ص ١٣٠ .

سراحه إلا بعد أن يدفع غرامة قدرها مائة ألف دينار [١] . واعتزم الوالى بعد ذلك على أن يضع البطريرك رهن إشارته دائماً وأن يلازمه فى جميع رحلاته . ويقال إنه سمح بتشييد كنيسة فى حلوان لسبب وضع البطريرك تحت رقابته[٢] .

ويبدو أن هذا التقليد تطور فى عام ١٨٤ هـ (٧٩٩ م) وأصبح قانوناً . ويروى لنا ساويرس بن المقفع أنه بعد أن اجتمع الأساقفة على هيئة مجلس بالإسكندرية واتفقوا على تعيين مرشح لهم ، عادوا إلى القاهرة ليقابلوا الوالى . فلما رآهم سألهم : « ما حاجتكم » ؟ فقال له أنبا ميخائيل : « نعلم رئاستك لأجل أن أبا المذهب الذى كان لنا قد توفى . . . لأجل ذلك أردنا أن نقيم آخر عوضه يدبر البيعة والشعب. » ولما سألهم الوالى عن اسم المرشح ، قالوا : «مرقس ». فأمر الوالى بتسجيل اسمه فى الديوان، ثم أذن لهم بأن ينتخبوه بدلا من البطريرك يوحنا .

وكان اسم الوالى هذا الليث بن الفضل وتصفه سيرة البطاركة بأنه كان رفيقاً بالأقباط. كما تروى لنا بعد ذلك أول زيارة قام بها البطريرك للسلطة المدنية . قال : « لما تم عيد الفصح ، دخل الأب البطرك أنبا مرقس إلى فسطاط مصر ليسلم على الوالى . فلما وصل مصر ، أعلموا الأب ميخائيل الأسقف والشعب بوصوله ، فخرجوا إليه بالأناجيل والصلبان والمجامر ولقوه بفرح عظيم وتهليل وقراءة ، وكانوا يقولون نعم وحسن وصولك إلينا يا مرقس بن مرقس . فمضى لمنزله ليستريح لأنه كان آخر النهار. وبالغداة قام البطرك والأسقف أنبا ميخائيل وباقى الأساقفة المجتمعين معهما ليجتمعوا بالوالى ، فلما وصلوا إلى داره استأذنوا عليه فأمر بدخوله . فلما دخل وسلم على الوالى ، التقاه ودعا له . . . فأمره الوالى أن يجلس وساواه فى المخاطبة »[٣] .

وقد ظن البطريرك أنه يستطيع بعد الفتح العربى أن يواصل علاقاته الدينية

---

(١) ساويرس ، ص ١٢٦ .

(٢) Amélineau, *Vie d'Jsaac*, Journal asiatique, 1885

(٣) ساويرس ، ص ٢٣٨ — ٩ .

مع اليعاقبة القائمين خارج الحدود المصرية . وفى عهد عبد العزيز بن مروان ، حدث ان كتب البطريرك الى النجاشى والى ملك النوبة (وكلاهما كانا وقتئذ مسيحيا وتابعا لبطريركية الإسكندرية لحملهما على الصلح وتسوية النزاع القائم بينهما . فأخبر الدساسون الوالى بذلك ، فغضب وقرر إعدام البطريرك . ولكن الكتاب الأقباط — وكانوا آنئذ المتصرفين فى الإدارة — أرادوا إبعاد هذه الكارثة ، فحرروا فى الحال خطابات تختلف تماماً عن الخطابات التى سلمت إلى المندوبين المسافرين إلى الحبشة وسحبوا التى كتبها البطريرك . ثم أخبروا الوالى بان المبعوثين موجودين ومعهم الخطابات التى كانوا يحملونها . فأمر عبد العزيز باحضارهم فوراً وأخذ منهم الخطابات ، ولما قرأها لم يجد فيها أية إشارة إلى ما نقل إليه ، أى أنه لم يجد دعوة صلح موجهة إلى الأميرين المسيحيين . فهدأت ثورة غضبه وسمح للبطريرك بالعودة إلى الاسكندرية (١) .

وفى سنة ٧١ هـ (٦٩١ م) استقبل البطريرك سمعان رسولا من بلاد الهند(٢) يطلب إليه تعيين اسقف وكاهن . ولما كان البطريرك عالماً بنية الوالى ، امتنع عن إجابة هذا الطلب قبل الحصول على تصريح من السلطة . ولكن الرسول لم يصبر وتوجه بطلبه إلى اسقف آخر حقق رغبته . وكان لهذا التصرف اسوأ النتائج حسب ما جاء عن لسان الرواة . ثم أن الكرسى البطريركى ظل شاغراً مدة ثلاثة أعوام بعد وفاة البطريرك سمعان .

وهكذا أخذت شخصية البطريرك تتلاشى كلما توطدت أركان الإمبراطورية العربية ، ولم يعد هذا الرئيس الدينى سوى آلة يديرها الحكام حسب رغباتهم بالرغم من الألقاب التى كان يمنحها لهم الولاة الفاطميون أو السلاطين المماليك . أضف إلى ذلك أنه رغم الاحترام الذى كان يظهره رعاياه ، لم يحتل البطريرك فى

---

(١) ابن الراهب ، ص ١٢٢ — ٣ .

(٢) كان الأحباش الذين يقطنون فلسطين معروفين باسم الهنود ، وهى كلمة غير واضحة تشمل فى الواقع جميع بلاد الأحباش (Kammerer, *La Mer Rouge*, I, 3e partie p. 273-4)

الواقع إلا المكانة الثانية فى الأمة القبطية . أما المكانة الأولى ، فكان يحتلها القائم على مالية الدولة أو ، على الأخص ، القبطى الذى كان يتمتع بثقة رجال الحكم.

وهذا الخلاف حول الأسبقية الأدبية سبب فى أواخر القرن التاسع عشر حادثاً خطيراً بين البطريرك كيرلس الخامس ولفيف من الأعيان بقيادة بطرس باشا غالى ، رئيس الطائفة . وكان البطريرك يناهض حركة الإصلاح التى كانت تنادى بها جمعية التوفيق لإدخال النظم الحديثة فى معاهد الطائفة . فاستطاع بطرس باشا الحصول على إذن من الخديو لنفى البطريرك . ورغم الاحترام البالغ الذى يكنه الأقباط لرئيسهم الدينى ، لم يتأثروا كثيراً من رؤية هذا الشيخ الجليل فى طريقه إلى المنفى تحت حراسة قوة من البوليس .

ولكن لا يسعنا أن ننكر الدور الهام الذى قام به بطريرك اليعاقبة منذ الفتح العربى . وسنتكلم فيما بعد عن مساعيه المختلفة لصالح مصر الإسلامية . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن البكوات المماليك استعانوا به فى جباية الضرائب المستحقة عن الأقباط ، ويبدو أنه قام بهذه المهمة خير قيام وحاز رضى جميع الحكام[1].

ب . — حالة الأقباط الروحية تحت الحكم الإسلامى .

سبق أن قلنا أن الأقباط ، قبيل الفتح العربى ، كانوا يستغلون دينهم لتحقيق أغراضهم بدلا من العمل على خدمته . ولكن مجيء العرب وتقدم الإسلام فى مصر وعزلة الأقباط المعنوية وجهل الإكليروس وعدم ميله إلى الثقافة ، كل هذه الأسباب أضعفت مركز المسيحية فى مصر مع مرور الزمن .

ووصف لنا البطريرك ديونيسيوس ، الذى رافق الخليفة المأمون فى رحلته إلى مصر إبان ثورة الباشموريين ، ما وصلت إليه المسيحية المصرية من سوء حال ، فقال : « لقد رأينا هناك عادات لا تتفق مع الفضيلة وتتنافى مع فضائل كيرلس وديوسقور وتيموثاوس الذين وضعوا قوانين الكنيسة المصرية . وأول ما لاحظناه أن

(١) على باشا مبارك ، الخطط الجديدة التوفيقية ، بولاق ، جـ ٦ ص ٨٣ .

الأقباط ، ولا سيما رهبانهم ، كفوا عن دراسة الكتب المقدسة فلم يستغلوا منافعها . وأكثر الرهبان تقوة يحترفون الأعمال اليدوية ويسترسلون بعض فقرات من الكتب الدينية . وأن الذين يقصدون ترقيتهم إلى رتبة الأسقفية لا يبالون بتثقيف عقولهم ولكنهم يهتمون بجمع المال ليشتروا رتبتهم . ولولا دفع مبلغ معين من المال ، لما استطاع أحد أن ينازل هذه الرتبة حتى إذا كان يمتاز بعلمه وسلوكه القويمة . ولما أخذنا نلومهم على موقفهم ، اعتذر البابا (بطريرك الإسكندرية) وقال : « إننا نسلك هذا الطريق بسبب الديون المستحقة على كنيسة الإسكندرية ، ولولا المال الذي يجبي بهذه الطريقة لعجزنا عن تسديد الديون » [١] .

هذا ما وصلت إليه الكنيسة القبطية بعد مضى قرنين فقط من دخول العرب مصر . نعم إن بعض الرهبان حاولوا إصلاح النظم والقلوب . وقد اشتهر بعضهم بوضع المؤلفات العلمية والدينية ، ولكنهم ظلوا أقلية ضئيلة لا يستطيع مواطنهم أن يفتخروا بهم لقلة عددهم . أضف إلى ذلك أن مؤلفاتهم ليس فيها إصالة ولا جدة .

وتتابع البطاركة على كرسى الإسكندرية الواحد تلو الآخر دون أن يأتوا لها بمفاخر جديدة . وكان عصرهم موقوفاً من حيث الهدوء والاضطراب على رضى أو عدم رضى الحكام عليهم وعلى هدوء الحالة العامة أو اضطرابها . ولم يبذل أحدهم مجهوداً حقيقياً ليبث روحاً جديدة فى هذه الكنيسة التى كانت تضمحل تدريجاً . أما كتاب سير البطاركة ، فكانوا يسردون لنا المشاكل المالية التى كانت تشغل أذهان الطائفة .

زد على ذلك أنه منذ اضطهاد الأقباط فى عهد السلاطين المماليك ، كانت أحياناً تمضى فترات طويلة من الزمن قبل انتخاب البطريرك الجديد[٢] وقد استفحل الأمر بعد احتلال الأتراك مصر . ولكن الرعية لم يهتموا كثيراً بهذه

---

(١) ميخائيل السورى ، جـ ١ ص ٨٠ .

(٢) على مبارك باشا ، جـ ٦ ص ٨٣ – ٤ .

الحالة الشاذة . وقد حدث أيضاً فى عصر الفاطميين ، عند انتخاب البطريرك افرام أن يقع الاختيار على مرشح علمانى إذا لم يتقدم أى مرشح له صبغة دينية .

وكان الإيمان بالمسيحية صورياً . ولما كان التعليم الدينى منعدماً ، أصبح الإكليروس لا يفهم أصول الدين . وكان البطريرك يسبط من عزائم رعاياه بدلا من تدعيمها . ذلك لأن العيش فى سلام كان هدفه الأول بل الوحيد . وجاء فى « سيناكسار » اليعاقبة أنه « حدث أن أساء أسقفان معاملة رعيتهما ، فلامهما الأنبا يوساب أكثر من مرة وطلب إليهما أن يحسنا معاملتهما . ولكنهما رفضا النصيحة ، فتركهما وشأنهما . واستنجدت الرعية به وقالوا له : « إذا فرضت هذين الأسقفين علينا ، فإننا سنخرج من ديننا . . . » فما كان من البطريرك إلا أن دعا أساقفة القطر كله ونفض يديه أمامهم من تبعة معاقبة هذين الأسقفين »(١) .وفى عهد السلطان الملك الكامل ، حدث أن تاجراً يدعى حنا اعتنق الإسلام ليتزوج من مسلمة ، ثم ندم على عمله وأراد أن يستشهد . فقيل له : « اذهب عند البطريرك واطلب مشورته واعمل بها . » ولكنه أجاب : « أخشى أن يخيفنى البطريرك من الموت » (٢) .

وكانت حالة الأساقفة والقساوسة أكثر سوءاً . ولما كانت حاجتهم إلى المال تفوق حاجة البطريرك إليه ، صاروا يعبدون المادة . فى عام ٨٣٥ م ، ظل الكرسى البطريركى شاغراً مدة طويلة بعد وفاة البطريرك سمعان . وهنا ظهر موظف متزوج ، ومنح الأساقفة العطايا ، فاتفقوا مع بعض أعيان الإسكندرية لانتخابه بطريركاً (٣) . وهناك دليل آخر على حب المال ، ذلك أن أسقفاً كان يعيش فى الوجه القبلى فى القرن الثامن عشر ، فطلب إلى الأب الرحالة « سيكار » Sicard الفرنسى أن يعلمه سر صناعة الذهب (٤) .

---

(١) René Basset, *Le Synaxaire Jacobite*

(٢) Amélineau, *Un document Copte du XVIIIe Siècle*, Journal asiatique, 1897.

(٣) Basset, *Synaxaire jacobite*

(٤) *Lettres édifiantes et curieuses*, V, p. 28

أما الشعب ، فكان لم يزل يعطف سراً على تراث الفراعنة الروحى . وكان قد ورث عنهم اللغة وبعض العادات وكان يرغب أيضاً فى تكريم ما تبقى من آثار قديمة . وكتب الرحالة « نوردن » Norden فى هذا الصدد يقول : « لقد عرف المصريون القدماء والمحدثون ، الوثنيون والمسيحيون والمسلمون ، المتعلقون بالخرافات ، كيف يجمعون بين طقوس الأديان المختلفة . فلا غرابة إذا وجدنا بينهم من يجل الأهرامات وأبا الهول إجلالا ظاهرياً ، بل يكن لها شعوراً داخلياً فياضاً . وكان البعض يذهب إلى حد اقامة حفلات دينية تكريماً لها ، فيثيروا غضب المسلمين الذين أعلنوا صراحة عن عدوانهم لعبادة الأصنام »[١] . وتفسير « نوردن » هذا يوضح لنا ما جاء فى تاريخ المقريزى عن سبب تحطيم وجه أبى الهول . قال : « كان شخص يعرف بالشيخ صائم الدهر قام فى نحو من سنة ثمانين وسبعمائة لتغيير أشياء من المنكرات وسار إلى الأهرام وشوه وجه أبى الهول وشعثه »[٢] .

ولكن يجب الا نلوم الأقباط وحدهم على ذلك . فان الانحطاط شمل جميع مسيحى الشرق . ويجدر بالذكر أن أبناء الطائفة الملكية بحلب فى القرن السابع عشر أساءوا تفسير تعاليم الديانة المسيحية إلى حد أنهم صرحوا رسمياً بتعدد الزوجات على شرط ألا يتم الزواج بامرأة ثانية إلا إذا قامت علاقات زوجية بينهما لمدة سنتين ، ولا يتم الزواج بأمرأة ثالثة إلا إذا قامت العلاقات بينهما لمدة خمس سنوات[٣] . ويري الأستاذ حبيب زيات الذي نشر هذه الوثيقة إن ذلك الأمر ما هو إلا نتيجة للتأثير الإسلامى . فهل تأثر الأقباط بالأغلبية ؟ وإلى أى حد تأثروا ؟

---

(١) *Voyage en Égypte et en Nubie*

(٢) الخطط ، جـ ١ ص ١٢٣ .

(٣) خطايا الروم الكاثوليك الملكيين فى القرن السابع عشر ، فى مجلة « المشرق » سنة ١٩٣٨

جـ — أثر الإسلام فى دين الأقباط وعاداتهم .

فى عام ١٩٠٨ كتب اللورد كرومر ، الذي تحكم فى مصير مصر مدة من الزمن ، يقول : « يوجد فرق ظاهرى شاسع بين المسلمين والأقباط ، لكن هذا الفرق لا يكاد يذكر فى الواقع . إن الضرورة تحتم على الأقلية أن تتأثر بالأغلبية . ففى الهند أصبح المسلمون براهمة إلى حد ما ، فى حين ان الهندوكيين الذين هم أغلبية فى البلاد بنسبة ٥ إلى ١ لم يأخذوا شيئاً عن المسلمين . ويمكننا أن نطبق هذا المبدأ على أقباط مصر ، إذ لم يتأثر مسلمو هذا القطر بالأقباط مطلقاً بينما أن القبطى تأثر بمواطنه المسلم دون أن يشعر بذلك »[1] .

إن ملحوظة اللورد كرومر الخاصة بمصر غير صحيحة تماماً ، إذ وجد الإسلام فى الديار المصرية وطنيين متمسكين كل التمسك بتقاليد أجدادهم ومحتفظين ببعض العادات والمعتقدات والخرافات التى كان يقدسها الفراعنة . وهكذا لم تخل تقاليد المسلمين فى مصر من الأثر الفرعونى ، بينما ان الإسلام شبع بروحه الأقلية القبطية التى ظلت متمسكة بالمسيحية .

ما أخذه الأقباط عن المسلمين .

لما قطعت المسيحية المصرية علاقاتها بالعالم اليونانى الرومانى ، قبل دخول العرب مصر بمدة طويلة ، فقدت الكثير من رونقها وسطوتها . ويبدو أن عدم ظهور دين جديد فى تلك الفترة هو السبب فى منع حدوث أي تغيير جوهرى فى تعاليم المسيحية ، بدليل أنه عند دخول العرب ، لم يتردد مسيحيو مصر — الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن مبدأ دينى لم تتسع له مداركهم — أن يخرجوا عن تعاليم المسيحية الصريحة .

(١) *Modern Egypt*, II, p. 203

ويحدثنا ساويرس بن المقفع أنه فى عام ٧٦ ﻫ (٦٩٥ م)، أى فى عهد البطريرك سمعان، كان بعض الذين يدعون أنهم مسيحيون يهجرون زوجاتهم ويضغطون على رجال الإكليروس ليحملوهم على التصريح لهم بزواج آخر. ولما أخفقوا فى الحصول على مطالبهم، قدموا شكوى إلى الوالى فحواها أن رجال الدين برفضهم إجابة رغبتهم يدفعونهم إلى ارتكاب خطيئة الزنا. فغضب الوالى واستدعى الأساقفة الأربعة والستون دون أن يذكر لهم سبب هذه الدعوة(١). ولم يبين لنا الراوي شيئاً مما حدث فى هذا الاجتماع، ولكننا نعرف أن الطلاق الذى كان تحرمه الكنيسة المصرية بصفة رسمية، كان يعمل به علانية بل كانت الكنيسة نفسها تعترف به وخاصة عند ما اضمحل الأقباط فى عهد العثمانيين. ويكتب الرحالة الفرنسى «دومينيك جونا» D. Jauna عام ١٧٩٥ م: «إن عادة الطلاق ليست خاصة بالمسلمين فقط؛ إنها شائعة أيضاً عند المسيحيين الأقباط الذين لم يهتموا بالأسباب التى نص عليها الإنجيل، ويكفى أن يقول إنسان للبطريرك أنه غير راض عن زوجته وتقول المرأة أنها على غير وفاق مع زوجها ليسمح البطريرك بالطلاق. وإذا رفض السماح لهم بالطلاق، نفذاه على الرغم منه. وكذلك لم يرفض البطريرك أبداً مثل هذه الطلبات حيث إنه بعدم موافقته عليها يفقد أجراً كان يعطى له فيما لو سمح لهما بذلك الفراق المرذول الذى نقلته بقية الطوائف عن الأقباط»(٢).

وذكر التاريخ أمثلة لبعض الأعيان الأقباط فى عهد المماليك اعترفت السلطات الدينية بزواجهم من امرأتين. ولم يكلف هؤلاء الأعيان أنفسهم مشقة إلغاء زواجهم الأول ولا سيما أنهم كانوا يملكون عدداً من الجوارى والعبيد أسوة بأسيادهم. ولا أدل على ذلك من المعلم غالى الذي كان ينتمى

(١) تاريخ البطاركة، ص ١٣٥.

(٢) *Histoire générale...* II, p. 1333-4

إلى العقيدة الكاثوليكية ومع ذلك لم يتوان من اقتناء ستين جارية من البيض والسود والحبشيات ، وقد عثر عليهن عند ما أمر محمد على بتفتيش منزله[١] .

ولا نعلم على وجه التحقيق متى اتبع مسيحيو مصر عادة اقتناء العبيد . وإذا رجعنا إلى ما كتبه المؤرخون فى هذا الصدد ، تبين لنا أنهم اتبعوها باكراً . ففى عهد البطريرك افرام وخلافة العزيز الفاطمى ، كان معظم الأعيان يملكون الجوارى . وفى عام ٨٥٦ هـ (١٤٦٠ — ٦١ م) أمر صاحب الخراج الأقباط بتسليم جواريهم المسلمات لكثرة عددهم عندهم[٢] . ويذكر « ستوكوف » Stochove الذى هبط مصر سنة ١٦٦٢ أن النصارى اكتسبوا حق شراء الجوارى بكل حرية[٣] . ويذكر رحالة أخرون هذه الواقعة كما أننا نعرف من القصص التى نقلها لنا الجبرتى عن تصرفات القبطان حسن باشا أن الأقباط أسرفوا فى استعمال حق اقتناء الجوارى .

ويدلى لنا علماء الحملة الفرنسية بالبيان الآتى : « للنصارى فى مصر حق اقتناء العبيد ، وهو حق لم يتمتعوا به فى سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية . ولكن حقهم محدود بمعنى أنه غير مصرح لهم بأن يقتنوا ذكوراً فى خدمتهم ، وغاية ما يستطيعون هو شراء أطفال على أن يتخلصوا منهم عند ما يبلغون ، ويسمح لهم باقتناء عدد غير محدود من النساء . لذلك تجد لدى كل اسرة جارية أو اثنتين على الأقل للاعمال المنزلية »[٤] .

ومن جهة أخرى ، كف الأقباط عن التكلم بلغتهم وبذا انهارت أقوى دعامة لشخصيتهم . ولم يكتفوا بتعلم اللغة العربية لقضاء حاجتهم فحسب ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إذ تركوا نهائياً اللغة القبطية واستعاضوا عنها بلغة حاكميهم حتى فى كنائسهم .

(١) الجبرتى ، ج ٤ ص ١٣٥ .
(٢) السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٣٨٥ .
(٣) *Voyage au Levant*, p. 432
(٤) *Description de l'Égypte*, 2e édit, XVIII, 1ère partie, p. 29

ثم نقلوا عن المسلمين قواعد الذوق واللياقة وغيرها . ويلاحظ إن رواية المؤرخ « مكين » المسيحى التى ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي غاصة بالألفاظ الدينية الخاصة بالمسلمين مثل « بسم الله الرحمن الرحيم » بل إنها متأثرة كل التأثر بالروح الإسلامية ، مما حمل المستشرق « فاتييه » Vattier الذى ترجم هذه الرواية أن يقول : « من خصائص المكين أنه يتكلم بسذاجة عن كل ما يتناوله فى كتابه بدرجة أنه إذا ذكر شيئاً يتعلق بالإسلام اعتقدناه مسلماً ، وإذا تكلم عن اليعاقبة اعتقدناه يعقوبياً ، وإذا تحدث عن الكاثوليك تخيلناه كاثوليكياً »[١] .

وفى الرسالة التى وجها البطريرك جبرائيل الثامن إلى البابا اكليماندوس الثامن عام ١٦٠١ م بشأن اتحاد الكنيستين المصرية والكاثوليكية ، لم يتوان فى استعمال العبارة التى يعتز بها المسلمون ، غير أنه استبدل كلمة « الرحمن » بكلمة « الرؤوف »[٢] . والملاحظ أن استعمال هذه العبارات الدينية لا ترجع إلى استخدام الأقباط اللغة العربية بل جاءت تدريجاً ، بدليل أن ساويرس بن المقفع الذى عاصر الخلفاء الفاطميين لم يستعملها أبداً فى كتاباته .

ومن العادات التى أخذها الأقباط عن المسلمين باكراً ، ختان الأطفال الذى ألغته المسيحية ولم يكن معمولا به فى مصر قبل دخول العرب . وحدث بعد ذلك أن أحد البطاركة أرغم رعيته على ممارسة الختان بل كان يهتم به أكثر من اهتمامه بالعماد . وفى عام ١١٢٠ م ، نظم البطريرك مكاريوس هذه العادة وأمر بختان الأطفال قبل العماد[٣] . وذهب البطريرك يوحنا (١٢٠٨ م) إلى أبعد من ذلك حيث أصدر تعليماته المشددة بشأن جعل ختان الأطفال إجبارياً . وقد ألغى هذا البطريرك أيضاً الاعتراف[٤] . ويقول المقريزى إن

---

(١) Vattier, *La chronique d'Elmacin*, p. 15

(٢) مجلة المجمع العلمى المصرى ، سنة ١٩٠٤

(٣) ابن الراهب ، ص ١٣٩ Artin Pacha, *Un lettre.*

(٤) ابن الراهب ، ص ١٤١ .

اليعاقبة كانوا يهتمون بالختان بخلاف الملكيين .

وأدخل استعمال الحجاب فى حريم النصارى بمصر «ولم يسمح الأقباط لزوجاتهم بأن يظهرن أمام رجال الدين بدون حجاب ، والبطريرك نفسه لا يستطيع رؤية سيدة غير محجبة إلا إذا سمح لها زوجها بذلك»(١).

وكانت النساء القبطيات فى الكنائس والاجتماعات تجتمعن فيما بينهن ، وكن مفصولين عن الرجال بمقاطع صماء .

وإذا استثنينا الصلبان التى كانت تزين الكنائس والصلوات التى كانت تتلى فيها ، لاحظنا أن تلك الكنائس كانت تأوي أناس يهتمون بتقليد شعائر المسلمين أكثر من اهتمامهم بتخليد شعائر المسيحيين . وقد استقينا من رواية بروتستانتية ، حررت منذ قرن فقط ، تفاصيل دقيقة فى هذا الشأن . فهى تقول إن رجال الدين اليعاقبة كانوا يوصون رعيتهم بالصلاة فى منازلهم سبع مرات يومياً(٢) . وكان بعض الأقباط يغسلون أيديهم وأوجههم أو أحياناً أقدامهم قبل الشروع فى الصلاة ، أسوة بالمسلمين ، وأنهم كانوا يرتلون الصلوات وهم متجهين دائماً نحو الشرق(٣) .

وهناك تفاصيل أكثر غرابة من تلك التى ذكرناها ، وهى مدونة فى كتاب الدكتور كلوت بك وفى رحلة المسيو « بللوك » Belloc إذ يقولا إن الأقباط يخلعون أحذيتهم قبل أن يدخلوا كنائسهم كما يفعل المسلمون(٤).

ويوجد وجه شبه آخر بين المسلمين والأقباط وهو تعلق الأقباط بالحج إلى كنيسة القيامة بالقدس كى ينالوا لقب « حاج » . ولا يفوتهم أن يحيطوا

(١) *Description de l'Égypte*, 2e édit., XVIII, 1ère partie, p. 19

(٢) على المسلمين أن يصلوا خمس مرات يومياً فقط .

(٣) *Journal of a deputation to the East*, 1849, I, p. 20

(٤) *Aperçu*, II, p. 136. و *Le pays des Pharaons*

وقد نقل هذا الأخير عن كلوت بك التفاصيل التى ذكرها فى رحلته . ويجب أن نذكر هنا أن الرهبان الأقباط يقلعون أحذيتهم عند ما يصلون ، طبقاً لتعاليم التوراة. ولكن فى تلك الفترة ، كان الأقباط يقصدون تقليد المسلمين إذ لم يفعلوا هذا فى الوقت الحاضر .

سفرهم إلى القدس بنفس المظاهر التى كان يحيط بها المسلمون سفرهم . فكانوا يذهبون على هيئة قوافل كبيرة العدد . وينقل إلينا الجبرتى فى هذا الصدد حدثاً طريفاً بمناسبة حج النصارى . نعلم أن الولاة المتسامحين صرحوا وحدهم للنصارى بزيارة القدس . على أن المماليك حرموهم أحياناً من ذلك . وكتب الجبرتى فى حوادث سنة ١١٦٦ هـ (١٧٠٤ — ٥ م) : « فى نحو هذا التاريخ قصد نصارى الأقباط الحج إلى بيت المقدس وكان كبيرهم إذ ذاك « نوروز » ، كاتب رضوان كتخدا . فكلم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية وألف دينار . فكتب له فتوى وجواباً ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم . فلما تم لهم ما أرادوا ، شرعوا فى قضاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا فى هيئة وأبهة وأحمال وصواهى وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ، ونصبوا لهم عرضياً عند قبة العزب ، وأحضروا العربان ليسير فى خفارتهم ، وأعطوهم أموالا وخلعاً وكساوى وإنعامات ، وشاع أمر هذه القضية فى البلاد واستنكرها الناس . فحضر الشيخ عبد الله الشبراوى إلى بيت الشيخ البكرى كعادته ، وكان على أفندى أخو سيدى بكرى متمرضاً ، فدخل إليه يعوده ، فقال له : « أى شىء هذا الحال يا شيخ الإسلام على سبيل التبكيت ؟ كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال لكونهم أرشوك وهادوك ؟ » فقال : « لم يكن ذلك » . قال : « بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى هذا تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من ذلك ويصنعون لهم محملا ، ويقال حج النصارى وحج المسلمين ، وتصير سنة عليك وزرها إلى يوم القيامة . فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظاً وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم ، وخرج كذلك معهم طائفة من مجاورى الأزهر ، فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم وجرسوهم ونهبوا أيضاً الكنيسة القريبة من دمرداش وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة

بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وانفقوه فى الهباء »(١) .

وكانت الطقوس الدينية بمناسبة الزواج تشبه تقاليد المسلمين . وكانت الفتاة تحتجب عندما تصل إلى سن البلوغ وكان الشاب الذي يريد الزواج يكلف إحدى قريباته للبحث عن عروس . وإذا تم الاتفاق ، حرر الكاهن عقداً وقام بمراسيم الزواج . وإذا تعهد العريس بدفع مهر ، كان عليه أن يقدم نصفه مقدماً كما يفعل المسلمون(٢) .

ويروى لنا الرحالة « سانت جون » St. John انه فى عهد محمد على كان القساوسة الأقباط يشجعون زواج المتعة المعروف لدى القبائل الإسلامية وخاصة لدى الشيعيين(٣) .

وقد ذهب الأقباط إلى حد الامتناع عن أكل لحم الخنزير(٤) .

ما أخذه المسلمون عن الأقباط .

لقد أشرنا من قبل إلى بعض العادات التى كان يتبعها الأقباط والتى اتخذها مسلمو مصر دون سواهم . وأهم هذه العادات — وهى قائمة إلى يومنا هذا — جلب النادبات فى المآتم . ولم تخرج هذه العادة ، التى ورثها الأقباط عن الفراعنة ، عن حدود مصر . وقد لاحظ الفرنسيون عند احتلالهم مصر أن الأقباط كانوا يبالغون فى إظهار شعور الحزن أكثر من المسلمين(٥) .

ولكن إذا تحدثنا عما أخذه المسلمون عن الأقباط ، قصدنا بذلك

---

(١) الجبرتى ، ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) Michaud et Poujoulat, *Correspondance d'Orient*, VII p. 79.

(٣) *Travels in the Valley of the Nile*, II p. 382-4.

(٤) Sonnini, *Voyage dans la Haute et la Basse Égypte*, chap. XXVIII

وجاء فى كتاب Leeder, *Modern sons of the Pharaohs* ص ٢٤٥ « أن البطريرك الذى احتل كرسى البطريركية قبل كيرلس الخامس رفض أن يأكل مع الليدى دوف جوردون . وكان يكره البروتستانت الذين يأكلون اللحم طول السنة مثل الكلاب . »

(٥) *Description de l'Égypte*, 2e édit, XVIII, 1ère partie, p. 19

خصوصاً الخرافات التى يرجع أصلها إلى العصور القديمة . ولن نطيل الكلام عن هذه العادات . ونكتفى بالإشارة إلى واقعة حديثة نسبياً ذكرها « تيفينو » Thévenot ، وهى تدل على أن التمسك بالخرافات كان شائعاً وعادياً إلى حد أن المسلمين لم يترددوا فى طلب نعم الأرواح الغائبة أو فى اعتناق معتقدات وهمية لم تكن موجودة فى الواقع إلا فى خيال النصارى . قال تيفينو : « يوجد بالقرب من مصر العتيقة ، على شاطىء النهر ، مقبرة واسعة دفن فيها عدد كبير من الجثث . ويعتقد سكان القاهرة ، من أقباط ويونانيين وأتراك ومغاربة ، اعتقاداً راسخاً أن الموتى فى أيام الأربعاء والخميس والجمعة المقدسة ، حسب التقويم القديم ، كانوا يبعثون . ولكنهم لم يتنزهوا فى المقبرة كما يتبادر إلى الأذهان ، بل كانت عظامهم تخرج من الأرض فى هذه الأيام الثلاثة ثم تعود إليها إذا ما انقضت . فذهبت إلى هذه المقبرة . . . ودهشت عند ما رأيت هذا الجمع الغفير وكأنهم فى سوق . . . ويذهب الأتراك فى موكب ، حاملين راياتهم جميعاً ، إلى هذه المقبرة التى دفن لهم فيها شيخ يدعون أن عظامه تخرج كل عام من قبرها كعظام سائر الموتى ، فيذهبون هناك ويصلون صلاة كلها تقوى وورع »(١) .

ويكتب رحالة آخر اسمه « نيبوهر » Niebuhr ، لمس بنفسه معتقدات أهل وادى النيل الخرافية ، عن الأشباح التى كان يبدو لهم أنها تظهر فى ثغر دمياط ، فيقول : « إنها المرة الوحيدة التى لاحظت فيها هذا اللون من الخرافة بين المسلمين . ففى بلاد العرب لا يعرفون الأشباح ولا يتحدثون عنها »(٢) .

---

(١) Thévenot, *Voyage en Égypte*, p. 275

(٢) *Voyage en Arabie*, I, p. 45

هل كانت هذه التأثيرات عميقة ؟

على الرغم من أن المسلمين اتبعوا بعض العادات التى يرجع تاريخها إلى العصر الفرعونى ، فإنهم لم يدعوا أنفسهم يتأثرون بالمعتقدات القبطية . هل كان الأمر كذلك فيما يختص بالأقباط ؟ نعم إن هؤلاء اتجهوا إلى التشبه بالمسلمين من حيث المظهر حتى إذا اعتنقوا الإسلام بعد ذلك ، لم تعد هناك أية علاقة تميزهم عن عامة الشعب . ولكنهم طالما ظلوا فى الدين المسيحى لم يكشف سلوكهم الخارجى أى خروج عن عقائدهم ، بل إننا لا نستطيع أن ننكر على الأقباط تعلقهم بدينهم ورضوخهم لتعاليم كنيستهم . فلم يكن عندهم من منة يلتمسونها أحسن من تصريح ببناء أو إصلاح كنيسة . وهذا ما فعله المعلم الشهير إبراهيم الجوهرى عند ما أدى خدمات جليلة لأخت السلطان أثناء مرورها بمصر فى طريقها إلى مكة ، فألتمس مكافأة له أن يصدر السلطان فرماناً بإقامة كنيسة بالأزبكية (الكاتدرائية الحالية) وإعفاء الرهبان من دفع الجزية[1] . وقد انتهز أيضاً فرصة حسن استعداد السلطات نحوه وطلب إصلاح الأديرة والكنائس[2] .

ونختتم هذا الحديث بقول اللورد كرومر : « الفرق الوحيد بين القبطى والمسلم هو أن الأول مصرى يعبد الله فى كنيسة مسيحية فى حين أن الثانى مصرى يعبد الله فى مسجد مسلم »[3] .

د . — المنافسة بين الملكيين واليعاقبة .

لقد أشرنا عرضاً أثناء هذا البحث إلى المنافسة القائمة بين الملكيين واليعاقبة . وقد نشأت منذ انعقاد مجمع كالسيدونيا (٤٥٣ م) واستمرت

(١) الخطط التوفيقية ، ج ٦ ص ٧٢ .
(٢) الخطط التوفيقية ، ج ٦ ص ٨٥ .
(٣) *Modern Egypt*, II, p. 206

طوال الحكم الإسلامى . وترتب عليها نتائج خطيرة جداً . لذلك لا نستطيع أن نمر عليها دون أن نتحدث عنها .

ظل نفوذ بطريرك اليعاقبة كبيراً جداً داخل مصر وخارجها بالرغم من القيود التى وضعت للحد من نشاطه . وإذا كان الوالى امتنع فى بادئ الأمر أن يتدخل فى شئون الأقباط الداخلية ، أى فى المسائل الدينية البحتة ، فقد اضطر إلى التدخل بعد إلحاح اليعاقبة أنفسهم وخاصة بعد الدسائس التى حاكها الملكيون . ويقول ميخائيل السوري[1] فى هذا الصدد : « لما عجز اليونانيون الخبثاء (يقصد هنا الملكيون) عن إساءة الأقباط ، كما كانوا يفعلونه فيما مضى ، لم يكفوا عن أعمالهم السيئة وكانوا يعينون فى أنطاكيا ومصر لشعوبهم بطاركة ليثيروا الفوضى بين السوريين والمصريين والأرمن ، كالثعبان الذى بترت رأسه ولم يزل يحرك ذيله . وكان يوجد فى سوريا وبلاد الأرمن وكذلك فى فلسطين ومصر ، علاوة على بطريرك وأساقفة طائفتنا ، بطريرك وأساقفة للملكيين ، كانوا يثيرون الفوضى بقدر إمكانهم بين أفراد هذه الأمم الثلاثة ، وإذا أتيحت لهم الفرصة ، بين النوبيين والأحباش . »

وكان الأقباط يستعينون بالوالى لأغراض شخصية : هذا قس يشكو إليه لأنه لم يرق إلى درجة أسقف فيخبره بوجود كنز مخفى ؛ وهذا قس آخر يسافر إلى دمشق ويدعى أمام الخليفة بأن فى استطاعته ملأ خزانة الدولة الخاوية من ذهب بطريرك اليعاقبة الذى كان يصنعه بنفسه بطرق كيمائية ليزين كنائسه بالأوانى النفيسة[2] . ولا تخلو سير البطاركة من القصص المماثلة ، فلا داعى من الإطالة فى هذا الموضوع ولا سيما أن معظم هذه الحالات فردية . ولا يسعنا أن ننكر أن الرغبة فى الثأر خلقت سوابق

---

(١) تاريخ ، ج ٣ ص ٢٢ .

(٢) ساويرس ، ص ٢١٩ – ٢٠ .

خطيرة ، إلا إن توخينا الدقة يحملنا إلى القول بأن الملكيين لا اليعاقبة هم الذين حرضوا الولاة المسلمين على التدخل فى المسائل الدينية البحتة .

وكان الملكيون أصحاب حظوة لدى السلطات البيزنطية لإخلاصهم لها ، فلم يرضخوا للحكم العربى بمحض رضاهم . وكان الإجلال الذى أحاط به عمرو بن العاص بطريرك الأقباط بنيامين ومصادرته معظم الكنائس والأديرة لصالح اليعاقبة ، بعث عند الملكيين رغبة الانتقام .

ثم كانت الفوارق تزداد بين رعايا الطائفتين كلما رسخت أقدام الحكم العربى فى مصر . لقد فرح اليعاقبة فرحاً عظيما لتخلصهم من اليونانيين ، فلم يعودوا يتوجهون إلى بيزنطيا . وإذا كانت بلاد النوبة والحبشة تخيب آمالهم ولا ترسل لهم المعونة فى الأوقات الحرجة ، كان الأقباط ينطوون على أنفسهم ويحاولون تهدئة غضب الحكام .

أما الملكيون ، فكانوا على عكس ذلك إذ أنهم لم ينقطعوا يوماً واحداً عن التطلع إلى بيزنطيا . وكانت الأحداث التى تقع على ضفاف البوسفور تهمهم أسوة بالتى تقع على ضفاف النيل . وكذلك لما كتب سعيد بن بطريق تاريخه ، أولى الحوادث البيزنطية والمصرية نفس الاهتمام فى حين أن خصمه ساويرس بن المقفع لم يركز اهتمامه إلا فى داخل الحدود المصرية ويتجاهل الحوادث الخارجية .

على أن الملكيين لم يعارضوا الحكم العربى علنا بل حاولوا أن يتفاهموا مع المحتل الجديد . ولم يكن أمامهم لتحقيق هذا الغرض سوى خطة واحدة وهى مساعدة الغرب على تشديد قبضتهم على اليعاقبة . فرموا بذلك عصفورين بحجر ، أى نيل حظوة المنتصر وإضعاف نفوذ اليعاقبة فى آن واحد .

وقاموا بعملهم هذا بعد سقوط الإسكندرية مباشرة . ويقول حنا النقيوسى فى هذا الصدد : «جمع ميناس الملحد ٣٢,٠٥٧ قطعة من الذهب وسلمها للإسماعيليين (كذا) بينما كانت الغرامة التى فرضها عمرو عن المدينة

لا تتجاوز ٢٢ ألف قطعة »[١] .

ونقرأ من جهة أخرى فى السينكسار اليعقوبى أن البطريرك أغاتوا « لقى شدائد كثيرة من أجل الأمانة ، من ذلك أن فى زمانه مضى إنسان اسمه تاوداسيوس ، وكان ملكى المذهب ، إلى مدينة دمشق وتقدم إلى يزيد بن معاوية الخليفة بها ، وقدم له أموالا كثيرة وأخذ منه منشوراً بأن يتولى مدينة الإسكندرية والبحيرة ومريوط ، فلما أتى ، تسلط على أبينا البطريرك ووزنه الجزية ووزن تلاميذه فى كل سنة ستة وثلاثين ديناراً ، وألزمه بكل ما ينفق على مراكب الأسطول فى كل سنة وكان يزن عنه سبعة آلاف دينار فى كل سنة ، ولكثرة شره لم يختلط به أهل ملته لأنهم كرهوا منه ما عمل مع البطريرك . ولا يمكن الأب أن يخرج من قلايته وقال : «كل من وجد البطريرك فى الطريق يقتله . فمكث الأب فى قلايته محبوساً إلى أن أهلك الله هذا المنافق »[٢] .

ولكن اليعاقبة لم يسلموا بهزيمتهم . وقام أحدهم ، وكان كبير مستشارى قره بن شريك ، ونجح فى إقناع الوالى بجعل الملكيين يدفعون ضعف الضريبة المقررة[٣] .

ولا شك أن الملكيين لم يزالوا يشعروا بقوة نفوذهم لأنهم فكروا ، فى ولاية عبد العزيز بن مروان ، فى أن ينتخبوا بطريركاً من بين أفراد طائفتهم ويفرضوا سلطته على أفراد الطائفتين[٣] . أضف إلى ذلك أنه عند ما قال الوليد « ما أدع بطركاً يتقدم فى أيامى . . . » كان هناك طبيب من أهل الإسكندرية اسمه « أنوبيس » ، فلما وجد الوسيلة ، سأل الأمير أن يأمر أن يقدمه بطركاً من الإسكندرية وكان رومياً خلقدونياً ، فقبل سؤاله . وكان

---

(١) ص ٥٨٥ .

(٢) ص ٣٤١ .

(٣) ساويرس ص ١٥٠ .

كاتب اسمه أنسطاسيوس من الإسكندرية ودفع هذا الكاتب ألف دينار للأمير جعل الفير بطرك الخلقدونى بمدينة الإسكندرية »[١] .

ثم حدث أن شفيت زوجة الخليفة هارون الرشيد المختارة على يد بطريرك الإسكندرية الملكى . فمنحه الخليفة مبلغاً كبيراً من المال على سبيل الهدية وأعطاه أمراً يسترد بمقتضاه من اليعاقبة جميع الكنائس التى كانوا قد صادروها لصالحهم . وعاد البطريرك إلى الإسكندرية واسترجع هذه الكنائس[٢] .

وكان الخلفاء يستغلون شعور الحقد بين هاتين الطائفتين ، فيكلفون أصحاب الطائفة الأولى بتنفيذ الأوامر التى يصدرونها ضد أصحاب الطائفة الثانية . ولما أمر الخليفة المأمون « أن تؤخذ من البيع فى كل مكان العمد والرخام ، كان الواصل فى هذا الطلب إنساناً مخالفاً مبغضاً من النسطورية اسمه العازر . فلما وصل إلى مصر ، اجتمع إليه أهل مذهبه النجس الذين هم الهراقطة الخلقدونيون المقيمون بالإسكندرية »[٣] .

وفى خلافة عبد الله بن مروان ، ذهب الملكيون واليعاقبة إلى حد التماس تحكيم قاض مسلم فى مسألة خاصة بملكية إحدى الكنائس .

ومن البديهى أن الحكام العرب لم ينظروا بعين السخط إلى هذه الخلافات المستجدة لأنها كانت تتيح لهم فرصة التدخل فى أمور رفضوا التدخل فيها فى بادىء الأمر غير أنهم كانوا يظهرون قلقهم بسبب العلاقات القائمة بين الملكيين وبيزنطيا ، ثم بينهم وبين دول أوروبا الكاثوليكية وقد احتفظ لنا القلقشندى بنصوص مستندات لها أهمية كبيرة فى هذا الموضوع . وهذه المستندات خاصة بمراسيم تنصيب البطاركة الملكيين واليعاقبة بالإسكندرية .

---

(١) ساويرس ص ١٥٠ .

(٢) ابن بطريق ، ص ٥٢ .

(٣) ساويرس ، ص ٢٨٦ — ٧ .

وكان الحكام يوصون البطريرك الملكى فى هذا المرسوم بأن يمنع رعاياه القاطنين فى المناطق الساحلية من إقامة أية علاقة خفية بينهم وبين الأجانب القادمين إلى مصر . أما المرسوم الخاص بتنصيب البطريرك اليعقوبى ، فإنه لم يذكر شيئاً عن هذا الموضوع غير أنه يشير إلى علاقاته بالحبشة [(١)].

أما عن العلاقات بين اليعاقبة والملكيين ، فلنذكر قصة تظهر لنا مدى الكراهية التى كانت تفرق بينهم ، وهى قصة المصلح مرقس بن كنبر . ولسنا فى حاجة إلى الوقوف بهذه القصة طويلا ، فقد ذكرها أبو صالح الأرمنى بتفاصيلها . ونقول فقط إن الإصلاحات التى كان يقترحها مرقس على البطريرك اليعقوبى للتقرب بين الطائفتين سببت طرده من الكنيسة القبطية . وكان مرقس يقترح السماح للشعب القبطى بأن يطيل شعره ومنع الختان والتوصية بالاعتراف السرى . ولما بلغ الخلاف أشده ، لجأ مرقس إلى ساحة السلطان . ولكن البطريرك اليعقوبى انتصر عليه لأن الملكيين كانوا معدومين النفوذ فى ذلك الوقت . وانتقم بعد ذلك المباشرون الأقباط أحسن انتقام بفرض جزية مضاعفة على المدن التى أطاعت مرقس بن كنبر ، وكان انتقامهم هذا لمصلحة الخزينة المصرية .

واكتنف الغموض تاريخ الملكيين فى العهد العثمانى . فقد تركوا لمصيرهم ، منذ سقوط القسطنطينية فى القرن السادس عشر ، يتخبطون فى غياهب الفقر والجهل . وفى أوائل القرن الثامن عشر ، لم يكن فى القاهرة إلا ملكى واحد على خمسمائة قبطى ، أى حوالى عشرين نسمة . وكان يوجد ما يقرب من المائة فى الإسكندرية وبعض الأسر المتفرقة فى موانىء رشيد ودمياط والسويس . وغنى عن البيان أنه لم يكن لهم أى نفوذ . وكان السلطان يوافق بين حين وآخر على تعيين بطريرك ملكى لكرسى الإسكندرية . ثم إنه من

---

(١) صبح الأعشى ، طبع دار الكتب ، ج ١١ ص ٣٩٢ .

(٢) *Lettres édifiantes*, V, p. 240

الصعب علينا ، بما لدينا من المعلومات ، أن نعرف بالتحديد عدد الملكيين الذين ظلوا خاضعين لروما وعدد الذين انشقوا مع البيزنطيين ، بيد أن اهتمام دول أوروبا بمصير الملكيين المصريين يدل على أن بعضهم جدد صلاته بالكرسى الرسولى . ولكن البابوات كانوا يهتمون أيضاً بمصير اليعاقبة الذين حولوا كراهيتهم ، بعد زوال الملكيين ، نحو الإفرنج .

هـ . — كراهية الأقباط للإفرنج .

لم تفقد الكنيسة الكاثوليكية الأمل فى إعادة يعاقبة مصر إلى حظيرتها بعد فشل المحاولة التى كان يراد بها وحدة الكنائس . وقد بذر « فرانسوا داسيز » F. d'Assisc ، مؤسس الكهنوتية الفرنسسكانية ، بذور الوحدة ، ولكن ثمرتها ظلت ضعيفة بالرغم من أن الإرساليات الكاثوليكية كانت تملك فى عام ١٧٣١ تسع أديرة فى الوجه القبلى[١] .

وكان الأقباط والمسلمون يرون أن من مصلحتهم إبقاء تلك الإرساليات بالرغم من شدة كراهيتهم للافرنج . وكتب الرحالة « نيبوهر » فى هذا الصدد : « كانت القاهرة خالية من التجار الإفرنج ولكنها لم تعدم من القساوسة التابعين للارساليات الكاثوليكية . ويرى فيها اليسوعيين والكبوشيين والكوردليييه وآباء البروباجندة . وكان هؤلاء الرهبان يتحمسون فى سبيل التبشير وكانوا يفلحون أحياناً ، بطريقتهم الخاصة ، فى إدخال بعض المسيحيين المنشقين فى حظيرة الكنيسة الرومانية . وكانت السلطات تجيز عملها لأنها كانت تستغل لمصلحتها المنازعات التى كانت تشجر بين الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكى وبين أفراد طائفتهم الأصلية . وغالباً كان الباشا لا يكتفى بتغريم الطرفين المتنازعين ، بل يذهب إلى مصدر النزاع ويطالب الرهبان أنفسهم بمبالغ كبيرة من المال[٢] .

(١) Butcher, *Church of Egypt*, II, p, 341-5

(٢) *Voyage en Arabie*, I, p. 104

هذا ما قاله الرحالة البروتستانتى « نيبوهر » ، ورأى قنصل فرنسا الكاثوليكى ، « بنوا دى مابيه » B. de Maillet ، لا يقل تهكماً إذ يقول : « يجيب المرتدون المزعومون عند ما يعاب عليهم خروجهم عن مذهبهم : ما فيش فلوس ، مافيش كنيسة (كذا فى النص الفرنسى) . وكنت أرى هنا كنيسة آباء الأرض المقدسة حافلة بالمرتدين الجدد وهم أفقر مسيحى القطر المصرى . وكان هذا الفقر المدقع يجعلهم طوع إرادة من يمد لهم يد المساعدة »[١] .
وكتب الرحالة « سونينى » Sonnini الإيطالى بعد القنصل الفرنسى : « إن اسم « إفرنجى» مكروها من أبناء الصعيد . وهذا الحقد يرجع إلى موقف الأقباط منهم . وكانوا يتألمون من قدوم بعض المرسلين من إيطاليا خصيصاً لنقد مذهبهم واتهامهم بالإلحاد واعتبارهم بدون إشفاق كلاب ومن الهالكين »[٢]

ما سبب هذا الحقد ؟

كان الأقباط يربطون بين الإفرنج (الأوروبيين فيما بعد) والملكيين ، ذلك لأن الغربيين كانوا ، حتى انفصال « لوثير » Luther عن الكنيسة الكاثوليكية ، خاضعين لروما . ومن الطبيعى أن يعتبرهم الأقباط حلفاء الملكيين وبالتالى أعداءهم . ونجهل على أى أساس كان يستند ملك البرتغال عند ما كتب إلى الكردينال «كسيمينيس » Ximénès أن « النصارى الخاضعين لسلطان مصر على استعداد تام للانضمام إلينا عندما يلمحوا بريق أسلحتنا »[٣] . أما الأب اليسوعى « برنا » Bernat ، الذى درس هذه المسائل عن كثب ، فكتب إلى الأب « فليريو » Fleuriau : « يجب

---

(١) *Description de l'Égypte*, II, p. 66

(٢) *Voyage*, chap. XLIX

(٣) ذكره الفيلسوف « لايبنتس » Leibnitz فى التقرير الذى رفعه إلى الملك لويس الرابع عشر .

أن تنزل نعم الله علينا لكى نقضى على العوائق التى يظهر لنا أنها تحول بين الأقباط وبين انضمامهم الخالص إلى الكنيسة الكاثوليكية . وأول هذه العوائق هى الكراهية المتأصلة للإفرنج »[١]. والواقع أن الكراهية التى كانوا يضمرونها للغربيين كانت مرتبطة بشعور الحقد نحو الكاثوليك . وقد أشار « نيبوهر » بوضوح تام إلى هذا الشعور إذ يقول : « يكره الأقباط كنيسة روما كرهاً لا يمكن القضاء عليه . . . ويخبىء القساوسة بعناية الكتب المحررة باللغة القبطية إذ يخشون — كما يدعون — أن يستولى عليها الكاثوليك ويطبعوها فى أوروبا بعد تزوير نصوصها . فإذا أقنعنا هؤلاء القساوسة بأننا لسنا من أنصار البابا ، وإذا خففنا عليهم وطأة فقرهم (بمنحهم بعض العطايا) أمكننا الحصول على بعض نسخ من هذه الكتب المدفونة »[٢] .

هذه الاعترافات الساذجة التى سطرت على ورق دون أية دراسة عميقة والتى ترتكز على الملاحظة فقط ، هى فى نظرنا أحسن برهان على وجود هذا الشعور .

وفضلا عن ذلك ، فإننا لا نجد عندهم فى أى وقت رغبة صادقة فى التفاهم ، ولا ميل إلى بذل مجهود حقيقى لتقريب وجهات النظر . ولم يتوجهوا لحظة واحدة نحو الغرب بالرغم من اضطهاد الحاكم بأمر الله لهم وتخريب كنائسهم وتعرضهم للظلم فى عهد السلطان محمد بن قلاوون وللإهانات فى عهد المماليك . وإذا طلبوا الانضمام إلى روما فى القرن السادس عشر الميلادى ، لم يكن ذلك عن إيمان بل عن حاجة إلى المال .

ولما أراد وزير حربية الملك لويس السادس عشر ، قبيل الحملة الفرنسية ، أن يدرس مسألة جواز احتلال مصر ، وأرسل لهذا الغرض إلى البارون « دى توت » Tott ، الذى كان يقيم فى مصر وقتئذ ، بعض الأسئلة

---

(١) *Lettres édifiantes* ..., V, P. 225

(٢) *Voyage en Arabie*, 1. P. 107-8

المفصلة ، لم يهتم مطلقاً بالمساعدة التى قد يقدمها له أقباط مصر . ولعل عدم اهتمام الوزير بالأقباط راجع إلى قلة عددهم وتلاشى نفوذهم وقوتهم . غير أنه ذكر فى السؤال الثامن والعشرين حالة اليهود . فقال : « هل من المستطاع أن نجعل اليهود القاطنين فى الوجه البحرى يهتمون بأمرنا ؟ »(١) ويتضح من ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت ترحب بمعاونة داخلية ، ولكنها كانت تعلم أن الأقباط سوف يأبون عليها هذا التعاون .

وتضمن تقريرات القناصل المعتمدين كراهية الأقباط نحو الإفرنج . وكتب القنصل « دى ماييه » فى هذا الشأن : « أن كراهية هذا الشعب لنا شديدة إلى درجة أنه عند ما يريد أحدهم أن يقسو على إنسان فى السبّ ، ينعته « بإفرنجى » . تلك هى طريقتهم فى التعبير عن شدة احتقارهم لشخص ما »(٢) . وبالفعل ، كتم الأقباط شعورهم نحو بونابارت قبل أن يظهروا له عداوتهم . أما الإدارة الفرنسية أثناء الحملة ، فلم تخف احتقارها لهم .

ولما ازداد نفوذ الأوروبيين ، زادت كراهية الأقباط لهم ، تلك الكراهية التى تحدث عنها كثير من الأجانب ، المقيمون منهم أو الرحالة . وكان « ريفو » Rifaud ، الذى يجيد معرفة الشئون الداخلية فى مصر ، يوصى مواطنيه أن يلزموا جانب الحذر ، فقال : « يحمل الأقباط كراهية شديدة لسائر المسيحيين . ويجب على الأجانب أن يبتعدوا عنهم ، وإن كان لا بد من التعامل معهم ، فبكل تحفظ »(٣) . ويلاحظ « جون دوربين » J. Durbin الإنجليزى بدوره أن تأثير الإرساليات على النصارى من سكان البلاد كان غير ذى شأن(٤) . ويذهب « شارل ديدييه » Ch. Didier

(١) F. Charles-Roux, *Le projet français de la conquête de l'Égypte sous le règne de Louis XVI* فى منشورات المجمع العلمى المصرى ج ١٤ ص ٥٧ .

(٢) *Description de l'Egypte*, II, p. 67-8

(٣) *Tableau de l'Égypte et de la Nubie*, p. 98

(٤) *Observations in the East*, I, p. 67 (9th. edit.)

إلى أبعد من ذلك حين يكتب : « لا يفضل الأقباط أبناء دينهم الأوروبيين على المسلمين أنفسهم ، ويقال إنه إذا قامت حرب صليبية أخرى بين المسلمين والمسيحيين ، فإن الأقباط سينضمون إلى صفوف الأولين . ويذكر « ايزانبير » Isambert فى « مرشد الرحلات » أن كراهية الأقباط للأجانب تزيد بمراحل عن الكراهية التى قد يشعر بها المسلمون نحو الكفار »[1] .

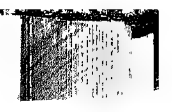
وكانت كراهية الأقباط أشد بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يتركون الأرثوذكسية ويعتنقوا المذهب الكاثوليكى . وقد لاحظ « سونينى » هذا الشعور إذ قال « يوجد كثير من الكاثوليك بين أقباط طهطا . والمعروف أن الأقباط ينتمون إلى أحد المذاهب التى تتهمها الكنيسة الرومانية بالإلحاد . وكثيراً ما كانت أذهب لزيارة أكابرهم حيث كنت ألتقى مسروراً بقسيس مصرى أمضى خمسة عشرة سنة فى دير بروما . وكان يتكلم ببعض السهولة اللاتينية والإيطالية وكنت أجد لذة فى التحدث إلى رجل كنت أعتبره أوروبياً . وكان يقول لى إن المصريين التابعين للكنيسة اللاتينية يتعرضون لمعاملة سيئة للغاية من مواطنيهم العديدين الموصومين بالإلحاد[2] .

وكان الأقباط الذين وضع محمد على ثقته فيهم من الكاثوليك . وقد اضطر أكثرهم نفوذاً ، وهو المعلم غالى ، أن يدفع عن نفسه عدة دسائس حيكت ضده . وينقل لنا الجبرتى واحدة منها إذ يقول : « فى عام ١٢٣١ هـ (١٨١٦ م) انتبذ طائفة من الأقباط فى الحط على غالى مع الكتخدا وعرفوه أنه إذا حوسب ، يظهر عليه ثلاثون ألف كيس . فقال لهم وإن لم يتأخر عليه هذا القدر تكونوا ملزومين به إلى الخزينة . فأجابوه إلى ذلك . فأرسل يعرف الباشا بذلك ، فورد الأمر بالقبض عليه وعلى أخيه وخازنداره

---

(١) Isambert, *Orient*, p. 182-4

(٢) *Voyage*, ch. XLIII



وحبسهم وعزله ومطالبته بالستة آلاف كيس القديمة أولا ، ثم حسابه بعد ذلك ، فأحضر المرافعين عليه وألبسهم خلعاً على رياسة الكتاب عوضاً عن غالى ومن يليه »[١].

ولم نلبث فى عهد محمد على حتى لاحظنا الفرق الواضح بين موقف رجال الطائفتين . فبينما ظل اليعاقبة وبطريركهم يعادون الأجانب كل العداء ، احتمى الأقباط الكاثوليك ، فى القرن السابع عشر ، بحماية جمهورية البندقية ثم بحماية النمسا عام ١٨٦٦ م . لذلك لم يتردد قنصل النمسا ، عندما أنشئت المحاكم المختلطة ، فى طلب إعفاء الأقباط من التقاضى أمام المحاكم الأهلية ، ولكن الحكومة المصرية لم تقر هذه النظرية .

ومن جهة أخرى ، بينما كان عدد كبير من الرحالة يشكون من صعوبة زيارتهم للأديرة القبطية التابعة لليعاقبة ، وقف الأقباط الكاثوليك موقف التآخى من اللاتين فيما يختص بالناحية الدينية . ومثلا عند ما قدم الأب « دى جيرامب » Géramb إلى مصر ، خف المطران القبطى الكاثوليكى لاستقباله[٢] . ولما قدم رئيس آباء الأرض المقدسة ، أثناء دورته الرعوية ، استقبله مطران الأقباط الكاثوليك ببولاق[٣] .

ولا شك أن روح التسامح التى غرست فى مصر فى عصر محمد على ، أخذت تثمر فيما بعد . وقد فتحت الأديرة أبوابها للزوار الأجانب ، بل للرهبان الكاثوليك . وقد صرح لهم أيضاً بدراسة المخطوطات المودعة فيها . أما البطريرك ، الذى كان يضمر العداء للأجانب ، فقد استقبل عام ١٨٩٤ الكاردينال « لانجينيو » Langénieux ، المندوب البابوى فى المجمع المقدس الذى عقد فى مدينة القدس ، استقبالا حاراً . « وقد قام بزيارته

---

(١) الجبرتى ، ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٢) *Pèlerinage en Terre Sainte*, III, p. 159-60

(٣) نفس المصدر .

فى اليوم الأول . ولما ردّ له الكردينال الزيارة فى اليوم التالى ، فى الكنيسة المرقسية ، ارتدى البطريرك لاستقباله ملابسه الدينية وأمر بقرع الأجراس كما لو كان يحتفى برئيس له ... وقد تحدث الناس بعد ذلك عن اتحاد الكنيستين»(١) .

و . — العلاقات بين المسيحية العالمية ومصر المسيحية تحت الحكم الإسلامى .

إن الدور الذى لعبه البطريرك ، والحوادث اليومية التى كانت تقع بين الملكيين واليعاقبة ، جعلتنا نقتنع بأن الدول المسيحية لم تهمل تماماً مصير الأقليات الدينية فى مصر .

والواقع أنه لما اجتاح الإسلام الشرق ، حاول النصارى القاطنين فى البلاد المحتلة ، مدفوعين بغريزتهم ، أن يحتفظوا برباط روحى مع الدول المسيحية الكبرى . وبينما توجه الملكيون نحو بيزنطيا ، اتجه اليعاقبة نحو النوبة والحبشة على الأخص ، لأن الحبشة كانت الحصن المنيع الذى لم يجرؤ العرب على اقتحامه أبداً(٢) .

وكانت علاقات الأقباط بالنوبة والحبشة طبيعية لأن بطريرك الإسكندرية كان الرئيس الروحى لتلك البلاد . ثم أن تدهور نفوذ البطريرك يوماً بعد يوم لم يقلل من الاحترام الذى كان يتمتع به فى الحبشة . وقد رأينا كيف كان النجاشى يضحى بعزة نفسه ويطلب باحترام إلى السلطات المصرية أن ترسل له مطراناً . ويصف ابن فضل الله العمرى كيف كان حكام الحبشة يقابلون من يحمل رسالة من البطريرك اليعقوبى . فيقول إن رجال الدولة والقساوسة والأراخنة كانوا يستقبلونه على حدود المقاطعات وفى أيديهم المجامر . ولما كان المندوب يصل إلى مدينة « أمهره » كان النجاشى يستقبله شخصياً ويمتنع منذ هذه اللحظة عن إصدار أوامره حتى يوم الأحد الذى يلى وصول

(١) L. Malosse, *Impressions d'Égypte*, p. 271-2

(٢) ليس لدينا أى برهان مكتوب على التجاء الأقباط إلى النجاشى . ولكن دليلنا على ذلك قسوة الحكام فى معاقبة الذين كانوا يتهمون بالاتصال بالحبشة سراً .

المندوب . وعندئذ كان النجاشي ورجال الدين والدولة يعقدون جلسة فى ساحة الكنيسة لإصغاء مضمون الرسالة . وكان النجاشي يستمع إليها وهو واقفاً(١) .

كتب ابن فضل الله العمرى هذه السطور فى عهد سلاطين المماليك ، أى فى الوقت الذى تزعزت فيه مكانة البطريرك بمصر ، مما يجعلنا نتساءل ما سبب احترام ملك ذى سلطان واسع لشخص كان يعيش أغلب الأحيان فى بؤس مادى وأدبى شديدين ؟ ونجد أحسن رد على ذلك على صفحات تاريخ ابن فضل الله العمرى إذ يقول إن المسيحيين اليعاقبة كانوا يعتقدون أن سر الاعتماد لا قيمة له إلا إذا وافق عليه بطريرك الإسكندرية . لذلك يضطر النجاشي أن يلتمس تعيين الأسقف الذى يمثله البطريرك فى الحبشة . وكان إرسال الخطاب إلى البطريرك يحط من شأن النجاشي إلا أن إرساله كان عملا لا مفر منه .

وقد ظلت العلاقات بين نصارى مصر وجيرانهم الإفريقيين بعد الاحتلال العربى ، بل لقد زادت قوة هذه العلاقات لأن ملك النوبة وإمبراطور الحبشة كانا ينتهزان حجة أى اضطهاد يقع على النصارى أو أى إجراء يصيب هيبة البطريرك ليتدخلا فى شئون مصر ، بينما أن الولاة العرب لم يترددوا فى طلب وساطة البطريرك فى سبيل تأمين حدودهم الجنوبية . إلا أن العلاقات القائمة بين البطريرك والملوك المسيحيين كانت تقلق الحكام المسلمين وخاصة بعد احتلال مصر مباشرة ، بل كان حضور قسيس لطلب تعيين مطران يكفى لإلقاء الرعب فى نفوس رجال الإدارة(٢) .

ولم تهتم الحبشة جدياً بمركز الكنيسة القبطية قبل القرن الثالث عشر

---

(١) لم ينشر هذا النص باللغة العربية وقد ترجمه Gaudefroy-Demombynes فى كتابه : *L'Afrique moins l'Égypte* ص ٣٢ .

(٢) انظر الحادث كما رويناه ، فى الفصل الثالث .

الميلادى . وإذا اتصلت بها قبل ذلك ، كان لسبب واحد ، هو طلب تعيين المطران (الابونا) ، ذلك لأن موقع النوبة المسيحية بين الحبشة ومصر كان يؤهلها لتقوم بدور المدافع الأول عن المسيحية المصرية .

وفعلا قذف ملوك النوبة عام ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) بجيوشهم عبر الحدود المصرية انتقاماً للإهانة التى لحقت بالبطريرك ميخائيل الأول . وكان ذلك أول مظهر من مظاهر التضامن بين المسيحيين وأهمها . وينقل إلينا ساويرس بن المقفع هذا الحادث ، بل يحدثنا عنه بحماس . قال : « لما علم الملك قرياقوس بأن عبد الله بن مروان زج بالبطريرك فى السجن سار من بلاد النوبة يريد ديار مصر فى عسكر عظيم فيه ماثة ألف فارس بمائة ألف فرس وماثة ألف جمل . ولقد شاهد من أخبرنا بعينه أن الخيل التى تحتهم كانت تقاتل بأيديها وأرجلها فى الحرب كما يقاتل فرسانها فوقها ، وكانوا خيلا قصاراً مثل الحمير . فلما قربوا إلى مصر ليسبوها ، ونزلوا فى البركة المعروفة إلى اليوم ببركة الحبش ، نهبوا وقتلوا وسبوا المسلمين ، وقد كانوا فعلوا ذلك بمسلمى الصعيد . وكان الملك قبل وصوله إلى مصر قد سير رسولا اسمه الابرخس ، من كبراء المملكة ، إلى عبد الله يأمره أن يطلق البطرك . فأخذه عبد الملك واعتقله مع البطرك . فلما علم بمجىء الملك ووصوله إلى مصر ولم تكن له قدرة على محاربته وخاف منه جداً ، أطلق رسوله الابرخس من السجن ، فخرج فى لقاء الملك بعد أن قرر معه واستحلفه أنه يرده وعساكره إلى بلاده ولا يدعه أن يتقدم إلى حصونه ولا يحاصره ، وكان المسلمون يسرقون النوبة ويبيعونهم بمصر ، فعاد بعسكره بعد أن نهب من المسلمين شيئاً كثيراً »[1] .

وكذلك ظل الأقباط يستنجدون ببلاد النوبة فى أوقاتهم العصيبة طالما ظلت بلاد النوبة مسيحية . ففى أثناء المجاعة التى حاقت بمصر ، فى عهد

---

(١) ص ١٨٥ .

الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، استنجد النصارى بأريحية الملك جورج النوبى .

ولم تبلغ العلاقات بين مصر والحبشة درجة الخطورة ، بالرغم من المظاهر التى صحبتها . هذا لأن مصر والحبشة لم تستطع أن تخوض غمار حرب لطول المسافة التى تفصلها براً وكثرة العقبات الطبيعية التى تقوم بينهما وتعدد الثورات الداخلية والأخطار الخارجية التى تهددهما . ثم إنهما لم ترغبا خوض غمار حرب بالرغم من أنهما لم تحاولا التفاهم قط ولا الارتباط بالصداقة[1].

كانت الحبشة فى حاجة إلى حسن استعداد مصر بينما أن مصر كانت فى حاجة إلى حسن استعداد الحبشة . ولا ننسى أن مطران الحبشة كان يتلقى تعيينه من بطريرك الإسكندرية الذى كان يخضع لسلطة والى مصر المسلم . لذلك كان النجاشى يرغب فى عدم قيام أية حرب بين الدولتين ولا سيما أن رعاياه كانوا يحجون كل عام إلى بيت القدس حيث أقيمت دار لإيوائهم . وكانوا يريدون القيام بهذه الرحلة الدينية وهم مطمئنين تماماً .

أما مصر ، فكانت تدرك أن الحبشة جارة لا يرتاح لها ، بل إنها جارة خطرة كل الخطر إذا حكمتها إدارة قوية . وكانت مصر تعلم أيضاً أن النجاشى يتحكم فى بعض القبائل الإسلامية وإنه ينتقم منها كلما وقع اضطهاد على الأقلية القبطية فى وادى النيل . وكانت تعرف خاصة أن منابع النيل (أوأحد المنابع الهامة له) تنبع من أعالى هضاب الحبشة ، فكانت تخشى فى كل حين أن يقطع أو يحول مجراها .

وكانت فكرة تحويل مجرى النيل هذه تقلق بال المصريين منذ أمد بعيد . ويكتب المسيو « كاميرير » Kammerer قائلا : « كان المسلمون

---

(١) لقد اعتمدنا فى بحثنا هذا على المصادر التى لدينا ولا سيما على البحث القيم الذى نشره المسيو فييت فى مجلة الجمعية الملكية للآثار بالإسكندرية تحت عنوان « العلاقات بين مصر والحبشة فى عهد السلاطين المماليك » (ج ٩) .



ينتابهم الرعب منذ أجيال بسبب حرمانهم من مياه النيل نتيجة لتآمر جيرانهم عليهم . ولم يزل هذا الخوف ينتابهم . ولما كانوا مقتنعين ، وهم على حق ، بأن مصر لا تعيش إلا بفضل النيل ، كانوا يرون من المحتمل جداً أن يحول مجرى النيل ، وهم فى ذلك مخطئون »[١] . ولم يكن الصليبيون أقل اقتناعاً من المصريين . ولما فكروا فى إشراك الحبشة فى حروبهم ضد الإسلام ، لم يكن استعمال هذا السلاح الفاصل ، أى تحويل مجرى النيل ، بعيداً عن خططهم . ولما علم سلاطين المماليك بتدبير مؤامرة لهذا الغرض ، منعوا الرحالة الأجانب من دخولهم الحبشة ، إذ كانوا يعتقدون أن هؤلاء الرحالة إنما يذهبون إلى الحبشة لحمل النجاشى على تحويل مجرى النيل الخصيب .. وكان الرواة الغربيون أنفسهم يعتبرون تنفيذ هذا المشروع ممكناً إذا فكر فى تنفيذه . ونقرأ فى رحلة « جيلبرت دى لانوا » G. de Lanoy (سنة ١٤٢٢ م) ما يأتى : « لا يسمح السلطان لأى مسيحى بالذهاب إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ولا عن طريق نهر النيل لمقابلة القس يوحنا (النجاشى وقتئذ) خوفاً من أن يتفق المسيحيون معه على حرمانهم من هذا النهر أو على أى عمل عدائى آخر ، ذلك لأن المسيحيين هناك والقس يوحنا يناصبونه العداء . إنه ليس فى استطاعة السلطان تحويل مجرى النيل ، ولكن القس يوحنا يستطيع تحويله إلى أين يشاء . وإذا لم يقم بهذا العمل بعد ، فالسبب يعود إلى عدد المسيحيين الكبير الذين يقيمون بمصر وخوفاً عليهم من الموت جوعاً »[٢] .

وجاء الرحالة « برتراندون دى لابروكيير » La Broquière بنفس الحجج بعد عشر سنوات[٣] . وحوالى عام ١٤٥٠ م ، طلب ملك « اراجون »

---

(١) فى عام ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) ، كلف النجاشى أحد التجار المسلمين اسمه على تبريزى أن يتصل بملوك أوربا ، ولكن ألقى القبض عليه بالإسكندرية وأعدم .

(٢) Kammerer, *La Mer Rouge*..., I, 3e fasc., p. 296

(٣) Kammerer, p. 311

إلى النجاشي تخريب مصر بقطع ماء النيل عنها[١] . وكان الأب « فانسليب » فى كتابه عن مصر يعتقد أنه من المستطاع تحويل مجرى النيل ، ويذكر خطابات أرسلها النجاشي إلى سلاطين مصر يهددهم فيها بتحويل مجرى النيل إن أساءوا معاملة الأقباط[٢] . وكان الرحالة « سافارى » Savary ، الذى زار مصر فى القرن الثامن عشر ، يؤمن بتحقيق هذه المعجزة[٣] .

ولعب البطريرك مراراً دور الوسيط ، وكان نفوذه القوى لدى بلاط النجاشى كفيلا بأن يكلل مسعاه بالنجاح .

ويرجع أول مسعى كلف به إلى عهد المستنصر بالله الفاطمى إذ أمره الخليفة بالتوجه إلى النجاشى ليخبره بأن مستوى النيل فى هبوط ، الأمر الذى لا بد أن يلحق ضرراً بسكان مصر . وقد حمل الخليفة البطريرك هدية نفيسة ليقدمها إلى النجاشى . ويقول المقريزى : « أمر النجاشى بفتح سدّ يجرى منه الماء إلى أرض مصر ، ففتح وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت ثم عاد البطريرك فخلع عليه المستنصر وأحسن إليه »[٤] .

وقد استخدم البطريرك نفوذه فى مناسبات أخرى لمصلحة مصر والإسلام . ويقص ابن فضل الله العمرى أن عبد الله الزيلعى ، رئيس الرفد الحبشى المسلم ، جاء مصر بين عامى ١٣٣٢ و ١٣٣٨ م وطلب إلى السلطان أن يحمل البطريرك رسالة يطلب فيها إلى النجاشى أن يكف عن اضطهاد المسلمين وانتزاع أراضيهم التى يقدسونها . وأمر السلطان بتحرير رسالة بليغة يلوم فيها هذه الأعمال ويطلب منع أى كائن من اقترافها . فحررها

---

(١) Kammerer, p. 300

(٢) *Nouvelle relation*, p. 60

(٣) *Lettres sur L'Egypte*, II, p. 86

(٤) الخطط ، ج ٢ ص ٤٩٦ .

البطريرك . ويقول ابن فضل الله أن الخطاب أتى بأحسن النتائج [1] .

ولم يحل توسط البطريرك بين اتصال البلدين مباشرة . ولكن معظم الوفود المرسلة من لدن النجاشي كان غرضها إما طلب رسم مطران جديد وإما تيسير مهمة الحج إلى بيت المقدس للأحباش . وفي الظروف العادية كان نص الرسالة مكتوبا كما يأتي على وجه التقريب : « نرجو السلطان أن يأمر البطريرك برسم مطراناً علينا يكون صالحاً وعالماً ، لا يحب الذهب ولا الفضة . »

على أن النجاشي كان ينتهز هذه الفرصة ليعطي سلطان مصر فكرة عن قوته . وكان يكتب ذلك بأسلوب في غاية من الاحترام . غير أنه كان ينتهز هذه الفرصة ليعطي السلطان فكرة مجسمة عن قوته المادية . وكان السلطان يدرك مقصد النجاشي . فيجيب عليه بخطاب آخر يعطيه فكرة مجسمة أيضاً عن عدد قواته وعدتها .

وكان الوفد الحبشي يقدم دائماً الهدايا للسلطان . وكانت الهدايا عبارة عن عبيد وأدوات وأسلحة مذهبة . وإذا لاحظ السلطان أن الهدية قليلة القيمة ، لم يتأخر في تأنيب رئيس الوفد . وحدث في عام ٩٢٢ ﻫ أن قدر السلطان قنصوه الغوري الهدايا المقدمة من الوفد بخمسة آلاف دينار أو دون ذلك . « فلما عاينها السلطان وبخ الذي طلع بها وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى الملوك السالفة مثل الأشرف برسباي والظاهر جقمق والأشرف قايتباي وغير ذلك من الملوك ، وأحضر عدة تواريخ يذكر فيها هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر ، فقرنت بها » [2] .

وكان عدد أفراد الوفد كبير لأنه كان يشمل الحجاج الذاهبين إلى بيت

---

(١) الخطط ٢ ج ٢ ص ٤٩٦ .

(٢) ابن إياس ، ج ٣ ص ٧ .

المقدس . ويصف لنا المؤرخ ابن إياس (عام ٩٢٢ هـ) طريقة استقبال هذا الوفد وصفاً مفصلا إذ يقول : « . . . كان مجموع هؤلاء الحبش الذين حضروا إلى مصر نحو ٦٠٠ إنسان . . . وكان صحبتهم البترك وعليه برنس حرير أزرق وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة . فطلعوا القلعة من سلم المدرج والبترك ماش قدامهم . فلما وصلوا إلى باب الحوش ، كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا أن يجلسوا عليها بحضرة السلطان ، فلم تمكنهم رؤوس النواب من ذلك . ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان . . . ولما نزلوا من القلعة ، نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من رؤوس النواب ، فوصلوهم إلى الميدان خوفاً عليهم من العوام أن يرجموهم »[1] .

ونرى من ذلك أن البطريرك كان يهتم شخصياً بكل ما يمس الحبشة . وتقول إحدى الروايات القديمة أنه كان يكتب للنجاشى مرتين فى السنة (بموافقة السلطان) ولكن أبطلت هذه العادة فى خلافة الحاكم . ولما كان سلطان مصر يتسلم خطاب من النجاشى ، كان يطلب إلى البطريرك أن يؤكد للنجاشى احترامه ويرجوه أن يحسن معاملة مسلمى إمبراطوريته»[2] .

والويل كل الويل إذا فوجئ البطريرك وهو يتخاطب رأساً مع الحبشة دون تصريح من السلطات الشرعية . « وفى يوم الاثنين ، العشرين من شهر جمادى الأولى ، عقد مجلس بين يدى السلطان بالقضاة الأربعة وغيرهم ، منهم الشيخ بدر الدين العينى ، نسيب بطريرك النصارى اليعاقبة ، وكان السلطان غضب عليه بحيث ضربه وحبسه فى المقشرة . وأخذ منه شيئاً كثيراً ، فأمر بكتابة إشهاد عليه أنه لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ، لا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحد فى بلاد الحبشة لا قسيساً ولا أعلى منه

---

(١) ابن إياس ، جـ ٣ ص ٧ .

(٢) أبو صالح ، ص ١٠٥ و ١٠٦ .

ولا دونه إلا بإذن من السلطان ، ووقوفه على كتابته ، وأنه متى خالف ذلك انتقض عهده وضربت عنقه . وحكم قاضى المالكية بذلك ونفذه بقية القضاة ثم قرىء الاشهاد بين يدى السلطان والجماعة ورسم بكتابة خمس نسخ منه ليكون عنده وعند كل من القضاة الأربعة نسخة وانفض المجلس على ذلك »[1] .

غير أن البطريرك لم يكن هدفاً لمثل هذه العقوبات الصارمة إلا نادراً . وكان السلطان جقمق على حق من شكواه من الأحباش إذ وصله من النجاشى فى ذلك الحين خطاباً فيه عتاب شديد اللهجة بل إنذار على موقفه من الأقباط وقد تسلم هذا الخطاب عام ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) من وفد كان يحمل إليه هدايا . وكان أحد رئيسى الوفد مسلماً يدعى عبد الرحمن ويحترف التجارة . وقد تضمنت هذه الرسالة فيما تضمنت ، بعد عبارات الإكبار والإجلال المتبعة : « فى أيام الظاهر برقوق ونجله الناصر فرج الذين كانا قائمان بالعدل خصوصاً بإخواننا النصارى . . . وقد بلغنا الآن أن هذه القواعد قد تغيرت من قبل قوم كانوا عن طريق العدل حائدين وفى طريق الظلم خائضين . والآن ، إذا مات أحد من إخواننا النصارى ، لا يدفن إلا بعد مشقة كبيرة لأهله وأقاربه ويؤخذ منهم ما لم تجر به عادة فى أيام الملوك السالفيه . والله تعالى لم يعذب أحداً من خلقه بقطع الرزق . . . ثم بلغنا أن ثم من يتعرض إليهم فى كنائسهم فى أوقات صلاتهم وفى أيام أعيادهم بقطع مصانعاتهم وأخذ ما لا يستحقون أخذه ، وإنهم فى غاية الضيق فى ذلك . . . وأبونا البطريرك وإخواننا النصارى الذين هم الآن تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً ، ضعفاء الحال ، مساكين فى كل الجهات . . . وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا ونحن لهم ولملوكهم مالكون ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين . . . وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب ، راكبون الخيول المسوّمة ولا نأخذ

(١) السخاوى ، ص ٢١٠ .

منهم جزية ولا شيئاً قليلا ولا كثيراً . . . وإن كنتم فى شك من ذلك ، فاسألوا التجار والمترددين إلى بلادنا ليخبروكم بذلك بالحق والصدق . . . وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ولنا الاستطاعة على أن نمنع الزيادة التى تروى بها بلادكم عن المشى إليكم . ولا يمنعنا عن ذلك إلا تقوى الله تعالى والمشقة على عباد الله . وما قصدنا بهذا إلا أن يكون بيننا وبينكم الصلح كما كان بين الملوك السالفين »[1] . ثم طلب النجاشى من السلطان إبراز أوامره لإعادة بناء الأديرة والكنائس التى هدمت وأن يأمر أن لا يقول أحد للنصارى : يا كلب[2].

وها هو ذا النجاشى يبعث بتهديداته مرة أخرى لمصر وها هو ذا السلطان وقد اعتراه الخوف . ثم حاول دحض ادعاءات النجاشى غير أنه أرسل له وفداً يحمل الهدايا . وقد حجز النجاشى هذا الوفد حتى يشاهد بنفسه كيف ينتقم الأحباش من المسلمين ، كما دعاه إلى رؤية إحدى الجثث .

ولكن هذا الاقتصاص من أناس لا ذنب لهم زاد من غضب السلطان . وقد استطاع أحد الأباطرة الأحباش ، واسمه سيف الأرعد ، أثناء حكمه ، أى فيما بين عام ١٣٤٢ وعام ١٣٧٠ م ، أن يجعل السلطات المصرية تفرج عن البطريرك مرقس بعد أن زجته فى السجن ، وذلك بدون أن يلجأ إلى سلاح التهديد . وكانت العلاقات التجارية بين مصر والحبشة وقتئذ مزدهرة سواء عن طريق البر أو البحر . ولما كان يتعذر على سيف الأرعد أن يقدم مساعدة مباشرة إلى البطريرك ، فقد ألقى القبض على جميع التجار القادمين من القاهرة ، ثم أرسل فرسانه ليبثوا الرعب بين القوافل وليعوقوا سيرها . وكتب الرحال « بروس » Bruce فى هذا الشأن : « ولما كانت أسباب هذه الأمور غير خافية ، وكان البطريرك قد ألقى فى السجن لابتزاز المال

---

(١) السخاوى ، ص ٦٧ — ٧٢ .

(٢) نفس المصدر .

منه ، أتهم سكان مصر السلطان بالظلم واضطر السلطان أن يفرج عن البطريرك بشرط أن يعيد السلام بين سيف الأرعد ومصر ، وتحقق ذلك بسرعة »(١) .

وعلى أثر توسع الإمبراطورية المصرية فى السودان وتوطيد أركانها فى عهد محمد على وسعيد باشا والخديو إسماعيل ، حدثت عدة احتكاكات كانت سبباً فى نشوب الحرب بين الإمبراطوريتين . وكانت دوافع هذه الحروب سياسية بحتة ، فلا دخل لها فى موضوعنا . ولكن يجدر بنا أن نذكر هنا عملا مشرفاً قام به البطريرك اليعقوبى ، فقد وفق مرة أخرى إلى منع نشوب الحرب بين مصر والحبشة فى عهد سعيد .

تلك هى أبرز ما فى العلاقات بين المسيحيين اليعاقبة والأحباش .

وكان يعيش إلى جانب اليعاقبة طائفة الملكيين . وقد أخذ نفوذها يتضاءل بسرعة تفوق سرعة تضاءل نفوذ اليعاقبة . ولكنها استطاعت فى عهد السلاطين المماليك أن تلفت نظر أوروبا إليها . فنرى من المناسب أن نذكر شيئاً عنها .

وإذا قرأنا بعناية الحوادث المتعلقة بالكنيسة المصرية ، لاحظنا أن السلاطين المماليك ، ومن بعدهم الولاة العثمانيين ، كانوا يعاملون الملكيين معاملة خاصة . وسبب ذلك يرجع خصوصاً إلى العوامل الاقتصادية .

وسعت الحروب الصليبية الهوة بين الإسلام والمسيحية ، غير أنها وطدت العلاقات السياسية والاقتصادية بين الشرق والغرب وأكثرت المعاملات التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وكانت الامتيازات التى حصلت عليها جمهوريتا البندقية وجنوه من مصر تدل على مدى اهتمام السلاطين المماليك ومن بعدهم الباشوات الأتراك بإيجاد مصدر كسب ذا أهمية لبلادهم وبالتالى لأنفسهم . ومن جهة أخرى ، اتحدت إسبانيا الكاثوليكية على أنقاض

(١) *Voyage aux sources du Nil, en Nubie et en Abyssinie*, III, p. 115-6

الإمبراطورية العربية فى الغرب فاتسع سلطانها وزادت ثروتها ، بينما كانت فرنسا تلعب دور حامية الكاثوليكية فى الشرق .

وإن لم يستطع رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، بعد هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وتونس ، أن يؤلف جيشاً جديداً من الصليبيين ، فإن نفوذه ظل قوياً وكلمته مسموعة فى أوروبا . ألم يطع أمره عند ما هدد بالحرمان كل من يبيع أسلحة للدول الإسلامية ؟ ألم يملى شروطه على البيزنطيين المنشقين عن روما فى مجمع فلورنسا عام ١٤٢٩ عند ما طلبوا من ملوك الغرب مساعدتهم العسكرية ضد الأتراك ؟ وكذلك رأينا البابا ، بصفته حامى الكاثوليك فى العالم ، يهتم بمصير الملكيين المصريين . وقد أدى تدخله إلى نتائج محسوسة ، لا سيما بعد الحوادث التى وقعت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون . وقبل هذه الحوادث ، عند ما زار القاهرة وزير المغرب وأغلقت كنائس العاصمة ، استغل الملكيون هذا الإجراء للفت نظر الدول الغربية إليهم ، وبينوا للحكام المصريين أن قرارهم هذا كان يتنافى مع الحكمة . ويقول المفضل بن أبى الفضائل « ان الاشكرى »(عاهل القسطنطينية) سأل إجراء أهل الذمة بالديار المصرية على عادتهم وفتح كنائسهم ، ففتحت ورسم لهم بالاستواء فى الركوب ، وكانوا قبل ذلك يركبون عرضاً من جهة واحدة »[١] .

ويضيف المقريزى إلى ما تقدم أنه فى عام ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤ م) أرسل ملك برشلونة وفداً حمله بالهدايا الثمينة لجميع كبار الموظفين وطلب فتح الكنائس . فوافقت السلطات على فتح كنيسة اليعاقبة بحارة زويلة وكنيسة البنادقة[٢] .

ثم تدخل البابا شخصياً بعد حوادث عام ٧٢١ هـ (١٣٢٨ م) الأليمة

---

(١) *P.O.* XX, fasc. I, p. 197

(٢) الخطط ، ج ٢ ص ٤٩٩ .

وقدمت بعثة بابوية تحمل رسالة من الباب يطلب فيها حماية الحكومة للنصارى. وقد صرح البابا بالنيابة عن العالم الكاثوليكى بأن الإفرنج سيعاملون المسلمين الموجودين فى بلادهم بنفس الطريقة التى سيعامل بها النصارى فى مصر وسوريا.

وسنكتفى بهذه الأمثلة الثلاثة إذ أنها توضح لنا كيف فقد اليعاقبة ، الذين كانوا فى عزلة تامة ، الأمل فى أن تساعدهم الحبشة بطريقة إيجابية وكيف حولوا أنظارهم نحو أوروبا بعد أن لمسوا أثر تدخلها لصالح الملكيين. ونتساءل مرة أخرى إذا كان الأقباط لم يكونوا مدفوعين بعامل اليأس (الأدبى والمادى) عند ما طلبوا الاشتراك فى مجمع فلورنسا والانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية.

ز. — العدالة الإسلامية إزاء الأقباط.

المعلومات التى لدينا عن العدالة عند العرب بالنسبة للأقباط قليلة لأن التاريخ لم يسجل سوى بعض تفاصيل فى هذا الموضوع. وعلى الرغم من أن العرب كانوا يميلون إلى التدخل فى شئون الأقباط القضائية ، كما لمحنا إلى ذلك عند ما تكلمنا عن سياسة الغرب الاستعمارية ، فقد تركوا إلى البطريرك سلطة واسعة نسبياً. وكتب علماء الحملة الفرنسية : « يصدر البطريرك حكمه فى كل الخصومات التى تشجر بين رعاياه ، غير أن حكمه ليس نهائياً إذ أن فى استطاعة الخصمين — إذا اتفقا على ذلك — رفع أمرهما إلى القاضى الذى يثبت عادة حكم البطريرك . . . ويقضى البطريرك أيضاً فى الجرائم الطفيفة ذات العقوبات التأديبية. وإذا اتهم قبطى مثلا بسرقة مسلم ، فعلى الأخير أن يشكوه للبطريرك. وبالعكس إذا كان المسلم هو السارق ، فعلى القبطى أن يشكوه أمام القاضى أو حاكم المدينة »[١].

(١) *Description de l'Égypte*, 2e édit, XVIII, 1ère partie, p, 17

بقى علينا أن نعرف على أى أساس كان البطريرك يصدر أحكامه . هل كان هناك قانون ؟ يقدم لنا سيزوستريس سيداروس باشا ، الذى درس بالتفصيل نظام البطريركات ، البيانات الآتية : « فيما يختص بالأقباط الأرثوذكس ، كان البطريرك فى القاهرة والمطارنة فى الأقاليم مكلفين بالفصل فى المنازعات التى تقوم بين رعاياهم ولم تكن أحكامهم مقيدة بأية قاعدة . ولكن إذا اعتمدنا على بعض أجزاء من مستندات معظمها مجهولة اليوم ، نميل إلى الاعتقاد بأنه كانت توجد بعض النصوص ترتكز عليها السلطات الدينية لإصدار أحكامها . كما أن هذه السلطات كانت تستشير أحياناً أعيان الطائفة قبل إصدار حكمها . ولم يكن هناك أى نص مكتوب يتعلق بتنفيذ الأحكام . فكان البطريرك أو المطارنة ينفذونها رأساً دون الالتجاء للسلطات المدنية ، وكان ينتج من ذلك أن الأحكام لم تكن نافذة إلا باتفاق الطرفين المتخاصمين »[١] .

ويظهر أنه لم يطرأ أى تغيير على هذا الوضع . غير أنه حدث فى عام ١٨٧٣ ، عند ما توفى البطريرك دميتريوس الثانى ، « أن تشاور أعيان الأمة فيما بينهم وقرروا إعداد مشروع لإصلاح الكنيسة قبل انتخاب البطريرك الجديد ليصدق عليه حسب قوانين الكنيسة التى جمعها ابن العسال فى القرن الثالث عشر . وكانت هذه القوانين تنص على أن البطريرك يجب أن يستشير ذوى العلم والتقوى من القساوسة والعلمانيين ، وخصوصاً الأشخاص الذين لهم علاقة بصاحب العرش ، قبل البت فى المسائل الهامة . وعلى هذا الأساس كون مجلس أقره الخديو بالمرسوم رقم ١٧ بتاريخ ٦ فبراير سنة ١٨٧٤ »[٢] .

ويتضح من ذلك أن الأعيان كانوا يعترفون ضمنا بأن الحالة ليست على

---

(١) S. Sidarous Pacha, *Des Patriarcats*, p. 346

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٤٧ .

ما يرام وإن الأمة القبطية فى حاجة إلى اقتفاء أثر حركة التقدم التى قامت بها الأسرة المالكة . وكان الغرض من هذا العمل أيضاً الحد من اختصاصات البطريرك لمصلحة العلمانيين . فليس عجيباً إذن أن نرى البطريرك كيرلس الخامس يحاول تعطيل هذا المرسوم .

وقد أنشأ القانون الحديث بجانب المحاكم الأهلية مجالس ملية لكل طائفة مسيحية يختص بالفصل فى قضايا الأحوال الشخصية .

هل كان الأقباط متساوين بالمسلمين أمام القانون ؟ من المرجح أن العدالة فى أوائل الفتح العربى لم تشبها أية شائبة . وكانت تبحث شكاوى الأقباط بدقة وعناية . ويذكر التاريخ قصة جنود جيش الاحتلال العربى الذين ادعوا حقيتهم فى تحصيل أموال من بعض القرى المسيحية . فطلب الوالى قره بن شريك إلى رئيس المديرية أن يقوم بالتحقيق فى مكان الحادث وأن يرسل إليه تقريره ليبت فى أمر هذا الخلاف على ضوء المعلومات الأكيدة[١] .

ولما كانت القضايا تنظر فى المساجد ، لم يكن يسمح للنصارى واليهود بدخولها . ويذكر لنا الكندى أن القاضى خير بن نعيم كان يفصل فى قضايا المسلمين داخل المسجد ثم يجلس على الباب الخارجى ليفصل فى قضايا أهل الزمة[٢] .

وبعد مدة ، أى فى عام ١٧٧ — ١٨٤ هـ (٧٩٣ — ٨٠٠ م) سمح القاضى محمد بن قصرون بدخول النصارى ، إلا أن هذا الإجراء كان يعتبر استثنائياً[٣] .

ومن ناحية أخرى ، لم يستطع أى مسيحى أن يدلى بشهادته إذا كان أحد طرفى القضية مسلماً . وكان القاضى خير بن نعيم يسمح بأن يشهد

---

(١) H. Lammens, *Un gouverneur omayade d'Egypte* فى مجلة المجمع العلمى المصرى سنة ١٩٠٨ .

(٢) الكندى ، ص ٣٥١ .

(٣) الكندى ، ص ٣٩٠ .

المسيحى للمسيحى واليهودى لليهودى[١] . وقد ظل هذا النظام معمولا به إلى القرن التاسع عشر . ويقص علينا كلوت بك فى مذكراته[٢] أنه تعرض لاعتداء أحد الطلبة ، فتألفت محكمة برئاسة ناظر الحربية لمعاقبة المعتدى . وقد استمعت المحكمة إلى أقوال الطالب وزملائه ولكنها رفضت سماع رواية كلوت بك لأنه كان مسيحياً ولا يستطيع أن يشهد ضد مسلم[٢].

ج . — اضمحلال اللغة القبطية .

إن تاريخ اللغة القبطية ما هو إلا صورة لتاريخ الأقباط أنفسهم .

احتفظ الشعب القبطى بلغته أثناء الحكم اليونانى الرومانى وتجاهل لغة المحتل ، ولكنه اهتم منذ الساعات الأولى من احتلال العرب لمصر بدراسة اللغة العربية . نعم إنه درسها بدافع المصلحة الشخصية بدليل أنه عندما كان يترك المحتل العربى الإدارة بين أيدى سكان البلاد الأصليين الذين خدموا الحكومة البيزنطية لم يفكر قط هؤلاء الموظفين بدراسة لغة القرآن ، بل اهتموا بإبعاد الكلمات اليونانية من لغتهم ، فاختفت الأسماء اليونانية للأماكن ومراكز المديريات (فيما عدا الأماكن التى أسسها اليونانيون) وحلت محلها أسماء قبطية قديمة . ثم كان الكتاب المقدس يقرأ باللغة اليونانية ويشرح باللغة القبطية . ولما هزم اليونانيون ، لم يعد يقرأ إلا باللغة القبطية فقط . وأصبحت الكتابة بالقبطية بعد أن ظلت باليونانية حتى القرن السادس[٣] . وكذلك أخذت اللغة القبطية تتقدم وتزدهر .

ولكن هذا التقدم كان ظاهرياً . والواقع أن انشقاق كالسيدونيا قد ألغى الأسباب التى أدت إلى نهوض اللغة القبطية . ونلاحظ فعلا أن اللغة القبطية

---

(١) الكندى ، ص ٣٥١ .

(٢) مطبوعات المكتبة الخاصة لجلالة الملك ، نشرها وعلق عليها الدكتور جاك تاجر ، ص٧٥

(٣) Quatremère, *Recherches*, p. 15

وآدابها ازدهرت ازدهاراً عظيماً فيما بين مجمعين نيقيا وكالسيدونيا ، أى فيما بين القرنين الرابع والخامس . ولكن لم تلبث العبقرية أن خمدت جذوتها فلم تنتج مؤلفات جديدة . وظلت اللغة اليونانية اللغة الرسمية التى كان يتعلمها الأقباط الطموحون ، وظلت أيضاً لغة الدين والتعليم والتجارة . وكان المصرى يستطيع أن يجهل اللغة القبطية دون اليونانية .

نعم إن طبقة الفلاحين العديدة ظلت تتكلم القبطية كما اضطرت المسيحية أن تستخدم هذه اللغة لتنشر تعاليمها بينهم . ولكن لما فقدت اللغة القبطية ميزتها كلغة الثقافة ، لجأت إلى اليونانية واستعارت عدداً كبيراً من المصطلحات التى احتفظت بها حتى الآن . وفضلا عن ذلك ، لم تكن اللغة القبطية فى يوم من الأيام لغة الإدارة والمصالح . فالموظفون الذين حلوا محل اليونانيين بعد دخول العرب ، كانوا يكتبون باليونانية على الرغم من كونهم أقباطاً . وعند ما أمر الوالى عبد الله بن عبد الملك فى عام ٨٧ هـ (٧٠٦ م) أن تكون اللغة العربية لغة الدواوين ، لم يحتج الأقباط على ذلك ، بل أسرعوا إلى تعلم لغة المنتصرين .

وما من شك أن هذا الأمر أقلق الموظفون الذين كانوا يعملون باللغة اليونانية . ولكن نعرف اليوم ، بفضل أوراق البردى التى اكتشفت حديثاً ، أن الحاكم العربى عجز عن تطبيق هذا الأمر أثر إصداره ، إذ وجدنا أوراقاً مكتوبة كلها باليونانية حتى عام ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) بينما وجدنا أوراقاً محررة باليونانية والعربية فى آن واحد .

لهذا السبب قد يصعب علينا أن نعرف تفاصيل تطور اللغة القبطية عن طريق المستندات الرسمية ، ويجب أن نرجع إلى الوثائق الشخصية للوصول إلى معرفة حياة هذه اللغة واضمحلالها التدريجى .

لماذا اتجهت اللغة القبطية إلى طريق الزوال ؟

كانت مصر فى القرن السابع الميلادى تتكلم اللغة القبطية ، وما حل القرن الثانى عشر حتى أصبحت كلها تتحدث باللغة العربية .. فاستطاع العرب أن يجعلوا رعاياهم يهملوا لغتهم القديمة ويستعملون بدلها لغة أخرى ، الأمر الذى عجز عن تحقيقه من قبلهم اليونانيون والرومانيون ومن بعدهم الأتراك(١) .

وهناك عاملان أساسيان عجلا بزوال اللغة القبطية من الحياة العامة : أولها إسراع الموظفين النصارى إلى تعلم اللغة العربية لكى يحتفظوا بوظائفهم ، وثانيهما ازدياد عدد الذين احتضنوا الإسلام وتركوا ، حال دخولهم الدين الجديد ، لغة أجدادهم .

وقد عجلت أسباب أخرى زوال اللغة القبطية . ذلك أن العرب لم يكتفوا بفتح مصر بل أرادوا احتلالها واستعمارها ، فامتزج المستعمرون بالأسر المصرية وشجعوا هذه الأسر على التكلم بلغتهم . أضف إلى ذلك أن اعتناق الإسلام يحتم دراسة القرآن وبالتالى اللغة العربية . ثم أخذ عدد رجال الدين الذين حافظوا على التقاليد واللغة يتضاءل بسرعة . أما الأديرة التى ازدهرت فى أوائل الفتح ، فما لبث أن هجرها الرهبان حين بدأت السلطات تفرض الضرائب على نزلائها . وبعد فترة قصيرة ، تعلم القساوسة اللغة العربية حتى يستطيع أن يفهم رعاياهم تعاليمهم . ولما كان مستواهم العقلى آخذ فى الهبوط ، فقد تركوا دراسة القبطية عند ما اقتنعوا بعدم فائدتها العملية .

مراحل اضمحلال اللغة .

حدث اضمحلال اللغة القبطية بالتدريج . « لقد كبتت اللغة العربية اللغة القبطية رويداً رويداً مثل النبات الذى حرم من الماء والشمس فى

(١) *Dictionnaire d'Archéologie et de Liturgie*, art "Coptes"

ظل شجرة كبيرة . لقد ظلت اللغة القبطية على قيد الحياة من القرن العاشر الميلادى ، بل ازدهرت فى الأديرة . ولكنها ، منذ القرن الحادى عشر ، حرمت من العناية فذبلت بسرعة حتى إذا جاء القرن الثانى عشر كادت تلفظ أنفاسها »[١] .

وهذه بعض الحوادث التى تؤيد ما نقوله . ففى إحدى المنازعات التى شجرت فى عام ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) بين الملكيين واليعاقبة بشأن ملكية بعض الكنائس ، كتب البطريرك ميخائيل الأول إلى السلطات التماساً باللغة القبطية . ولكنه أرفق ترجمة عربية بالنص القبطى عملا بمشورة بعض المطارنة[٢]. ويقص علينا الشماس يوحنا ، الذى سرد حياة البطريرك ميخائيل ، أنه بينما كان موسى ، مطران أوسيم ، فى طريقه للمثول بين يدى الخليفة مروان الذى لجأ إلى مصر فى عام ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، ألقاه الجند أرضاً وأخذوا يضربونه على عنقه وعلى أضلاعه بقطع نحاسية ويقولون له : « قدم لنا بعض العطايا لنتركك . » ويضيف المؤرخ « أن المطران لم يجبهم بكلمة واحدة لأنه لم يكن يفهم لغتهم وكنت مضطراً أن أترجم له كل كلمة يفوهوا بها »[٢] .

وخلاصة القول ، لم يكن إقبال الرهبان على تعلم اللغة العربية بأقل من إقبال العلمانيين بدليل أنه لم يمض على الفتح قرن من الزمن حتى اضطر بعضهم أن يلجأوا إلى المترجمين لقراءة النصوص القبطية . وكثر عدد الرهبان فى القرن العاشر بدليل أنه عند ما كان أحد المسلمين يريد اعتناق المسيحية ، درس تعاليمها على يد قسيس كان يشرح له بالعربية النصوص القبطية للكتب المقدسة[٣] .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) رينودو ، ص ٢١٤ .

(٣) Quatremère, *Recherches*, p. 34-35

على أن صغار رجال الإكليروس هم الذين تسرعوا بدراسة اللغة العربية وإهمال اللغة القبطية . أما كبار رجال الدين ، من مطارنة وبطاركة ، فأهملوا مدة طويلة تعلم اللغة العربية . وقد وجدنا بطريركاً كان يجهل اللغتين العربية والقبطية . وهذا البطريرك اسمه ميخائيل الخامس وقد عاش فى منتصف القرن الثانى عشر . غير أن رجال الإكليروس عموماً استعملوا اللغة العربية منذ بداية القرن العاشر لكى يفهمهم رعاياهم . ونعرف الجملة الشهيرة التى قدم بها ساويرس بن المقفع تاريخه البطاركة : « استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها (الأخبار) بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند أهل الزمان بأقاليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم . » وقد سبقه سعيد بن بطريق فى هذا المضمار . وكتب الأقباط فيما بعد تاريخهم بل مقالاتهم الدينية باللغة العربية . وكان أشهر كتاب الطائفة أمثال أبى شاكر بطرس بن الراهب ومكين وأبى الفضائل إلخ . . . يجهلون القبطية .

ولم يلبث أن ولى بطاركة اليعاقبة اللغة العربية بعناية خاصة . وكتب ميخائيل السورى عن جبرائيل الثانى (١١٣١ — ١١٤٦ م) « أنه كان بارعاً باللغة العربية وخطها . ولما رأى أن الشعب المصرى يتكلم اللغة العربية ويكتب بها ، نظراً لطول عهد السيادة العربية ، اهتم بترجمة التوراه والإنجيل إلى العربية وكذلك بقية كتب الطقوس الدينية الأخرى ليستطيع المؤمنون ، أى الشعب بأكمله ، أن يفهم هذه الكتب »[١] .

أما نشاط اللغويين الأقباط أمثال أخوة العسال وأبو البركات بن كبر ، فيمكننا تفسيره لا برغبتهم فى تيسير تعلم الشعب اللغة العربية ، بل لجعله يفهم لغة القداس وطقوس العقيدة . وإذا كانت الصلوات تتلى دائماً باللغة القبطية ، فإن الدروس الدينية كانت تشرح بالعربية .

---

(١) ميخائيل السورى ، جـ ٣ ص ٢٣٥ .

ويقول المقدسى إن نصارى مصر لم يزالوا يتكلموا اللغة القبطية حتى عام ٣٢٥ هـ (٩٨٥) [١] . أما المستشرق « كاترمير » ، فيقول إن الأسر الراقية كانت تمتاز عن العامة بمعرفتها اللغة القبطية « وإن هذه اللغة كانت منتشرة فى مصر كاللغة اللاتينية فى أوروبا » [٢] .

والواقع أننا لا نعرف بالدقة تاريخ زوالها . لقد حددنا القرن الثانى عشر الميلادى ، أى بعد سقوط الدولة الفاطمية . ولكننا نعتقد أنها ظلت مزدهرة فى صعيد مصر مدة أطول . ويذكر أبو صالح الأرمنى عادة كانت متبعة فى مدينة إسنا ، وهى أن نصارى هذه المنطقة كانوا يحضرون حفلات وأفراح المسلمين ويطوفون فى الطرقات والميادين أمام العريس وهم يهتفون بعبارات قبطية صعيدية [٣] .

وكان يندر أن يصادف فى القرنين السابع عشر والثامن عشر شخص يتكلم القبطية ، مما جعل عدد من الرحالة يؤكدون أنهم قابلوا آخر شخص يتحدث بهذه اللغة . ويقول «فانسليب» [٤] عن قبطى يدعى المعلم انسطاس انه « الرجل الوحيد فى مصر العليا الذى كان يعرف لغة أمته ، أى القبطية » ويضيف إلى ذلك أنه لا يستفيد من معلوماته كثيراً لأنه كان شيخاً أصما يناهز الثمانين . ومع ذلك فقد متع نظره بمشاهدة الرجل الذى ستموت معه اللغة القبطية تماماً . » غير أن القنصل « دى ماييه » كتب بعد «فانسليب» أن الناس فى بعض نواحى الصعيد مازالوا يتكلمون باللغة القبطية بينما يدعى الرحالة «فورسكال» Forskal أنه تعرف على قبطى اسمه إبراهيم أناش ومتفقها باللغة القبطية [٥] .

وعلى أى حال ، إذا كان يوجد فى بعض قرى الصعيد النائية ، حتى

---

(١) ص ٢٠٣ .

(٢) *Recherches*, p. 39

(٣) *Churches & Monasteries*, fol. 9

(٤) *Nouvelle relation*, p. 363

(٥) *Voyage en Arabie*, I, 107

القرن الثامن عشر ، من يتكلم اللغة القديمة ، فإنه لم يعد أحد يفهم ما فى الكتب ولا من يؤلفها[١] . ويحكى أن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، استقبل البابا ليون الثالث عشر الوزير القبطى بطرس باشا غالى ووجه له بعض الأسئلة باللغة القبطية . فاضطر بطرس باشا أن يعترف بجهله لهذه اللغة . ولما عاد إلى مصر أراد أن يتعلم لغة أجداده .

قيمة المؤلفات القبطية من الوجهة الأدبية .

مرّ الأقباط بفترة انتقال طويلة لم يحسنوا فيها التكلم والكتابة باللغة العربية ولا القبطية . وليس لدينا من المؤهلات التى تسمح لنا بتقدير المؤلفات القبطية خلال الحكم الإسلامى . ولكن « أميلينو » الذى كان مترجماً ماهراً قارن بين وثيقتين كتبت الأولى فى ولاية عبد العزيز بن مروان والثانية فى القرن الثالث عشر للميلاد ، فى عصر الملك الكامل . ويقول « أميلينو » : « لغة الوثيقة الأولى لغة العصور المزدهرة وليس فيها ما يشعر بالاضمحلال . وتدل الوثيقة الثانية على أن اللغة القبطية قد أصابها بعض الفساد وأصبحت خشنة عما كانت ، ثم أدخلت فيها كلمات عربية ولما كان المؤلف يخطىء غالباً فى نقلها ، جعل فهمها من الأمور الصعبة »[٢] .

أما عن اللغة العربية ، فنستطيع أن نبدى نفس الملاحظات مع عكس الآية . فتاريخ البطاركة لساويرس بن المقنع مكتوب بلغة عربية ركيكة وأخطاء أسلوبها كثيرة وتركيب جملها ضعيف . وبمضى الزمن ، تحسنت اللغة وأصبحت أقوى مما كانت عليه على الرغم من الأخطاء النحوية التى اعتقد ناشروا المخطوطات المسيحية بوجوب تركها سواء ارتكبها المؤلف عند كتابتها أو ارتكبها الخطاط عند نقلها .

---

(١) *Dictionnaire d'Archéologie et de Liturgie*

(٢) *Deux documents coptes écrits sous la domination arabe* فى مجلة المجمع العلمى المصرى سنة ١٨٨٥ .

مدارس الأقباط ودراسة اللغة القبطية .

لم يترك لنا التاريخ شيئاً يذكر عن نظام المدارس القبطية . وكل ما نعرفه على وجه التحقيق أن هذه المدارس كانت موجودة فى مختلف العصور . ولكننا نجهل ، حتى القرن التاسع عشر ، نوع التعليم الذى كانت تقدمه هذه المدارس . ويقول لنا « دور بك » عن المدارس القبطية فى عصر إسماعيل : «كثيراً ما اضطرت الكتاتيب القبطية أن تنزوى فى الحارات وأن تختفى عن الأنظار بإقامتها داخل المنازل.. واليوم ، على الرغم من أن عصور الاضطهاد قد بعدت، نجد دائماً المدارس القبطية منزوية فى الطرق الضيقة التى تشق الأحياء المتوسطة بين طرق المواصلات الرئيسية ... ولا تلعب اللغة القبطية الدور الأول فى المدرسة ويكتفى المعلم بتلقين عدد من الأطفال الكتابة القبطية وبعض الصلوات والترانيم الدينية لأنه لا يعرف شخصياً أكثر من ذلك . وهكذا يضيع معلم المدرسة وقتاً ثميناً بدون فائدة تجنيها عقول هؤلاء الصغار . وأساس التعليم كله القراءة والكتابة العربية »[١] .

العرب واللغة القبطية .

من الطبيعى أن يأمر العرب باكراً باستعمال لغتهم فى الأعمال الرسمية . ولا نستطيع أن نقول إنهم أرادوا إبطال استعمال اللغة القبطية فى مصر فيما عدا الحاكم بأمر الله الذى يقال عنه إنه أمر خلال اضطهاده النصارى بمنع استعمال هذه اللغة .

غير أن الفاتح كان يريد أن يحاط علماً بما يقال فى البلاد وخاصة فى محيط البطريرك . لذا نراهم يهتمون بترجمة الصلوات والدروس القبطة

(١) *L'enseignement en Egypte*, p. 182

(٢) ذكر « باتشر » هذا الحادث دون أن يذكر المصدر .

ليتأكدوا من خلوها من القذف بالإسلام . وقد سنحت له فرصة التدخل فى الأمر ، ولكن ليشجعوا الأقباط على الاستمرار فى التعليم بلغتهم ويمنعوهم من دراسة اللغة العربية ، وذلك عند ما لاحظوا حماسهم الشديد لها احتفاظاً بوظائفهم .

ويقول لنا المقريزى إن بعض الطلبة المسلمين كانوا يتعلمون فى المدارس القبطية ليدرسوا فيها الطب والرياضة . ولكن هذه وقائع حدثت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أى فى الوقت الذى دعم فيه استعمال العربية ، وذهب الأقباط إلى حد دراسة القرآن ليعتنقوا لغة أسيادهم[1] .

---

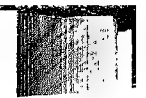
(١) إبراهيم سلامة فى كتابه « التعليم الإسلامى بمصر » ، باللغة الفرنسية .

خاتمة

استعرضنا الحوادث التاريخية خلال ثلاثة عشر قرناً ، ولكن استخلاص النتائج عملا سابقاً لأوانه بالنسبة للمعلومات التى لدينا .

نلاحظ أولا أن الأقباط لم يعرفوا شيئاً عن العرب عند دخول العرب مصر ، وقد استقبلوهم كمحررين بعد أن ضمن لهم العرب الحرية الدينية وخففوا عنهم الضرائب . وعندما اضطر العرب أن يجاوزوا الضرائب المعمول بها لشدة حاجتهم إلى المال ، لم يتردد الأقباط فى أن يظهروا خيبة أملهم . وكان فى استطاعة العرب أن يحتفظوا بإخلاص الأقباط أو عدم إثارتهم إذا ما أضيفوا إلى قائمة ضرائبهم أسماء الرهبان — وكان عددهم بضعة آلاف — فاضطروهم، سواء عن دعوة أو هرباً من دفع الضريبة ، إلى أن يختبئوا فى الأديرة . لقد خسر العرب ، طمعاً فى بضعة دنانير يزيدون بها دخلهم ، عطف الذين كانوا يؤلفون فى ذلك الوقت نخبة الأمة القبطية ويؤثرون فى سلوك أهل البلاد . مع أن عمرو بن العاص استطاع ، نظير إعفاء رجال الاكليروس من دفع الضرائب ، أن يحبط محاولة القائد البيزنطى« مانويل » غزو مصر ، وذلك بدون أن يحمى مؤخرة جيوشه ، فى حين أن الأمويين الذين فرضوا الضرائب على الرهبان ، رأوا الأقباط ينضمون إلى العباسيين .

هل كان العرب متسامحين مع الأقباط ؟ من المؤكد أن العرب لم يهتموا بالمنازعات الدينية القائمة فى مصر المسيحية . وعندما لاحظوا أن اليعاقبة هم الأغلبية فى البلاد ، لم يترددوا فى نصرتهم على الملكيين ومنحهم كل ما يرغبون على حساب أعدائهم . ومع ذلك لم يرفضوا أبداً الخدمات التى

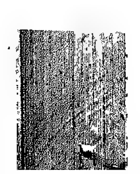


كان يعرضها عليهم الملكيون إذا رأوا فيها نفعاً مباشراً يعود عليهم .

وعلى كل ، فإن العرب بمرور الزمن ازدادوا مادية وانحرفوا عن مبادئهم . وقد حالت فتوحاتهم الواسعة دون تطبيقهم القانون بحذافيره ، ذلك القانون الذى لم يكن يواجه التوسع الذى وصل إليه العرب . لقد استطاع الإسلام أن يعيش قرناً ونصف قرن دون أن يخالف تعاليم الشريعة فيما يختص بجباية الضرائب . ولكنه لم يلبث أن اضطر إلى الدفاع عن إمبراطوريته المهددة من الخارج وعن الدسائس والثورات فى الداخل ، ومواجهة بذخ بلاط الخليفة فى دمشق أولا حيث حذا الأمويون حذو البيزنطيين ، وفى بغداد ثانية حيث قلد العباسيون الفرس . فليس غريباً أن يخرق الحكام أوامر النبى غير نادمين . فإنهم إذا اكتفوا بالضرائب التى فرضها القرآن ، عرضوا الخزانة للإفلاس ، وإذا استغنوا عن معاونة الموظفين النصارى ، عرضوا الإدارة للفوضى ، ذلك لأن العرب فى أول الأمر كانوا غير مستعدين لمثل هذا العمل بل كانوا يهتمون بصناعة الحرب أكثر من اهتمامهم بأعمال الدواوين . أضف إلى ذلك أن الأقباط فى مصر استفادوا بوجه خاص من سياسة عمرو بن العاص الشخصية .

وقد يقال لنا إن المصريين كانوا يعتنقون الإسلام ، فلماذا كان العرب يستعينون بالنصارى حتى عند ما كان النصارى لا يمثلون إلا أقلية صغيرة فى البلاد ؟ يجب أن نذكر أن الذين حكموا مصر منذ الفتح العربى لم يكونوا مصريين بل عرباً أرسلوهم الخلفاء ليحكموا مصر باسمهم . أما الطولونيون والإخشيديون والفاطميون والأيوبيون ، فقد أتوا من آسيا أو من أفريقيا الشمالية ، وكان السلاطين المماليك أرقاءاً من الجركس وغيرهم فى حين أن الحكام الأتراك لم يهتموا بالشعب على الإطلاق .

وأول من اتبع سياسة وطنية حقة هو محمد على الكبير . أما الحكام السابقين له ، فكانوا يعاملون جميع المصريين بدون تفرقة ويكتفون أحياناً



بإلقاء جزء كبير من الحمل المالى على كاهل الأقباط . ولكن الأقباط كانوا يحتفظون بأسرار المساحة وبفن تحصيل الضرائب ومسك الدفاتر . وبلغ بهم الأمر أن كونوا نقابة من المحاسبين . وكان الناس يحتقروهم ولكن لم يستطيعوا الاستغناء عنهم فاضطر الحكام إلى طلب معاونتهم .

زد على ذلك أن العرب كانوا يفتخرون بتفوقهم الجنسى ويتحمسون لدينهم الجديد ويعتقدون أنهم إذا ماتوا فى سبيل قضيتهم المقدسة اكتسبوا فى الآخرة مكاناً ملحوظاً ، وإذا خرجوا سالمين من المعركة ، كان من حقهم أن يقتسموا أراضى العدو وأملاكه . ولذا لم يكن الفتح فى نظر العرب سوى غارة من الغارات التى تشنها القبيلة . فإذا انتصرت تمتعت بالأسلاب ثم استأنفت غزواتها .

كان الجندى العربى يذهب إلى الحرب مدفوعاً بهذه الروح . نعم إن أصحاب الشأن أبوا أن يقسموا الأراضى المفتوحة على المحاربين كما نصت الشريعة ، ورغم ذلك ظلوا يحكموا البلاد كما لو كانوا غير باقين فيها : لم يناهضوا التعليم فى مصر ولكنهم لم يؤسسوا مدرسة واحدة ، ولم يحاولوا قط إعادة تنظيم الإدارة ، بل تركوها على ما كانت عليه أيام البيزنطيين مع إدخال بعض التعديلات الشكلية .

ولما كان الخلفاء ينظرون إلى مصر كمركز لتوين إمبراطوريتهم ، وافقت الدولة على صرف تكاليف إصلاح الطرق ، ولكنها لم تذهب إلى أبعد من ذلك ، فلم تشرف على تنفيذ هذا الإصلاح . وكان جل أمرهم أن تدفع مصر ما عليها من الضرائب . ويقول « جروهمان » : «كان الخلفاء والولاة لا يهتمون بالإدارة إلى حد أن وجد سجل بأسماء دافعى الضرائب ، من مسلمين ونصارى ، مكتوب بكامله باللغة اليونانية وفى صفحته الأولى إشارة الصليب »(١) .

---

(١) Grohman, *Aperçu*, p. 78.

وليس غريباً إذن أن يتضاءل الدخل وتفتقر مصر مادياً . ونذكر هنا بعض الأرقام التى جمعها الأمير عمر طوسون : بلغ مجموع الخراج والجزية عشرين مليون عند دخول العرب مصر ، حسب ما جاء على لسان الرواة العرب . وقد خفضه عمرو إلى اثنى عشر مليوناً . ثم نجح عبد الله بن سعد فى رفع هذا المبلغ أربعة عشر مليوناً . ولكنه هبط إلى تسعة ملايين ثم إلى خمسة ملايين أثناء الحرب الأهلية فى خلافة معاوية . وزاد فقر مصر فى عصر العباسيين حتى هبط الدخل فى خلافة هارون الرشيد إلى أربعة ملايين دينار واستقر حول هذا الرقم ، ورفعه ابن طولون إلى خمسة ملايين ، وبلغ فى عهد خمارويه أربعة ملايين ، ومحمد الإخشيدى مليونين ، وكافور ثلاثة ملايين ونصف ، والمعز لدين الله أربعة ملايين ، والعزيز ثلاثة ملايين ، والحاكم ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف ، والمستنصر مليونين (بما فى ذلك سوريا) ، والمستعلى خمسة ملايين (نتيجة حكم بدر الجمالى والأفضل شاهنشاه) ، والحافظ لدين الله مليون ومائتى ألف ، وصلاح الدين خمسة ملايين ونصف مليون ، وبيبرس مليونين ، وعند ما وصل الفرنسيون مصر ، كان يبلغ الدخل مليوناً ونصف مليون دينار .

ومن البديهى أن هذه الأرقام لا تعبر تماماً عن درجة ازدهار البلاد ، ذلك لأن خفض الدخل كان يتأتى أحياناً عن تخفيف عبء الضرائب كما حدث على الأرجح فى عهد ابن طولون ومحمد الإخشيدى والعزيز . ولكن هناك برهان قاطع على فقر البلاد ، ألا وهو انكماش مساحة الأراضى المنزرعة . كان مساحتها فى عهد عمر بن الخطاب ستة ملايين من الأفدنة ، فصارت بعد انقضاء ثلاثة أرباع قرن ، أى فى عهد هشام بن عبد الملك ، ثلاثة ملايين من الأفدنة .

ولما كان الحكام فى حاجة ملحة إلى المال ، لم يترددوا فى أن يلجأوا إلى وسائل غير شرعية . ولم يحاول ابن جبير ، الذى عاصر الحروب

الصليبية ، أن يكتم غضبه عما كان يراه من إساءة فى معاملة الحجاج ومنع الذين لا يستطيعون أداء ما عليهم من الضرائب من دخول الأراضى المقدسة . فكتب قائلا : « بيت الله الآن بأيدى أقوام قد اتخذوه معيشة حرام وجعلوه سبباً إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل . » ثم قال : « لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادّة واضحة . . . لا عدل ولا حق ولا دين فى المشرق »[١] .

وفى الواقع أن الاعتبارات الدينية تفقد من قيمتها بعد أن فترت حمية الشعوب الدينية . ألم نر ابن جبير يلوم مسلمى الشرق لتعاملهم مع النصارى أثناء قيام الحروب الصليبية ؟ ألم نر البابا يهدد أكثر من مرة التجار المسيحيين فى أوروبا بالحرمان لأنهم كانوا يوردون أسلحة للمسلمين فى الأوقات العصيبة ؟ ولم يخالف « هنرى لامانس » الحقيقة عندما يحدثنا عن تفضيل سياسة المصالح عن سياسة الشعور ، فيقول : « إن مصر ، فى نظر الأمويين ، لها أهمية اقتصادية فقط . فهى تنتج الحبوب وتصنع أوراق البردى وتدفع الضرائب . وهذه الاعتبارات المادية وحدها جعلت الحكام فى ذلك الوقت يهتمون بها »[٢] .

هذه الحقائق لا بد من معرفتها إذا أردنا أن نحدد درجة تسامح العرب مع الأقباط . ومن رأينا أن نواجه هذه المشكلة على الوجه الآتى : إذا لم يكن العرب فى حاجة إلى مساعدة الأقباط ، وإذا لم تدفعهم المصلحة العامة إلى مراعاتهم ، هل كانوا يتبعون نحوهم سياسة التسامح ؟ من الواضح أن النصرانى لم يكن موضع اهتمام الحكام كفرد من أفراد المجتمع . ومع ذلك خرق الحكام الشريعة وخرقوا نصائح الفقهاء وأبقوه فى وظيفته لأنهم كانوا فى حاجة إليه . ولم يتذكروا الشريعة والفقه إلا إذا أرادوا البطش بالأقباط ،

---

(١) ص ٧٨ .

(٢) فى المقال السابق ذكره : *Un gouverneur omayade d'Egypte*

سواء كان الدافع مالياً أو سياسياً ، بمحض إرادتهم أو بتأثير من الرأى العام . ألم يذكر لنا المقريزى ، فى حوادث عام ٥٩٢ ﻫ (١١٩٦ ﻫ) ، أن وقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان وفيما يصرف إلى عياله وفيما يقتات به أولاده ... فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة وضمن باب المزر والخمر باثنى ألف دينار ، وفسح فى إظهاره وبيعه فى القاعات والحوانيت ؛ ولم يقدر أحد على إنكار ذلك ، وصار ما يؤخذ من هذا ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه . . . »[1] .

وما كان موقف الشعب الذى ظل على إيمانه العميق ؟ فى الواقع ، لم يؤثر رأيه على مجرى الحوادث سوى مرة واحدة ، فى عهد السلطان محمد بن قلاوون ، إذ أكره السلطان على اضطهاد النصارى .

وما كان موقف الولاة يحكمون باسم الخلفاء ، كانت مصلحة البلاد تأتى فى الدرجة الثانية وكانت جميع الوسائل مشروعة فى نظرهم لابتزاز الأموال والإثراء . وعند ما حكم هؤلاء باسمهم ، اهتموا فى الحال بمصلحة البلاد ، وتغيرت الأوضاع وأصبح الحاكم أو الوالى يبذل كل جهده فى سبيل تنمية ثروة البلاد والمحافظة على مصلحة الشعب والامتناع عن اتخاذ أى إجراء يعكر صفو السلام . ثم عند ما كان يضاف إلى استعداد الحكام الطيب روح تسامح حقيقية ، كما هو الحال عند محمد على وخلفائه ، اختفت فى الحال الاعتبارات الدينية وحلت محلها الاعتبارات الوطنية الصرفة ، وكان سواد الشعب يستوحى آخر الأمر شعور الحكام أنفسهم .

بقى علينا أن نحدد موقف الأقباط خلال هذه الفترة الدقيقة من التاريخ . نستطيع أن نقارن الأقباط بهؤلاء الشعوب الذين اعتقدوا فى أيامنا هذه أنهم إذا ضحوا لمصلحة الفاتح باستقلالهم الكلى أو الجزئى ، ضمنوا طمأنينتهم وأملاكهم . ولكن لم يلبث أن يضيق الخناق شيئاً فشيئاً إلى أن يفقدوا كل

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ص ١٣٤ .

روح مقاومة . لذلك لم يثور الأقباط إلا إذا ثار مواطنيهم المسلمين ، وسرعان ما كانوا يخضعون إذا ما ترك المسلمون القتال . ولا يجوز اعتبار ثورة البشموريين استثناء ذلك لأن هؤلاء القوم من أصل يونانى ، كما بيناه سالفاً .

وقد امتاز العرب ، سواء عن قصد أو عن غير قصد ، بعدم تعجلهم للأمور . فقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام وإدماجهم فى المجموعة الإسلامية بفضل إعفائهم من الضرائب . أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية ، فقد يسر لهم العرب سبل كسب العيش سواء عن ضعف أو عن عدم مبالاة ، إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة .

وقد تمكن الأقباط ، على الرغم من الاضطهادات العديدة التى تعرضوا لها ، أن يعيدوا بسرعة تكوين ثروتهم ، ونادراً ما كانوا يصرحون بعدم استطاعتهم دفع ضريبة استثنائية جديدة . من العجب حقاً أن يكتشف الأمير صرغتميش ، بعد اضطهاد الأقباط وفرض الضرائب عليهم ، أنهم ما زالوا يملكون أكثر من خمسة وعشرين ألف فدان ، فيبادر إلى مصادرتها بدون مبرر .

لذلك لم يتردد المستشرقون بيكر وفييت وغيرهما فى أن يصرحوا بأن تاريخ كنيسة مصر تحت الحكم الإسلامى ما هو إلا تاريخ خلاف حول المسألة المالية ، وأن حب المال كان دائماً من أبرز خطايا الكنيسة القبطية .

* * *

والآن ، وقد سردنا الحوادث بكل جرأة وبقصد خدمة الحقيقة وحدها ، نتساءل كيف يبدو لنا تطور العلاقات بين المسلمين والأقباط فى المستقبل . هل يجب أن ننظر إليه بعين التفاؤل أو بعين التشاؤم ؟ هل يجب أن يحتمى القبطى بضمانات قانونية ليعيش بين الأغلبية ؟

قد نجد أحسن رد على هذه الأسئلة فى محاضر اللجنة التى كلفت بوضع مشروع دستور مصر المستقلة . ففى عام ١٩٢٢ ، ارتفعت بعض الأصوات تطالب بالإبقاء على الأوضاع الخاصة التى تنص عليها لائحة عام ١٩١٣ السياسية . فقام أحد الأعضاء ، وهو عبد الحميد بدوى باشا ، القاضى فى محكمة العدل الدولية فى لاهاى فى أيامنا هذه ، وقال : « لئن كانت الأقليات تذكر الماضى البعيد وما كان يقع عليها من المظالم والمغارم ، فلقد كانت الأكثرية والأقلية تعيشان فى ظل حكومة استبدادية تظلم فيها الأكثرية كما تظلم الأقلية . ولسنا نريد أو نفكر فى نظامنا الحديث أن نحيي آثار التاريخ القديم .

« إن الفارق الدينى أخذ يضعف حتى عندنا ، ولن يطول عليه الزمن حتى ينمحى فى علاقاتنا الاجتماعية وتعفى تماماً جميع آثاره . . . فيجب أن لا نستبقى شبح هذا الخلاف محسوساً ، ماثلا للعيان .

« هذه المسألة ، أخشى منها كثيراً فى عصر قلت فيه مظاهر التفرقة الدينية وأصبح العامل الذى يربط بين الناس فى حياتهم الاجتماعية هو عامل المصلحة المشتركة بغير نظر إلى مذهب ولا دين . وإنى لأتمنى أن أرى اليوم الذى يجمع كل أسباب مرافقنا حتى فى الزواج والطلاق وما إلى ذلك من أحوالنا الشخصية تحت نظام واحد بحيث نعيش جميعاً فى ظل حياة مدنية محكمة منظمة .

« نريد سياسة قومية خالصة ، لا تلتفت فى طريقها النبيل إلى الأديان والمذاهب ، ولكنها تتجه دائماً إلى مصلحة الوطن . »

إننا حقاً نجتاز فترة انتقال فى طريقها إلى الزوال . ويتعارض فيها تياران مختلفان : يريد بعض رجال الفكر — وقد استوحوا أحداث الماضى — اعتبار مصر كأنها لم تتطور ؛ ويرى البعض الآخر أن المدنية الحديثة ستمحو

كل أثر للماضى ، ولذا فهم لم يعودوا يقبلون أن يحافظ قانون أو عرف على عقلية أصبحت فى نظرهم قديمة .

لقد اختارت مصر الحديثة طريقها عند ما وضعت دستور عام ١٩٢٢ . فلندعها إذن تواصل تجربتها الدقيقة . والنتائج التى سنشاهدها هى أفصح من التخمينات السابقة لأوانها .

المراجع

لم نذكر تحت هذا العنوان إلا الكتب التى اطلعنا عليها واستقينا منها بعض المعلومات .

ا ـ المصادر القديمة

(١) المصادر الإسلامية

القرآن

صحيح البخارى

كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم . نشره تشارلس تورى عام ١٩٢٢

كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ، نشره دى جوييه عام ١٨٦٦

كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندى . نشره ريفون جيست عام ١٩١٢

تاريخ الطبرى ، طبعة ليدن عام ١٨٧٩ ـ ١٩٠١

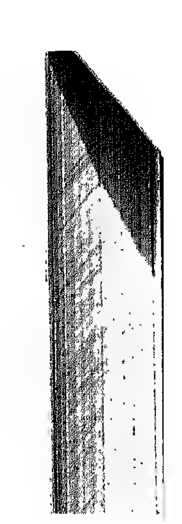
كتاب الخراج لأبى يوسف . طبعة بولاق

سيرة أحمد بن طولون للبلوى . نشرها محمد كرد على عام ١٣٥٨ هـ

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى . طبع ليدن عام ١٩٠٨

مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ للمسعودى . طبع مصر عام ١٣٤٦ هـ

النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، طبع دار الكتب المصرية وطبعة كليفورنيا .



الكامل فى التاريخ لابن الأثير . طبعة مصر عام ١٣٤٨ ه
البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير . طبع القاهرة ، مطبعة السعادة
مقدمة ابن خلدون . طبع بولاق
كتاب صبح الأعشى للقلقشندى . طبع دار الكتب المصرية ، عام ١٣٣٧ ه (١٩١٨ م)
قانون ديوان الرسائل لابن الصيرفى ، طبع مصر ، مطبعة الواعظ ، ١٩٠٥
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى ، ترجمة جود فروا ديمومبين (جزء أول)
المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى . طبع بولاق ١٢٧٢ ه
كتاب السلوك فى معرفة الملوك للمقريزى . طبع دار الكتب المصرية (جزء أول)
تاريخ مرعى بن يوسف الحنبلى . ترجمه إلى الفرنسية فانتور دى بارادى ونشره جالياردو بك فى «مجلة مصر»
التبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى . طبع بولاق ١٣١٥ ه
تاريخ مصر لابن إياس ، طبع بولاق ١٣١١ ه
تاريخ السلاطين المماليك . نشره «زيتر شتين» عام ١٩١٩
رحلة ابن جبير . نشرها وليم رايت ودى جوييه . طبع ليدن
رحلة نصيرى خسرو . نشرها شارل شيفر . طبع باريس ١٨٨١

(٢) المصادر المسيحية

تاريخ حنا النقيوسى . ترجمه من اللغة الأثيوبية زوتنبرج ونشره فى مجموعة «محفوظات دار الكتب الفرنسية» (جزء ٢٤) .

سيرة الآباء البطاركة لساويرس ابن المقفع . نشره سيبولد ، طبع بيروت
عام ١٩٠٤

تاريخ سعيد بن بطريق . نشره الأب شيخو . طبع بيروت ١٩٠٩

تاريخ سعيد بن يحيى الأنطاكى (تابع تاريخ سعيد بن بطريق)

تاريخ بطرس شاكر بن الراهب ، نشره الأب شيخو ، طبع بيروت ١٩٠٣ .

تاريخ ميخائيل السورى ، ترجمه « شابو » من اللغة السريانية .
طبع باريس عام ١٩٠٥

التاريخ الإسلامى لجورج ماكين . ترجمه بيير فاتييه ، طبع باريس
عام ١٦٥٢

كتاب الأعوان لمحبوب فى سيرة الآباء البطاركة (Patrologie orientale)
(جزء سابع) .

تاريخ السلاطين المماليك لمفضل بن أبى الفضائل ، نفس المصدر

حياة إسحق بطريرك الإسكندرية ، نفس المصدر (جزء ١١)

تاريخ أبو صالح الأرمنى . ترجمه إلى الإنجليزية ت . ا . إيفتس ،
طبع أوكسفورد عام ١٨٩٥

السينكسار اليعقوبى . نشره رينيه باسيه فى سيرة الآباء البطاركة

مقتطفات قبطية لتأريخ فتح العرب لمصر . اميلينو فى الجريدة
الأسيوية الفرنسية (نوفمبر وديسمبر ١٨٨٨)

وثيقتان قبطيتان محررتان تحت الحكم العربى . نشرها اميلينو فى مجلة
المجمع العلمى المصرى عام ١٨٨٥

وثيقة قبطية من القرن الثامن عشر . نشرها اميلينو فى الجريدة الأسيوية
(فبراير ومارس ١٨٨٧)

وثائق نشرها الأستاذ حبيب الزيات وعلق عليها فى مجلة المشرق

المؤرخون الشرقيون للحروب الصليبية . طبع باريس (٦ أجزاء)

ب – المصادر الحديثة

(١) المصادر الرسمية

مخطوطات قصر عابدين (تركية وأوربية وعربية)
ا . جروهمان ، أوراق البردى المودعة دار الكتب المصرية . طبع دار الكتب ١٩٣٤ – ٣٨ (٣ أجزاء)
جورج طلياس ، مجموعة مراسلات محمد على ، خديو مصر (بالفرنسية) . طبع القاهرة عام ١٩١٣
مضابط لجنة مشروع الدستور المصرى ، طبع القاهرة
وثائق رسمية خاصة بالحملة الفرنسية
تقارير اللورد كرومر والسير الدون جورست (النسخة العربية)

(٢) دوائر المعارف والقراميس

دائرة المعارف الإسلامية . طبع ليدن عام ١٩٢٧ تحت إشراف بعض المستشرقين
دون كابرول ، قاموس الآثار والطقوس الدينية . مادة « الأقباط »
قاموس « تريفو »

(٣) المجلات العلمية والدوريات

المشرق (بيروت)
مجلة المجمع العلمى المصرى
الجريدة الأسيوية الفرنسية
مجلة الجمعية الملكية للآثار القبطية بمصر

مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بمصر
مجلة البحوث الإسلامية (بالفرنسية)
مجلة « أرض الإسلام (بالفرنسية)
جريدة « مصر « القبطية

(٤) المصادر الشرقية

الخطط الجديدة التوفيقية لعلى مبارك باشا . طبع بولاق ١٨٨٩ .
تاريخ الجبرتى . طبع بولاق
تاريخ الحملة الفرنسية لنقولا ترك ، طبع المكتبة الخاصة بجلالة الملك فاروق الأول
رسالة التوحيد لمحمد عبده
فتح مصر والإسكندرية لمحمود عكوش ، طبع القاهرة عام ١٩٤١
الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل باشا ، طبع القاهرة عام ١٣٦٤ هـ
فتح مصر الحديثة أو نابليون بونابرت فى مصر ، طبع بولاق
مذكرات قلينى فهمى باشا . طبع مصر (جزءان)
تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم بك . طبع القاهرة (أربعة أجزاء)
بلاد العرب والشرق الأدنى لسليمان حزين . طبع الجمعية الجغرافية الملكية المصرية ، ١٩٤٢
الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ لشفيق غربال بك ، طبع القاهرة عام ١٩٣٢

(٥) المصادر الأجنبية .

AMELINEAU (E.), *Géographie de l'Egypte à l'époque copte.* Paris, 1893. XXXVIII + 638 pp. in-4°.

BUTLER, (A.J.), *The Arab conquest of Egypt and the thirty years of Roman Dominion.* Oxford, 1902. — XXII + 653 pp. in-8°. Maps.

BUTCHER (E.L.), *The Story of the Church of Egypt.* London, 1897. — 2 vol. in-12°.

(BEMELEN), *L'Egypte et l'Europe*, par un ancien juge mixte. Leiden, Brill., 1882. — 344, 787 pp. in-8°.

BLUNT, W.S., *Secret History of the English occupation of Egypt.* London, 19071—XII+606 pp. in-8°. Edit. arabe par Ahmad Hafez Awad.

BOWRING (John), *Report on Egypt and Candia, addressed to the R.H. Viscount Palmerston.* London, 1840. 236 pp. in-4°.

CAETANI (Leone), *Annali dell' Islam.* Milano, Hoepli. 10 vo. in-4°.

CHAMPOLLION-FIGEAC (J.-J.), *Egypte ancienne*, Coll. "L'Univers Pittoresque". Paris, 1876. in-8°.

CROMER (Lord), *Modern Egypt.* London, 1908. — 2 vol. 594 + 600 pp. in-8°.

CLOT Bey, A.-B., *Aperçu général de l'Egypte.* Paris, 1840. 2 vol. 360, 570 pp. in-8°.

id., *Mémoires inédits*, de A.-B. Clot Bey. — Publications de la Bibliothèque Privée de S.M. Farouk 1er, Roi d'Égypte, Le Caire, 1950.

CHARLES-ROUX (François), *Le projet français de conquête de l'Egypte sous Louis XVI.* Mémoires de l'Institut d'Égypte, Tome XIV.

id., *Bonaparte, Gouverneur d'Egypte.* Paris, Plon, 1936. — 383 pp. in-8°.

DUSCHENE (Mgr.), *L'Eglise au VIe siècle.* Paris, De Boccard, 1925. in-8°.

DEVONSHIRE, H., *L'Egypte musulmane et les fondateurs de ses monuments.* Paris, Maisonneuve, 1926. — 163 pp. in-8°.

DOUIN (Georges), *L'Egypte indépendante* (*projet de* 1801). Le Caire, Société Royale de Géographie, 1924. gr. in-8°.

id., *L'Egypte, de* 1802 *à* 1804. *Correspondance des consuls de France en Egypte*. Le Caire, S.R.G.E., 1925.

— & Fawtier-Jones, *L'Angleterre et l'Egypte* (1801-1803). Le Caire, S.R.G.E., 1929.

DOR (E.), *L'instruction publique en Egypte*. Paris, 1872. 11 + 399 pp. in-8°.

FOWLER (Montague), *Christian Egypt; past, present, and future*. London, 1901. — XIV + 319 pp. in-8°.

GOEJE (J. de), *Mémoires sur la conquête de la Syrie*. Leiden, Brill. 1900. — 176 pp. in-8°.

GROUSSET (René), *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*. Paris, Plon, 1934-36. 3 vol. gr. in-8°.

GROHMANN (Adolf), *Aperçu de Papyrologie arabe*. Publié dans les "Etudes de Papyrologie" de la Société Royale Egyptienne de Papyrologie. Le Caire, 1932. gr. in-8°.

HAMONT (N.), *L'Egypte sous Mémémet Ali*. Paris, 1845. 2 vol. in-8°.

HEYD (W.), *Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age*. Publié par Farcy Raynaud. Leipzig, Harrassowitz, 1923. — 2 vol. gr. in-8°.

HOMSY (Gaston), *Le général Jacob et L'expédition de Bonaparte en Egypte* (1798-1801). Marseille, 1921. — 147 pp. in-8°.

HARCOURT (Duc d'), *L'Egypte et les Egyptiens*, Paris, 1893. — XI + 305 pp. in-12°.

JAUNA (Dominique), *Histoire générale des Royaumes de Chypre, de Jérusalem, d'Arménie et d'Egypte comprenant les Croisades et les faits les plus mémorables de l'Empire ottoman, avec plus d'exactitude qu'aucun auteur moderne les a encore rapportés*. Leide, Murray, 1785. 2 vol. 1439 pp. in-4°.

KAMMERER (A.), *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité. Essai d'histoire et de géographie historique*. Publication de la Société Royale de Géographie d'Egypte. Le Caire.

LEFEBVRE (Gustave), *Recueil des Inscriptions grecque-chrétiennes d'Egypte*. Le Caire, Service des Antiquités d'Égypte. in-4°.

LANE (Edward W.), *An account of the manners and customs of the Modern Egyptians*. London, 1871. in-8°. (Il existe de très nombreuses éditions de cet ouvrage).

LANE-POOLE (Stanley), *The Story of Cairo*. London, Dent. in-12°.

LEEDER (S.H.), *Modern sons of the Pharaohs*. London, 1918. — XVI + 355 pp. in-8°.

LAS CASES, *Mémorial de Sainte-Hélène*.

MAILLET (Benoit de), *Description de l'Egypte*, publiée par l'Abbé Le Mascrier. Paris., 1735. — 328 + 242 pp. pet. in-4°.

MERRAU (Paul), *L'Egypte contemporaine, de Mémémet-Ali à Said Pacha*. Pairs, Didier, 1858. — LI + 366 pp. in-8°.

MARCEL (J.-J.), *L'Egypte arabe*, publiée dans la collection "L'Univers Pittoresque". Paris, 1872. in-8°.

MICHAUD, *Histoire des Croisades*. Paris (6e édit.) en 4 vol. in-8°.

MASPERO (Jean), *Histoire des Patriarches d'Alexandrie, depuis la mort de l'Empereur Anastase jusqu'à la réconciliation des églises jacobites* (518-616). — Ouvrage revu et publié, après la mort de l'auteur, par le Rev. Ad. FORTESCUE et Gaston WIET. Paris, 1923. gr. in-8°.

id., *L'organisation militaire de l'Egypte byzantine*. Paris, Champion, 1912, (Bibliothèque de l'Ecole des Hautes-Etudes n°. 201. 157 pp. in-8°.

PATON (Andrew Archibald), *A history of the Egyptian Revolution from the period of the Mamelukes to the death of Mohammed Ali*. London, 1870. 2 vol. in-8°.

QUATREMERE, (Etienne), *Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines*. Paris, 1811. 2 vol. in-8°.

id., *Recherches critiques et historiques sur la langue et la littérature de l'Egypte*. Paris, 1808. — 12 + 307 pp. in-8°.

RICHARDOT (Lt.-Col.), *Nouveaux mémoires sur l'Armée Française en Egypte et en Syrie, ou La vérité mise à jour*. Paris, Corréard, 1848. — 480 pp. in-8°. Plans.

RIGAULT (Georges), *Le général Abdallah Menou et la dernière phase de l'Expédition d'Egypte* (1799-801). Paris, Plon, 1911. — XX + 403 pp. in-8°.

RENAUDOT (Abbé E.), *Historia Patriarcharum Alexandrinorum Jacobitarum.* Paris, 1713. — in-8°.

ROUILLARD (Germaine), *L'Administration civile de l'Egypte byzantine.* Paris, Geuthner, 1928 (2e édit.). XV + 268 pp. in-8°.

RHYME (Amédée), *L'Egypte française.* Coll. "L'Univers Pittoresque" in-8°.

REINAUD, *Notice sur la vie de Saladin, Sultan d'Egypte et de Syrie.* Paris, Dondey-Dupré, 1824. — 41 pp. in-8°.

SACY (Sylvestre de), *Trois mémoires sur la nature et les révolutions du droit de propriété territoriale en Egypte, depuis la conquête de ce pays par les musulmans jusqu'à l'expédition des Français.* Public. de "l'Institut français d'Archéologie Orientale", Bibliot. des Arabisants.

id., *Exposé de la Religion des Druzes, tiré des livres religieux de cette secte, et précédé d'une Introduction et de la vie du Khalife Hakim bi amr Illah.* Paris, Imprimerie Royale, 1838. 2 vol. in-8°.

SCHMIDT (C.), *Zeitschrift.* T. XXXII.

SCHULTZE, *Geschichte des Utergangs des Griechench-Romanischen Heidentums.*

SACHOT (C.), *Rapport adressé à S.E. M. Victor Duruy, ministre de l'Instruction Publique, sur l'état des sciences, des lettres et de l'instruction publique en Egypte.* Paris, 1er juin 1869 (dactylographié).

SIDAROUS (Sésostris), *Des Patriarcats. — Les Patriarcats dans l'Empire ottoman et spécialement en Egypte.* Paris, Rousseau, 1907. — XVI + 535 pp. gr. in-8°.

THIBAUDEAU (A.-C.), *Histoire de la Campagne d'Egypte sous le règne de Napoléon le Grand.* Paris, Huzard, 1839. 2 vol. in-8°.

TEWFIK HABIB, *Souvenir du Premier Congrès Copte.* Le Caire, 367pp. in-8° (en arabe).

WIET (Gaston), *L'Egypte arabe*, dans "Précis de l'Histoire d'Egypte" T. II in-8°; dans "Histoire de la Nation Egyptienne", T. IV, in-4°; "Les Mosquées du Caire", ouvrage publié avec la collaboration de Louis Hautecoeur, in-4°.

Choix de Lettres édifiantes, écrites des missions étrangères; précédé de tableaux géographiques, historiques, politiques, religieux et littéraires des pays de Mission. Tome V, Missions du Levant: Syrie, Egypte, Ethiopie. Paris, Sté. Bibliophile, 1837 (3e édit.). in-8°.

A project of an Egyptian Constitution. 1908; in-8°.
Projet de Réformes présenté à S.A. Tewfik Pacha par la Jeunesse Egyptienne. (Addenda).

DESCRIPTION DE L'EGYPTE (par les Savants de l'Expédition), 2e édit.

f) *Les voyageurs orientaux.*

Ibn Jobeir, *Travels*, edited by Williams WRIGHT; Second edit. by J. de GOEJE. Leyden, Brill, 1907. — 53 + 363 p. gr. in-8°.

NASSIRI KHOSRAU, *Sefer Nameh. — Relation du Voyage de... en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse pendant les années* 437-444 (1035-1042). Publié, traduit et annoté par Charles Scheffer. Paris, Leroux, 1881. — LVII + 348 + 97 p. pet. in-4°.

g) *Voyageurs étrangers.*

BELLOC (J.T.), *Le pays des Pharaons.* Paris, 1800. — IV + 416. in-8°.

BRUCE (James), *Voyage aux sources du Nil, en Nubie, et en Abyssinie pendant les années* 1768-1772. Traduction française. Paris, 1790. 9 vol. in-8°.

CHARMES (Gabriel), *Cinq mois au Caire et dans la Basse Egypte.* Paris, 1880. — 368pp. in-12°.

DENON (Vivant), *Voyage dans la Basse et la Haute Egypte, pendant les campagnes du général Bonaparte.* Paris, 1802. — 3 vol. in-12°.

DIDIER (Charles), *Les Nuits du Caire.* Paris, 1860. — VIII + 502 pp. in-12°.

DUFF-GORDON (Lucie), *Lettres d'Egypte* (traduction française). Paris. XX + 316 pp. in-12°.

DURBIN (John P.), *Observations in the East, chiefly in Egypt. Palestine, Syria and Asia Minor.* New-York, 1860. 2 vol. in-8°.

GERAMB (Marie Joseph de), *Pélerinage en Syrie et en Egypte.* Paris· 3 vol- in-12°

ISAMBERT (Emile), *Itinéraire descriptif, historique et archéologique. Orient.* Paris, Hachette & Cie., 1881-2. Paris, in-12°.

MALOSSE (Louis), *Impressions d'Egypte.* Paris, 1896. — 357 pp in-12°.

NIEBUHR, *Voyage en Arabie et en d'autres pays de l'Orient,* avec l'extrait de la description de l'Arabie et des observations de Mr. Forskal. Trad. franç., Suisse, 1780. 2 vol. in-8°.

NORDEN (Frederik Ludwig), *Voyage d'Egypte et de Nubie.* Copenhague, 1755. 2 vol. CXXXVII + 288 pp. in-fol.

MICHAUD ET POUJOULAT, *Correspondance d'Orient* (1830-31). Paris, 1835. 9 vol. in-8°.

RIFAUD (J.J.), *Tableau de l'Egypte et de lo Nubie et des lieux circonvoisins; ou Itinéraire à l'usage des voyageurs qui visitent ces contrées.* Paris, 1830. — XVI + 379, 60 pp. in-8°.

SAVARY, *Lettres sur l'Egypte.* Paris, 1775-6. — 3 vol. in-8°.

SAINT-JOHN (James-Augustus), *Egypt and Mohammed Ali, or Travels in the Valley of the Nile.* London, 1834. — 2 vol. in-8°.

SONNINI (C.S.), *Voyage du Levant.* Bruxelles, 1662. — 508 pp. in-16°.

THEVENOT, *Relation d'un Voyage fait au Levant.* Paris, Th. Jolly, 1665. — 576 pp. in-8°.

VANSLEB, *Nouvelle relation d'un voyage fait en Egypte en* 1672-3. Paris, 1677. — 423 pp. in-12°.

Journal of a Deputation sent to the East by the Committee of the Malta Protestant College in 1849. 2 vol. in-8° London, Nisbet, 1854.

